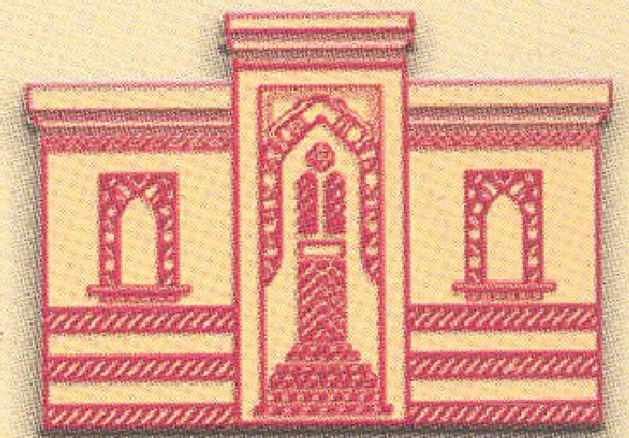


تراث

قاسم أمين



المصريون
أسباب ونتائج
أخلاق ومواعظ

تحرير المرأة
المرأة الجديدة
كلمات

تقديم
د. محمد صابر عرب

إعداد
عبد المنعم محمد سعيد

تــراث

قاســم أميــن

دار الكتب والوثائق القومية

تراث
قاسم أمين

المصريون — تحرير المرأة

أسباب ونتائج — المرأة الجديدة

أخلاق ومواعظ — كلمات

تقديم

د. محمد صابر عرب

إعداد

عبد المنعم محمد سعيد

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

سعيد، عبد المنعم محمد .
تراث قاسم أمين/ إعداد عبد المنعم محمد سعيد؛
تقديم محمد صابر عرب. ـ القاهرة : مطبعة دار الكتب
والوثائق القومية، 2008.
688 ص؛ 24 سم.-
تدمك 3 - 0570 - 18 - 977.
١ - المصلحون الاجتماعيون ٢ - الأدباء العرب
٣ - أمين، قاسم بن محمد أمين المصرى، ١٨٦٥ - ١٩٠٨
أ - عرب، محمد صابر (مقدم) ب - العنوان.

٣٦١,٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٨/١٤٤٦٩

I.S.B.N. 977 - 18 - 0570 - 3

على سبيل التقديم..

لقد جنى المصريون مع نهايات القرن التاسع عشر حصادا فكرياً وثقافياً واجتماعياً، فلقد كان مشروع بناء الدولة الحديثة فى عصر محمد على وما نجم عنه من تعليم المصريين تعليماً حديثاً، سواء فى مصر أو خارجها. وصولاً إلى عصر إسماعيل ومحاولته نقل التجربة الفرنسية، وخصوصاً في شقها الاجتماعى والثقافى، كل ذلك قد أفرز نخبة ثقافية، لم تتجاوز مدينة القاهرة -غالبًا- ولكن آثارها امتدت فى طول البلاد وعرضها مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين من خلال وسائل النشر التى كانت متاحة وقتئذ.

واللافت للنظر أن الجماعة السياسية وهى تطرح رؤاها فى قضية الاستقلال قد اختلفت حول الوسائل، فبينما كان مصطفى كامل وجماعته من دعاة الاستقلال فى إطار السيادة العثمانية، كانت هناك جماعة سياسية أخرى أقل جماهيرية من جماعة مصطفى كامل، لكن مشروعها كان أكثر استنارة وأعظم تأثيرا على المدى الطويل، وقد تميز بالعناية بالثقافة والتعليم واكتساب خبرات المحتل بطريقة لا تتعجل التصادم معه ومعظم هذه الجماعة قد تأثرت كثيراً بالثقافة الغربية، لكنها لم تتخل أبدا عن المحافظة على ثقافتها العربية والإسلامية، وكان فى طليعة هؤلاء أحمد لطفى السيد، وقاسم أمين، والدكتور هيكل، وطه حسين وغيرهم كثيرون.

الملاحظ على هذه الجماعة أيضًا أنها كانت أكثر ارتباطًا بواقعها المصرى رغم انتمائها اجتماعيا لطبقة كبار ملاك الأراضى

الزراعيـة، كمـا أنهـا قـد ارتبطت بالإدارة البـريطانيـة إيمـانا منهـا بأن مقاومة الاحتلال لا تقتصر على الجوانب السياسية فقط، بل إن العناية بالتعليم وشيوع الثقافة بمعناها الواسع والارتقاء بالمستوي الاجتماعى لغالبيـة المصريين هى الوسائل العملية للحصول على الاستقلال.

لقد كان قاسم أمين واحداً من هذه الكوكبة الكبيرة لكنه تميز عليها بشجاعته وإيمانه بالتعبير عما يعتقد به، فقد كانت معظم هذه الجماعة من دعاة فكر قاسم أمين سواء فيما يتعلق بقضايا المرأة تحديدا أو بقضايا المجتمع عموما.

وعلى ما يبدو فإن الشيخ محمد عبده كان بمثابة المرجعية الفقهية والشرعية فى كثير من أراء قاسم أمين وخصوصا قضايا مثل التعدد، التى وضع لها الإمام ضوابط شديدة أوشكت علي أن تدخل فى باب المحظورات، على اعتبار أن شرط العدل بين الزوجات قضية يصعب تحقيقها لأسباب؛ إنسانية وعاطفية خالصة.

اعتقد أن كثيرا من أراء قاسم أمين كانت موضع حوار متصل مع الإمام. لكن ليس صحيحا ما قال به البعض من أن الإمام نفسه هو صاحب الفكرة كلها، أو ما قال به بعض غلاة التطرف من أن كرومر كان وراء الفكرة. فمن الثابت أن قاسم أمين وغيره من تلاميذ الإمام كانوا يجتمعون به ويتحاورون معه فى القضايا الكبيرة من قبيل محاولة معرفة الأسباب الحقيقية لضعف المسلمين وسر تخلفهم، وانتشار البدع والخرافات بينهم، كما أن شخصية قاسم أمين واعتداده بنفسه وإيمانه بالتعبير عما يقول به، كل ذلك يؤكد استحالة أن تكون آراؤه تعبيراً عن أراء الآخرين، حتى ولو كانت أراء أستاذه محمد عبده.

لقـد كـان قـاسم أمـين اسـتـثناءً وسط الجـمـاعـة الثـقـافـيـة والسياسية، وخصوصًا فيما يتعلق بقضية المرأة التي أفرد لها كتابين شهيرين: «تحرير المرأة»، و «المرأة الجديدة» ، ولم يلتفت قادحوه إلى عملين آخرين «المصريون» ردًا على دوق داركور ١٨٩٤ و«أسباب ونتائج» ١٨٩٨، والكتاب الأول كتبه بالفرنسية ليقرأه الفرنسيون ردًا على الإساءات البالغة التى ألصقها داركور بالمصريين وبعقيدتهم الدينية وبعاداتهم التى رآها نتيجة طبيعية للإسلام. وقد جاءت آراء قاسم أمين فى هذا الكتاب بمثابة حوار حضارى رائع دافع فيه عن الإسلام دفاعًا لم يكن بإمكان أحد من الذين أهالو عليه التراب أن يقوم به، وقد كان موضوعًا رئيسيًا فى معظم الصحف الفرنسية وقتئذ حتى فيما جاء بكتاب داركور عن تعدد الزوجات عند المسلمين، وقد جاء رد قاسم أمين غاية فى الروعة تحليلاً وتحقيقًا ووعيًا فيما يتعلق بالحكمة من تعدد الزوجات التى جعلها الإسلام استثناء حينما اشترط العدالة، التى أكد القرآن الكريم أنها لن تتحقق ﴿وَلَنْ تَعْدِلُوا﴾ وهو نفس الرأى الذى قال به محمد عبده.

وإذا كان الإسلام قد قيد التعدد رغم إباحته؛ فقد قيد أيضًا الطلاق حينما جعله أبغض الأشياء، لكنه أباحه لنفس الضرورة أيضًا.

لقد قامت الدنيا ولم تقعد حينما نشر قاسم أمين كتابه: «تحرير المرأة»، فلقد انتزع مهاجموه جملاً منزوعة من سياقها واستنطقوا من التراث ما يعد دخيلاً على الإسلام وروحه الصافية، وراحوا يهاجمون الرجل بكل قسوة بحجة الدفاع عن الإسلام، الذى لم يكن فى حاجة

إلى دفاعهم، فالقرآن يدافع عن نفسه من خلال عشرات الآيات القاطعة بالحث على الحوار بالتى هى أحسن، والنهى عن البحث عما فى صدور الناس، ومحاولة استنطاق ما علق بالتراث من آراء ضعيفة وفتاوى دخيلة، والابتعاد عن الإجابة عن الأسئلة الحاكمة من قبيل البحث عن سر تخلف المسلمين.

لقد كان قاسم أمين على وعى كامل بجوهر الإسلام فى أصوله الصافية، وهو شىء مغاير لحال المسلمين، وقد اعتقد بأن ثمة عوامل كثيرة وراء تخلف المسلمين، فى مقدمتها افتقاد المجتمع إلى دور المرأة المتعلمة باعتبارها الأساس لإعداد جيل ينهض بالأمة من كبوتها وتخلفها.

لقد راح يسوق من التاريخ الإسلامى صفحات مضيئة للمرأة المسلمة التى شاركت الرجل فى كل مناحى الحياة، فهى راوية الحديث، ومسئولة عن ذمتها المالية، ومشاركة فى القتال خلف الرجل تعضده وتقوى من أزره، بينما واقعها مع نهاية القرن التاسع عشر كان مأساويًا من بيت زوجها أو أهلها إلى القبر.

لم يكن قاسم أمين فى كل مقال بعيدًا عن الإسلام روحًا ومصلحة، حتى عقد الزواج الذى عرَّفه الفقهاء بأنه: "عقد يملك به الرجل بضع امرأة" بينما القرآن الكريم قد جعله سكينه ومودة ورحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم٢١] وشتان بين مفهوم القرآن الكريم للزواج، ومفهوم الفقهاء بشأن الزواج. إنه فى ثقافة الفقهاء علاقة

مـادية مـحضـة، بينـما هو بنص القرآن علاقـة قـوامـها الـمودة والرحـمـة والـمـشـاركـة، لم يقل قـاسم أمـين بمنـع التـعـدد، بل أكـد أن الإسـلام قـد أباحـه كـسـائـر أنواع الـحـلال الـذى تعـتـريه الأحكام الشـرعـيـة من الـمنـع والكراهة وفق ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح.

لقـد لاحظ قـاسم أمـين كثـرة الطلاق ومـا يـنـجم عنه فى أحـيـان كثيرة مـن تشـريـد لـلأبنـاء وانهـيار لكيـان الأسرة، وقـد أخـذ على الـفـقـهـاء أنهـم يـتـسـاهلون فى هـذه الـقـضـيـة رغـم خـطـورتها حـيـنمـا يـفـتـون بأن مـجـرد تـلـفـظ الزوج بـحـروف الطلاق، حـتـى وإن لـم يكن الـقـصـد هـو الطلاق بمعناه الحقيقى، يقع الطلاق فعلاً.

لقـد كـان الرجـل علـى وعـى كـامـل بـروح الإسـلام وفلـسـفـتـه بشـأن قـضـيـة خطيـرة كهذه، فـالطلاق عمـل يقـصـد بـه رفـع قـيـد الزواج، وهـذا يسـتـوجـب حـتـمـاً وجـود نـيـة حـقـيـقـيـة وأن إطلاق الـحـريـة لـلـزوج فـى الطلاق مـهـمـا كـان الـزوج عـابـثـاً أو غـاضـبـاً أمـر يهـدد كـيـان الأسـرة والـمـجـتـمـع. وقـد يـكـون الطلاق أمـام الـقـاضـى فـرصـة لـلـتـوفـيـق بين الـزوجـين حـفـاظـاً على كيان الأسرة.

لقـد جـاءت كـتـابات قـاسم أمـين فى مـجـملها بمـثـابـة ثـورة فكرية واجتماعية تملّك صاحبها صراحة فى القول وشجاعة فى التعبير عما كـان يؤمن به فى العـديد من الـقـضـايا الـتى رآها مـيـراثـاً لا عـلاقـة له بجـوهـر الإسلام، وكان واعيا بمخاطر الإعلان عما يعتقد به حينما قـال: « العـار أن نظن فى أنفـسنا الـكمـال وننكر نقـائـصنا، ونـدعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد، وأن نعاند الجميع ».

لعلنا ونحن نعيد نشر تراث قاسم أمين نستهدف أن نتيح للقارئ قراءة كل أعمال الرجل دون إسقاط جوانب منها أو انتزاع جملة من هنا وأخرى من هناك، لكى نقيم حكما يستهدف المصلحة بمعناها الواسع عملاً بالمقولة الفقهية الشهيرة: « يدور الإسلام حيث تدور المصلحة ».

وتأكيداً على أهمية إعادة قراءة فكر قاسم أمين، فقد حرصنا على نشر الطبعات الأولى من أعماله وهى وفق الترتيب الزمنى:

١ـ المصريون « رداً على دوق داركور » (١٨٩٤).

٢ـ أسباب ونتائج وأخلاق مواعظ (١٨٩٨).

٣ـ تحرير المرأة (١٨٩٩).

٤ـ المرأة الجديدة (١٩٠٠).

٥ـ كلمات (١٩٠٨).

إن دار الكتب والوثائق القومية ، وهى تعيد نشر هذه الأعمال فإنها تأمل أن يعيد المجتمع قراءة قاسم أمين، ليس من قبيل الثقافة فقط؛ وإنما من قبيل البحث عن حلول للخروج من مشاكلنا الفكرية والاجتماعية، خصوصاً وقد اختلطت الأوراق والأفكار وبدا المجتمع وكأن عقبات مهولة تحول دون انطلاقه نحو المستقبل.

تقديراً لوطن كان كبيراً وسيبقى..

د.محمد صابر عرب

المصريـون

(الرد على دوق داركور)

بقلم

قاسـم أميـن

كلمة من المترجم

منذ بداية النصف الثانى من القرن الماضى قامت مجادلات صاخبة بين كُتّاب الغرب وكُتاب الشرق، فعندما ألقى «رينان» محاضرة فى جامعة السوربون عن «الإسلام والعلم» سلب فيها الإسلام من كل ميزة علمية، وزعم أن كل العلماء الذين ظهروا كانوا من الفرس أو من النصارى، أو من غير العرب باختصار، رد عليه جمال الدين الافغانى رداً مفحماً تساءل فيه «هل مصدر الشر من الديانة الإسلامية، أم مصدره من أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام؟ واختتم رده بقوله: «إن ماحدث فى الإسلام حدث مثله فى الأديان الأخرى، ولا يزال بعض رؤساء الكنيسة الكاثوليكية يحاربون العلم والفلسفة حتى الآن» . . !

وعندما نشر «هانوتو» هجومه على الإسلام وقارن بين المسيحية وبين الإسلام، ودافع عن نظرية «التثليث» فى النصرانية وزعم بأنها ترفع مرتبة الإنسان وتقربه من الذات الالهية، وهاجم نظرية «التوحيد» فى الإسلام وادعى بأنها تؤدى إلى ضعف الإنسان، وقال بأن المسيحية تدعو إلى حرية إرادة الإنسان فتدفعه الى العمل، فى حين أن عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر تحملهم على الاستكانة والجمود . . عندما نشر هذا الهجوم بادر الشيخ محمد عبده بالرد عليه فى سلسلة مقالات نشرها فى جريدة المؤيد، أظهر فيها أخطاء «هانوتو» فى فهمه للإسلام وفى أنه لم يدع الى

«الجبرية» ، وذكر ما جاء فى القرآن مما يثبت حرية إرادة الإنسان فى أربع وستين آية . . ثم ألف كتابه المشهور عن «الإسلام بين العلم والمدينة» .

ثم جاء الدوق «داركور» ونشر كتابه عن مصر والمصريين وملأه بمزاعم باطلة ومطاعن على الإسلام والمسلمين ، فانبرى له قاسم أمين ورد عليه بكتاب ألفه بالفرنسية اسماه «المصريون» رد فيه على كل ما احتواه من مطاعن ومزاعم تمس الإسلام وتحقر من شأن مصر والمصريين .

اشتهر قاسم على أنه محرر المرأة ، ولكن الكثير لا يعرف شيئًا عن أسرار حياته . . عن اتصاله بجمال الدين الافغانى وعن صداقته لمحمد عبده وعن تاريخه كقاض وعن اشتراكه فى إنشاء الجمعيات الخيرية وعن جهده الكبير فى إنشاء الجامعة المصرية .

ولاشك فى أن الجيل الحالى لا يعرف كثيرا عما لاقى قاسم من عنت واتهام وصل إلى حد أنه تردد فى وقته أن مؤلفاته لم تكن من وضعه ولا بأسلوبه ، وامتد الجدل فى هذه الناحية إلى الوطن العربى كله من مصر إلى العراق إلى الشام . . سيكون هذا كله موضوع كتاب أقوم بالعمل فيه الآن وأرجو أن ألم فيه بكل تلك النواحى ونواح أخرى قد يكون لى بها علم وبتفصيلاتها أكثر ممن تفضلوا وسبقونى بالكتابة عن قاسم وسيرته .

إن أغلب الناس تعرف قاسم على أنه صاحب كتاب «تحرير المرأة» ومؤلف كتاب «المرأة الجديدة» وكتاب «اسباب ونتائج» وقرأوا له بعض كلماته المأثورة التى جمعها ونشرها أستاذ الجيل لطفى السيد فى كتيب صغير تحت عنوان «كلمات

لقاسم أمين» ، ولكن أغلب ظنى أن أحدا لم يطلع على كتابه بالفرنسية فى الرد على الدوق داركور لأنه لم يطبع إلا مرة واحدة ولأنه لم يترجم إلى العربية قبل الآن . .

وأستاذنا الكبير لطفى السيد ، رحمه الله ، هو الذى اوحى إلى بترجمته عندما كنت فى زيارة له قبيل وفاته وقال : لعل فى نشر هذا التراث فائدة تعود على قراء الجيل الجديد لما فيها من إسوة صالحة من سلف صالح .

قاسم أمين
الحفيد

المقدمــة

فى هذه السطور القليلة رد مختصر على الأفكار التى سجلها الدوق داركور عن المصريين.. ولم استطع نقل كل التفصيلات المضللة التى وردت فى كتابه لأن هذا للأسف يتطلب وقتا. وحتى إذا وجدته فإنى لن أستطيع إلا أن أضع تفسيرات على هامش كتابه. وإنى حريص أن أفند القواعد العامة التى أراد بها تفسير ما أورده من وقائع. ولا يهمنى أن تكون بلادى الآن فى حالة تأخر، فكما مرت أوربا بهذا التأخر فمصر أيضا سوف تمر به، ولكن الذى لا أقره عليه هو قوله: «بأنه مقضى علينا بأن نستمر ولن نخرج من هذه الحالة المنحطة أبدا». وإننى وأنا أعترف بالعيوب سأحاول أن أجد لها تفسيرا ومبررا.

وأطلب المعذرة من إخوانى الأوربيين إذا كنت قد هاجمتهم فى بعض الأحيان، وإنى أؤكد أن هذا لم يقلل من تقديرى لهم.. ولكن كان يجب على أن أقارن بين العادات فأظهر الحسن منها والسيىء.

وإنى أرجوهم على كل حال ألا ينكروا على حسن النية المطلق، وألا يظنوا إلا أننى ما قلت شيئا إلا وأنا مقتنع به. وأخيرا فإنى أقدم اعتذارى عن عجز يجدونه فى أسلوب الأجنبى الذى لا يطمع فى شىء إلا أن يعبر فى صراحة ووضوح عن أفكاره.

قاسم أمين

المصـرى

إن الفلاح المعاصر، سواء كان مسلما أو قبطيا، له بوجه عام قامة كبيرة وهو قوى وله بنية طيبة ويتمتع بنشاط جسمانى نادر، وهو يرتدى الملابس البسيطة، وغذاؤه ردىء ومسكنه أردأ.. ويقوم بالأعمال الشاقة تحت شمس محرقة بدون تذمر ويكاد يكون راضيا بحظه.. وفى أغلب الأحيان يكون مزاجه معتدلا ويضحك مقهقها لأنه لا يهتم مطلقا بغده.. إن الطموح ينقصه ولايهتم فى التفكير بأن بجانبه أغنياء يأكلون يوميا من أشهر الأطعمة ويلبسون ملابس فاخرة، ويجد أن كل ما يفعله طيب وأن كل شىء على مايرام.. ليس حريصا لا على حب الحرية ولا على الشهامة التى يتميز بها عرب الصحراء ولكنه برغم ذلك ليس جبانا ولا ضعيفا. إن هذا قد يدهشكم.. وإنما إليكم التفسير:

أؤكد أن الفلاح لا يتراجع أمام أى خطر وهمى أو حقيقى، وعندما يهاجم من عصابة مسلحة لايتقهقر، ويستعمل البندقية أو يلعب بالنبوت بكل شجاعة، وهو يبحث عن المغامرات التى يجازف فيها بحياته لأن فى هذا إرضاء لكبريائه.. عندما كنت قاضيا عرفت بعض الأشرار الخطرين الذين ينتمون إلى أسر غنية لم يسلكوا هذا الطريق إلا ليلعبوا بأعمالهم الجريئة. وللفلاح قوة احتمال تجعله يحتمل أقسى ألوان العذاب، ويذهب إلى الموت بإقدام، ولقد رأيت أناسا يموتون وآخرون يحكم عليهم بالإعدام وأغلبهم لم يشك ولم يشعر بأدنى ارتباك حتى آخر لحظة فى حياتهم بل تحكموا فى أنفسهم مثل الرجل الذى يقوم برحلة أعمال ليعود بعض بضعة أيام لأهله.

ليست الجراءة الفعلية هى التى تحملك وتدفعك نحو الخطر وإنما هى محض شجاعة، والأولى لا تختلف كثيرا عن الثانية.

إن الفلاح كثيرا ما يستعمل الأسلحة النارية بكل مهارة، وهم يستعملونها كثيرا فى حفلاتهم.. ولكن شيئا واحدا يخشاه المصرى أكثر من المرض ومن الطلقات النارية وأكثر حتى من الموت.. هذا الشىء هو «السلطة»! نعم.. السلطة.. هى رعب الفلاح، هى التى تجعله يطلق ساقيه للريح عندما يرى طربوشا..! وهى التى تجعله يقبل أية إهانة ويمتثل لكل ظلم دون احتجاج، وهى أيضا التى هيأت للدوق حضور بعض المشاهد المجانية وذلك عندما كان أحد اليونانيين يضرب فلاحا.. ولماذا؟ هل السلطة ترعب إلى هذا الحد؟ إن هذا يبدو فى غاية البساطة، إذ يمكن الاستهتار بالموت لأنه يعلم أنها مسألة دقائق من العذاب النفسى المخيف وتنتهى، ولكنه لا يعلم متى ينتهى، مع ضغط القوة، الجلد أو الضرب الذى يمكن أن يدوم لساعات، والتعذيب قد يمتد لشهور، وكل ثروة المعذب واسرته قد لاتشبع شهوة الموظف.

لقد رأيت بنفسى فلاحين ذاقوا ما يشبه الموت على أيدى يونانيين، والفلاح الذى ضرب بالعصا هو الذى ألقى به فى السجن وهو الذى اقترض بضعة جنيهات لرشوة رجال السلطة. ورأيت أيضا فى بعض الحالات موظفين ضربوا الشاكى والمعتدى بالكرباج وصرفوا الطرفين.. ورأيت بعض الشهود الذين استدعوا للاستدلال بهم فى وقائع يعلمونها يعاملون معاملة سيئة من نهب وسجن لعدة شهور، ورأيت عندما افتتحت المحكمة الجديدة ببنى سويف أكثر من ٢٠٠ معتقل أمرت بالإفراج عنهم فورا، وكان من بينهم أربعة خفراء متهمين بتركهم عاشقين أثناء دوريتهم. وكلنا يعلم الطريقة التى كان يستعملها الخديو إسماعيل لسلب خزائن الفلاحين.. وهى الكرباج فى الصباح وفى الظهر وفى المساء.

وأمام هذه الفظائع وجد الدوق داركور الفرصة للتحدث عن استعداد المصريين لقبول الضرب.. يقول الدوق: إن المصرى لا يدفع الضرائب إلا إذا ضرب. بالهى.. إذا دفع أكثر مما هو مستحق عليه عشر مرات، كيف يدفع إذا لم يجبر؟ ويتهاونون مع الأوربيين إذا صفعوه أو ضربوه بعصا. ولكن بلا شك هذا أفضل عنده من أن يشكى أو يحتج لأنه فى هذه الحالة سوف يتعرض لكل تعسف من الموظفين الفاسدين الذين ينتظرون بفارغ الصبر هذه الضحية الجديدة، فى الوقت الذى يتمتع فيه الأوربى بكل حصانة.

واليوم وبعد أن أنشئت المحاكم الجديدة، بدأ الفلاح يسترد ثقته فى حقوقه ويشعر بأنه فى حماية القانون ونزاهة القضاة، ولذلك أصبح لا يقبل إلا فى النادر مثل تلك الأعمال التعسفية التى ذكرتها. والأوربيون الذين يحتكون اليوم بمصرى قد وعى حقوقه يندهشون لهذا التغيير، وما نشر فى احدى جرائد الإسكندرية من موضوعات تتضمن وصفا لحالة المواطنين المعنوية بطريقة تشرف« النموذج والرسام» كما يقولون. فخير للغربيين أن يكفوا عن الاحتكاك بالمصريين، فهؤلاء لن يقبلوا بعد الآن أية إهانة علنية، ولكنهم مع ذلك سوف يمنحونهم دائما ضيافة مسلمة كريمة.

إن الشعب المصرى هادىء وفى طبيعته الطيبة، وهو ذكى ناصح يعرف كيف يستسيغ كل ما يتعلمه، وإذا كان تحت قيادة حكيمة فلن يحيد مطلقا عن الطريق الصحيح. إن الفلاح برغم كل ما قاله الدوق لا يكره التعليم.. وقد أشار الدوق فى كتابه إلى حكمه يقال أنها تركية: « إذا اراد الله للإنسان أن يقوم بعمل ما يعطيه فى نفس الوقت القدرة على القيام به» .. وهى من وضع مخرف عابث مستهتر.. ليس بمثل هذه المواضيع تكتب المؤلفات ثم تعطى مظهر الكتب التى تحتوى على معلومات ومبادىء إنسانية..!

وفى الحقيقة يكون عبث من جانبى إذا أنا ناقشت مثل هذه الأقوال.. بدلا من أن يسرد وقائع رآها بعينه وبدلا من أن يتحقق من أشياء لمسها بنفسه وحكم عليها بكل قسوة، استند إلى اقاصيص سمعها من السواح غير مضبوطة لا يمكن ضبطها.. وأننى أعلم من خبرتى كيف يؤلف الأوربيون كتبهم.. إن التراجمة هم الذين يقدمون لهم المادة وكلما كانت مرعبة وكاذبة درت عليهم الذهب، وبصرف النظر عن ضمان مثل تلك المادة لنجاح الكتاب.

وإذا كان الدوق قد أهتم بأن يتعرف بنفسه على أحوال رجالنا لكان وجد عكس ماذكره، ولما استبعد رجالنا المتعلمين وخصوصا الذين درسوا فى أوربا وأصبحوا يشغلون المناصب الرفيعة فى حكومتنا.. ولابد أنه كان سيلاحظ درجة المعزة التى يحاطون بها من إخوانهم الذين لا يحتقرون التعليم مطلقا.. والدليل على هذا واضح؛ بالرغم من كون التعليم عندنا ليس إجباريا فإن عدد التلاميذ والمدارس عظيم، ففى الجامع الأزهر يوجد على الأقل ١٥ ألف طالب كلهم تقريبا من أولاد الفلاحين، وفى آخر احصائية قدمها أمين بك سامى ناظر المدرسة الناصرية، اتضح أنه يوجد بمدارسنا الآن ١٥٨,٠٢١ تلميذ من بينهم ١٥٥,١٨٤ تلميذ و٢٨٣٨ تلميذة من الديانة الإسلامية.

حقيقة كان الفلاح فى الماضى يرتدى ملابس الحداد إذا ذهب ابنه إلى المدرسة، ولكنه اليوم عندما أدرك مزايا التعليم تراه يبذل مجهودا كبيرا لتربية أولاده. ولم يسبق قبل هذه السنة بالذات أن من بين الأربعة عشر شابا الذين اتموا دراسة الحقوق فى باريس يوجد ثلاثة من أبناء الفلاحين، وهم أرباب أسر افترقوا عن أولادهم لمدة أربع سنوات وسافروا بعيدا وصرفوا من جيوبهم أكثر من ألف جنيه حبا فى التعليم.. وليس من بينهم من يشبه فى شيء تلك الشخصية التى خلقها وصورها

الدوق. وفى آخر مسابقة أقيمت للموظفين أمام اللجنة الدائمة للامتحانات تقدم أربعة آلاف طالب لشغل وظيفة كاتب فى محافظة.

إن الأغنياء الذين يموتون بدون أن يتركوا جزءا من ثرواتهم للفقراء أو لبناء المدارس قليلون، وكل جامع فى القاهرة أو الأقاليم ملحق به مدرسة، والحكومة تنشر التعليم كل يوم أكثر وأكثر، وتنفق كثيرا على بعثات تعليمية فى مدن أوربا التى يرسل إليها أيضا بعض الأفراد أولادهم على نفقتهم الخاصة ومن بينهم عدد كبير من ابناء الفلاحين.

ألا يعنى كل هذا شيئا فى نظر الدوق؟ هل هذا الميل الجماعى وهذا التعطش للتعليم وهذا المجهود من جانب شعب بائس لينهض ويستعيد مكانته وثقته فى نفسه الا يحرك كل هذا اى قلب حساس؟

ولكنى أفهم جيدا عقلية الدوق.. لقد متع نفسه فى بعض فصول الشتاء بالسفر الذى لاينقصه الترف، واستشهد ببعض روايات السائحين، وخص باختياره كل ما أساء للإسلام الذى يكرهه هو بكل روحه ! لقد رأى من شرفة فندق نيوهوتيل أو من العربة التى كان يتنزه بها شعبا فقيرا له مظاهر بسيطة، وبناء على هذه الصورة الباهتة ألف كتابه. ولكن لنمعن هنا قليلا، إذا كنت قد قابلت عند وصولى إلى فرنسا رجلا يعرج فهل كنت أسجل فى مفكرتى أن فرنسا كل سكانها من العرج؟ وهل كنت بذلك أقول الحقيقة عن الشعب الفرنسى؟ ولكن هذا هو ما فعله الدوق بالنسبة لمصر.. لأنه لم ير مصر أو لم يشأ أن يراها إلا من ناحية واحدة وهو ظهر الميدالية كما يقولون..!

وياليته تكلم عن الذى رآه ولكنه فى أغلب الأحيان - وهو يعترف بذلك - كان يعتمد على أقوال المتحدثين أو الذين سمعوا وقالوا، وعلى هذا كون رأيه بالطريقة

المحبة إلى قلبه ليعلن بها نقص عقلية المسلمين. من الذى لا يرى أن الدوق اراد أن يشهر بمصر فى العهد القديم؟ إن جميع الوقائع التى يسردها فى كتابة ترجع إلى عهد محمد على وسعيد وإسماعيل، ولكنه لم يلمس أو لم يرض أن يلمس التغيير بل أقول الثورة الشاملة فى كيان فلاح اليوم.

إن التقدم الذى حققه الفلاح كان عظيما جداً ، واليوم لا يمكن لأحد أن يمس جسده. تحصيل الضرائب أصبح بغير عنف وفى موعد محدد ، وإذا لم يتمكن من الدفع فلا يتخذ ضده إلا الاجراءات القانونية كالحجز والبيع الجبرى، أما السخرة فقد ألغيت؛ وبذلك أصبح أكثر عقلا وأقوى بصيرة وأكثر سعادة، واستبعد فكرة رهن ممتلكاته أو الاستدانة عليها وبدأ ينمى ثروته، والشىء الأهم والأكثر انطباعا أنه بدأ يهتم بالشئون العامة ويبدى آراءه فى أعمال الحكومة، وقد أخذ كل هذا التقدم مكانه بلا طبل أو زمر.

هذه هى الحالة الحقيقية للمصرى والتى مر الدوق بجانبها دون أن يلتفت اليها . حقيقة لايزال عندنا بؤس كثير فى الأرياف، فإن الفلاحين وأولادهم فى حالة من القذارة والحرمان تدعو إلى الشفقة، وهذا هو الأثر المحزن الذى يستقر فى نفس الأجنبى عندما يمر فى قرانا ، ولكن تحت هذا البؤس الظاهر يكون الجسد دائما نظيفا بفضل الوضوء للصلوات الخمس فى كل يوم، وفى أغلب الأحيان تتربع فوق هذا الجسم رأس ذكية مثل الزهرة. وعلى العموم فمهما كان هذا البؤس فأنه لا يقاس بمثل ما نراه فى مدن أوربا اللامعة حيث نجد يوميا رجالا ونساء وأطفالا يموتون جوعا أو ينتحرون لتجنب هذه الخاتمة المؤلمة. والقذارة عندنا فى الطبقة الدنيا ظاهرية فقط لأن الإسلام شدد التعليمات بالنسبة لنظافة الجسد لدرجة أنه لا يوجد مسلم قذر داخليا .

وعندما يتم نشر التعليم بين هذا الشعب فكل هذه الأطفال « ذات الاعضاء الهزيلة والبطن المنتفخة» سوف يصبحون رجالا يمكن الاعتماد عليهم. إنى أعلم أن الدوق ليس عنده أدنى أمل فى تنشئتهم لجيل جديد لمصر، ولكنى أؤكد له أنه ذهب بعيدا فى حكمه ضد الوضع الحالى فى مصر، وهو لا يدرى أنه يحكم أيضا ضد حالة فرنسا التى مرت بها قبل مصر. وبحسن نية انى لا أرى من ناحيتى إن ماضينا أو حاضرنا من وجهة نظر الدوق مهما كان سيئًا يمنعنا من أن نساير التطور حسب قانون الإصلاح الذى يعم كل العالم. وهذا الماضى ألم تمر به فرنسا فى القرن التاسع عشر؟ ألم يكن الرجال فى فرنسا عبيدا ملتصقين بالأرض؟ وهل كانت الحقوق تقرر إلا بالقوة الوحشية فى المداولات القضائية؟ وهل العقوبات الجسمانية المشينة والتعذيب الفظيع لم يستعمل مع أسلاف الفرنسيين؟ وهل طبقة النبلاء الفرنسيين لم تحتقر ولمدة طويلة هذه المهن الوضيعة مثل التجارة والصناعة والفنون الجميلة وحتى العلم؟ ! وإذا كان هذا لم يمنع الفرنسيين من أن يكونوا اليوم دولة عظيمة وجميلة، فلماذا يريد الدوق أن يكون ماضينا عقبة مستديمة فى سبيل تقدمنا ؟ .

المجتمع المصرى

ماهى العناصر التى يتكون منها المجتمع المصرى حاليا؟ يوجد أولا المصريون الحقيقيون المسلمون والأقباط، ومنهما تتكون الغالبية العظمى من السكان، وأنا اسميهم بالمصريين الحقيقيين لأنهم ينتمون لأصل واحد، ومن المؤكد والواقع أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن أو فى الأرياف ليسوا من أصل عربى ولكنهم كذلك باللهجة والديانة فقط، وعندما نراهم نقتنع بأن لهم نفس الشكل القبطى، كما أؤكد أن المصريين المسلمين ليسوا سوى أقباط اعتنقوا الدين الإسلامى.

هؤلاء يشتغلون بالزراعة والصناعات الصغرى، ومن هؤلاء يجند العساكر والموظفين الحكوميين.. وتلك هى الطبقة العاملة التى تغذى مصر بإنتاجها، وهى التى تهتم اليوم فعلا بشئون البلاد وتأخذ نصيبها من أفراحه وآلامه، وهى أيضا التى تقدم لمصر الرجال الذين يمثلون جميع فروع العلم.

وبرغم فارق الدين الذى يفرقهم فإن المسلمين والأقباط يكونون كلا منسجما، ويتكلمون لغة واحدة ويلبسون نفس الملابس ويعتنقون نفس العادات، ولم يحصل منذ أن عاشوا مجتمعين جنبا إلى جنب أن وقع بينهم أى خلاف جدى، والمصائب الجماعية خلقت بينهم شعورا واحدا بالوطنية فتغلبت وحدة الأصل على اختلاف الدين، ويكفى للرد على من أرادوا لنا انشقاقاً أنه اثناء ثورة عرابى، وضع الأقباط يدهم فى يد المسلمين ولم يوجد مسلم واحد فكر فى أن يعكر صفو أحد من الأقباط بينما أظهر مسلمو الأتراك والشركس عداءهم لمصر.

إن الدوق أساء كثيرا إلى مواطنينا الأقباط لأنه لم يتعرف عليهم جيدا . وهو يعترف بنفسه فى كتابه بأنه لم تتح له الفرصة للتعرف عليهم شخصيا ، وعلى ذلك فليس مستغرب أن يحكم عليهم بالسوء مثل ما حكم علينا . إن كل ما أريد أن أقوله فى كتابى هذا أردت به تبريرا وتصحيحا للأغلاط التى أراد الأوربيون أن يلومونا عليها نحن والأقباط وينسبونها خطأً إلى الدين .

ويأتى مباشرة بعد المصريين الأتراك . . ولكنهم كادوا ينقرضوا أو انصهروا فى المصريين . وهم منذ مدة طويلة لم يلعبوا أى دور فى حكم البلاد ، أما النفوذ العجيب الذى كان يتمتع به الدراويش ومؤامرات الباب العالى التى أشار اليها الدوق هى محض خيال .

يوجد بعد ذلك الشرقيون والسوريون والأرمن واليهود إلخ . . . وهؤلاء يكونون الجزء المستفيد أكبر فائدة من مجموع السكان . باستثناء البعض الذى لاينتج شيئا ومع ذلك يكسب كثيرا .

وأخيرا يأتى الأوربيون الذين نوجه إليهم كثيراً من القول الطيب ، وكثيرا من اللوم ، فللأسف أن الذين استفادت منهم مصر فائدة حقيقية قلة نادرة ، أما الأكثرية فكانت لا تهتم إلا بالثراء السريع ما أمكن ثم الرحيل بعد ذلك ، وكان ينقصهم تتبع التقدم العلمى والأدبى ، وكل واحد منهم كان يحصل على حقوقه كاملة ولا يفعل شيئا فى مقابل ذلك ، ولكن كل هذا لن ينسينى أن أذكر العدد الكبير من العاملين منهم الذين قدموا لنا أجل الخدمات والذين تأثروا لآلامنا وأحبونا محبة صادقة .

إن المصريين سوف يذكرون دائما هذه الشخصيات النبيلة اللطيفة المحبة للإنسانية وسوف يعترفون بتبادل أفكارهم وتداولها كعامل من أهم العوامل فى صحوة

مصر، ولقد أعطونا أمثلة طيبة، وهم أول من استأنسنا بآرائهم الاجتماعية والسياسية والفلسفية والعلمية، ومن هذه الناحية فأن الخدمات التى أدوها لمصر كانت غير منكورة.

يظهر أن الدوق يريد أن ينعى علينا أن ليس لدينا مساواة اجتماعية ومتضرر من عدم وجود طبقة للأشراف عندنا . والحق أنه ليس عندنا لا سلالة من الأشراف عن وراثة ولا أشراف عن غير وراثة، فإن جميع السكان فى بلد إسلامى بلا تفريق فى الجنس أو الدين جميعهم يتساوون أمام القانون، إن الإسلام لا يعترف مطلقا بامتياز النسب أو المال، ولذلك فان الإسلام قد سبق بأكثر من ألف سنة النظم السياسية الثورية.

ولا أظن أن فى هذا ضرراً، أنه ليس من العدل فى شىء ولا من الفائدة أن تكون مجرد الصدفة لمولد إنسان يعطى له الحق فى مركز ممتاز. ولكن هل يعنى هذا أننا نغفل قوانين الوراثة؟ مطلقا . . أننا نفكر مثل العالم كله فى أن العيوب والفضائل والذكاء والطباع يتوارثها أحيانا الابن عن الأب، ولكننا نعتقد أيضا أن هذا ليس سببا كافيا لأن يصبح ابن الباشا الكبير مثل أبيه لمجرد مولده، بل على هذا الابن أن يعمل ليستحق هو شخصيا هذا الشرف أو حتى لينال مكانة أعظم. على العموم فإننا نحتاط للأحوال الشاذة التى لا تتفق مع المنطق التى نجدها صارخة عند تطبيق قوانين الوراثة، ونحن نتحاشى حالات عدم العدالة الطبيعية الموجودة بكثرة فلا نضاعفها أيضا بأيدينا .

إن المبدأ الذى يعتز به بعض الاقتصاديين «لكل فرد بقدر عمله» كان وسوف يكون دائما نبراسا لنا . . فإننا جميعا أبناء أعمالنا . . وإذا كان هذا يتعارض مع

الأفكار الارستقراطية للدوق داركور فليس هذا ذنبنا ، وباختصار فإننا نؤمن بقول الشاعر العربي :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا

يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول هاأنذا

ليس الفتى من يقول كان أبي

وفى الحقيقة إن كل مجتمع إسلامى لا يقوم إلاّ على أساس من الديمقراطية ويعتمد دائما على فكرة المساواة والأخوة ، ليس الرجل الذى ينحدر من طبقة راقية هو فقط الذى يستطيع أن يصل إلى أعلى المراكز ، ولكن الرأى العام الإسلامى لا يعترف بهذه التفرقة فى المعاملة ومظاهر الاحترام الموجودة فى المجتمعات الأوربية بين الغنى والفقير وبين الأشراف والدهماء . فالكل عندنا سواء واندماج الطبقات عندنا متكامل . إن الباشا لا يخجل أن يستقبل رجلا فقيرا معدما ، ويمشى معه ويصحبه فى عربته ويستضيفه على مائدته . والعيد عندنا يكون عيدا شعبيا يباح للناس جميعا ويكون لهم الحق فى اللهو والتسلية . إن رب البيت لا يجد أية غضاضة نحو الذين يدخلون بيته بلا دعوة ولا يعتبرهم طفيليين مطلقا .

والسواح الذين يفدون علينا فى الشتاء يعلمون ذلك جيدا ويستفيدون منه ، وعابر السبيل بصرف النظر عن ديانته عندما يمر أمام أى منزل فى ساعة الغداء يستطيع أن يتقدم لإشباع معدته ويستريح كيفما يشاء . بل ويستضاف أيضا للمبيت . ولا أحد يسأله من هو . . إنه إنسان وكفى .

إننى لا أبالغ مطلقًا إذا قلت: إن اليهود واليونانيين والموظفين الأوربيين الذين طافوا بالمدن والقرى يشهدون - على ما أظن - بالكرم العربى الحقيقى الذى يجدونه دائما عند المصريين من كل الطبقات. وربما يكون الغذاء الذى نقدمه لهم لايروقهم، ولكن هذا ليس ذنبنا فإننا نقدم لهم ما يمكننا أن نقدمه.

وليس عندنا هذا المعبد العظيم المهيب الذى يسمى بالكنيسة، إذ لا شيء عندنا يمثل السلطة الروحانية، فكل مسلم يعتمد على نفسه فى إقامة الشعائر الدينية. وعلماؤنا ومشايخنا ليس لهم أى طابع عمومى أو دينى وليس لهم علينا غير السلطة المعترف بها جيدا لعلمهم.

ويمكن أن نجزم بأن كل شعب إسلامى لا يتكون إلا من طبقة واحدة هى التى تضم مجموعة المواطنين، ومن بين هؤلاء يوجد القوى والضعيف، العالم والجاهل، الغنى والفقير ولا يوجد رجل متميز ورجل عادى، وهم جميعا متحدون ويتمتعون بكل الحقوق وبكل الميزات وفى مستوى واحد وهم جميعا يكونون الشعب. إن شريعتنا الدينية قد نظمت حالة الفقراء بطريقة جريئة وسعيدة. لقد رفضت الإحسان الذى يذل والعطاء الذى يفسد وخلقت ضريبة حقيقية وثقيلة لأنها تمثل النسبة الاربعينية على الثروة وأحيانا أكثر من ذلك فضربت بذلك الغنى لمنفعة الفقير. ولكى تضمن دائما تنفيذ هذا الاستحقاق جعلته واحدا من العقائد الخمس التى هى أسس الإسلام. وكذلك نظمت الملكية وأعلنت حق الفقراء فيها وأشركتهم بذلك فى ثروة الأغنياء. وهذا كما نرى حل لمشكلة اجتماعية عن طريق الاشتراكية الذاتية.

هل نظام كهذا لا يوفق بطبيعته بين جميع المصالح ويريح كل الأعصاب؟ أليست هذه الاشتراكية! أرقى وأكثر عملا من كل الأنظمة المتبعة فى أوربا الآن التى تتميز بالنقص وبالصعوبة عند التنفيذ؟

إننى أرى فى كل أوربا عقولا قلقلة ونفوسا مضطربة، والمنازعات بين الطبقات تزداد حدة يوما عن يوم، والأغنياء يرتجفون والفقراء يتذمرون، كل هذه بوادر تنذر بانفجار كبير مرعب، وعلى النفوس المخلصة المتحررة والعلماء والكتاب أن تصحو لتسوية كل هذا. من أول المصلحين المعتدلين إلى أصحاب النظريات المتطرفة كل يدعو إلى فكرة أو نظام. . فلماذا لا تأخذ أوربا عن الإسلام ـ الذى سبق أن انتشل الغرب من الجاهلية ـ الدواء الذى ربما يشفيها من دائها؟ اظن أن العلماء والسياسيين الغربيين يمكنهم أن يستخلصوا فائدة كبرى بدراستهم لهذا النظام الاجتماعى ويحاولوا تطبيقه بما يلائم بلادهم.

إنى أكاد أسمع الدوق وهو يقول: ولكن حالتكم الاجتماعية ليست على ما يرام وعندكم بؤس كثير. فعلا . . ومن زمن بعيد للأسف غزا الإلحاد الغربى عقول المسلمين وجعلهم يتخلون عن التقاليد الإسلامية الطيبة. هذا الغرض أصبح بعيد التحقيق بدقة وخصوصا بعد أن ابتدع بعض الجزويت عليهم للتخلص من الحق ولكن القانون لا يزال بالمرصاد، وليس هناك إلا تطبيقه كما كان.

إن الماضى ملىء بالارشادات التى لا أفهم لماذا نذهب بعيدا عنها للبحث عن طريق السعادة. فكروا عندئذ فى الإسلام يساوى ويؤاخى بين أوائل العرب. تذكروا أن عليا خليفة المسلمين الرابع ساقه يهودى أمام القاضى الذى طلبه فوقف بكل نفس طيبة بجانب خصمه. تذكروا أيضا عمر الخليفة الثانى عندما كان مسافرا إلى سوريا

على جمل وعندما وصل إلى منتصف الطريق نزل وأعطى مكانه لعبده ومشى خلفه حتى باب المدينة، فأعطى بذلك للمارقين مثلا عظيما لحاكم يحرس عبده، وهو نفسه الذى ألقى ذات يوم خطبة فى الجامع على المسلمين فقال: « من وجد منكم فى اعوجاجا فليقومه». . فوقف أحد المسلمين ورد عليه قائلا: إذا كنت قد انحرفت لكنا قومناك بحد السيف.

وعندما أراد المسلمون أن يمارسوا الانتخاب العام لحكامهم استلهموا مبادئ القرآن الكريم التى توصى النبى بأن يشاورهم فى الأمر. قولوا لى بصراحة بعد أن تيتم كل هذا هل يمكننا أن نستسيغ أو نتعلق بشئ آخر؟ . .

إن المجتمع الإسلامى أصبح اليوم فى حالة من الفوضى متناهية. . ليس للمسلمين قاعدة دينية أو علمية. . والدولة تركزت فى رئيس يرث المنصب وليس له من هاد غير ارادته واطماع حاشيته. . وهو المتصرف فى كل شىء. . وليس للشعب أى حقوق غير التى ترضيه أن يتبعوها، والجهل والتكالب على المنافع الشخصية وعدم الأمان وانعدام الشعور بالتضامن ذلكم هو النصيب المؤسف لمثل تلك الحكومات.

ولكن مصر وحدها هى التى تشذ عن هذه القاعدة وأصبح واضحا أنها عزمت على استرداد مكانتها فى العالم التى يؤهلها لها مركزها وماضيها. لذلك كان أمامها طريقان: الرجوع إلى التقاليد الإسلامية أو أن تحذو حذو أوربا. . فاختارت هذا الطريق الأخير. وليس من عندى تباين مزايا هذا الاختيار، لأنها كانت تتبع حركة الحضارة الأوربية التى اتخذت طابع الغزو لكل مكان، والتى يبدو أن من الصعب مقاومتها، وأيضا لقد تقدمت الآن كثيرا فى هذا الطريق حيث لا تراجع.

إن مصر تشبهت بأوربا بطريقة مدهشة، فى الإدارات والإنشاءات والأعمال الهندسية والشوارع وفى العادات واللغة والأدب وفى الذوق ووسائل التغذية، والملابس كلها أصبحت حسب الطريقة الأوربية. كل ما يحدث أو يكتب فى أوربا أصبح محل أهتمام، وكل الأفكار التى تتردد فيها لها هنا رد فعل. إن المصريين أخذوا يعتادون على قضاء الصيف فى أوربا مثل الأوربيين الذين تعودوا على قضاء الشتاء فى مصر. لعل هذا الوضع يرضى أوربا ويجعلها تعمل مستقبلا على رد جزء من هذا الميل العظيم الذى تكنه لها مصر.

قيمة المصريين الحربية

المصريون تركوا مهنة حمل السلاح لمدة طويلة.. ولعدم تمتعهم بأى من حقوق المواطنين، لم يشعروا بالواجب. ولقد عاشوا بدون أدنى اهتمام من جانب أسياد مصر كأنهم هم الغرباء، ولذلك عندما دخل نابليون مصر لم يجد من يتعامل معه إلا مع المماليك. وشعور الشعب المصرى الطبيعى أملى عليه عدم مقاومة الأجانب الذين اساءوا إليه، وبما أنه غير قادر على طردهم فكان يأمل دائما فى أن يجد المخلص. وهذا شعور مفهوم تماما وله مايبرره، ولماذا يهدر دمه دفاعا عن وطنه أم عن عدوه اللدود؟

إن حب الوطن فرض غريزى. وإذا قمنا بتحليل معنى «الوطن» نجد أنه يتألف من كل شىء نعزه، والدفاع عنه دفاع عن أغلى ما يخصنا الدفاع عنه. كذلك عندما تكون الوطن المصرى على يد محمد على لم يبخل المصريون بدمائهم ليضفوا على وطنهم ما يمكن من فخار.

لقد قلت: إن المصرى لم يكن جبانا مطلقا وأنه لا يخاف الموت أو التعذيب وإذا كان يتحمل بعض الإهانات فلأنه أصبح كالأبله تحت ضغط الحكم، وانتهى الى الظن بأنه خلق ليتحمل كل هذه النزوات. وهو لا تنقصه الحيوية الجسمانية ولا النشاط الذهنى ولا يحتاج إلا لمن يأخذ بيده ويوجهه توجيها حسنا ليصبح قوة كبيرة وهذا ما سأدلل عليه بالوقائع التى لا تقبل الجدل. فى سنة ١٨٢٥ أرسل محمد على جيشا

لنجدة السلطان محمود الذى استنفد كل موارده فى المعارك ضد اليونانيين، وأحرز انتصارات باهرة فى جميع المعارك التى خاضها ضد الجنود اليونانيين الذين شهد لهم العالم بالشجاعة. وبذلك سلمت نافارين وتريبوليتزا عاصمة بلاد المورة. وبسبب تدخل الجيش المصرى أيضا كان لابد لليونانيين أن يسلموا مسولونجى برغم الدفاع الرائع الذى أبدوه. ثم أتت بعد قليل معاركه مع السلطان محمود فوضع محمد على كل ثقته فى الجيش المصرى واعتمد عليه لمناصرته.. ونحن نعلم إلى أى حد برهن هذا الجيش على تحقيق هذه الثقة.

وجولة بعد الأخرى استسلمت غزة ويافا ودمشق، واستمر الجيش المصرى بعد أن شتت الأتراك فى قونية وانطاكية، استمر بدون مقاومة فى زحفه وانتصاراته فى آسيا الصغرى، وإن فى موقعة ناصيبان لصفحة مجيدة فى تاريخ حروب الجيش المصرى. وإذا اضفنا أيضا إلى هذه الأمجاد، الانتصارات التى احرزها الجيش المصرى ضد الوهابيين وفى فتح السودان؛ فإنه لا يسعنا إلا أن نعترف بأن هذا الجيش أظهر صفات حربية حقيقية ممتازة.

ولننتظر هنا قليلا حتى نستعرض السؤال الذى وجهه الدوق فى هذا المعنى: هل يمكننا أن نصدق أن التعليم الحربى فقط، واستعمال الأسلحة حسب النظريات، وأخيرا التطبيق السليم للنظام العسكرى يؤدى إلى تكوين الرجال؟ وهل يمكن باستخدام هذه الطريقة أن نستخلص من شعب مستعبد بائس يخاف الحياة، جيوشا قوية وباسلة؟

هذا سؤال مهم جدا لأنه سيرشدنا لمعرفة القيمة الحقيقية للجندى المصرى.. ولكن أليس بمستغرب بعد أن طرح الدوق هذا السؤال أن يتركه بدون إجابة؟ وكيف أنه بعد أن أكد أن الجنود المصريين لا يملكون أدنى ميزة من الصفات الحربية، هذا من

ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بعد ذلك يضطر إلى أن يشهد لهم بالإنتصارات العظيمة التى احرزوها فى عهد محمد على، كيف هذا وماذا أقول؟ ألا يشعر الدوق بهذا التناقض الخطير الذى سيلمسه العالم كله فى أقواله ولا يستطيع مداراته؟ ألم يكن أجدر به أن يفسر لنا كيف يوفق بين نقص الصفات الحربية عند جنودنا وبين الحقيقة التاريخية التى تناقضه تماما؟ أليس عنده كلمة تفسر لنا ذلك؟

نعم.. بدلا من أن ينقل لنا الحديث الذى دار بين مسيو «ن» ووزير الخارجية الفرنسية، ذلك الحديث الذى يثبت أن مسيو «ن» زعم بأن جيش عرابى المصرى ليس قويا ولا جادا، وبدلا من أن يحدثنا أيضا عن انتصار الانجليز السهل، كان الدوق يجذب بأهتمام المصريين بل كل سكان مصر لو فسر لنا الأسباب الخارجية والعرضية والغامضة التى تحت تأثيرها خرج هذا الجيش الذى ليس له قيمة منتصرا إذا قورن بشعوب فى غاية الشجاعة.

لأن الانتصار السهل الذى احرزه الانجليز، كل العالم يعرف أسبابه إلا سيادة الدوق.. بل أقول إن كل العالم كان يتنبأ به، ولكن ليس كما ظن مسيو «ن» بأن الجيش المصرى ليس جادا، ولا كما ظن الدوق بأن الجنود رفضوا أن يحاربوا، ولكن لأن قواد الجيش انقسموا إلى حزبين: حزب عرابى، وحزب الخديو.. وضباط الحزب الاخير كانوا يبعثون إلى الخديو يوميا، مع تأكيدات الولاء، جميع الخطط والحلول بالتفصيل الدقيق قبل القيام بها. ولقد ازداد هذا الإنقسام عندما دعا السلطان إلى مقاومة عرابى بالقوة. وهل المصريون جميعا لا يعرفون هذا الضابط الكبير الذى مهد لهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير؟ والذى افتخر بذلك علنا، وكان عذره أنه كان يؤدى الواجب نحو السلطان؟

فلنترك عرابى وجنوده ونُجيب عن السؤال الذى عرضناه قبل ذلك، من المؤكد أن التعليم العسكرى فقط قد لا يكفى لتحويل رجل جبان إلى رجل شجاع، برغم أن التربية العسكرية وحياة الجندية الشاقة والمعارك تدفعه، إلى حد ما، إلى الشجاعة. ولذلك فإنى أقول بأنه إذا كان الجيش المصرى فى عهد محمد على قد حارب بشجاعة فلأن الجنود كانت لا تنقصهم الشجاعة، وأظن أن الجندى المصرى الذى واجه كل هذه الأخطار يمتاز مائة مرة عن الجندى الأوربى.

إن هذا الأخير عنده غذاء طيب ويُعتنى به جيدا وتُستجاب أدنى رغباته، وإذا أظهر شجاعة فى عمل يُنشر اسمه فى الأوامر اليومية ويهنأ ويكافأ، ومئات الجرائد تنقل اسمه إلى الأجيال القادمة، وإذا مات فى ميدان الشرف فأن أرملته وأولاده لا يشعرون بالبؤس ويجدون أيادى كريمة وشفاها باسمه، ويسعى الناس فى كل مكان لمساعدتهم.. فهل الأمر كذلك بالنسبة لجنودنا وضباطنا؟ إن هؤلاء فى حياتهم وأسرهم من بعد مماتهم لم يجدوا ولزمن طويل غير حكومات ظالمة شريرة بعيدة عن العرفان. أليس هذا سببا حقيقيا لإضعاف الهمة؟ هذا بالإضافة إلى الإنعدام الكلى لفكرة الوطن لزمن بعيد يفسر حسب رأيى الضعف وعدم الاكتراث وعدم التشجيع الذى يوجد فى جيشنا أحيانا.

ولكن هذا لا يعنى مطلقا أن جنودنا كانوا كمية مهملة، ولقد رأينا جيدا فى حرب سنة ١٨٧٧ جميع المصريين الذين خاضوا المعارك ضد الروس حاربوا بشجاعة، ولقد تركوا فى استامبول أحسن الأثر. وفى خلال إقامتى القصيرة فى تلك العاصمة أخيرا اتصلت بضباط اتراك لم يتوقفوا عن ترديد كل ما يشرف عن سلوك جنودنا وحددوا لى اسماء كثير من الابطال (وخصوا بالذكر محمود باشا فهمى) الذين امتازوا بشجاعتهم، وكل العالم يفهم معنى هذه الكلمة إذا كانت صادرة من فم تركى !

إن أى شعب يمكن لسبب أو لآخر أن يبتعد لأجيال عديدة عن الحياة العسكرية ومع هذا لا يفقد صفاته الحربية، وإذا جدت حروب فسوف تسرى فيه دماء أجداده. إن صفات الجندى المصرى قد استردها فى حروب محمد على، وكذلك فى هذه الأيام، وليس عندى لإقناع القارئ إلا أن اعرض عليه شهادة الضباط الانجليز الذين كانوا فى قيادة الجيش المصرى:

(١) قام الجنرال جراهام بتهنئة الضباط والجنود المصريين الذين اشتركوا فى معركة طوكر يوم ٣ مارس ١٨٨٥، لشجاعتهم وكفاءتهم. ونشر اسم القائمقام مختار فى الأمر اليومى.

(٢) فى يوم ١٧ مارس ١٨٨٥، قام الجنرال وولسلى بتهنئة سلاح الفرسان المصرى للشجاعة التى ظهرت فى معركة كيربكان.

(٣) فى يوم ٢٥ مارس وجه الجنرال فريمانتل ثناء للقوات المصرية التى تحت قيادته.

(٤) فى يوم ١١ أبريل، الجنرال وولسلى يهنئ من جديد الجيش المصرى.

(٥) فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٨٦، السردار الانجليزى يشكر الجيش المصرى بمناسبة معركة جنيز.

(٦) فى يوم ١٠ سبتمبر ١٨٨٨، نفس الجنرال يشكر الجيش بمناسبة الانتصار الذى أحرزه فى خور موسى.

(٧) نفس الجنرال يهنئ الجيش ويأمر له بمكافآت كبيرة بمناسبة المعركة الممتازة فى توشكى التى أسر فيها حوالى ٦٠٠٠ سودانى.

(٨) وبمناسبة استرداد طوكر، وأيضا لغزوات أخرى تسلم الخديوى تقارير مختلفة من القواد ومن القائد العام الانجليزى وفيها أعظم ثناء على الصفات الحربية للجيش.

وغوردن نفسه بعد أن كان ضد الجنود المصريين وكان يفضل عليهم الجنود السودانيين اضطر فى ختام يومياته أن يقدم اعتذاره، ويعترف رسميا بقيمة المصرى الذى كان يقوده والذى قاوم معه الحصار الفظيع لأكثر من ٣٠٠ يوم.. وماذا نظن فى جنود نفدت كل مواردهم الغذائية، وكانوا لا يجدون حتى الفيران لغذائهم ومع ذلك استمروا فى النضال بجانب رئيسهم وهم يعلمون جيدا بأن ليس لهم من نجدة، ولكنهم أرادوا مع ذلك أن يشاركوا فى حماقة يحوطها مجد جميل !

الـــرق

إن الرق موجود من قديم الأزل، ولقد دام لسنوات قريبة فى شعوب كلها حضارة وبنوع خاص فى أمريكا ، ولذلك فلا يستغرب من جانب المسلمين إذا كانوا قد قبلوا ومارسوا الرق مثل غيرهم.

وعلى ما أظن لا يوجد الآن ما يدعو لمناقشة قضية الرق، وزوال هذا الوضع المخجل إلى الأبد مما يشرف الانسانية، ولذلك فإن المسلمين لن يأسفوا مطلقا لزواله. ومن الملاحظ فى الواقع أن الرق الذى كان موجودا فى المجتمعات الاسلامية كان مخالفة صارخة للشريعة الدينية التى لم تقبل غير نوع واحد منه وهو الأسر فى الحرب وبشرط أن تكون نظامية، أعنى مسبوقة بإنذار، وفيما عدا هذه الحالة فالرق أمر غير مشروع ويعاقب عليه بشدة. إن أكثرية العبيد الذين كانوا فى مصر لم يكونوا أسرى قط بل كانوا ببساطة مشترين أو مخطوفين بالقوة. وهذا يفسر فى رأيى الإجراءات السريعة التى بادرت إليها الحكومة المصرية والوطنية بمساعدة إنجلترا فى رسالتها التقدمية التى كان لها شرف تقييمها فى العالم لإلغاء الرق الذى غادر مصر اليوم إلى غير رجعة.

ألا يدعو للاحترام ملاحظة تؤكد أن الإسلام كان أبعد عن مضاعفة أسباب الرق كما فعل بعض المشرعين بل قصرها على وضع واحد، وكان أبعد عن الغزو بين المحكومين مثل بعض الشعوب التى عندها عقدة الجنس الأسو! تلك التى أوحت

لمونتسكيو صفحة من أمرح صفات كتابة «روح القوانين» ، إن المسلمين يدينون فى كل الأوقات بحرية الفرد دون تمييز لجنس أو لون.

ومنذ عهد ارسطو الذى كان يؤمن بأن بعض الناس يولد ليكون سيدا والبعض الآخر يولد ليكون عبدا ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر كان الرق قد استنفد كل شرعيته فى رأى الأوربيين ، بالنسبة لنقص بعض الأجناس ومن بعضها الآخر. ولم يكتفوا فى القرون الوسطى بقبول استعباد الزنوج بل كانوا يستعبدون البيض ولم تختف بقايا هذه الآثار البغيضة من أوروبا إلا منذ عهد قريب. إن شروط الاحتكار أخف بلاشك من الرق ، وإن كان الفرق فى الواقع غير ملحوظ بين حالة الفلاح الفرنسى فى ذلك الوقت وبين حالة العبد التى نظمها الإسلام. أما السيد فكان له مطلق التصرف فى النفس وفى المال ، بينما الإسلام لم يسمح بالرق إلا بالنسبة للرجال الذين يؤسرون فى الحرب. وتبعا للعرف القديم الذى تداوله الرومان والذى دافع عنه «بوسو» أخيرا ، نجد أن المسيحية قد وسعت نطاق الرق حتى شمل الجنس الأسود كله وخلقت السخرة بالنسبة للجنس الأبيض.

إننى لمندهش حقا من قرار الدوق عن الفلاح المصرى مؤكدا بأنه عبد حقيقى.. ! الواقع أن له بعض العذر ، فقد قلت قبل ذلك أن السلطة الحاكمة قد اساءت إلى الشعب المصرى أبلغ إساءة ، ولكن من الأهمية أن نسجل أن فى أى وقت من تاريخنا لم يخلق القانون مطلقا عدم المساواة فى المعاملة بين الأفراد الذين ينتمون لأجناس ولديانات مختلفة ، أجد أنه لم يفرض الجزاء على استغلال الإنسان لاخيه الإنسان.

نرى مما تقدم أنه إذا كان الإسلام قد قبل الرق فى بعض الحالات فإنه أحسن فهم الكرامة الإنسانية ولم يتسامح مطلقا فى أن يعتدى عليها بأدنى سوء ـ حسنا أن نذكر هذه الحقيقة فى الوقت الذى ألغى فيه الرق ـ بعض المجتمعات الأوربية وبعض الكتّاب والخطباء وبعض رجال الدين ذهبوا فى التعصب إلى حد تأييد الرأى الذى يقول أن الأسود فى نظر المسلمين ليس من الجنس البشرى. والمسيحيون الذين يشيرون إلى إلغاء الرق كحسنة من حسنات المسيحية يغالطون أنفسهم، وليس علينا إلا أن نذكرهم بأن المسيحية تعاقدت على صفقة طيبة من العبيد ورجال السخرة ابان عدة قرون. إن الرق كان مشروعا بإقرار بعض رجال الدين المعتمدين من المجمع المسيحى المقدس مثل بوسو من بين القدامى ومن بين القساوسة العصريين بايلى، وليون، وبوسان. ولكى أبين زيف هذه المغالطة لا أجد خيرا من أن أنقل الكلمات الآتية لبيير لاروس: «وباختصار فإن المسيحية حتى يومنا هذا وافقت تماما على الرق ومن المستحيل إقامة الدليل على أنها حاولت مطلقا إلغاءه.. ولابد أن أفكارا ومبادىء أخرى قد نمت حتى اختفى هذا النظام ويرجع الفضل فى ذلك للثورة الفرنسية التى بمبادئها الحرة هدمت كل أثر للرق عندما أعلنت مساواة الناس أمام القانون».

وبعد ذلك فلندرس مركز العبيد فى مصر، إن الدوق داركور يعترف بأن العبد فى مصر ليس محتقرا .. ويقول فى هذا: «من الصعب علينا أن نتصور أن العبد ليس منبوذا فى الصف الأخير من المجتمع، وأنه لا يتألم من هذا الوضع المهين. والأمور يجب أن ينظر إليها بشكل آخر فى مصر، فالعبد كان يخضع لظروف إستثنائية ذليلا بدون شك، ولكنه ليس مكروها على الأخلاق، بل كانت له امتيازات لتعرض عنه متاعبه». ولقد أكد أيضا أن كثيراً منهم قد وصل لمناصب كبيرة فى الدولة، فكيف تتأتى هذه الحالة التى لم نر لها مثيل مطلقا فى أى مكان آخر؟ ولماذا كان المسلمون

دائما يعاملون عبيدهم كرجال وبكل طيبة؟ هل كما ظن الدوق داركور لأن الحركة الصناعية والتجارية ليس لها وجود فى البلاد الإسلامية؟

إن هذا التبرير ليس بكاف، لأنه عند أوائل اليونانيين وأوائل الرومان كان العبيد يعاملون بمنتهى القسوة ولم يتحسن شأنهم إلا بمرور الزمن وبتقدم الحضارة.

والحقيقة هى أن المسلمين أحسنوا دائما معاملة العبيد لأنهم كانوا فى حماية القانون. سيكون من غير المفيد أن أنقل هنا الآيات والأحاديث التى توصى بالإهتمام الشديد بالعبيد، لأن الدوق نفسه لم يتأخر عن تسجيل هذا: «يكون من الظلم أن لا اذكر أن القرآن فى فقرات كثيرة يأمر بمعاملة العبيد بمنتهى الحسنى».

ولا يمكن أن أقاوم الرغبة التى تدفعنى لأن أنقل صفحة من مجلد المشرع المصرى الفاضل أحمد بيك شفيق عن الرق من وجهة النظر الإسلامية، هذا المجلد الذى كتب باللغة الفرنسية ثم حفظ فى الجمعية الجغرافية الخديوية، والذى فى ختامه يقول: « كل الذ ى نذكره عن الآيات القرآنية والأحاديث وقول العلماء والوقائع التاريخية، يتلخص فى أن الإسلام، بكل تأكيد، قد قيد الرق بوضع شروط له، وفى نفس الوقت أشار إلى طرق الخلاص منه». وإذا كان يقدر لشخص أن يقع فى الرق برغم هذه الطرق، فإن الشريعة الإسلامية كما رأينا لم تتخل عنه بل تحميه وتشفق لسوء حظه باعتباره كائنا ضعيفا، وهى توصى سيده بأن يعامله مثلما يعامل نفسه، وأن يسهر على راحته، وأن يربيه ويعلمه، وأن لا يهينه، وأن يزوجه لكى يعجل بذلك عتقه.

والعتق الذى لم اذكر عنه إلا المعالم البارزة هو حقا صفحة مجيدة فى الإسلام. إن أسس الرق فى روح شريعتنا يجب أن تستأصل، ولكن كيف نعمل؟ نهدم من أول ضربة نظاما كان يعتبر جزءا من تقاليد وعادات العالم الخارجى منذ بداية المجتمع ومنذ أجيال، إن هذا الإجراء كان سيجرنا بدون شك - كما ذكرنا فى أول هذا الموضوع - إلى ثورة فى النظام الاجتماعى وهياجا بين الناس. ولكن نبينا العظيم الذى كان سياسيا لا يجارى بدلا من أن يثير شعور الناس ضده بقرار يلغى به الرق فورا تحايل على الصعاب لكى يصل إلى هدفه وأمر المؤمنين بأن يعتقوا الرقيق فى ظروف كثيرة لكى يكسبوا الثواب العظيم من الله الكريم. إن كل الجهود كانت موجهة لهذا الغرض، وكانت مبادىء العتق أيضا موضوعة بروح عالية كريمة لتسمح للعبد دائما - إذا كان يريد أو حتى إذا كان لايريد - أن يجد وسيلة للتخلص من حالة الاستعباد.

الأداة الحكومية

يؤكد الدوق داركور في كتابه أن مصر دائما كانت محكومة حكما سيئًا غير سليم، وأنا في الحقيقة لن أعارض قوله، فالمصرى قد عانى كثيرا من الرجال الذين حكموه، ومن يأخذ جانباً للدفاع عنهم يكون من رأيهم. ومن زمن طويل كانت مصر مستغلة من وحوش بشرية من مختلف البلاد والأنواع وكانت مسرحا لمشاهد محزنة. أنا أعرف حوادث رهيبة ووقائع لا يمكن وصفها وأعرف أيضا أشياء أخرى أكثر هولا.. وإنى في الحقيقة لا أتصور كيف استطاع شعبنا البائس مقاومة مثل هذا الطغيان !

لكن سأمر سريعا على هذه الفترة الطويلة الحزينة التى كانت بين العهد المشرق لمصر حينما كانت تحت حكم العرب، وبين عصر النهضة الذى بدأه محمد على. من هذا العهد انتظمت السلطة، وفُتحت المدارس، وجُندت الجيوش، وأُنشئت الأساطيل، وتفتحت التجارة والصناعة والزراعة على حياة جديدة، وحفرت القنوات وخططت الطرق، وباختصار نُظمت حكومة حقيقية. ومعلوم أن من وقت لآخر كانت تُرتكب بعض أعمال عنف واستبداد، ولكننا نلتمس العذر لمحمد على فى هذه الاخطاء التى كفر هو عنها بالحسنات التى فعلها والتى كان فى نيته أن يفعلها. وهو يعتبر كأب شديد لا يقدر الفرق بين المعاملة السيئة والتأديب.

وتحت حكمه الطويل، تهيأ المصريون لتلقى العلوم والفنون وتعلموا أن يحموا أنفسهم بأنفسهم وكانت هذه التجربة كلها فخرا لهم. وهم لم يستفيدوا فقط من الدروس الأولية التى تعلموها على عجل، بل استغلوا كل مواهبهم وأدهشوا العالم الذى فوجىء برؤيتهم يخوضون المعارك بشجاعة وينتصرون.

ولكن إذا كان محمد على ذا عقلية كبيرة، فإنه لا يمكننا أن نقول نفس القول بالنسبة لخلفائه، فهؤلاء لم يفعلوا شيئًا، بل ولم يصونوا الأعمال التى خلفها والدهم، وكان الحكم بالنسبة لهم فرصة يستغلون فيها الحكم بالقوة والبطش. وبدون شك سوف يقسو التاريخ على الذين هدموا عملا قيما وخصوصا بالنسبة لإسماعيل، هذا الرجل والحاكم الكبير الذى ترك فى نفس الوقت سمعة سيئة لاسرافه. والحقيقة تدفعنى لأن أعترف بأنه بجانب المصائب التى أنزلها بالبلاد فمصر تدين له بنشر التعليم وحفر بعض قنوات الرى وتجميل بعض المدن. وفى أواخر عهده الذى جلب الخراب ظهر مرسوم فى ١٨٧٩ بمقتضاه أصبح إسماعيل يتولى الحكم بمساعدة مجلس للوزراء، ومن وقتها أصبح لا يمكن إتخاذ أى إجراء إلا بموافقة هذا المجلس المسئول حينئذ عن مصالح البلاد. وقبل ذلك كان قد صدر مرسوم آخر فى ١٨٦٦ تكونت بمقتضاه جمعية تشريعية أُنتخبت على درجتين فضلا عن المجالس الاقليمية. وكان يجب على الحكومة أن تستشير هذه الجمعية التشريعية فى تحضير الميزانية وفى طريقة تحصيل الضرائب وفى كل تقنين أو تعديل فى القانون. وبهذه العناصر أعد حكم «شبه دستورى» للخديوى توفيق.

إن هذا الحكم وعد بتحقيق كثير من الآمال السعيدة وقفزت إلى ذاكرتنا الاصلاحات الكبيرة التى بدأت منذ ذلك العهد كالغاء الكرباج وتقسيم وتحديد ميعاد

دفع الضرائب. والميزان المالى للدولة أصبح مضمونا بفضل قانون التصفية، وأنشىء نظام المراجعة المزدوجة لصندوق الدين العام، وتعديل نظام التعليم ثم مشروع تعديل نظام المحاكم الأهلية.

وتفاءل الناس جميعا وساروا إلى الأمام نحو مستقبل كله أمانى، وفجأة ظهر عرابى على مسرح السياسة فتوقفت هذه التقدمية لمدة سنتين. لأن هذا الشعب الذى اضطهد لسنوات طويلة عندما أخذ مركزه يتحسن أصبح قليل الاحتمال، وعندما لمس المزايا آلمته آثار الظلم الباقية فتطلع إلى الخلاص الكامل.

لنترك هاتين السنتين المؤلمتين ولنرجع مرة أخرى إلى عودة الأمور إلى مجاريها فى مصر، إن سلسلة الاصلاحات تبعث من جديد، والتقدم مستمر فى طريقه حتى يومنا هذا وتم تنفيذ وتحضير مشاريع كبرى للرى والسكك الحديدية، ومكاتب للبريد والتلغراف تقام فى كل مكان، ويدرس الآن مشروع لتعديل الوعاء الضريبى، وعدم المساس بالمساكن، واحترام حق الحياة للفرد، وأصبحت الملكية حرمة، وألغيت السخرة نهائيا، وكفلت حرية الرأى والصحافة، وكل ما هو مدون فى تصريح «حقوق الإنسان» أخذ المصريون يتمتعون به. وأننى أضع فى المقدمة، إصلاح القضاء الذى أتى بنتائج طيبة، ويقوم بإدارة محاكمنا الجديدة رجال لهم من التعليم والاستقلال والنزاهة ما يجعلهم فوق الشبهات فى جميع الظروف، وهم يطبقون قانونا مستمدا تقريبا من قانون نابليون.

وفى الحقيقة فإن عندنا اليوم حكومة محترمة أمينة مصرية. وإننى أتحدى الذى يذكر لى، لن اقول عملا تعسفيا، بل أى عمل من أعمال الجباية الجبرية قامت به الحكومة منذ حوالى ١٥ سنة مضت. وأصبح الخديوى توفيق ومن بعده عباس

يمثلون شخصية الحاكم الدستورى. أما محافظو الأقاليم الذين كانت لهم سلطة جبارة، لم يصبح لنفوذهم الشخصى أى ظل. إن كل عمل الآن يحكمه القانون، وأذكر على سبيل المثال أن بعضهم قد حوكم جنائيا لأنه ضرب أحد الفلاحين، وكذلك فى جعلهم أقل شأنا من ذلك. كل هذه الاصلاحات قد تمت بدون ضجة، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا عندما تمد خطا حديديا أو تبنى جسرا تطنطن صحافتها وتسرع بنشره ونقله إلى جميع أنحاء العالم.

هل يعنى هذا أنه اصبحت لنا حكومة كاملة المعانى وأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان؟ لا يزال أمامنا الكثير لنعمله، هناك إعادة تنظيم إدارة الاقاليم التى ظلت الملجأ الأخير لروح العهد القديم، وهى تدافع دفاع المستميت لتحتفظ بالروتين العتيق، وعدم الكفاية لايزال قائما، أما الفساد ففى نطاق ضيق. وإننى أنبه حكومتى إلى ضرورة قيام تمثيل نيابى حقيقى ولو كان وئيدا.

عدا هذين المطلبين الذين أرجو ألا يطول انتظارنا لتنفيذهما فإن عندنا كل الامكانيات لإقامة إدارة منظمة، والرجال الذين يشغلون مختلف الوظائف التى يقوم عليها هذا النظام قد حملوا الأمانة. ولكن هذا الشعب الذى ظل لقرون طويلة فى رقود وصمت لا يمكنه عندما يستيقظ فجأة من سباته العميق أن ينهض سريعا، فإن خطواته تكون مترنحة مثل رجل يقوم من مرض طويل. ولكن نحن نسير دائما وفى كل خطوة تقدم مستمر. وأنى أرجو القارىء أن يؤمن بأن هذه الأعمال التى أُنجزت فى مصر حتى يومنا هذا تعتبر من الأعمال الضخمة التى لم نر لها شبيها فى مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن.

وهل سيقال أن شعبا استسلم لحكم سيىء لفترة طويلة من الزمن لا يصلح لشىء؟ لكن الجواب على هذا التساؤل بسيط، جميع الدول مضت فى مراحل من

تاريخها بسوء الحكم والإدارة، جميعها قامت طويلا إلى حد ما من حكم استبدادى، وجميعها عانت إلى حد ما من نزق ملوك طغاة.

حتى يوم أن قامت الثورة فى فرنسا، لم تثقل الضرائب إلا على غير النبلاء والمعدمين، وكانت السخرة مفروضة على الأرياف، وكان ثلث مجموع السكان هم الذين يتولون القيام بالأشغال العمومية، وهم أيضا الذين كانوا يعملون لحساب الأسياد. ونظام تحصيل الضريبة ضاعف من أعباء المموِّلين لأن الدولة كانت قد عهدت إلى بعض الرأسماليين بجمع كل الضرائب وكانوا « يعطون بعض الشىء للملك» على حد تعبير فولتير، وكان هؤلاء المحصلين بقوة السلطة الحاكمة يبذلون جهودا كبيرة لتحصيل أكثر ما يمكن من الضرائب، الأمر الذى دفع أحد أعضاء البرلمان الفرنسى ليقول : « فى كل يوم نرى بيعا أو حجزا على بعض الفقراء العاجزين عن شراء الملح هؤلاء البؤساء الذين لايجدون حتى لقمة العيش».

حتى الملكية حسب نظرية لويس الرابع عشر كانت قاصرة على شخص الملك، والممتلكات الخاصة للأفراد كانت تعتبر مجرد توكيلات.

وحسب رأى «سان سيمون» فإن الفلاحين كانوا يعيشون فى حالة بؤس شنيع، وكما قال «تين» فى كتابه عن نشأة فرنسا المعاصرة: « إن اغلبية السكان، ما عدا أصحاب العزب والملاك، يأكلون الخبز المصنوع من الشعير، ويشربون الماء، ويعيشون فى منتهى البؤس ليتمكنوا من دفع الضرائب المفروضة عليهم. ومنازلهم كانت من الطوب النيىء مغطاة بالقش وبدون نوافذ، والأرضية غير ممهدة. وهناك من لا يلبسون جوارب ولا أحذية ولا حتى قباقيب».

والمحاكمات والعقوبات كانت بقسوة لا تحتمل، كإحاطة عنق المذنب بطوق من حديد ثم عرضه على الناس أو مكبل اليدين ومربوط فى عمود من الخشب، والكى بالنار وقطع اللسان، أو تقطيع المذنب بربطه فى عجلة تدار، والتعذيب بالماء الساخن ثم بربط المذنب فى أربعة خيول.

وفى فجر الجمهورية الأولى، كان لدى فرنسا حكام ألعوبة فى أيدى المحظوظين من رجال الحاشية والعشيقات المستهترات. كانت محكومة بشارل التاسع المسمى فى التاريخ بالسفاح، ثم بهنرى الثالث الذى كان يحظى الصغار، وبلويس الخامس عشر الذى كان يسمى «رجل حديقة الغزلان»، ولقد تحملت فرنسا حكما روحانيا جعل من ملوكها مندوبين مباشرين لله، فقللوا بذلك من هيبة الله ومن شأن الرجال.

ولعل كلمة لويس الرابع عشر المشهورة «الدولة هى أنا» تبين إلى أى حد كان مستبداً، أنقل إليكم النطق السامى: «نحن الامراء نعتبر صورا حية لهذا» الذى «هو كله قداسة وكله عظمة» وهو «الذى وهب العالم ملوكا روادا لهم شرف تمثيله واحتفظ لنفسه فقط بحق حسابهم عن أعمالهم». و« الذى يولد من الرعايا يجب أن يطيع الاوامر بدون تذمر». ألا تدل هذه الألفاظ على مقدار الكراهية المتأصلة التى يبديها نحو رعاياه؟

ولويس الرابع عشر أيضا هو الذى أصدر فى سنة ١٧١٥ الأمر التالى: «بما أن جميع الباقارين اتهموا فى جريمة العيب فى ذاتنا الملكية، وبما إنى أميرهم الوحيد المرسل بأمر الله القادر العظيم؛ فإننى بصفتى هذه أمر بشنقهم. ولكن برحمتنا العالية وبعطفنا الابوى؛ فإنى أمر بأن تسحب الاسماء بالقرعة، وكل فرد واحد من خمسة عشر فردا فقط ينفذ فيه الحكم شنقا». هل وجد فى مصر أمثلة كثيرة لهذا النوع من

الطغيان؟ وهل الصورة التى رسمها «تين» لحالة الفلاح الفرنسى لا تشبه حالة الفلاح المصرى فى عهد إسماعيل؟

إن تاريخ قيام الدول فى جميع أنحاء العالم قد أصبح موضع تفكير مستمر. ويدل دلالة حقيقية على أن الجنس البشرى فى كل مكان لا يتغير.. بعيوبه وضعفه وبؤسه وأيضا بكبريائه وعظمته. والقانون الأبدى الذى يغير المادة هو أيضا الذى يحول الرجال ويغير النظم . ولا يمكن لأى قوة أن تقف أمام هذا القانون الذى لا يقهر والذى يدفع إلى تطور الإنسانية، وهى تظهر فى كل مكان بنفس الطريقة وتأخذ نفس خط السير. وكل الشعوب استهلت حياتها بالحرية وستنتهى أيضا إلى الحرية، ولكن بين هاتين الفترتين على الناس أن يتحملوا محنة الظلم التى يظهر أن اتقاءها ليس باختيارهم، وأن الدول التى يقدر لها أن تعيش بعد ذلك لسعيدة !

النســاء

كانت دائما صورة المرأة المصرية أنها مخلوق ذليل وضعيف فى حالة عوز مستمرة وكأنها فى حالة عبودية ولا تستطيع الحياة إلا فى أفكار فاسدة. وجاء الدوق داركور بدوره ليؤيد هذا الرأى ولكنه فعل ذلك بطريقة متحيزة أفقدت شهادته كل وزن لها.

ألم يقل فى فصل من كتابه أن المسلمين كانوا يخفون زوجاتهم من شدة الغيرة؟ وذهب إلى أبعد من ذلك فعلا عندما قال أن هذا التقليد يرجع إلى إنعدام الأمن فى البلاد، وأضاف ليسند هذا الغرض الجديد بأن الأقباط والشرقيين هم الذين أوجدوا هذه العادة، وأخيرا استطرد إلى أن هذه عادة ترتبط أرتباطا وثيقا بالشريعة الإسلامية وأنها ليست مسألة شكلية. ومن المستحيل ألا يكون قراؤه قد اصطدموا بعدم تسلسل أفكاره ويجدون أن الدوق قد حكم على تقاليدنا بدون أية دراسة.

وأعترف بأننى عندما شرعت فى قراءة هذا الجزء من كتابه عن المرأة المصرية كنت حسن الظن فى أمانته نحو الآداب التقليدية للفرنسيين. إما أن يقول قولا طيبا، أو على الاقل لا يقول إلا ماهو حق. ولكنى وقعت فى الخطأ؛ فلقد وجدت هنا نفس الأخطاء ونفس المبالغة التى وجدتها فى باقى أجزاء كتابه، ومع ذلك فأنى ما كنت أرجو له إلا أن يعرف ويقول الحقيقة عن نسائنا. والشىء الذى يستطيع معرفته قليل،

والمصرى نفسه قد لا يستطيع تفهم هذه الطباع المعقدة ولذلك سيكون لى شرف عرضها على القراء.

إن المرأة المصرية أقرب شكلا إلى العادية منها إلى الجميلة، ولكنها تتميز بوجه عام، وخصوصا فى نضارة الشباب، بجمال ممتاز يتركز فى انسجام الأعضاء وقوة الجسم، وإنها حقيقة مقنعة بمنظر ترتاح له العين عندما نراها تمشى معتدلة؛ صدرها إلى الامام، وخصر ملفوف، وعيون يشع منها السحر، فلاحة جميلة، طويلة القامة نوعا، ويديها وقدميها لها منظر منسجم للغاية. ولكن الشيء الملحوظ بصفة خاصة هو عيون سوداء واسعة فيها نعومة جذابة كأنها عيون الملائكة، وفيها تعبير يفهمه الإنسان قبل أن تتكلم.

ومن الناحية المعنوية فهى مخلوق يهوى الكسل والتأمل بعيدة عن النشاط، تتكلم دائما وتضحك كثيرا، وهى تحب دينها ولو أنها قد لا تؤدى الفروض، ليس لها مثل أعلى وترتاح للحياة الصادقة، وهى زوجة مثالية وأم حنون لكنها ضعيفة فى تدبير المنزل. والشيء الذى قد يدهش القراء، أنها تبدو زاهدة فى الحب.. عذراء قبل الزواج وأكثر عفة بعده، لا شيء يعكر صفو حياتها، وتقضى وقتها فى التطريز وفى إدارة أعمال المنزل ولو أنها إدارة إلى حد ما ليست حسنة.

وليس صحيحا على الاطلاق القول بأن المرأة فى مصر تعتبر سجينة داخل المنزل، فالنساء جميعا يخرجن مثل الرجال فى كل ساعات النهار والليل، ويخرجن للنزهة بمفردهن أو فى صحبة بعض الصديقات، ويتبادلون الزيارات، ويدخلن المتاجر لقضاء المشتروات، ويسرن فى الاسواق، ويرتدن أماكن التسلية ويسافرن فى بعض

الأحيان بمفردهن. وأظن أننا الآن بعيدون كل البعد عن الصور القاتمة التى صورها الدوق حينما قال: « ولن يتصور عندنا لمعاقبة الأشرار جزاء أشد من إلزامهم بمثل هذه الحياة».

وإجمالا، كل ما نفعله نحن الرجال يفعلنه زوجاتنا أو يستطعن فعله، وكل ما هو مسموح لنا يصرح لهن بمثله، ولكن فى الوقت ذاته كل ما هو ممنوع علينا فهو ممنوع عليهن. مثلا من المحظور علينا نحن الرجال الاختلاط فى مجتمع السيدات، ويبدو لى طبيعيا أن مثل هذا الحظر يكون على النساء. وأنى أكرر من وجهة النظر هذه أن مركز المرأة يشبه تماما مركز الرجل. ومع ذلك فإن أحدا من الأوربيين لم تدفعه طيبة القلب إلى أن يلتمس لنا العذر نحن الرجال على الحياة التعسة التى نعيشها !

ويمكننا أن نكتب جملا من هذا النوع: الرجال فى الشرق عبيد لزوجاتهم. إن النساء يحبسن الرجال داخل المنازل عندما يخرجن لزيارة بعض الصديقات ويمنعن الرجال من مناجتهن. لا يستطيع الرجال الدخول الى أى مجتمع للنساء. نعم يمكننا أن نكتب كل هذا دون أن نتجنى على الحقيقة وهو الشيء الذى لم نفعله حتى الآن. صراحة.. لست أدرى كيف يتعمد الأوربيون دائما الوقوع فى مثل هذا الخطأ، إن هذا يعتبر ضعف فى الإبصار ولا أريد أن اقول أنه سوء نية. ويمكن القول أن عندنا مستعمرات تضم مئات وآلاف من الأوربيين المقيمين فى البلاد، ويفد علينا فى كل سنة فى فصل الشتاء آلاف من المسافرين والسواح، الجميع يرون نساءنا سائرات فى الشوارع أو على ظهور الحمير أو فى داخل العربات ولكن كل هذا لا يمنع بعضهم من أن يكتب أو يصف نساءنا بأنهن عبيد مسجونات. !

وكذلك أيضا عندما نقرأ لبعض الكتّاب، وخاصة كتاب الدوق داركور، يقولون أن نساءنا عندما يخرجن من المنازل يكن دائما فى صحبة الأغوات، وهذا الوضع مستمد من الامبراطورية الرومانية، والذى فى كلمة عابرة كان قد صُدر إلى الشرق الإسلامى وأصبح الآن لا وجود له تقريبا، وإننى أجزم أن ليس فى مصر أكثر من خمسين أسرة لديها بعض الاغوات، وذلك كعنوان لمظاهر الترف أكثر منه لحراسة النساء، وكعادة قديمة. ويحتفظ بهم من باب الشعور بالإنسانية لكى لا يطرد عبد عجوز إلى عرض الطريق، وهم يقومون ببعض الأعمال مثل الخدم، ولقد صادفت أحدهم يشتغل سائقا لعربة.. وعندما نظرت إلى وجهه، ومظهره الناعم المخنث، وخصوصا عند سماع صوته الرفيع ادركت إنه واحد منهم، واستجوبته عن السبب فى تخليه عن العمل الذى كان يقوم به فتنهد وقال: «لا يوجد عندنا الآن نساء ياسيدى» ! وأراد أن يعبر بذلك عن أن نساء اليوم أصبحن يتصرفن مثل الرجال.

ومن المغالطة أيضا أن نقول بأن نساء اليوم المسلمات يعشن بأفكار كلها فساد. إذا كان القصد من هذا أن نساءنا يمكن أن يسمعن أو يقلن بعض الألفاظ بدون حرج، فأنا موافق.. ولكن هنا هذه مسألة تربية وتعود وإننى أعلم جيدا بأن المرأة الأوربية تعرف حمرة الوجه عندما تريد وهى غالبا ما تريد فضلا عن أن تأثيره عليها لا بأس به مطلقا ! ولكن مما يتنافى مع الحق أن نحكم على الحالة المعنوية لشعب ما بمشاهد من العبث غير المهذب كالأراجوز. إن من معالم العادات الشرقية ما يجعل الرجال والنساء والاطفال يسمون الأشياء باسمائها وهذا لا يدل على أننا اسوأ حالا من

الغربيين الذين يقولون كل ما نقوله ولكن في أسلوب مستتر . في الواقع إنني لا أجد فارقا ما بين الوضع القائم للمرأة الأوربية وبين الوضع بالنسبة للمرأة المسلمة . إن المرأة الشرقية قد لا تقوم باى دور مهم وليس لها أي تأثير خارجي، والمنزل هو مملكتها ، ومن هنا ، فهي حاكمة مطلقة.

حقيقة ليس عندنا سيدات محظيات أو نساء يشتغلن بالسياسة أو مؤلفات أو شاعرات يهوين الثناء ، ولكن هل في هذا عيب؟ أقول في حياء لا . . دون أن أذهب إلى حد الرأي القائل بأن عقلية المرأة ناقصة، الذي قال به بعض الفلاسفة الأوربيين أمثال سبنسر ولمبروزو، ولن أكون متطرفا مثل شامفور الذي افترض بأن المرأة ينقصها أحد الأبراج في رأسها وأنها يزيد لها عصب في قلبها . ! كما إنني لا أرى منفعة تجنيها النساء في مزاولتهن أعمال الرجال، بل أرى كل الخسارة في ذلك، فضلا عن أن هذه الأعمال تبعدهن عن واجباتهن الأساسية التي خلقن من أجلها ، وهذه المشاغل لا عادت على المجتمع بفائدة أكثر ولا زادت مما يتمتعن به من جاذبية؛ على العكس إنه مما يؤثر في نفسي منظر الأم الحنون، كما يسعدني منظر امرأة تهتم بشئون بيتها . ولكن لا يحرك في أي شعور منظر امرأة تتأبط كتابا وعندما تصافحني تهز يدي هزا عنيفا وتصيح : كيف حالك ياعزيزي؟ أو بالاحرى قد أحس نحوها بشعور يغلب عليه عدم الإستلطاف.

النساء الكاتبات أو المشتغلات بالسياسة، وأنا لا أتكلم إلا عن محترفات التجارة في الأدب، هل هن نساء حقا؟ وهل لا يوجد فارق بين تلك المخلوقات

اللاتى قرأن وسمعن وفعلن كل شيء دون خجل، وبين الملائكة اللاتى تكفينا منهن نظرة أو كلمة أو هزة يد خفيفة لتبلل أعيننا بالدموع وتجعل قلوبنا تخفق من النشوة. ولكن دعونا نتفاهم.. إننى إذا كنت اشمئز من النساء المتحذلقات غير أنى من أنصار التعليم المناسب للمرأة. وأقرر أن النساء المصريات نشأن فى منتهى الجهل. ويجب على المرأة دائما أن تكون ملمة بما يكفى لتعليم أطفالها مبادىء الأخلاق والصدق والتقسيم العلمى للأشياء التى تحيط بهم، كما يجب أن تحسن الإجابة بدون خطأ على أسئلة الأطفال التى لا تنتهى. إنى لأتمنى أن تعم هذه التربية عندنا .. وبدونها فإننا لا نأمل مطلقا فى إيجاد مواطنين صالحين. وفى هذا الموضوع إننى أعطى الحق للدوق داركور ولن اجادل فى الاعتراف بنقص المستوى العلمى للمرأة المصرية بالنسبة للمرأة الأوربية.

ولكن هذا النقص لا يرجع إلا للجهل وإلى سوء التربية الذهنية، ولذلك فان نقص التعليم جعل المواطن المصرى فى مستوى أقل من نظيره فى أوربا. وإذا فهذا النقص لا يرجع إلى الشريعة الإسلامية ولا إلى التقاليد الإسلامية وإنما يستند إلى إهمال فى تعليم المرأة حاليا، وهذا الإهمال لم يكن قديما بدليل وجود كثير من النساء الشاعرات والكاتبات اللواتى اشتهرن فى صدر الإسلام.

وإن ما نراه حاليا ليس إلا حالة ركود يجب أن تزول قريبا. ولذلك سوف اختلف هنا مع الدوق داركور الذى لا يرى فى نسائنا غير بائسات وضحايا للنظم الاجتماعية الإسلامية.

وسبق أن قلت أن نساءنا يتمتعن بالحرية المطلقة فى تصرفاتهن ومن ناحية أخرى، يمكن القول بأن المركز الذى وضعه الإسلام للمرأة له كل المميزات التى كانت تتمناها المرأة. فالمرأة المتزوجة تتمتع بكل حقوقها المدنية وهى كفء أو أهل، حسب المعنى القانونى للكلمة، لأن تقوم بالتصرف والإدارة والتعاقد بدون حاجة للحصول على موافقة من زوجها أو من المحكمة. وتستمد هذه الأهلية من شخصيتها الذاتية، وليس لهذه القدرة إلا تفسير معنوى بحت. وعندما تريد البيع أو الشراء أو التنازل أو القبول أو رفع دعوى قضائية فإنها لا تشاور إلا نفسها؛ بعكس المرأة الفرنسية التى لا يمكنها أن تقوم بأى إجراء من كل تلك الإجراءات إلا إذا ارتاح له زوجها الذى هو صاحب السلطة عليها. إن المرأة الفرنسية عندما تتزوج تصبح مخلوقا قاصرا فى نظر القانون الذى يحكمها وتعتبر غير ذات أهلية فيضعها تحت الوصاية. وباختصار، فإنها محرومة من التصرف فى ثروتها الخاصة.

هاكم أشياء لا يمكن للمسلم أن يقبلها، وكل الأسباب التى أبداها لى أستاذى عالم القانون المدنى فى جامعة «مونبلييه» لتبرير الحط من شأن المرأة لم اقتنع بها ولن يقتنع به إلا الأزواج الذين لهم منفعة فى ذلك.

إن نساء اوربا لهن الحق فى التفكير بأن الرجال قد وضعوا القانون لمصلحتهم! ولست فى حاجة إلى القول بأننا نتمنى النجاح الكامل للنساء الجريئات اللواتى يكافحن بكل شجاعة للخروج من هذا المركز المهين لبنات جنسهن، ولكى يمارسن جميع حقوقهن المدنية.

إن الفتاة المسلمة لا يتطلب منها عندما تريد زوجا كفؤا لها إلا شيئا واحد؛ هو أن تكون على خلق كريم وطبع مستقيم. وبذلك مهما كانت الفتاة فقيرة، أو على نسبة قليلة من الجمال فإنها تجد دائما زواجا موفقا وأحيانا زواجا غير متوقع. وسبق أن بينت أن آراءنا لا تتأثر بمظاهر الحسب أو الثروة، ولذلك فليس من النادر أن نرى زواجا يتألف من رجل ينحدر من أسرة كبيرة وامرأة من الشعب.

إننا لا نسأل المرأة مطلقا عما تمتلك، ولا نناقش أيضا قيمة المهر مع والد الزوجة، فإن المهر تستخدمه المرأة في إتمام جهازها. والمرأة ولو كانت غنية، لا تتحمل أي عبء من أعباء الزواج، وفي كل الاحوال يتولى الزوج مطالب الزوجة والأولاد. وهل من المستغرب بعد ذلك أن نلاحظ في الشرق أن كل امرأة لها زوج بعكس الحال في أوربا التي تزدحم المنازل فيها من كثرة عدد العانسات ..!

من الأشياء التي أثارت دهشتي عندما حضرت أول مرة إلى فرنسا؛ أني وجدت نساء قد جاوزن سن الخمسين يطلق عليهن لفظ «آنسة» ولم أكن رأيت هذه الاعجوبة في مصر. لابد أن حياتهن كئيبة؛ فكم سكبن من دموع، وكم من ود مفتور، وآلام مبرحة، وكم من مرارة وحقد وتشاؤم في هذه النفوس الوحيدة، وكم من شهوة وحب وأمومة، وتضحيات مختزنة في هذه القلوب التي لاتزال مع ذلك تنبض دائما .. لماذا هذه الأنانية من الرجال في أوربا؟ ولماذا يفرضون على النساء المهر الثقيل ومن لا يملكن شيئا؟ وكيف بعد أن أقفلت في وجه المرأة جميع الوظائف وجميع الحرف وجميع الأشغال ينتظرون أن يكون معها مال، هل في هذا شيء من المنطق أو

الإنسانية؟ أه.. إننى عندما أتمعن شريعتنا فإننى أحبها وأتعلق بها أكثر، فهى وحدها أكثر من غيرها قد أوجدت أوضاعا عادلة وهى وحدها قد تمكنت حقيقة من حماية الضعفاء، وهى أيضا بمفردها أمكنها أن تساير الطبيعة، وهى وحدها أيضا أنقذت الزواج من أن يكون عملاً وأن لا يكون صفقة تجارية أو شركة استغلالية.

وختاما، فأنى أضيف إلى كل ذلك بأن مبدأ الشريعة المستمد من الحديث الشريف لنبينا محمد «الجنة تحت أقدام الأمهات» لا يمكن أن يكون تشريعا همجيا مهما قالوا عنه ولا يأمر مطلقا باستعباد المرأة.

تعدد الزوجات

المفروض عند جميع الأوروبيين أن تعدد الزوجات يعتبر نظاماً فاسداً . وهناك بعض آراء لا تستند لمنطق أو لتفكير سليم تقول بأن نظام تعدد الزوجات موضوع لا يجب التحدث فى شأنه إذ كيف يكون لرجل زوجتان فى وقت واحد؟ إن هذا لفظيع . . والأولاد ماذا تفعلون فى أمرهم؟ إن هذا أمر يتنافى مع الخلق الخ . . وأظن أن هذا هو شعورهم الحقيقى لأن جميع الشرائع الأوروبية اعتبرت تعدد الزوجات جريمة يعاقب عليها بالأشغال الشاقة.

وأننى لسعيد بإتاحة هذه الفرصة لى حتى أسجل رأى فى هذه المسألة، وسوف أبين للأوروبيين بأن « اللفظ» فى الحقيقة هو الذى يزعجهم أكثر من «المعنى» .

لقد ترددت كثيرا على المجتمعات الأوروبية فى فرنسا وفى مصر، وقد لاحظت أن الإنسان إذا أعطى يده اليمنى مرة واحدة فى حياته فلن يفعل كذلك بالنسبة لليد اليسرى ، تمد وتسحب من الصباح إلى المساء أو على الأصح من المساء للصباح، وفى معظم الاحيان لن ترفض ! وهكذا الحال فى المنزل المزدوج. وفى هذه القسمة، كما تعلمون جيدا ، لن يكون للمرأة الشرعية نصيب الأسد ، وفى كل تسع مرات من عشرة تنكشف الخديعة وتعلم الزوجة مدى نصيبها من التعاسة أو السعادة حسب تكييفها ، وهذا يسمى ضعفاً أو سقطة أو حدثاً عارضاً .

ولكن فى الحقيقة من هو هذا الزوج؟ إنه رجل مزواج.. وإذا كانت علاقاته مع الآخرين لم تثمر، فهو يفضل أن يمنع وجود الطفل بجريمة، أو يتركه يستسلم فى حياته للبؤس وللعار، لأنه بلا جدال لا يوجد للطفل خارج الحياة العائلية، وكذلك بالنسبة للمرأة، غير الذل والإجرام. والمشرع الفرنسى أراد أن يتجاهل هذه الأشياء وأقفل عنها عينيه، وظن أنه قد فعل كل شىء عندما قرر أن تعدد الزوجات جريمة وارتاح نفسانيا لقيامه بهذا الواجب.. فعلا أن العقوبة شديدة ولكنها أيضا افلاطونية.

وهل تجد كثيرا بين الرجال من يمكنه أن يتخذ له امرأة خارج نطاق الحياة الزوجية (مع إشراك العادات فى هذا الجرم الذى يرعاه القانون) ويكون له بقية من ضمير فيقول: إنى أعلم جيدا أن التقاليد تنحاز لى وأن القانون يحمينى، ولكنى لا أريد أن أستغل ضعف المرأة ولا أريدها غير زوجة شرعية أمام السيد عمدة البلد..! لا.. ليس كذلك؟ وإذا كنتم تريدون الدليل. فمنذ عشر سنوات وأنا أتابع طريقة المحاكمة الفرنسية لجريمة تعدد الزوجات فلم اجد انها قد تم بحثها غير مرة واحدة.

والآن، فلنناقش المبدأ الذى وضعه المشرع الإسلامى. بعد أن انشأ تقاليد لحماية الرجل والمرأة ضد ضعفهم؛ قال إن المبدأ ألا تأخذوا إلا امرأة واحدة، واننى انصحكم بهذا لراحتكم. وإذا جد، بسبب أو لآخر، ما يعكر صفو الحياة الزوجية فيمكنكم أن تأخذوا امرأة أخرى، ويمكنكم أيضا إذا كنتم لم توفقوا أن تأخذوا ثالثة أو رابعة.. ولكن اعلموا جيدا إننى لا أسمح لكم بذلك إلا تحت الضرورة الملحة، وإنى ألزمكم واشرط إلتزامى بعقوبات شديدة.. وهو أن تعاملوا هؤلاء النساء بمنتهى العدل ومع مراعاة المساواة الحقة، وليكن جميعا زوجات فى مرتبة واحدة ولتقوموا بجميع إلتزاماتهن، والأطفال الذين يولدون منهن هم أولادكم تسهرون على تربيتهم بيقظة تامة وعلى قدم المساواة... هذا إذا كانت لديكم المقدرة الكافية للقيام بكل تلك

الواجبات المتزايدة المختلفة، وإذا كنتم أمام ضرورة ملحة تنتظركم لأن تجمعوا بين أكثر من زوجة، وإلا فواحدة هذا خير لكم. تلك هي بنود الشريعة في شأن تعدد الزوجات طبقا لنصوص القرآن وحسب توصيات فقهاء المشرعين.

وكما نرى، نجد أن مبدأ الجمع بين الزوجات يقدم لنا على أنه كالشر الذي لابد منه، وهو محاط بصعوبات عسيرة تجعل تطبيقه نادرا، وتتميز جميع الاحتياطات التي من شأنها تخفيف الآثار السيئة التي تنتج عنه. والآن ولكي أوضح رأيي سوف افترض حالة وأعرضها على القراء.. لنفرض أنني تزوجت منذ عشر سنوات بامرأة تشدني إليها روابط العشرة والمعزة، وأكون واحدا من الذين يتزوجون لتكون لهم ذرية، وبرغم كل الجهود فأن زواجنا لم يثمر.. وإذا شرعت في طلاقها سيعتبر هذا العمل من جانبي قسوة، ولكن من العسير علي أن أترك المرأة التي أحبها والتي لا يوجد لها سند غيري في الحياة ولا يمكن أن أتركها إلى مصير تعس.. وبعد صراع نفسي فإنني اقرر أن أتخذ لي زوجة ثانية مع احتفاظي بالزوجة الأولى، فهل هذا يعتبر عملاً طيباً أو فعلاً سيئاً..؟

وإليك فرضا آخر أكثر حساسية؛ إنني تزوجت وفي اليوم التالي لزواجي أو بعد مضي قليل من الوقت أحسست أن الزوجة التي ارتبطت بها ليست هي مثلي الأعلى.. فخابت آمالي وأصبح مقضيا علي بأن أحيا حياة تعسة كصاحب كل قلب خال، ومن ثم أجد نفسي في ظروف تدفعني إلى الحب إذا ما صادفت شابة أو أرملة تجذبني وتحيطني بهوى عنيف؛ فأشعر بالسعادة وأستسلم تدريجا لهذا الحب المتبادل.. ماذا يكون موقفي كرجل مسلم طيب؟ اتخذها زوجة كريمة وأكفل لها العيش الكريم وأضمن لها ولأولادها مستقبلا شريفا، وحسب الشرع سيكون لي زوجتان، ولكن الاخيرة ستكون أقرب إلى قلبي.. وماذا تظنون في مصير الزوجة

الأولى؟ أحد أمرين: إما أن تكون فى غير حاجة إلى لتعيش فتسرع بمغادرة المنزل بكرامة لتنهى بكبرياء العلاقة الزوجية، أو تكون للأسف فقيرة فترضى بالاستمرار لتشارك فى المأوى الطيب والمائدة الطيبة.. الخ.

والآن بما إنكم علمتم الطريقة التى يتصرف بها الرجل المصرى فى الحالتين.. فلنر ماذا يفعله زوج أوربى فى مكانه.. آه.. إنها مسألة ليس فيها اختيار، سيتخذ من هذه الشابة أو تلك الأرملة عشيقة فى وضوح وسهولة، وبذلك يوجد للمخلوقة التى كان يعزها ولأولادها مصدرا للفضائح وللعار والبؤس لاينتهى..!

وفى إجمال، كما نرى، فإن مبدأ تعدد الزوجات قد تقرر ليضمن للمرأة المأوى وللأولاد أبو ة صحيحة دائما.. أما مسألة الطفل الطبيعى فهى إنتاج غربى بحت لا يمكن أن يتأقلم عندنا. إن جرائم الأجهاض وخنق الأطفال التى تحدث فى فرنسا بالملايين سنويا لايوجد أى سبب لها فى مصر. وهذا يعفينى على ما اظن من مناقشة موضوع ما إذا كان الرجل بطبيعته مزواج ام لا، ولست فى حاجة لأن أذكر المسيحيين بأن المسيحية قد سمحت ولزمن طويل بتعدد الزوجات فى روما، وأن بعض القساوسة صرحوا به ومارسوه، وإن عددا كبيرا من الملوك كان لهم أكثر من زوجة.. وعلى القارىء الذى يريد أن يتعمق فى هذه الدراسة أن يلجأ إلى بعض الموسوعات التى كتبت فى هذه الموضوع.

وقبل أن أنهى هذا الموضوع أريد أن أقول كلمتين فى وضع الأولاد فى منزل يضم أكثر من زوجة، إننا نتصور عموما أن الأولاد الذين انجبتهم أمهات مختلفات يجب أن تسود بينهم دائما الكراهية والمشاجرات من الصباح إلى المساء، غالبا لا يحدث شىء من هذا فهى مسألة تعود . هل لا يوجد فى فرنسا أولاد من أمهات مختلفات

ويعيشون فى منتهى الإنسجام بعد وفاة أو طلاق أحد الوالدين ثم يتزوج أحدهما مرة ثانية؟ إذن فهذا نفس الشىء ، ولننتظر ما وراء هذه الحالة لتعرف ما إذا كانوا في مصر يستعملون أو يستغلون موضوع تعدد الزوجات. . إنى أوكد أن عدد حالات تعدد الزوجات فى مصر نادر جدا . فى الريف نجد الفلاح غالبا لا يتزوج إلا مرة واحدة وقد يرجع ذلك إلى أنه لا يكسب إلا القوت الضرورى. وفى المدن لا يزال بعض رجال من العهد القديم يجمعون بين أكثر من امراة. والموظفون بوجه عام لا يتزوجون إلا بامرأة واحدة لأن غالبيتهم من الشباب المثقف الذى احتوته الأفكار الحديثة. وإذا كان يقدر لأحدهم أن يقع بالصدفة تحت تأثير العيون الجميلة، فإنهم يتخذون من صاحبتها عشيقة ويمارسون تعدد الزوجات على الطريقة الأوربية.

كثيرا من المفكرين فى فرنسا بدأوا اليوم يتنبهون إلى مشكلة «الطفل الطبيعى» ، هؤلاء المشردون الذين تغلق فى وجوههم أبواب الحياة بعد مولدهم، ودراسة وضع هؤلاء البائسين هى الآن الشغل الشاغل للمشرعين الفرنسيين. إن العقليات الضيقة التى كانت تحمل الطفل البرىء وزر أخطاء أرتكبها غيره محافظة على كيان الاسرة، بدأت تتلاشى تدريجيا بعدما طالب «اسكندر ديماس» ومن تبعوه بعد ذلك صارخين من هذا الظلم.

وجميع هذه الجهود سوف تصل يوما إلى مساواة الأطفال الطبيعيين بالأطفال الشرعيين، ولكن بعد مشكلة الأطفال الطبيعيين فإن المفكرين سوف يهتمون قطعا بمشكلة « الفتيات الأمهات» لأن مصيرهن يستحق كل اهتمام وشفقة. وبعد، أليست هذه دلائل ترى أوربا من خلالها أن العالم الإسلامى قد وجد حلا قاطعا لمشكلتين اجتماعيتين بفضل تعدد الزوجات؟ .

الطلاق

عامل زوجتك دائما بالمعروف، وإذا كنت تكرهها فاذكر قول الله ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾. «أبغض الحلال عند الله الطلاق».

إنه بذلك يوصينا ليس فقط بعدم التعنت بل أيضا بعدم الالتجاء إلى الطلاق إلا عندما نكون قد أعيتنا جميع الطرق للتصالح، إنه علاج غالبا ما يكون أصعب من الداء، ولكنه مثل كل علاج قد يكون فيه الشفاء. إن الأنفصال يحدث كل ضيق فى النفس ويتخلله صرخات الألم ولكنه ينقذ حياتنا فى بعض الأحيان. والمشرع الإسلامى قد ترك حرية التصرف فى هذه المسألة الخطيرة للمخلوقين الذين يهمهما الأمر، فهى حياتهما وسعادتهما ومستقبلهما التى فى كفة الميزان. ومن هنا، وتحت هذه الصفة فهما وحدهما اللذان يستطيعان تقرير مصيرهما. فقد عاشا مع بعضهما وتبينا ما فى أعماق نفوسهما ولا يخفى على تقديرهما أى تفاصيل، وإليهما وحدهما معرفة ما إذا كانت الحياة المشتركة بينهما محتملة أم لا، وبمحض اختيارهما يستطيعان أن يقررا الوضع الصحيح .

وإننى لا أستسيغ مطلقا الإلتجاء للقضاء لينظر فى حالة الطلاق. إن ترابط النفوس ليست مسألة قضائية كحائط مشترك بينهما. وماهى المحاكم التى تتحكم فى

شعور قلبي وتقيده. هذا القلب الذي كثيرا ما يتغير وله نزوات مستمرة؟ وهؤلاء القضاة ماذا يعلمون عني وبأي مستندات سيفصلون في أمري؟ أن شخصيتي هي موضوع القضية، وهي إلى هذا الحد صعبة ومعقدة حتى تتطلب سنوات ليتعرفوا عليها فيحاكموها .

حقا إن الحضارة الأوربية الساطعة فيها بعض البقع مثل الشمس، وهذه بقعة كبيرة، لأنه لو فرضنا أن هؤلاء القضاة أمكنهم أن يلموا بموضوع الخلاف وقدروا المسائل تقديرا سليما ، فإني لا أرى منفعة يجنيها المجتمع من إطلاعه على تفاصيل حياتي وحياة زوجتي الخاصة معروضة علانية أو منشورة على صفحات الجرائد . من الذي ينتفع من كل هذا؟ لاشك إنهم المتفرجون الذين سيجدون كل متعة في مرافعات المحامين الطريفة المثيرة والتي سيقدمونها حسب المبلغ المدفوع لهم ! إن حق الطلاق الذي وضعه المشرع الاسلامي بين يدي الزوج والمرأة التي يرجع إليها أيضا ؛ ليس مسموحا به في فرنسا إلا في ثلاث حالات فقط ويرجع فيها عادة إلى تقدير المحاكم.

والآن بعد أن قلت رأيي في تدخل القضاء في مسألة الطلاق، فلننظر هل أساء المشرع الإسلامي عندما صرح للأزواج بطلب الطلاق وقتما يريدون. أظن أن هاتين المسألتين مرتبطتان ولكن يمكن تقدير كل منهما على حده. مبدئيا أظن أن حرية الطلاق شيء حسن، فهي تقوي روابط الزواج ولا تضعفه، وتبين للزوج الذي يفكر في أن يتصرف تصرفا سيئا الخطر الذي يتعرض له، وهي تتبنى المبادىء الخلقية السليمة وتهذب الأخلاق وتدعو للتسامح المشترك. إنها مثل سيف «ديموقليس» مسلط على رؤوس الازواج. . !

إننا فى الزواج نصادف أحيانا مفاجآت غير مقبولة وأوضاعاً غير محتملة، ولذلك يجب أن يبقى باب الخلاص دائما مفتوحا . وليس فقط الزنا أو المعاملة السيئة هى التى تبرر الطلاق، بل يوجد أيضا الشك المؤلم وعدم الاستلطاف الذى يجعل كل ذرة فى جسمها تتباعد بقوة لا تتوقف، ويوجد أيضا عدم الانسجام فى الأخلاق الذى ينفر الطرفين من بعضهما ، ويوجد أيضا عدم الرقة التى تجعل الإنسان يتعذب أكثر من المعاملة السيئة، ويوجد نوع من «الزنا المعنوى» يجرح ويؤلم أكثر من الزنا الفعلى. ويوجد أيضا طباع سيئة وشريرة وجحود وعقليات سخيفة وحالات هستيرية ورجال أشرار ونساء قاسيات وأمهات فقدن العاطفة. نعم يوجد كل هذا وأشياء أخرى كثيرة أشد هولا لا يمكن للشريعة أن تلم بها أو تحصيها . ماذا تفعل الشريعة الفرنسية عندما تعرض عليها حالة طرف من الطرفين اكتشف فى الطرف الآخر نقيصة من العيوب الخفية؟ إنها توصيه أن يتذرع بالصبر حتى الموت من أجل مصلحة الأسرة.

ولكن أيها المشرعون العقلاء ، ألم تروا أن ميكروب الأسرة الهدام قد ظهر وتغلغل أرضا خصبة يترعرع فيها ، وأن العدوى تهدد بالانتقال إلى الأولاد ، وأن الإنفصال السريع يمكنه فقط أن يمنع كارثة لا تقدر . .؟ وهل تظنون أنه من الحكمة وبدون خطر على الأولاد أن يحضروا يوميا مشاهد محزنة لبيت مفكك وربما يجدون أمامهم أمثلة سيئة؟

إننى أعلم لحسن الحظ أن الازواج فى فرنسا أعقل من المشرعين. . فإنهم يصلحون من أحكام القانون بطريقة حكيمة. . وإننى أعرف عدداً كبيرا من الأزواج حصلوا على الطلاق بالتراضى ووضعوا أنفسهم بمحض إرادتهم فى ظروف من الظروف التى يحكم فيها القانون بالطلاق أو بإدعاء أسباب تبرر موقفهم.

وإنني اختتم كلامي بأن أقول للدوق داركور إنه يخطىء عندما يحاول أن يقنع القراء بأن المرأة المصرية بوجه عام عندما تكبر في السن فإن زوجها يتخلى عنها ، وهذه واحدة من تأكيداته الباطلة التي لا تستند إلى أي أساس.

أحاديــث عن الحــب

فى المجتمع الأوربى، الرجل والمرأة دائما على اتصال مباشر، ومن هنا تولد أواصر المعرفة والصداقة والحب. هذا الاختلاط بين الجنسين فى المجتمعات يجعل لها لذة وجاذبية ممتعة. إن السحر الذى تبعثه المرأة أينما وجدت ناعم وآخاذ مثل عبير الورد، ويجد الإنسان أسباب التسلية فى هذه المنتديات فيلاطف الناس بما يدخل النشوة فى قلبه.

وإنى أستطيع الآن أكثر من أى وقت آخر تقدير هذه الجاذبية النادرة عندما يكون المرء فى صحبة سيدة تجمع بين الذكاء والجمال. ولما كان فى طبيعتى الخجل فقد اضطربت واحمررت أكثر من مرة ولذلك لم يكن لى نجاح ملحوظ بين الناس، ولكن هذا لم يقلل من ارتياحى لتلك الاتصالات المحببة حيث يجد الإنسان نفسه فى وضع يتبادل فيه أسباب التسلية والترفيه مع الآخرين.

ويبدو حسب الأفكار الأوربية أن تمتع الإنسان بالسعادة بمفرده ليس وضعا مقبولا. فالرجل المتزوج من امرأة جميلة ويريد الاحتفاظ بها لنفسه فقط يستخف شأنه، إذ يجب أن يسمح لها بالمساهمة فى إسعاد أصدقائه ! والمفروض أن أصدقاءه سوف يمزحون معها ويحاولون اكتساب قلبها بالتقرب إليها، والزوج فى هذه الحالة لا يهتم مطلقا ويعاملهم على إنهم كمية مهملة. وهؤلاء جميعا شباب ذو شهامة بعضهم من أصدقاء الطفولة، وكما نرى لايوجد شئ جدى فى كل ما يجرى إنما هو

مجرد لهو وحب. ومن الطبيعى، وفى الوقت نفسه، أن يهتم الزوج أيضا بزوجات أصدقائه فيعاملهن بنفس الأسلوب ويلاطفهن بأدب ويوجه لهن نفس عبارات الغزل.. وهذا هو المرح المزدوج.

هل مثل هذه العلاقات تكون دائما خبيثة؟ إن بعض الظن إثم. يوجد بلا جدال أخلاق عالية ونفوس قوية تتحكم وتحلق عاليا فى سماء من المبادىء الصافية. ولكن إلى جانب هذه القلة المشرفة، لابد أن تجد نفوسا تنقصها الفضيلة ويخبو ضوؤها فى هذه الريح العاتية، وهناك كثير من الشرف ضاع بين عاصفة من التصريحات الغرامية وكثير من القلوب أحترقت بنار الغرام والهوى. إن المرأة كما هو مفهوم معبودة تتطلب الثناء، والتصريحات الغرامية هى المراسيم التى تمارس عن طريقها عظمتها، ولكنها إله كله رحمة لانها تستجيب دائما للتضرعات التى تقدم إليها. إنها لاتشبه مطلقا آلهة القدماء الشريرة القاسية فى غير رحمة التى لا تستمع لمن يسألها شيئا ولها قلوب متحجرة لا تؤثر فيها الدموع مطلقا.

ومن المعروف عن الرجال (وأعتذر إلى بنى جنسى) إنهم أنواع مختلفة من خاطفى القلوب. لا يتورعون عن الكذب، وعن الاعمال الدنيئة،والدسائس والخيانة، ليصلوا إلى المرأة التى يشتهونها وغالبا يكون ذلك ببرود لا تشوبه عاطفة. ويستقبل شخص ما بإخلاص من صديق حميم ويستضيفه على مائدته ويقدم له كل الخدمات فيقابله بطعنة مميتة فى شرفه دون أن يفكر لحظة فى دناءة العمل الذى ينوى ارتكابه ولا فى العواقب الوخيمة التى تنتج عنه.. ويسير قدما، وكلما كانت الموانع كبيرة بذل جهدا أكبر للفوز بمآربه. وفى الحقيقة ما أتعس هذا الفوز الذى يتولد عن تدبير دنىء والذى ينتهى بفعلة مهينة.

فى مثل هذه الأحوال هل من المعقول أن نصرح باختلاط الرجل بالمرأة بدون خطر على هناء الأسرة أو على سبيل المحافظة على الأخلاق؟ إن شريعتنا تقول لا . إن للرجال عندنا مجتمعات تحرم على المرأة، وللنساء اجتماعات لا يخطوها الرجل، وهذا ما توصى به شريعتنا ، وقد أرادت بذلك أن تحمى المرأة والرجل من ضعفهم وأغلقت نهائيا منبع الشر، لأن الفرص الملائمة، كما يقال، تسهل للص وتدفع أيضا إلى الزنا . إن الحب المفاجئ أو كما يسمونه حب الصاعقة لا يكاد يوجد فى الحياة العادية. وبوجه عام، فإن الحب يولد من العشرة ومن اعتياد الرؤية فينشأ التعارف، وكلما تكرر الاتصال كان العرض للحب، وكلما اقتربت النار من البارود تهيأت الفرصة للاشتعال. إننى أعلم جيدا أنه يجب علينا أن نأخذ فكرة طيبة عن الجنس اللطيف. . وأن النساء اللواتى يعرفن مقدار جمالهن يعرفن أيضا كيفية الدفاع عنه. ولكن فى النهاية لا نجد قلاعا لا يمكن الاستيلاء عليها لأنه بعد المعارك الكبيرة لابد أن تدق ساعة التسليم. إنها مسألة صبر وتخطيط وتدبير. . وبعد ذلك عندما يهزم أحد الغزاة فإن الأكثر مهارة هو الذى ينتصر. والمهم أن يكون الإنسان فى ظروف ملائمة النجاح ويختار الوقت المناسب للهجوم النهائى لا أكثر ولا أقل.

ويجب أن نعترف بأن تقاليد بعض الطبقات الأوربية قد ضاعفت مع القدر المناسبات التى تسهل هذا الانهيار - مثل بعض التجار الذين يعملون كل ما فى وسعهم لتصريف بضاعتهم - ولم يهمل شىء يساعد على ذلك. . فمن نزهات طويلة بعيدة عن العزال فوق الحشائش الخضراء الناعمة. . إلى حمامات البحر التى ترتدى فيها المرأة لباسا على جسدها مثل القالب الذى يفسر كل شىء مستور وترتمى فى أحضان صديق يعلمها السباحة. . إلى موائد شهية فيها النبيذ الذى يفك عقدة اللسان، وحيث تتقارب الركبتان وتتلاعب الأقدام فى نعومة تحت المائدة، خصوصا الحفلات الراقصة التى تلبس فيه النساء ملابس تكشف عن أكتافهن وتنبعث منهن الروائح

المسكرة ويستسلمن لأحضان الرفقاء فى حلبة الرقص.. آه.. إننى أعلم أن كل هذا لذيذ جدا وأن الذي لا يحبه لايكون رجلا وخصوصا إذا كان زوجا.!.

وكذلك هناك أخيراً حالتان، الأولى إذا كان شخص يحب زوجته بحنان وشغف فإننى لا أجد تفسيرا لكل هذا الإهمال المطلق، فإن الغيرة هى جوهرة الحب ولايمكن أن يوجد هذا الهدوء فى المشاعر عندما نحب حقيقة، بالعكس فإننا نغار من شخص ومن كل شىء، إنها حياة متقلبة أكثر ما فيها من مرارة هو فى نفس الوقت أحلى ما يمكن للقلب البشرى معرفته. أما إذا كان شخص لا يحب زوجته فهنا الكرامة تبرز بكل معانيها، شخص غير محبوب نعم، ولكن أن يكون موضع سخرية وأن يكون الشخص الذي تريه زوجته من كل لون فيرى فى أسرته أشخاصا غرباء يدخلون ويتخذون صورا حية أمام رب المنزل، فهذه أوضاع هى فى الغرب كما هي فى الشرق لابد أن تثير كرامة أسهل الأزواج، إن أغلب المبارزات وجرائم القتل التى تقع فى فرنسا إذا لم تكن بسبب الخيانة الزوجية، وليست غالبا بسبب الحب، إنما تكون بسبب الكرامة.. إنها مسألة الشرف التى تجعل هؤلاء الأزواج يحملون السلاح لأن قلوبهم وقتئذ تكون فى مكان بعيد.

وبعكس العادات الأوربية - التى يظهر أنها خلقت لكى تجعل اللذة هى التى تتحكم فى هذه الدنيا الوضيعة كما سجلت - فإن عاداتنا قد استمدت مبادئها من الفضيلة الزاهدة، ولذلك فالمطلوب منا التضحية بالملذات.. ومنذ آلاف السنين وهذه التضحية الكبرى يمارسها المسلمون يوميا، والشىء الغريب حقا أن فى الحياة الإسلامية يوجد ذوو الأفكار الحرة والكفرة والمتشككون والماديون، ويوجد كثيرون اختاروا فى جميع تفاصيل حياتهم العادات الأوربية، ولكن لايوجد ولن يوجد مطلقا مسلمون يقبلون أن يكونوا أزواج حسب العادات الأوربية، ولكى يستسيغوا هذا السلك ربما ينتظرون تطبيق شريعة فوضى العلاقات على الناس جميعا.

نحن نحس جميعا أن لدينا نظاماً يقوى رباط الزوجية؛ فإننا لانعرف نساء غير نسائنا ، ونساؤنا لايعرفن رجالا غيرنا ، وبما أن فى طباعنا طيبة فمن الصعب أن لا نتفاهم، ولا شىء يعكر صفو حياتنا ، والتوافق إذا قام على أساس يكون مستمرا ، والدوافع السيئة والمغريات الخارجية لن تصل إلينا ، هذه حقيقة يجب على الأوربيين أن ينتهوا إلى الاعتراف بها .

يجب أن يعترفوا بأننا عندما نتزوج نتقدم لزوجاتنا بروح جديدة وبقلب أكثر حنانا وبشعور أكثر نضارة عنه . إن الزواج عندنا يعتبر بداية بعكس الحال عندهم فإنه يكاد يكون دائما نهاية . إن خيبة الأمل التى تحس بها الفتاة الأوربية المسكينة بعد الزواج عندما تكتشف أن زوجها عنده إستعداد طيب للاستقرار والراحة، لاتقارن بالسعادة الحقيقية التى تبديها الزوجة المسلمة عندما تجد فى زوجها مثل هذا الاستعداد . فهى لم تعتد التردد على الحفلات الراقصة ولا الأوبرا ولا قهاوى الموسيقى ولا الأندية، فإن كل وسائل التسلية هذه يجدها المسلم فى بيته فى صحبة زوجته وأولاده الذين يكرس لهم كل أوقات فراغه.

وهل يفهم من ذلك أن جميع الأزواج فى مصر هم مثال للوفاء والفضيلة؟ لا . . ولكنى أقطع بأن ما يعتبر قاعدة ثابتة فى كل ما يتعلق بموضوع الخيانة الزوجية فى أوربا لا يعتبر عندنا إلا استثناء ، وربما لا أريد أيضا أن أقول أننا فى مصر نعتبر أفضل من أوربا فى هذه الناحية ، إنه خير للأزواج والزوجات ألف مرة أن ينأوا بأنفسهم عن الظروف السيئة حتى يخرجوا أطهارا سالمين.

عن الديـن

كنت لا أحب لأسباب فى نفسى وللذوق السليم أن أتحدث عن الدين .. ولكن سـوف أتغلب على هذا الشعـور لأنى وجدت فى كتـاب الدوق داركور أن المسـألة الدينية تحتّل منه الجزء الأكبر، ولست بعيدا عن الظن بأنها هى التى ألهمتـه فكرة الكتاب، ولذلك فإنى استأذن لأكرس بدورى بضعة أسطر حول هذا الموضوع.

إن الدوق قدم للناس أسوأ أيام الدين الإسـلامى، وحاول في أكثر من موضع من كتابه أن ينسب إليه خلق حالة من الجمود خنقت روح البحث وكل رغبة فى المعرفة، وأن جميع العيوب التى أصابت الشرقيين أراد أن يلصقها بالإسلام، وهو يقول باختصار : إن الإسلام دين سىء لأنه أوجب حالة عقم ذهنى لدى المسلمين، وأن المسليمن فى حالة ركود ذهنى لأن الإسلام أوجد تلك الحالة ، وهذه حلقة مفرغة لاتنتهى.

فلنتتبع تلك الدراسـة ولنبحث بطريقة أعمق قيمة هذا الرأى.. ولماذا تسبب الإسلام فى هذه النتائج السيئة؟

إن كل العالم يعرف بأن دين محـمد هو التـأكيـد المطلق لوحدانية الله. وكل من يؤمن بهذه الوحدانية وبرسالة النبى يكون مسلما ، ثم تأتى بعد هذا الممارسة الدينية والفروض التى يجب على المسلم أن يؤديها وهى: الصلوات الخمس كل يوم والصوم فى شهر رمضان، والزكاة على المال بنسبة واحد إلى اربعين لصالح الفقراء ، والحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلا ، وهذه هى كل دياناتنا . إنها سهلة لدرجة أن الرجل غير

المتعلم يفهمها دائما ، وهي تتكون من عقيدة ثابتة من يوم ظهورها لم تتغير حتى الآن، وهي اليوم مثلما كانت بالأمس وهي هي التي ستكون غدا .

والقرآن كما هو كما هو معلوم هو الكتاب المقدس الذي يحتوي على عقيدة هذا الدين الأساسية وعلى المبادئ التي اتخذت بمثابة قاعدة لتنظيمنا السياسي والمدني، وهو أيضًا كتاب مثالي في علم الأخلاق البحتة والفلسفة الواقعية والسببية، وبجانب قواعد المعاملات نجد مبادئ حكيمة ووصايا إنسانية واجتماعية وتشريعية ممتازة، ويمكن القول بأن تلك القواعد قد شغلت معظم الكتاب أما الجزء الذي يبحث في علم اللاهوت بسيط للغاية.

إن أحاديث النبي المعبرة التي استخدم فيها ذكاءه الممتاز هي التي جعلت من هذا الجمهور الهمجي شعبا قويا ومنظما أمكنه أن يتحكم في غرائزه السيئة ويهذب من عاداته ويرتفع بمثله في الحياة مما أعطى للعرب تلك السمعة الطيبة في سمو الأخلاق التي يحتفظون بها حتي اليوم، وهو الذي بث في النفوس فكرة المساواة والأخوة التي تسيطر على كل فرد مسلم، وهو أيضًا الذي أعطانا أجل الدروس عن حب الصدق والكرم والطيبة والتسامح . . وإليه يرجع الفضل في أن المسلمين يحترمون أنفسهم، ويتقبلون المصائب ويزهدون في الحياة، والقرآن هو الذي يوصي المسلمين بالعلم والعمل ليسيروا في معركة الحياة على الأرض.

ولايمكنني أن أقاوم رغبتي في أن أنقل لكم بعض آيات من القرآن الكريم للتدليل على صدق ما ذكرت: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ .

وفى القرآن ما معناه أن عمل الخير لايعنى مجرد الصلاة وتقليب الوجه من الشرق للغرب، بل أن الخير يعنى أن نؤمن بالله وبخلود الروح وبالملائكة وبالكتاب المقدس وبإعطاء المال الذى نحبه لأهلنا وللأيتام وللفقراء وللغرباء وأن نعتق العبيد. بشر الإسلام بالحكمة والنصيحة، وناقش وديا الذين لايؤمنون. عامل الشحاذين بالمعروف. إن الله يعطى خير الجزاء للذين يتحكمون فى شرهم ويسامحون إخوانهم. طوفوا بالعالم وتمتعوا بأحسن الأشياء التى خلقناهم لكم.

وهذا الدين هو الذى ألهم النبى الأقوال القيمة التي نجدها فى أحاديثه الكثيرة وأننى أذكر منها قولا يشبه ما قاله المسيح: «حب لأخيك ما تحبه لنفسك». وهذا الدين هو الذى ألهم عليا الخليفة الرابع للمسلمين، هذه الأقوال التي يعرفها كل مسلم ويقولها فى كل مناسبة: «إن السماء لاتمطر ذهبا ولافضة» «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» من هذا نر أن الدين يشدد فى الواجبات التى يجب على المسلمين أن يعلموا بها أنفسهم وإخوانهم، ولا يعلق أهمية كبرى على الصلاة.

إن الدوق داركور وكذلك معظم الأوربيين الذين ألقوا نظرة عابرة على القرآن يؤكدون أن هذا الكتاب المقدس ملىء بالمفارقات، أليس من الوقاحة أن يحكموا على هذا الكتاب الجليل بدون أن يكونوا ملمين باللغة التى كُتب بها، وبدون أن يعملوا حسابا لروح شرائعه أو يدركوا قصد شرعنا والملابسات التي أُنزلت فيها هذه الآيات؟ هل يمكننا مثلا أن نفهم ونقدر قانون نابليون إذا كنا لا نراجع الملفات التى تحتوى على المناقشات والأراء التى أوصلت لقبوله؟

إن المفارقات التي يصطدم بها الأوربيون ليست إلا ظاهرية، ولا وجود لها عند الذين يدركون أسرار كتابنا المقدس، إنما نجد المفارقات حقا فى تفسير القرآن،

وهذا أمرا لامفر منه، كما كان فى الحديث الذى دار بين عمر وبين ابن عباس الذى قال بإمكان ظهور تباعد فى الآراء بين المسلمين فى طريقة فهم أوضاع من القرآن، فدهش عمر وسأل صاحبه: كيف يمكن لشعب واحد له نبى واحد ويفهم القرآن بطرق مختلفة؟ ولكن ابن عباس قال له يا أمير المؤمنين.. إن القرآن ظهر بيننا وقرأناه ونحن نعلم لماذا وتحت أى ملابسات نزلت تلك الآيات، ولكن الشعوب التى ستأتى من بعدنا وتقرأه لن تتعرف روح هذه المبادئ، وعلى ذلك ستكون لهم فيه آراء مختلفة وسينقسمون وقد تقوم الحرب فيما بينهم. عند النقاد كانت رسالة محمد سياسية أكثر منها دينية، ومن وجهة النظر الدينية البحتة؛ فإن النبى أراد بكل بساطة أن يصلح من شأن المسيحية وينقد وحدانية الله التى غاصت فى الفكرة المظلمة المعقدة التى هى «الثالوث المقدس»، وأن يقضى على تلك الخرافات السخيفة والمظاهر الرمزية التى جاءت عن الوثنية الرومانية واليونانية. ولنعد إلى المسيحية عند ظهور نبينا، فإن تلك الديانة أثارت مناقشات كان أساسها ألوهية المسيح تلك الفكرة التى كانت مقبولة فى وقت ما ومرفوضة فى وقت آخر من الحواريين، وكانوا يناقشون أيضا ألوهية روح القدس وطبيعة المسيح وهل هى حقيقة ألهية أم إنسانية أم مختلطة؟

إن المسيحية قد ألغت العقل والإدراك الإنسانى، وكان أهل الثقة من رجال الكنيسة يقولون لاتبحثوا ولكن أمنوا. لقد ارتفعوا إلى حد الإعجاب بالزهد فى المال. كانت ديانة غير مفهومة من أغلبية الناس.. تبشير بالعزوبية وتعذيب الجسد.. فتدل بذلك على منافاتها للطبيعة البشرية، وكانت أداة لدسائس ومنبعا للمؤمرات، ومزيجا مخيفا لأفكار طيبة وأخرى سيئة، وخليطا من الأنظمة غير الواقعية، ومجموعة من المبادئ المتناقضة تتصارع مع العقل ومع السلطة ومع الطبيعة. إنها شىء غير معقول بالمرة، فهى سلسلة من المفارقات كقطعة قماش مهلهلة وكل ذلك باعتراف أشد

الأشخاص تدينا بالمسيحية، وإزاء كل تلك التضاربات ظهر رجل من البلاد العربية نادى بالعقل والاتزان.

ومن كان هذا الرجل؟ يجيب الدوق داركور بأنه رجل منافق فاسد يهوى اللذة.. آه يا سيدى الدوق.. وهل أنت حقًا مقتنع بهذا الذى تقول؟ إنه يحب النساء وله زوجات كثيرات كما تقول.. وأنا أجيبك بأن جميع تلك الزيجات كانت لأسباب سياسية وبذلك ضمن مساعدة أسر الأصهار،..، وهل الرجل الذى يحب المتعة يتزوج من طفلة عمرها تسع سنوات و من امرأة فى سن الخمسين أو من جارية أو امرأة قبيحة الشكل؟ ومحمد تزوج من النساء الأربع.. ولكن هل القناعة فى حياته التى كانت تجعله يرضى أحيانا ببضع تمرات من البلح لوجباته يمكن أن تفى مع طبيعة كثيرة المطالب؟

وهل يمكن أن تتصور جديا أن رجلا أخذ على عاتقه إصلاح الدين والعادات وقوانين العالم أجمع والذى حقق هذا المشروع الجبار يكون لديه الوقت ليحيا حياة أى عربيد باريسي؟ وهل من كان مثل باستور وليتريه وهوجو وأديسون يمكن أن يُشك فى أنهم يعيشون حياة فاسدة حتى ولو كانوا يأوون مائة امرأة؟ وهل العمل الذى أنجزه محمد من وجهتيه الدينية والسياسية لا يفوق فى عظمته وفى متاعبه وفى نتائجه، كل ما أنتجه الفكر الإنسانى فى الماضى والحاضر؟.

حقيقة أن محمداً يقول أنه يحب النساء، كما نقل عنه الدوق داركور، ولكننا لا نفهم المقصود من أحاديثه إذا قلنا بأنه كان يحبهن لأجسادهن.. إنه أحبهن مثلما كان يحب الصلاة، إنه كان شعوراً بالعطف الخالص مليء بالاحترام والمعزة والحماية، ومن هذه الناحية فإننى سأقول أن محمدا أحب المرأة كثيرا.

إن المرأة كانت عندالعرب الوثنيين شيء رخيص ، وكانوا يسيئون معاملتها ، وكانت فى أكثر الأحيان تدفن حية عند مولدها ، فلما جاء محمد أطلق سراحها ، وجعل لها حياة محترمة واسترد لها حقوقها المهدرة، وكان من أوائل أحاديثه قوله: «اتقوا الله في معاملة الضعيفين المرأة واليتيم» ، وهكذا يفهم المسلمون حب النبى للمرأة، أن الأسقفي في كتابه «فوائد الأخبار» ، وأبو إسحاق إبراهيم فى كتابه «أصول الفقه» ، والمقنع؛ اتفقوا على تفسير الحديث وعلى استبعاد فكرة المتعة عن ذهن النبى ، وتلك كانت وسيلة فى التفسير للفروق الدقيقة فى المعانى المختلفة للكلمات التى لا يستطيع الأجنبى فى أن يميز بينها .

والدوق داركور لايريد أن يقف عند هذا الحد ، وليبرر الرعب الذى استشعره عن حياة النبى محمد ذكر قصة الـ ٧٠٠ الذين أمر النبى بقطع رؤوسهم. ولكن هذا حادث تافه فى تاريخ الحروب وقد كان محقا وقبل ذلك متحققا من الدوافع المشروعة لهذا الإجراء ، وإذا عدنا إلى تلك الحقبة نجد فى بداية الإسلام الدساسين والمتآمرين والجرائم التى ارتكبوها ضد شخص النبى ليقضوا على هذه الديانة الجديدة ، ولابد أن نستخلص أنه لولا تلك الإجراءات المشددة لمات هذا الوليد فى مهده.

وهل كانوا يريدون من النبى أن يضحى من أجل هؤلاء اليهود بحياته هو وأفكاره! أى أن يضحى بالعظمة والازدهار والمستقبل المشرق الذى كان يعده لوطنه وللإنسانية. . أليست هناك نخوة وطنية وإنسانية؟ وهل من الممكن حقا أن تقوم ثورة كبرى دون أن تسكب نقطة من الدماء؟ ألا يكلف أى اختراع بسيط حياة الملايين من الضحايا؟وهل فى جيوش قسطنطين لم يصبح الصليب هو شعار المعارك الدموية وأصبح المسيح الوديع إلها للحرب؟ وهل نسينا حروب المسيحية فى القرون الوسطى؟

نعم.. إن المسلمين قد أعلنوا الحرب على الكفار ولكن لم يكن هذا بقصد أن يفرضوا عليهم دينهم وإنما كان بقصد عمل فتوحات مثل جميع الشعوب حينذاك، وحتى الآن تلجأ أوربا المتحضرة إلى سحق بعض الشعوب التى لا تقوى على الدفاع عن نفسها تحت ستار نشر الحضارة بينهم؟ وهنا يشهد التاريخ العادل بأن المسلمين لم يقهروا الضمير مطلقا، ولم ينصبوا حطب الحريق ولم يقوموا بتعذيب مسيحى أو يهودى، ولكن على العكس تماما تركوا لكل الذين انتصروا عليهم حرية الدين والعادات وأظهروا كرم الأخلاق بإشراكهم فى حكومات بلادهم.

أرجوكم أن تحكموا بلا تحيز وافصلوا بين العمل الدينى وبين العمل السياسى، ستجدون أن الأول قد انتشر بلا إذلال ولا ضغط ولا قسوة وفى جو من حرية الضمير المطلقة، أما من الناحية السياسية فقد أريقت الدماء فعلا، ولم يكن السبب فى إراقتها أقل عدلا ولا منفعة من السبب الذى حارب من أجله الأسكندر أو نابليون مما جعل أوربا وقتئذ فى حالة حرب وتسلح مستمر.

وقبل أن أختم هذا الكلام النظرى عن الدين، أود أن أفسر فى بضع كلمات مذهب القدرية الإسلامى: إن الأوربيين يتصورون بغير تعقل أن المسلمين أشخاصا مسلوبو الحرية وينتظرون السماء تمطر عليهم أفراخا مشوية! وهذا خطأ فاحش فجملة «إن شاء الله» التى يرددها المسلمون لا تعتبر إلا ترجمة لجملة «إن أراد الله» عند المسيحين.

إن حرية الإنسان ذكرها القرآن بطريقة قطعية لا تقبل الشك، وإن فى الآيات التى ذكرتها من قبل وغيرها ما يبرهن على ذلك، وعندما يقول الله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ وعندما يقول: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فإنه يربط فى وضوح النتائج بالأسباب، والجزاء على الأعمال

بالنتائج. أليس بمثل هذه الطريقة وضع «أوجست» نظريته وتوسع فيها «ليتريه»؟ ولكن من المؤكد أن الإنسان ليست له حرية مطلقة، فهناك عوامل كثيرة تحد من هذه الحرية مثل المناخ والتربية والبيئة وخصوصاً عامل الوراثة الخفى، وهذه العوامل الأكيدة تؤدى حسب القضاء والقدر إلى نتائج مؤكدة.

والقضاء والقدر هو الذى أراد لابن المجنون أن يولد وفيه بذرة الجنون ولايمكن للإرادة الإنسانية أن تفعل شيئاً، كما توجد أيضاً التصرف والأشياء غير المتوقعة، ومجموعة الظروف الحسنة أو السيئة التى تؤثر على تصرفات الإنسان، كل هذا يشكل فى نظر المسلم القضاء والقدر أى الشئ المجهول والصدفة والحظ، وهو الإرادة الخفية التى لا يمكننا أن نعمل لها حسابا، وهو الشىء الذى لا يمكننا أن نتقيه أو نرغبه أونخفيه وهو الشىء الذى يجعل ميكروبا ما يقتلنى ولا يقتل جارى، أو أن يهوى حجر على رأس برىء عابر سبيل فيفتح جمجمته. ومن المفهوم كذلك أن القدر لايستطيع أن يمنع شخصاً عن العمل، ولا أن يتقى شيئا بالحذر، بل عليه أن يعمل كل ما فى وسعه ثم يستسلم للقضاء والقدر.

وربما لن يكون من غير المفيد ذكر قصة الأعرابى الذى ترك جمله أمام الجامع دون أن يربطه، وعندما دخل الجامع قال للنبى إننى تركت جملي للعناية الإلهية، فرد عليه النبى قائلا: «إذهب وأربطه ثم اتركه للعناية الإلهية» (اعقلها وتوكل). ولايفوتنى ذكر الحديث النبوى: «إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا».

وأظن أنه بهذا يمكن احتساب كل الناس من القدريين. وأقول مع هذا أننى لا أجد فيه سبباً للتكاسل بل أراه دافعا إلى العمل، وذلك هو تفسيرى للقدرية التي كانت عند أشد الرجال العاملين وأخص بالذكر نابليون، وأظن أخيراً أن القدرية موجودة فى جميع الأديان تقريبا بما فيها المسيحية، ألم يقل المصلح لوثر «إن أحسن الأسباب

أو السبب الوحيد لنزول النعمة يكون باختيار الله وإرادته دون كل العوامل، وأن أعمال النية لا تكفى للشفاعة وبالتالي لا تفيد الإنسان ، وأن إرادته أسيرة فى نفسه وأن الله وحده هو القادر على حمايتنا».

إنه من المفيد للدين عند ظهوره أن تكون المبادئ التى ألهمت على تكوينه متماسكة لا الزمن هو الذى يرقد تماسكها ، فنتمكن بذلك من الحكم على قيمتها . ولذلك فقد رأينا أوائل العرب تحت حكم الإسلام يقبلون على العلوم والفنون بنهم وشغف، ويسابقون العالم في ممارستهم الصناعة والتجارة ويصبحون فى أقل من قرن من الزمن مسيطرين على جزء كبير من العالم.

وإنى أسائل الدوق داركور عما تسبب فى الحركة العجيبة للنشاط الذهنى والأدبى ألم يكن الفضل فيها يرجع إلى الدين الجديد؟ ويوجد في تاريخ العرب فترة ازدهار طويلة بلا جدال ظهر فيها علماء لهم أسماء ومؤلفات وصلت إلينا وعالجوا فيها فروع المعرفة الإنسانية بكل مهارة، وهذا أمر لايمكن إنكاره برغم كل مزاعم الدوق داركور.

لقد تقبل الإسلام جميع الاصلاحات والتطورات، ولكن بعد أن أعطاها الطابع الإسلامى، ولقد أشار علماؤنا إلى وسائل ونظرية يجب تغييرها كلية لتلائم الزمان والمكان.. وليس هنا مجال تفنيدها ولكنها وجدت فعلا. وإنى أتساءل لماذا لايلجأ المسلمون فى هذه الأيام إلى استخدام هذه النظريات كوسيلة للارتقاء . إن المسلم لديه أفكار تختلف عما لدى الأوربى، وما يروق للأول قد لا يروق للثانى إلا نادرا ، وعدا ذلك، فإن الطيب والمفيد لهما مظاهر متعددة، وإذا كان يوجد الآن بجانب الحضارة الأوربية حضارة أخرى إسلامية محضة فهذا لن يكون إلا كسبا للتقدمية.

الإسلام الذى كان فى بدايته مثمرا للغاية كيف يصبح فجأة عقيمًا ؟ هل يكون قد تغير بالصدفة؟ لا الدوق داركور يفترض ذلك ولا أنا أيضا . . . ولكنى أؤكد بأن الدين الإسلامى لايمكن أن يتغير ، فإن أساسه استمر كما كان ، وهو اليوم مثلما كان بالأمس ، والمسلم هو الذى يؤمن بأنه لايوجد غير إله أحد هو الله وأن محمدً هو نبيه .

وقرآن الأمس هو قرآن اليوم ، ولا يوجد حرف واحد أضيف إليه أو حرف واحد حذف منه ، لكن إذا كان الدين لم يتغير فإن الأشخاص قد تغيروا بشكل فظيع . . فهل المسلمون اليوم مسلمون حقًا ؟ إننى أتألم غاية الألم كلما فكرت فى ذلك . وهل يتفق الإسلام مع الخلافات والانقسام والحسد وعدم الاكتراث والكسل والجهل والخرافات التي نراها بين المصريين الذين لم ينالوا قسطا من التربية والتعليم والذين يكادون يعيشون عزلة عن مبادئ ديننا السليم؟ وهل هو الإسلام الذى أمر بفتح نواد ليلية ونشر الربا حتى عم الأرياف جميعا ؟ وهل هو الإسلام الذى أوحى لعلمائنا أن ينظروا للحساب والجغرافية والكيمياء والطبيعة وعلم الفلك على أنها أشياء خطيرة فيها نفاق؟ وهل هو الإسلام الذى طلب من الشعب المصرى أن يلقى بنفسه وبأمواله تحت أقدام رؤساء طغاة وجبابرة؟ وهل يقبل الإسلام بتكريم الجاهل؟ وهل يسمح الإسلام لزوج بترك زوجته وأولاده لإشباع شهوة دنيئة؟ وهل الإسلام يقبل أن تمتد العفانة بسبب القذارة والإهمال حتى الجوامع؟ نعم . . إن الأشخاص وحدهم هم الذين تغيروا ! وتحت سيطرة رؤساء فاسدين وفى حماية سلسلة من التحكمات الأجنبية الوحشية الجبارة الواحدة أشد من الأخرى ؛ انحل الأشخاص تدريجيا وفقدوا يوما بعد يوم بعضا من فضائلهم وأخذوا ينغمسون فى الرذائل .

ولقد تخلوا عن العلوم والفنون تدريجيا حتى أصبح الجهل المطبق هو المسيطر على عقولهم، ومن ثم رأينا أشد الخرافات سخفا تنتشر فى كل جانب، وأصبح الدين هو أيضًا شكلا ورمزا وكلمة متعلثمة بدلا من أن يكون الدليل العملى للنفوس والمنارة التى تضىء الأعمال. وذلك فيما أعتقد يفسر تماما حالة الانحطاط التى انغمس فيها المسلمون، وأنى ألاحظ أن المسلمين كانوا على مستوى عال عندما كانوا يطبقون سياسيا النظام الإسلامى، وكذلك كانوا عندما كان سلوكهم فى الحياة مطابقا للأخلاق وللتعاليم الإسلامية؛ وعندما تخلوا عن تلك المبادئ كان هذا إيذانا بأفول نجمهم، وإذا كنت أريد أن أبين أسباب انحدار العالم الإسلامى، فإنى أضع يدى بين العوامل المهمة بل على رأسها عدم تنفيذ التعاليم الدينية.

ومهما يكن من أمر فمن الملاحظ أن الدين الإسلامى لم يتخل أبدًا عن تكوينه ومبادئه الأولى مثل المسيحية، ومنذ القرون الوسطى وكذلك إلى اليوم انحراف الفكر المسيحى عن منبعه، فإن براءة البابا من الخطأ، وعزوبية القساوسة والاعتراف وبيع صكوك الغفران عن الخطايا الماضية وحتى عن الخطايا المستقبلية والترانيم فى الكنائس والأنوار والصور والملابس الكرنفالية متعددة الألوان؛ كل هذه الأعمال دخيلة على الدين المسيحى بواسطة رجال الكنيسة، ولم يكن هناك إلا الاصلاحات التى نادى بها «لوثر» و«كالفن» التى انقذت الفكر المسيحى من ضغط كبار رجال الدين الذين لم يتورعوا عن السخرية من قصة المسيح، والذين بمسلكهم المبتذل ألقوا بالدين فى الوحل.

إن المسلمين يعتقدون أن الدين الإسلامى هو من دين المسيح أو هما دين واحد، وأن رسالة محمد ما كانت إلا لاصلاح الفساد الذى طرأ. ولهذا السبب، وطالما أن المسيحية لم تتطهر تماما، فسيظل المسلمون بلا أدنى شعور أمام كل حسناتها.

وفى الواقع أن كل المراقبين لاحظوا أن المسلمين لم يتأثروا مطلقا بالدين المسيحى، وهذا ما يزعج الدوق داركور ولكى يهدئ من روعه فإنه أخذ فى مهاجمة المسلمين بزعم أنهم أعداء للحقيقة وأنهم من الفساد لدرجة تجعلهم لايتأثروا.

فلنترك جانبا هذه الخواطر إذا شئتم ودعونى أقول الآتى: اليوم وقد تمت التجربة، والدلائل الصحيحة قد أثبتت بأن الإسلام فى تقدم مستمر سواء بين الشعوب الهمجية أوبين الشعوب المتمدينة، كل ذلك بلا جيوش أو مال أو مبشرين، فى الوقت الذى زيف فيه الدين المسيحى بواسطة رجال الدين، وتقوقع فى داخل نفسه باسم العلم والسياسة، يبحث بدون جدوى عن طريق ينفذ منه إلى المناطق المتأخرة.

القول الفصل الذى أود أن أقوله للدوق هو أن العقلية البسيطة قد تدرك دائما الأول بينما العقلية القوية لايمكن أن تهضم المعنى الآخر.

الأخـــلاق

المعنى الخلقى يتفاوت عند الإنسان حسب التربية والدين والعادات، ولا يمكن أن أتصور - كما تعلمت - بوجود أخلاق واحدة عالمية، والملاحظة حتى السطحية، للناس تبين أن كل عمل يتصل بالأخلاق والضمير نجد له صفات من كل لون على جميع المقاسات؛ فالذى يتغذى بلحم البشر والذى يقتات بالنباتات والانجليز واليهود والبوذيون، كل هؤلاء يفهمون ويمارسون التعاليم الأخلاقية بطرق مختلفة. حتى فى المجتمع الواحد نجد إلمام الفرد بالأخلاق يتباين.. فالملكية التى تعتبر سرقة عند بعض الناس (الرافاشول) هى حق مقدس عند الرأسمالى.

والمسلمون ينظرون إلى المثل الأخلاقية بنظرة تختلف نوعا عن نظرة المسيحيين لها، كما أنهم يواجهون الحياة ويمارسونها بصورة مختلفة أيضاً. وفضلا عن ذلك؛ فإن المسلم لايركز مطلقا كل آماله على هذه الحياة، فإنه غالبا ما تكون له أوهام يحلم بها راضيا ويفضلها على الحقيقة مهما كانت مغرية. وبوجه عام؛ فإنه يظهر عدم اهتمام بكل ما يجذب الأوروبيين ويغريهم، فالمائدة الشهية والمناظر الممتعة ومباهج الحياة التى تشغل جانبا كبيرا من حياة الغربيين ليس لها إلا تأثير بسيط على نفسه. وعلى ذلك فإن المسلم عموما لا يهتم بالسعادة التى يجرى وراءها الناس فى هذا العالم، بل هو يشك حتى فى إمكان وجودها فى هذه الدنيا، وهو يقصر نفسه على أحلامه التى تقوم عليها المتعة الوحيدة الحقة والتى يرى أنها الجديرة بشغل ذهنه، زاهدا فى المال

وفى ترف وفى المقدرات والمباهج التى ينظر لها على أنها أشياء عابرة كاذبة وعلى أنها أفعالا تبعده عن الطريق المستقيم، ولذلك نجده وقد بدا لنا وقورا وصامتا وحزينا.

وهو يخشى القيام بالوظائف العامة لأنه سيحاسب عن كل عمل ويخشى أن يستجوب بشدة عن الطريقة التى أدى بها هذا العمل، وهو يتحاشى الاختلاط بالناس لأنه يجد خطورة فيما يقدمونه من وسائل الترفيه، وهو لا يرغب في الربح الكثير لأنه يجب أن يتأكد أولا من أنه عن طريق حلال، ولذلك فهو يكره أصلا هذا المعدن الرخيص (النقود) وأيضا فهو ينفقه دون أسف، وكثير من المسلمين أضاعوا ثروتهم فى مساعدة الآخرين، فهل هناك دليل أقوى من هذا على الزهد فى المال؟ وأن عددا كبيرا من المسلمين اليوم يقبلون الأرباح ولو أنى لا أعرف أحدا منهم يتعامل بها بقصد المنفعة. وكذلك هل تتصورون أن المتعة الجنسية فى نظره ليست إلا متعة رخيصة لرغبة وقتية؟ إن جميع الصعاب التى يصادفها المرهفون فى الحب وتسمو بهم إلى درجة عالية من الفن وتنال تقديرا عظيما فى الغرب ليس لها صدى فى نفوس المسلمين الأبرياء! وبما أننى قد تجونت كثيرا فى هذه النقطة الوعرة فإننى أضيف أيضًا بأن المسلم مهما كان فاسقا فهو لايستسلم كلية للفجور بل يحتفظ دائما برزانة تمنعه من أن ينحدر إلى أحط الدرجات.

«إن فى قلب كل رجل شيطانًا يرقد».. كلمة قالها شاعر معروف، وهو على حق خصوصًا فى أوربا حيث توجد مفاسد يشمئز المسلم من فعلها، ومن بعض الحيل التى لايمكن أن يستسيغها، ولذلك فإن المسلم غالبا ما يكون طاهرا، وإذا ما وقع مرة فى الفسق فإنه لا يتردى إلى حد مخالفة القوانين الطبيعية.

إذن لماذا يدعى الدوق داركور أن الإسلام يشجع بلا قيد على المتعة المضطرمة للشهوة إلى حد النهم، وهو يتحدث دائما عن الشهوة والفسق والفساد ولكنه لا يقول أين رأى كل هذا . إن الشرقى الذى يزور أوربا مرة يعود بلاشك مبهوراً بالجمال المتنوع الذى أوجدته الحضارة المعربدة فى جميع أركان البلاد ، ولكن هذا الإعجاب يمتزج دائماً بشعور الاشمئزاز الذى تبعثه حالة الانحلال الخلقى والضلال الذى ينتشر فى كل مكان، وهل يحس الأوربى بنفس هذا الشعور عندما يزور بلداً إسلامياً؟ وهل لا يتضجر غالبا من نقص المتعة عندنا؟

إن احصائية فرنسية تؤكد أنه يوجد من بين النساء محترفات الفجور رسميا واحد وأربعون فى المائة من القاصرات، وأن أكثر من ربع المواليد أطفال غير شرعيين، وأن المجتمع يفقد سنويا حوالى مائة وخمسين ألفا يموتون فى لحظة الولادة أو فى أثناء الحمل، والاحصائية لا تذكر إلا حالات الاجهاض وما يستتبعها من حالات قتل الأطفال المعروفة. إنها يجب أن تقدر بحوالى نصف مليون ضحية وكما قال الكاتب الكبير «يوليوس سيمون» : « إن الطفل الطبيعى ينجو من الموت باعجوبة» . ألا يبين هذا الرقم الكبير حالة الفساد المتزايدة؟

إنكم تتهموننا بأننا مازلنا نمارس الرق حتى يومنا هذا ، ولكن ألا ترون أنكم تستعبدون السود بمنتهى الفظاعة؟ إن هذه المعاملة القاسية قد كتبت عنها جرائدكم وسجلت عليكم من معظم الكتاب فى جميع أنحاء العالم بحيث يكون من الفضول تكرار الكلام فى هذا الموضوع.

وبالاجمال فإن جماعة الشهوانيين فى أوربا لم تنقرض بعد ، بل على العكس يوجد رجال كثيرون ليس لهم غرض فى الحياة إلا أن يتمتعوا بكل شىء وبجميع

السبل، والبعض منهم يفخر بأنه شهد وعمل أكثر من اللازم لدرجة أن احساسه تبلد ولم يعد يخجل أو يتأثر بشيء، وهؤلاء هم الذين فقدوا الاحساس السليم، فضلا عن الذين اصيبوا بنوع من الهستيريا والانحطاط والفساد. وكذلك يوجد نساء كثيرات لا يرغبن فى أن يكن آلات لتفريخ الاطفال ويفضلن فقط أن يلمعن فى العالم !

انا نعلم أنكم اخترعتم أدوات حربية يمكنها أن تفنى ملايين البشر فى ثوان معدودات، وآلات تقرب المسافات وأخرى حسابية تعطى للفرد أو تأخذ منه ملايين الفرنكات فى أقل من أربع وعشرين ساعة، ولقد اوجدتم مبادىء سليمة لتحكموا بها الأفراد، وتعلمون فى المدارس النظريات البديعة فى علم الاخلاق .. ولكن هل استطعتم إخراج رجال أصلح؟ إننى أشك فى ذلك، أليس صحيحا أن التعاليم الاخلاقية لم تكن بالنسبة للكثيرين إلزاما بأن يكونوا أفرادا صالحين وإنما هو الخوف من رجال البوليس ومن مواد قانون العقوبات؟

نعم، إن فى أوربا لشرا وشرا مستطيرا .. وهذا ليس بمستغرب، فإن الحضارة تمكنت حتى الآن من بث النور وتمكنت أيضا من إبعاد الفضيلة. إنها أهملت توعية القلوب وهدمت العقائد القديمة وأوهام القدر والأحلام الجميلة التى لم تكن فقط تبهج الحياة بل كانت أيضا تهذب الهوى وتكبح الشهوات. وهى التى زعمت أن السماء خاوية وأن الأرض هى الجنة الوحيدة الممكنة، وأن الإنسان ينحدر من القرد، وأن الحكمة معناها إرضاء الرغبات، وبجانب ذلك كلمات أخرى رنانة عن الاخوة والاحسان والواجب والتضحية، كلمات ظهرت لتضفى على الحديث طلاوة ولكى تخدع سذاجة البسطاء !

إن المسلم يرتبك إذا ألقى حديثا عن الأخلاق لمدة ساعة، وعنده أن التضحية لآخرين ليست من العلوم التى تلقن؛ بل هى شئ يسرى فى الدم، وجميع السواح قد لمسوا تلك الصفات الصادقة التى تدعو إلى احترام المجتمعات الإسلامية. إن الشرف والكرم وسماحة الشعب العربى والتركى أصبحت مضرباً للأمثال. والنساء عندنا لا يعرفن الطعن فى أعز الصديقات، والرجال لا يرسلون خطابات مجهولة ليهدموا بها كيان أسرة. إن الناس فى هذه المجتمعات متحابون حقا، والملاحظ أن المعاملة الحسنة هى التى تسود بين الأفراد كشعور طبيعى صادر عن القلب، وليس أساس الترابط بشخص ما هو منفعة حالية أو مستقبلية أو للتسلية والترفيه، ولكنها المحبة القلبية هى التى تجعل هذه الصداقة متبادلة.

إننى أعلم للأسف بأن هذه الأحاسيس الجميلة فى طريقها إلى الزوال.. لأنه فى كل مكان يدخله الأوربيون يتقلص هذا الشعور الجميل، ولست أنا أول من يقول بهذا، فقد قرأت أخيرا كتابين عن تركيا: الأول تحت عنوان «مساوىء الشرق»، والثانى «تركيا الرسمية»، ولا يمكننا أن نتهم هذين الكتابين بمحاباة الأتراك، ولقد وجدت فيهما أن المسيحيين هم قطعا الذين أفسدوا المسلمين وهذا أيضا هو حكم بعض اصدقائى من الأوربيين. إن النشالين والمزورين واللصوص والمرابين وقطاع الطرق وأصحاب الكباريهات والأشخاص عديمى الذمة من بين الشرقيين والأوربيين هم الذين نشروا الرذيلة بين المسلمين، ولكى يدافع هؤلاء عن أموالهم وحياتهم ضد المعتدين تعلموا هم أيضا الكذب والسرقة والغش.

وينقل الدوق داركور حديثا دار بينه وبين أحد القضاة يبين فيه أن الفلاحين يكذبون ويستعينون بشهود الزور أمام المحاكم ليدافعوا عن أنفسهم. إلى حد ما هذا

صحيح، ولكن الذنب في هذا يرجع إلى المرابين والمزورين من الأجانب الذين تحايلوا بجميع وسائل الغش والخديعة لينتزعوا من الفلاحين أراضيهم.

والذى يؤكد صحة نظريتى إننى وجدت نفس الرأى عند أحد الرجال الممتازين وكان يشغل لبضع سنوات مركز قاض فى المحاكم المختلطة، وهو مؤلف الكتاب الممتع الذى صدر فى جزءين تحت عنوان «مصر وأوربا» وسوف أعرض رأيه الذى كتبه عن صدق المصريين وأقارنه برأى القاضى الآخر الذى سبق الإشارة إليه، يقول فى صفحة ٥٥ من الجزء الأول: «من المحال أن تتعرف على المصريين المسلمين المتحضرين بدون أن نشعر بتأثير حسن من ناحيتهم، أما عن صدقهم فلا يمكن إلا أن نعترف بإنهم صرحاء وخصوصا فى علاقتهم مع الأوربيين، وهم فى طبيعتهم الكتمان والرزانة ولهم كل الحق فى تفضيل السكوت عن الكلام الجزافى، ولكنهم ليسوا منافقين ولا كاذبين سواء فى الخدمة أو خارج العمل، ولهم من طباعهم ودينهم ما يبعدهم عن مغبة الكذب».

«وبوجه عام، فان التمسك بالصدق منتشر بين الطبقات الممتازة أكثر منه بين الطبقات التى تنقصها الحضارة. وهو كذلك أيضا فى مصر ولا يمكننا أن نقول بأن الفلاحين والمصريين الفقراء من سكان المدن هم أكثر كذبا أو أقل صدقا عن مثيلهم من الفلاحين أو الافراد غير المتمدينين فى أوربا. وفى الحقيقة يجب أن نستثنى هؤلاء الذين أفسدهم العمل مع الأوربيين والأجانب؛ أعنى الاشخاص الذين لا وفاء لهم والذين يتظاهرون بالعظمة دون أى أحترام والذين تتميز أعمالهم بالقسوة والاحتقار لغيرهم، وهؤلاء لا يعترفون مطلقا بالحقيقة، بل فى سبيل قضاء مصالحهم يكذبون بلا خوف. إن الفلاحين الذين ذاقوا العذاب من بعض الانتهازيين الأجانب الذين استغلوهم تحت الحماية القنصلية لا يصدقون فى علاقاتهم مع الأوربيين واليونانيين أو « الاجانب

الشرقيين» أو عندما يتقدمون إلى المحاكم المختلطة التى لا يشعرون نحوها بأية ثقة. ولكن فيما عدا هذه الحالات يجب أن نقول بأن الفلاحين بوجه عام صادقون فى جميع أقوالهم وفى اعترافاتهم أمام القضاء. ومع ذلك فإن تجربة المحاكم المختلطة بدلا من أن تشهد ضدهم قد شادت بفضائلهم».

ألم يسمع الدوق داركور أن أكثر الاموال التى اغتصبها المسيحيون من المصريين كانت بطرق إجرامية؟ وإذا كان قد سمع فلماذا لا يقول؟ وإذا كان لم يسمع فهذا يدهشنى أكثر لأنه صادر من شخص زار مصر ثلاث مرات !

والآن.. هل فهمتم لماذا لا يتردد المصرى عن نهب أو إتلاف زراعة أحد الأوربيين؟ إنه بكل بساطة ينتقم لنفسه، وهو بجهله يعتقد بأن جميع المسيحيين سواء ولا محل لاحترامهم، ولذلك فإن القرى المصرية التى لم يدخلها المسيحيون نجد فيها جميع الصفات الحميدة التى ذكرتها من قبل.

يدعى الدوق بأن المسلم يظن أنه بقيامه ببعض الأعمال التقليدية أو الشكليات المحفوظة يكون بذلك قد أخلص لله ويكون قد أرضى ضميره، ولكنى أسأل سيادة الدوق من أين تعلم هذا؛ ألا توجد عندنا فكرة عن الأخلاق؟ وهل يكفى أن نقوم بالصلاة والصوم والزكاة أو الصدقة ونقوم بتأدية فريضة الحج فيغفر لنا الله كل شئ وليس علينا بعد هذا أى حساب؟ وهو لكى يثبت قوله هذا يستعين بالكلمة التى قالها الغزالى: «كل من اعترفوا بوحدانية الله وبعد أن يكفروا عن أخطائهم فى الحياة سوف يخرجون من الجحيم وبرحمة من الله لن يبقى فى جهنم فرد واحد مادام قد آمن بوحدانية الله.. وكل الذين آمنوا سينتهى تعذيبهم بشرط أن يكون فى قلوبهم ولو ذرة من إيمان».

ولكن من منا لا يرى أن الدوق لايفهم، أو هو لا يريد أن يفهم كلمات المؤلفين الذين يستعين بأقوالهم؟ من أين جاء بفكرة أن المسلم الذى قام ببعض الواجبات يكون قد أعفى من ناحية الضمير؟ أن كل من يقرأ كلمات الغزالى لا يفهم منها إلا شيئا واحدا وهو أن المسلم سيعاقب على أعماله السيئة لمدة معينة فى جهنم وبعد ذلك يخرج منها، ويفهم منها أيضا أن العقوبات السماوية أو الآلهية ليست أبدية وأن بعد العقاب يوجد الغفران. إن المسلمين يعتقون أن الله لا يغفر إلا مخالفات ما أمر به، أما الأعمال التى تضر الناس فإن الله لا يغفرها إذ يرجع هذا إلى المجنى عليه؛ فإذا لم يغفر الاساءة فإن المتهم يظل فى الجحيم.

وفى تقدير المسئولية يقسم المسلمون الواجبات إلى طائفتين: فروض نحو الله وواجبات نحو الإنسان، وهذه الأخيرة هى المطلوبة أكثر من الأولى. أليس فى الآيات التى ذكرتها فى الجزء الذى تكلمت فيه عن الدين والتى اعود فأكررها ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ ألا يبرهن هذا بصورة قاطعة على أن الله يضع عبادته فى المرتبة الثانية وأنه يعطى كل الأهمية للأعمال الصالحة أى لواجبات الضمير؟

إن الدوق لكى يبين سوء العادات الإسلامية يفترض بأن رجلا عجوزا يمكنه أن يتزوج علانية من طفلة سنها ما بين ١٠و١٢ سنة دون حرج من الناس. وإذا كان يريد بذلك أن يقول أن مثل هذا الزواج يحصل أحيانا فى مصر، فإنى لا أعترض، ولكنى أضيف فقط أن مثل هذه الحالة تحدث فى كل مكان من العالم، وهو عندما يؤكد أن مثل هذا العمل ليس فيه عيب، ولا يجرح شعور أحد، فليسمح لى أن أقول له أنه لم

يعرف عنا شيئًا ، برغم أنه أمضى فى مصر ثلاث سنوات فى فصول الشتاء ولم يتمكن من التعرف جيدا على مثل تلك المسائل الحساسة التى قد يجهلها أحيانا ابن البلد نفسه ، إنى اؤكد له أن مثل هذه الزيجات لا ينظر لها بعين الرضا ، وأنا أعرف شخصيا رجلين فى سن متقدمة يقاسيان العزوبية المريرة لانهما يريدان الزواج من فتيات فى سن مبكرة وينتظران منذ أربع سنوات بدون جدوى ! ولكنى لا ألومهم مطلقا برغم أن العزوبية فى مصر تعتبر من الحالات التى لا تحتمل.

ولكى نحكم على أخلاق شعب ما يجب أن ندرس سلوك الأفراد الذين يتكون منهم ذلك الشعب. وإنى أكرر أن فى الشرق بوجه عام يبدو أن الناس أقل ميلا للشر ، وهم لا يريدون الأذى للناس بل يهرعون لنجدتهم. والمجرمون فى أعمالهم السيئة لا يلجأون لهذا الخبث وهذا العناد وهذه الطرق الملتوية والبراعة التى يتميز بها أمثالهم من المجرمين فى الغرب ، وبالأخص اذا كنا نريد أن نفكر فى بعض الجرائم التى ترتكب فى حق أناس نعتز بهم.

والرأى العام لايبدى اهتماما بالفضول السيء ، وهذا التلهف الذى يصل إلى حد الاعجاب فيجعل من الصالات التى تنعقد فيها المحاكم فى أوربا وكأنها « حفلة عرض أولى» وتنتهى بإشاحة الوجه عن هذه المخلوقات التعسة. ويجب أن نعترف أيضا أن الجريدة والرواية والمسرح كانت من بين العوامل الأساسية فى إفساد العادات الأوربية ، وبجانب وسائل النشر المفيدة والعروض الطيبة توجد مئات منها فاسدة. إن تلك الحرية المطلقة فى القول وفى العمل يتولد عنها بعض نتائج لا تحتمل ، فهى تضلل النفس وتهيج الخيال وتدعو الفرد إلى فكرة القيام بعمل ما . ولن أتكلم عن الاستعراضات الفاسقة والرسومات والمؤلفات الفاحشة التى لها نصيب كبير فى الانحلال الخلقى

الذى يعانى منه الشباب والتى تمهد لهم طريق الحياة بفتح آفاق تجذبهم وتأسرهم كل الأسر.

وبالاجمال فإن الدين الإسلامى يحوى أطهر الأخلاق التى عرفها الإنسان حتى يومنا هذا والقرآن يعتبر كتاب آداب خلقياً من الطراز الاول، وعبثا أن نبحث فيه عن شواهد مثل تلك التى نجدها فى التوراة بطريقة يندى لها جبين كل رب أسرة.

إن حياة محمد مليئة بالمثل الطيبة، وسبق أن شرحت مايجب أن يفهم عن عطفه على النساء، وحسنا يفعل الأوربيون باستبعادهم سخافة المزاعم المفرطة عن نظام الحريم الذى لا يعلمون عنه شيئا.. وربما تمكن بعض المستهترتين من اقتحام منزل امرأة ما تعيش حياة أوربية لأنها تتيح لها فرصة إرضاء نزواتها وهى لا تقدر تلك الحياة إلا بمقدار ما تمنح من متعة، هذا إذا أردنا أن نسمى الفجور متعة. ولكنا تتجنى كثيرا على نسائنا إذا ظننا بأنهن يعشن مثل هؤلاء المغامرات الفاسدات، هذا النوع الذى نجده أحيانا فى أوربا وبين أحسن العائلات.

إن الآداب الإسلامية تخلق أناسا أطهارا لهم قدرة على اجتياز أقسى التجارب بلا ضعف، وتجعل من نسائنا زوجات صالحات يضعن كل شرفهن فى إنجاب ذرية صالحة وفى تدبير معيشتهن. ومن ناحية أخرى، إذا كان الاحسان فى الدين المسيحى شيئا جميلا فإنه لا يرتفع إلى حد «التكافل الإسلامى» الذى يدعو إلى الأخوة بين الناس ويفرض عليهم عمل الخير ويأمرهم بتجنب الشر، ويذهب إلى أبعد من ذلك ـ كما ذكرت ـ فيطالبهم بإشراك الفقير فى مال الغنى.

ولا يمكننى أن اختتم هذا الفصل بافضل من ذكر قولين من مصدرين مختلفين لنأخذ فكرة عن الخلق الإسلامى: الأول ـ يقول المفتى العظيم أبو إبراهيم بن موسى :

« إن المسلم المسئول يجب أن يفعل كل ما أمر به ويمتنع عن كل محظور، وعليه أن يساعد إخوانه فى حياتهم باليد واللسان والقلب. باليد هذا واضح؛ إذ يعنى تقديم كل المساعدات المادية الممكنة، وباللسان؛ وهذا يعنى بالنصيحة والتوجيه وبتعليمه كل ما يحتاج اليه ليكون خالص النية وليقوم بالأعمال الحسنة وليتعامل بقول المعروف وليثنى على المحسنين وليدعو بالمغفرة لخطايا المذنبين، وبالقلب؛ وهذا يعنى بحبه للخير والإشادة بفضائل الآخرين، وبغير هذا لا يكون مسلما، وألا ينفث الكراهية وأن يخشى ويعمل حسابا لآخرته». وهو الذى يقول: « إن المسلم لا يكتفى بالمعاملة الطيبة للبشر بل يجب أن يشفق على الحيوان ويعامله برفق ويعمل بالحديث التالى: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض». «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة». والثانى ـ هو العالم القاضى الفاضل الذى سبق ذكره فى حديثه عن الاخلاق فى صفحة ٧٨٢ من كتابه « مصر وأوربا» : « إن الإسلام دين يستهدف الخلق الطيب ولا يقل فى حرصه عن العقيدة البارسية[١] والمسيحية. إن روح الأخلاق فى القرآن لا تختلف فى جوهرها عما جاء فى الإنجيل، إن القرآن يحث على التقشف والقناعة ويمقت اغتصاب أموال الناس ويكره الغرور ويوصى بالزهد، وينكر البخل والاسراف على حد سواء، ويحث على التواضع والصبر وعلى العفو عن الإساءة،كما يطلب رد الاساءة بالحسنة، ويخص بالحرص على الأمانة ويأمر

---

(١) «البارسية» عقيدة انشاها فارسى اسمه «زورا ستر» وهى لون من المجوسية، وملوك المجوس هم هؤلاء الذين جاءوا لتهنئة العذراء مريم بمولد السيد المسيح.

بالشهادة بالحق فى مواقف القضاء دون نظر إلى أية منفعة أو صلة ، وينهى بشدة عن النميمة والغيبة وبذاءة اللسان ،كما يحث بنوع خاص ، على البر بالوالدين واليتامى ، ويدعو أيضًا إلى الاحسان وعمل الخير والكرم ، ويضع نظاما دقيقا لصرف الزكاة لمستحقيها ولمن يجب أن تعطى ومقدارها وكيفية دفع هذا المنح» .

« والقرآن يشدد على مخافة الله وعلى ارضاء الناس ، والإسلام يضع فضيلة الرحمة فى المرتبة الأولى ، وهو لا يعلق أهمية أقل عن الإنجيل فى الإخلاص المطلق لله وهو المعنى الحقيقى لحب الله فى المادة الاولى من الوصايا الانجيلية» .

إن القرآن لم يورد مبادئه الاخلاقية فى قواعد مرتبة ولكنه تضمن أخلاقيات ممتازة واسعة الآفاق عميقة الغور ، وأنه من الخطأ الفاحش أن يشبه الناس هذه المبادئ الخلقية «بالفريسية»[1] ، أو بالتعاليم التى تقوم على فكرة السعادة المجردة ، أو بالتعاليم التى تعنى بالشكل دون الجوهر ، وهى فى هذا لا تختلف عن الإنجيل .

---

(١) «الفريسية» معناها الطبع الخبيث المنافق ، والفريسيون هم أعضاء مذهب يهودى كانوا يتظاهرون بالتقوى والصلاح فى الظاهر فقط ؛ ولقد قال عنهم المسيح أنهم مثل القبور المدهونة فحقدوا عليه وتآمروا مع الآمراء والقساوسة على صلبه حيا .

الإسلام والتعليم

خصص الدوق داركور فصلا من كتابه للحركة التعليمية فى مصر، وفى الحقيقة هو أراد أن يقدم طعنا دسما ضد الإسلام، وأدعى بأن نقص الفنون والعلوم فى المجتمعات الإسلامية إنما يرجع لتأثير الإسلام السيء، وتمادى لدرجة أنه حاول تجريد هذا الدين من العمل المتحضر الذى قدمه للعالم، فينتزع بذلك ميراثه العظيم ومكانته البراقة وأعظم صفاته من العزة والعرفان بالإنسانية. ولكن ليطمئن المسلمون فإنه لا يوجد فى كل ما قاله أى شيء جدى.

عندما قام الدوق بمثل هذا البحث الخطير لم يكلف نفسه عناء البحث فى كتابنا المقدس أو فى أقوال وأعمال نبينا ولم يقدم أى دليل أو سند كيفما كان. ولم يحاول - مثل كل الناس - أن يتحرى الدراسة قبل أن يحكم، وهو يعترف بأنه لم يقرأ أى مخطوط عربى فضلا عن أنه ينقصه تخصص عالم مستشرق مثل «ساديو» الذى أعترف الدوق بعجزه عن منازلته فى هذا الميدان، ومع ذلك لم يتورع عن مهاجمة آراء هذا العالم القدير الذى يجله الشرق أجمع لاستقامة خلقه ولحكمه النزيه، والذى يكفى أن يدلى ببعض الحجج ليهدم بها كل تقولات الناس. يقول له قائل.. إن العرب انتصروا فى هذه المعركة أو تلك ويقدم له أسماء القواد ويروى له تفاصيل المعركة ويرسم له الأماكن التى تشهد بذلك ولكنه يصر على عدم الاقتناع على أن الأشياء التى قدمت له

غير صحيحة، ولقد حرصت على نقل هذه الكلمة لأنها تبين حالة الذوق النفسية التى لاتتقصها الغرابة، ولأنها حالة الشخص الذى لا يريد أن يفكر إلا فيما يرضيه، وهذا دليل التعصب والصلف والمكابرة فى المعلومات التى يقطع بصحتها التاريخ.

ولذلك فإنى لا أرى داعيا لمناقشته فى هذه النقط التاريخية، وإذا كان كل ما كتب فى هذه الناحية على يد أشهر المؤرخين فى الشرق أو فى الغرب لم يقنعه فقطعا لست أنا الذى يستطيع القيام باقناعه. ولكن يكفينى أن أقول فى كلمة عابرة أن الخلق العربى أضفى مدنية براقة على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى بينما كانت أوربا تغوص فى أعماق الظلمات. وإذا كان بعض المؤلفين من أمثال «رينان» قد حاولوا أن يثبتوا أن العرب لم يقوموا بدور ايجابى فى تكوين تلك الحضارة المشرقة، فأظن أنه لا يوجد من يخالفنى فى أنها كانت من أعمال المسلمين. وإذا نظرنا إلى تأثير الدين الإسلامى الذى كان قويا حينذاك لا نجد أنه كان يقف عائقا فى سبيل ظهور تلك الحضارة وهذا هو ما يجب أن نذكره باهتمام.

إن الإسلام بلا شك لم يمنع - تحت أى ظرف من الظروف - تطور العقلية والمعرفة الإنسانية، أو ازدهار العلوم والفنون والاكتشافات القيمة التى أنارت السبيل للقرون الماضية. إن المناظرات العظيمة فى تلك العصور التى كانت تستهوى العقول والتى كانت تبحث فى الاصطفاء وفى التحكيم المطلق وفى تداخل الإرادة الآلهية فى الأعمال الإنسانية وحتى فى المبادىء المقدسة للقرآن، وكانت هذه المجادلات تدور جهارا فى الجوامع وفى حضور علماء الإسلام من العرب، والعلماء الأجانب والمسيحيين الذين ينتمون لمختلف المدارس كانوا يشاركون فى مناقشة الآراء فى حرية مطلقة؛ وبذلك وبفضل تلك المناظرات الحرة الكبيرة أرتفع هذا البناء الشامخ

الذى أقامه الفكر الإنسانى؛ ألا وهو الشريعة الإسلامية التى كانت مجهولة من العلماء الأوربيين، والتى كان يظن بعضهم أن أصولها منقولة عن الشريعة الرومانية، وهى فى الواقع مستمدة كلها من القرآن الكريم وأحاديث النبى.

إن عددا من كبار الرجال فى ذلك العصر ممن اشتهروا بمؤلفاتهم العلمية شهدوا بأن العلم قد وصل لقمة المجد أيضا . وأنى لأذكر بعض من لمعت أسماؤهم فى علم الفقه وعلى رأس القائمة الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل فضلا عن أبى اسحاق المروازى وأبى إسحاق الشيرازى وأبى إسحاق العراقى وأبى إسحاق ظاهر الدين وابن الجوزى والسهروردى وأبو العباس ابن سيريدجى وأبو حامد المرورسى وابن قيروان والقاضى حسين وجعفر الصادق ثم ابن محمد الباقر.. الخ

وفى الرياضة والهندسة: عمر الخيام والمأمون ومحمود بن موسى وأحمد بن موسى وكمال الدين وأبو الوفا الفرجانى وابن سينا ثم ناصر الدين الطوسى.. الخ

وفى الفلسفة: الفارابى وأبو البركات البغدادى وابن رشد وفخر الدين الرازى والغزالى ثم ابن زهر.. الخ

وفى الطب: خالد بن يزيد الأموى وأبو بكر بن جهر الأندلسى وابن التلميذ الطبيب ثم ابن رضوان الخ..

وفى التاريخ: ابن الاثير وابن خلدون وأبو الفداء والمقريزى والعواقيدى وابن زولت وحمد الروايس وخليفة ابن خياط وأبو بشر والدولابى وابن القوطية ثم أبو بكر الزبيدى.

ومن الشعراء : ابن خفاجى وابن زيدون وابن مطروح وأبو تمام وأبو نواس والبحترى والكرزمى والفرزدق والمتنبى ثم أبو العلاء المعرى.. الخ

وهؤلاء من بين آلاف آخرين لم يمنعهم الإسلام من أن يضحوا بحياتهم فى سبيل العلم وفى سبيل البحث عن الحقيقة، إننا نجلهم لأنهم بأعمالهم العظيمة اضفوا بريقا من المجد على العالم الإسلامى الذى سيظل دائما يعترف لهم بالفضل.

وإنى لسائل نفسى؛ إذا كان الدين الإسلامى لم يقف عقبة فى سبيل ازدهار العلوم والفنون طوال عدة قرون فلماذا يكون اليوم كذلك؟ وهل هو يتضمن فى جوهره مبادىء شاذة فى التعليم؟ أم هل يوجد فى تكوين هذا الدين، تعاليم أو وسائل تجافى التعليم؟ولنفتح القرآن الذى هو دعامة هذا الدين إمام المسلمين، هل نجد فى كل هذا الكتاب كلمة واحدة لا أقول انها لاتحض على التعليم بل تظهره بشكل غير محبب؟ كل من أطلع ولو مرة واحدة على القرآن لابد أن يتأثر بهذه الميزة الظاهرة؛ ألا وهى الاتجاه دائما إلى عقل الإنسان، فهو يقول لهم دائما : انظروا إلى هذا العمل وادرسوا هذه المعجزة وتفكروا فى هذا المبدأ. أما الآيات التي تنص وتوصي بالعلم فهي كثيرة وإني اكتفي منها بهذين القولين: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ و ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. ونجد فيه ايضا آيات عن بعض العلوم كعلم الفلك وتقول: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ ويقول أيضا : ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين﴾.

إن جميع الأحداث التاريخية التى وردت فى القرآن هى بمثابة عظات أو دروس للمؤمنين، والوصايا التى يعطيها لهم فى جميع صفحاته ليتمعنوا عجائب الخلق فى السموات والأرض فى الأشياء والحيوان والإنسان، وليدرسوا ويدركوا أسرار الولادة

وانسجام أعضاء الإنسان ووظائفها وأسرار الموت، وهذه قطعا أعظم الوثائق التى تفوق علوم الطب والتاريخ والفلك وجميع فروع العلوم التى وضعت للاستعانة بها تبيان مدى منفعتها .

إن أحاديث النبى لا تتعلق جميعها بالدين -كما يظن البعض عادة- ولكنها ليست أقل حسما . وماذا تقول فى رد النبى على اعرابى كان يسأله فى ذات يوم عن معنى الدين فقال(*) : «الدين هو العقل» وقال مرة أخرى: «الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها أخذها » وهذه الحكمة الجميلة: «اثنان لا مثيل لهما غنى ينفق ماله فى عمل الخير وعالم ينفق حياته فى نشر العلم» وأيضا هذه الكلمات التى تعتبر ثناء على العلماء: «العلماء ورثة الانبياء» وأنقل إليكم أيضا قوله: « أطلبوا العلم ولو فى الصين» ، «وفاة قبيلة بحزن أقل من وفاة عالم» ، «إن حبر العالم يساوى دم الجندى» ، «العالم له ثواب أكثر سبعين مرة من المؤمن» ، «معرفة كلمة من العلوم ثوابها أكثر من مائة صلاة» ، «إن كلمة حكيمة تكونوا تعلمتوها وعلمتوها لاخوانكم المسلمين تساوى صلاة عام» ، « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض. . ليصلون على معلم الناس الخير» . لن انتهى إذا حاولت الاسترسال، وكما ترون فإن القرآن والأحاديث كانت تحث على التعليم ويجب أن نعترف بأن هذه دعوة مستجابة لأننا لم نسمع مرة فى تاريخ ديننا الإسلامى أن بينه وبين العلم أى عداء . ومع أنه قاسى من النظريات المادية المتطرفة فإنه لم يضطهد أى عالم، وسمح لجميع العقائد بالتعايش إلى جانبه. وإذا كنت أقارن هذا التسامح بالظلم الذى ساد أوربا وبالجرائم التى أرتكبت ضد العلماء والكتاب والفلاسفة تحت اسم المسيحية فأظن أن هذه المقارنة لن تكون إلا فى صالح الإسلام.

(*) بعض الأحاديث المذكورة هنا أوردها قاسم أمين بمعناها وليس بنصها ، وذلك نظراً لترجمتها من العربية إلى الفرنسية، ثم قيام المترجم بترجمتها من الفرنسية إلى العربية. (الناشر)

لقد ذكر علماؤنا فى مؤلفاتهم بأن حب العلم فريضة على كل مسلم، ويروى «فخر الرازى» أن أحد العلماء وجد ذات يوم يهوديا يعلم الفلك لأحد المسلمين فسأل اليهودى عما يقوم به فأجابه: أني أفسر له آية من كتاب الله، فسأله وماهى؟ فأجاب اليهودي إنها الآية التى تقول: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ . واضاف اليهودى : كنت افسر له كيف أن الله رفع السماء وجملها . . فاستحسن العالم ما استمع له وأقره.

إن الله يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ولقد قرر علماؤنا ويحق أن هذا القول يشمل جميع العلوم بلا استثناء، حتى العلوم التى يطلق عليها العلوم المستترة مثل الشعوذة والسحر التى يجب أن نتعرف عليها دون أن نعتقد فيها .

ولقد ذكرت سابقا أن كلمات النبى لم تكن كلها فى صميم الدين، ويجب أن نستبعد مقدما الأحاديث البسيطة وتعاليم الأخلاق والأمثال أو حكم الفلاسفة، التى تحتوى بكل تأكيد على نصائح طيبة، ولكنها لا تتصل برباط قدسية مثل الآيات التى سبق ذكرها ، كما يجب أن نستبعد أيضا كل ما ليست له صلة بالشرائع، ويتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل النظم الواردة فى القرآن والتى لم تعتبر كجزء من الدين إلا بعد تمحيص دقيق وبعد أن ثبتت مطابقتها لآداب أو روح القرآن الكريم.

وبما أن أقوال النبى ليست كالقرآن ولم تكتب إلا بعد وفاته، فقد نتج عن ذلك بعض أحاديث نقلها كل فرد حسب إلهامه وذوقه أو دوافعه، وترتب على ذلك أن أصبحت حصيلة تلك الاحاديث فى معظمها مجموعة من الأباطيل تتنافى مع العقل. ولما كنت أقول بأن أغلبية تلك الأحاديث لا تمت مطلقا إلى الدين فشرعيتها

ونصوصها تكون بالتالى مجهولة، ولكن تولدت عنها طقوس غريبة شاذة وخرافات حمقاء قللت من أعتبار الدين الإسلامى. وفى أحد الايام كان أحد أصدقائى يلوم عالمًا مزعوما لتكاسله وسأله لماذا لا يقوم بالقاء دروس علنية؟ فلم يجد هذا العالم ما يبرر به تهاونه إلا قوله: إننى أعمل بحديث للنبى يوصى فيه الجهلاء بالسعى وراء العلم، وليس على العلم أن يسعى وراء الجهلاء ! إلى مثل هذه الحد انحدر مشايخنا الذين يصفون أحوال السماء والجنة والنار بتفاصيل دقيقة لدرجة تشعر الإنسان بأنهم يعرفون عن هذا كل شىء ، وهم فى الواقع يجهلون كل شىء على الأرض.

وهذا ليس بغريب طالما أنهم لا ينظرون للعلم الآلهى على أنه يكمل جميع العلوم. إن هؤلاء الرجال ليست لديهم ولو معلومات أولية مثل تلاميذ المدارس الابتدائية ولا يهتمون بمواصلة وتوسيع معلوماتهم. ولذلك فأنى أعتبر مثل هؤلاء المشايخ كتبا ناطقة وأنهم فقدوا من زمن بعيد القدرة على التعقل ، وهم قوم جهلاء لهم صفاقة الادعاء بفهم وتفسير الفلسفة الدينية! ويلقبون أنفسهم بحراس أعمال النبى! ويدعون بأنهم يسهرون على الدين وعلى طهارته وعلى تطبيقه.

وصدقنى أيها الدوق بأن هؤلاء المشعوذين هم الذين قضوا على العقول ووقفوا فى طريق الاجتهاد ، ونشروا التعاليم الكاذبة، وابتدعوا الألاعيب لكى يتهربوا من واجباتهم الدينية. والبعض منهم فسر القرآن بطريقة غير معقولة، ولذلك فليس من العدل ولا من الحق القول بأن أعمالهم تنتسب أو تكون جزءا من الدين. ولنفرض أن أحد الجهلاء فكر فى تفسير «قانون نابوليون» ، وبعد سنوات من الجهد والبحث تمكن من إصدار عشرات المجلدات. بكل تأكيد يكون قد كتب عن كل المواضيع ماعدا القانون، فهل يقال بعد ذلك أن « قانون نابوليون» يعتبر عملا سيئا ؟ قطعا لا ..

إنما التفسير هو السيء .. ونفس الشيء بالنسبة للذين فسروا القرآن فقد ضللوا بعض ذوى العقول الضعيفة - دون أن يمسوا جوهر الدين - بزعم أن ليس لإنسان الحق فى الكلام عنه فى حين أن كل الناس لهم هذا الحق.

وهل لا يوجد نفس العيب فى أوربا؟ ألا يوجد فى كل مكان مشعوذون، يتسترون تحت اسم الدين ليملأوا جيوبهم على حساب ذوى العقول البريئة الذين يتبعونهم؟ وهل أنا بحاجة إلى تذكيركم بأن الشعب الفرنسى قد أصبح ألعوبة بين أيدى بعض القساوسة الذين يحدثونه عن معجزات «لورد» والعذراء مريم وبذلك يقومون بصفقات ضخمة يستغلون فيها سذاجة الضعفاء بألف حيلة؟ أما عندنا فمن حسن الحظ أن هؤلاء المشايخ ليس لديهم المقدرة مثل إخوانهم فى أوربا، إذ ليس لديهم جمعية لها نظام ودرجات كنسية أو مجمع مقدس، ولا يمكنهم أن يحرموا المؤمنين. حتى الصلاة تقام بدون وساطة هؤلاء المشايخ الذين لا يتدخلون فى أى مناسبة فى حياتنا لأن كل شيء من أول الزواج حتى الممات يتم بعيدا عنهم، وبذلك لا يوجد عندنا مسألة دينية تمنعنا من السير فى الحياة ولا يوجد ما يدعو لصراخنا بأن «رجال الكهنوت هم أعداؤنا» لأنه لايوجد عندنا شيء من ذلك. أما عن الوسوسة أو الخرافات الدينية التى هى ليست من الدين فى شيء .. فإنها ناتجة عن الجهل وستتلاشى تدريجيا مع نشر التعليم وتقدمه. وهو يتزايد بطريقة مدهشة تجعل لنا ثقة كبيرة فى المستقبل.

وإنى لأقرر بأن الإصلاح يفرض نفسه، ويجب أن نعطى الذين يتفرغون للدراسة اللاهوتية تعليما عقليا لكى يتمكنوا بالعلم من انتزاع العقائد السيئة من أفكار بعض المسلمين، تلك العقائد التى تهدد بانهيار الدين، وليبينوا للناس طريق العودة إلى

البساطة المحببة فى قواعد الإسلام الخمسة. وهؤلاء وحدهم يمكنهم نشر الإسلام فى جميع بقاع العالم، وهم وحدهم الذين يمكنهم إنقاذ الدين من نكبة محققة.

أنا إنسان أبعد ما يكون عن التعصب، ولكنى اعتقد بأن الإسلام سيكون أعظم علم يمكنه أن يجمع فى يوم ما الإنسانية جمعاء تحت عقيدة واحدة. وببساطته وبخلو قواعده من التطرف وبأخلاقياته الفعالة وبسهولته المشهودة وبما عرف عنه من تسامح كبير، يستطيع أن يكون المرشح، على ما أعتقد؛ ليقوم بالدور الأول فى إيجاد دين عالمى، وذلك هو الأمل الذى يصبو إليه القرآن الذى سيتحقق فى وقت ما. وهو حقيقة دين طبيعى فى شكله البسيط الذى يرضى الغالبية العظمى من البشر التى برغم كل شىء لاتستطيع أن تحيا بدون تخيلات جميلة فى رأسها.

على أى دليل إذن يستند الدوق داركور عندما يقرر فى كتابه مسألة عدم اقتران ديننا بالعلم؟ ولقد رأينا أن القرآن والنبى يحثون الناس على البحث والدرس، وأن هذا الدين بالذات أخرج للناس منذ ظهوره أعظم العلماء الذين احتلوا مكانة مرموقة فى العالم وكانوا يعتبرون حجة فى علم اللاهوت (وهذه على ما أعتقد ميزة أختص بها الإسلام) وبصرف النظر عن هذه الحقائق فأنى أعود وأتساءل أين هى أدلة الدوق داركور على ما يقول؟ هل هى القصة الخرافية عن حريق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر؟ إن المؤرخين الأوربيين الذين يعول عليهم قد هدموا تلك الخرافة منذ زمن بعيد.. ومن الذى يجهل اليوم أن تلك المكتبة المشهورة قد أحرقها يوليوس قيصر.. وأعيد بناؤها ثم هدمت مرة ثانية بأيدى نفر من المتعصبين فى ذلك العصر. ولم يكتفوا باحراق المكتبة بل ارتكبوا الآف التخريبات فى آثار مصر القديمة. وهذه التهمة التى حاولوا نسبتها إلى أمير مسلم هى من أفعال مسيحى أو يهودى عدو

للإسلام، أراد بنشرها أن يقلل من شأنه، إنه اتهام باطل يدحضه كل تاريخ عمر الذى يبرئه منها كل البراءة.

أظن أننى قد بينت فى وضوح أن الدين الإسلامى ليس له أى شأن فى الحالة المتأخرة التى توجد عليها مصر أو العالم الإسلامى بوجه عام. وهذه الحالة تفسر الأسباب المؤكدة التى أثرت على الشرق كله بدون تمييز دينى، وأظن أن الحضارة القديمة كانت لها مثل هذا الطابع المؤقت؛ وبما أنها كانت لا تستند على وسائل علمية فقد كانت تولد بانتصار وتموت بهزيمة. وكذلك الحرب؛ فقد كانت تعتبر من ألعاب القوى الجسمانية الفوز فيها كان للأقوى؛ ولما كان الأكثر وحشية هو الحائز لتلك الصفات فقد كان الحظ يبتسم له دائما، ولكن عندما تنتهى المعركة بالفوز كانوا يستسلمون بسهولة للمدنية وينعمون بنشوة الانتصار ثم يستيقظون ذات صباح على حافة الانحدار !

أما طريق الخلاص فقد كان بأن يأخذ شعب همجى آخر مكانهم بكل سهولة.. وهكذا كانت تلد الشعوب ثم تنمو وتموت مثل جميع المخلوقات الحية التى تتكون منها.. وتلك أيضا هى قصة الحضارة الشرقية لم يحفظها شىء ضد القوى الوحشية. كان المسلمون يمارسون العلوم والفنون فى صورة بدائية، أما الأفكار الفلسفية غير المعقولة وأدلة وجود الذات الآلهية فقد استهوت معظم العقول. والكيمياتيات والأحكام الفلكية التى ظهرت على شكل علوم، والتجارة والصناعة التى كانت لاتزال فى المهد؛ كل هذه لم تكن قد وجدت طريقها بعد، أما السياسة فقد كانت أبعد ما تكون عن العلوم السياسية التى تدرس الآن.

بمثل تلك الأحوال لا يمكن لحضارة ما أن يكتب لها الاستمرار إذ كان ينقصها الأساس المتين، وبكل أسف فالشرق هو الذى بدا بتلك الحضارة وقت أن كانت أوربا تحتل المرتبة الأخيرة فيها، ولكنها هى التى استفادت من تجارب الشرق الطويلة المؤلمة. وبعد أن تحسست الطريق لقرون عديدة؛ انتهت باكتشافها الطريق السليم، وتمكنت من جعل العلم أساسا لتكوينها، وهذا ما أعطى للحضارة الأوروبية طابع الاستمرار بل أقول طابعا غير قابل للنكوص.

وعلى ما أظن فإن الحضارة الحديثة سوف تدوم فى أوربا . وبكل تأكيد إذا كانت الشعوب يمكن أن تنقرض فحضارتهم هى الباقية، وأظن أيضا بأن حياة الشعوب المؤسسة بتلك الطريقة تجعلها فى مأمن من الحوادث أكثر من ذى قبل، وأن كان هذا يبدو مستبعدا أمام أوربا المشحونة بالسلاح فى كل مكان. ولكن فى الحقيقة سيكون الفضل للعلم الذى يجب الاعتماد عليه فى المحافظة على السلام.

ونريد أن نهنىء أوروبا بحظها هذا الذى لعبت فيه الصدفة دورا كبيرا، ولكنا نرجوها ألا تنظر إلينا بازدراء، ولتتذكر قليلا بأن الشرق كان أول صانع لحضارتها وأنه هو الذى كونها ونماها وأورثها هذه الثروة الثمينة التى تتمتع بها اليوم، وأن جميع الأفكار الفلسفية والعلمية والدينية لم يتفق جمعها إلا من الشرق.

العلـوم والادب

يلاحظ الدوق داركور فى كتابه وفى الباب الذى يتكلم فيه عن هذا الموضوع نقص علوم الآداب فى مصر، وأنى أوافقه على هذا الرأى، فيما عدا عشرون جريدة أو مجلة تصدر فيها بعض مواضيع أدبية، والانتاج الأدبى لم يلمع فعلا لعدم وجود امكانيات أكثر من ذلك.

وأبرز ما فى علم الأدب القصة والمسرح، وهما يكاد لا يكون لهما وجود تقريبا، وأنى أقول تقريبا لأنه من وقت لآخر تصدر ترجمة لقصة فرنسية أو مسرحية مؤلفة بعيدة عن كل قواعد الفن. وتلك المسرحيات السيئة تقوم بتقديمها فرقتان عربيتان تضمان بعض ممثلين قادرين، وبرغم ذلك فإن المشاهد التى تقدم كانت تثير حماسة المشاهدين الكثيرين الذين كانوا يرحبون بكل ما يقدم لهم.

ولكن هذا يكل صراحة لاسم« أدب» ، إذ أن هذا يتطلب وجود أساتذة بنشاطهم وبذكائهم، أو على الأقل باجتهادهم يستطيعوا أن يردوا إلى الأدب مكانته السابقة التى كانت له فى المجتمعات الإسلامية مع إدخال بعض التعديلات التى تناسب الظروف الحاضرة لكى تطابق العادات الحديثة.

ولما كان الغذاء الروحى ضرورياً ؛ فقد لجأ المصريون إلى الأدب القديم الذى يوجد فيه آثار طيبة وخصوصا فى الأدب الاجنبى، ويمكننى أن اخص الأدب

الفرنسى بالذات لأن اللغة الفرنسية هى أكثر اللغات انتشارا ، ولذلك فإن المؤلفين الفرنسيين لهم بيننا قراء كثيرون. وإننى أعرف عددا كبيرا من المصريين لهم إلمام بالحركة الأدبية الفرنسية أكثر من كثير من الفرنسيين أنفسهم.

أما عن العلوم فإن الدوق يعترف بأنها تحتل فى حياتنا مكانا كبيرا وأصبحت لها قيمة منذ نصف قرن. وقد لاحظ أن الطلبة الذين يلتحقون بمدرسة الفنون والصنائع قد اكتسبوا مهارة فى الأشغال اليدوية تضارع مهارة العمال الأوربيين، ولقد رأى بنفسه بعض إنتاج تلك المصانع وقد يكون موضع فخر لأى مصنع فرنسى. وقال كذلك عن المدرسة الحربية : «إن التعليم المقتبس عن المناهج الفرنسية كان على مستوى عال، وأن المدرسين الذين تعرفت عليهم كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة، وظهروا بمظهر الرجال الأذكياء الذين لاتنقصهم الثقافة» . كما قال أيضا : « إن المدرسة التوفيقية التى كانت تحت إدارة شاب فرنسى نشط يقبل على عمله بجد وعزيمة وبذلك أحرز نجاحا ملحوظا ، وهذا حكمنا على تلك المدرسة من مشاهداتنا» . وإنى أضيف إلى ذلك أنه كان يمكنه ملاحظة نفس النجاح إذا كان قد قام بزيارة للمدرسة الخديوية أو مدرسة الطب، أو مدرسة الحقوق فى القاهرة التى بفضل جهود السيد «تستو» العلمية والتعاون الوثيق بينه وبين الأساتذة أصبحت اليوم فى حالة مرضية للغاية، ومما يساعدنى أن لى أصدقاء من بين هؤلاء الأساتذة أستمع منهم دائما إلى ثناء لاينقطع على ذكاء الطلبة ومزاياهم الخلقية.

إن الدوق داركور كان يمكن أن يغير رأيه فى الدين الإسلامى لو قام بزيارة لمدرسة دار العلوم التى أسسها على باشا مبارك منذ حوالى عشرين سنة خصيصا لتعليم الذين يتخرجون فى الأزهر، وهؤلاء المشايخ الشبان بدأوا يأخذون نصيبهم من التعليم اللاهوتى والأدبى فى تلك الجامعة العلمية، وهم يجدون فيها تربية ثقافية مثل

تلك التى توجد فى أحسن جامعات أوربا . وكل ما يسمى بالعلوم البحتة مثل الرياضة والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم الفلك إلخ . . يقوم بتدريسه صفوة من الأساتذة ذوى المكانة، والتاريخ والجغرافيا واللغات الأجنبية أيضا لم يهمل شأنها .

وإنه من العجيب حقًا أن تجد هؤلاء المشايخ الافاضل - ذى الجبب والعمم - لهم معرفة صحيحة بكل أسرار الكيمياء العميقة ويمكنهم أن يتغلبوا على جميع المسائل الصعبة فى علم الجبر ، والبعض منهم يرى أن هذا القسط من التعليم ليس بكاف فيسافر إلى أوربا لاتمام دراسته . إن هذا النجاح الذى احرزته تلك المدرسة يعتبر احتجاجاً صريحاً موجهاً لأعداء الدين الإسلامى الذين يدعون بأن المسلم لا يقدر العلوم الدنيوية .

وأمام هذا النجاح إذا ضاعفت الحكومة عدد التلاميذ فى تلك المدرسة بحيث تقبل جميع الطلبات التى تقدم للالتحاق بها ، وإذا كانت تنتفع أيضا من تلك التجربة الناجحة فتقوم بإعداد منهج كامل لدراسة مستوفاة مختارة للجامعة الأزهرية؛ ألا يضاعف هذا من نسبة النجاح ؟ .

ماذا نستخلص من كل هذا؟ إن مصر منذ خمسين عاما مقبلة على الثقافة، ولقد انتهى الأمر إلى ظهور عدد كبير من الرجال الذين بدراساتهم التى قاموا بها فى المعاهد أو التى استكملوها بأنفسهم فيما بعد أصبحوا لا تنقصهم القيمة الثقافية ولا المعرفة الصحيحة. وإنى أؤكد أنهم أصبحوا يتساوون فى المقدرة مع زملائهم الأوربيين الذين يوجد من بينهم بعض المتفوقين. ولكن هذا لا يعنى شيئا . . لأننى أظن أن من بين الاخصائيين المصريين يوجد أيضا من يفوق أقرانه من الأوربيين. لا أريد أن احدد اسماء ، ولكنى أؤكد أن من بين أطبائنا ومهندسينا ومن أهل الفقه يوجد عدد كبير

يتمتع بمقدرة علمية عظيمة وهم موضع تقدير من الأوربيين الذين لا يجدون فى ذلك اية غضاضة وأنى مقتنع بصدق تقديرهم.

وكيف إذا يؤكد الدوق داركور فى كتابه بأن جميع الأوربيين الذين يعيشون فى مصر يتفقون على القول بأن جميع المصريين ليست لهم كفاءة؟ ومن هم هؤلاء الأوربيون؟ وهل هم يعرفون مصر حقيقة؟ يستطيع إنسان ما أن يقيم فى بلد ما، عشرين سنة ومع ذلك يظل يجهل كل شىء عنها . وأنا أعرف كثيرا من الفرنسيين حضروا إلى مصر وبعد أن أقاموا بها عشر سنوات لم يتمكنوا من معرفة كلمة عربية واحدة ولم تكن لهم علاقة مطلقا بأى مصرى. كما أعرف أيضا كثيرا من اخوانى المواطنين مكثوا فى فرنسا مدة تتراوح ما بين خمس سنوات وست سنوات دون أن يتعرفوا على حقيقة فرنسا . فهل يمكن بمثل تلك السهولة أن يحكم على حقيقة حال شعب ما ؟ ولماذا لا يكون الدوق داركور قد تعامل مع أشخاص مغرضين ليست لهم دراية بظروف بلادنا وأصدروا حكمهم علينا بمنتهى البساطة؟ ولماذا لايكون هو أيضا ضحية لمثل هذا التضليل؟

وبوجه عام فالمصريون ليست لهم سوى علاقات بسيطة بالأوربيين، وقد لاحظت هذا من الأسئلة التى توجه إلى من وقت لآخر من بعض الأوربيين الذين يجهلون الكثير من عاداتنا وليست لهم معرفة برجالنا . لا شىء مما يمس مشاعرنا يهتمون به، وهم يحضرون إلينا ومعهم عنا أفكار غريبة مستمدة من أقوال كتاب غير جادين، وهم يحفظون تلك الأفكار ولا يحاولون تمحيصها ثم ينقلونها بدورهم للسواح الذين يطلبون منهم بعض المعلومات عنا .

ولكن.. فيما عدا هذه الفئة التى تتكون منها أكثرية جماعة المستعمرين الأجانب، فإنى أقول عن ثقة، بأن الأوربيين الذين يتكلمون لغتنا والذين تربطهم

علاقات بمواطنينا ، أو الذين أتيحت لهم الفرصة ليشاهدوا رجالنا أثناء العمل؛ لهم فينا أراء تختلف كل الاختلاف. ويوجد من بينهم عدد كبير آخر قد كتب عن مصر والمسلمين صفحات مليئة بالحقائق والمستندات، وأنى أعرف الكثير من الأجانب قد حكموا حكما قاسيا على كتاب الدوق داركور. أنى أعلم أن الاجنبى الذى لا يعرف لغة بلد ما سيضطر لكى يكتب مشاهداته إلى الاستشهاد بالسكان، ولكن هذا وضع غير سليم؛ لأنه يجب أن يكتب ما يعرفه شخصيا ، وفى حالة عدم وصوله إلى المعرفة فلا يوجد من يضطره إلى الكتابة، وأظن أن هذا هو واجب الضمير الإنسانى. إننا نرى يوميا المشاهد التى تحت أعيننا يصورها الإنسان بدافع الشر فى نفسه بصورة مشوهة غير طبيعية بلا أى داع لذلك، ونرى أشخاصا يتلذذون بالكذب، وآخرين لا يمكنهم التحدث بدون مبالغة، والبعض الآخر يتمتع بخيال واسع؛ وجميع هؤلاء يحلو لهم أن يجسموا الحوادث التافهة ويضيفوا عليها أشياء بحيث تصبح شيئا آخر عما كانت عليه.

وهل تريدون من سائح يكون قد قام برحلة قصيرة ومكث بضعة أشهر فى بلد ما أن يلم إلماما كافيا بجميع النواحى ويحكم على الأشياء والأشخاص ويتنبىء بمستقبل ذلك البلد ! إن هذا ليس من التاريخ فى شىء . ولكن بمثل هذا الاسلوب بنى الدوق داركور آراءه عن عدم كفاية المصريين مستندا إلى مزاعم بعض الأشخاص الذين تعرف عليهم بطريق الصدفة فى حفلة عشاء أو فى نزهة ما .

وكيف إذا ظهر هؤلاء الأطباء المحترمون، وهؤلاء المهندسون المشهورون الذين نفذوا وينفذون حتى الآن مشروعات كبيرة، وهؤلاء القضاة المستقلون الذين ردوا للعدالة صولتها وباختصار كيف وجد كل هذا الشباب الذى يفيض بالحماسة والعاطفة والأمل، والذين نقابلهم فى كل مكان وبين كافة الطبقات فى المجتمع؟ ! كل

هؤلاء عديمو الكفاية لأنه يحلو لبعض الذين تعرف عليهم الدوق أن يصفوهم بذلك؟ إن هؤلاء الأشخاص الذين نقلوا إليه تلك المعلومات أبعد الناس عن الاتفاق فيما بينهم على تفسير أسباب الانحطاط بين المصريين.. فالبعض يدعى بأن لديهم قوة الذاكرة ولكن ينقصهم الذكاء، والبعض يؤكد بأن ليس لديهم المقدرة على هضم ما يتلقفونه، وهناك من يقول بأن طبيعة المصريين الهمجية ترتد إليهم دائما، وبعضهم يقول بأن هذا النقص غريزى له أسباب مبهمة إلخ.. حقيقة أمر يدعو إلى الدهشة هذا الميل الذى يبدو عند بعض الأوربيين للاقلال من شأننا بكل الوسائل، وأننى مندهش لأنهم لم يضيفوا إلى كل ما قالوا بأننا نحيا بلا روح!

إن العيب الأساسى فى كل تلك الملاحظات أنها ترتكز غالبا على واقعة معينة. وإذا فرضنا كما تخيلوا بأن المصرى ليست لديه قوة الابتكار فيجب أن نعترف بأن الأوربى كذلك إلى حد ما، وهو يميل بطبيعته إلى خلق قوانين ووضع قواعد تكون فى أغلب الأحيان مستندة إلى رمال متحركة. لنفترض أن أحد الأوربيين قام بعمل ما مع مهندس مصرى غير متمكن تماما من عمله ـ وهذه حالة نراها فى كل مكان فى أوربا كما نراها فى مصر ـ ولكن هذا الأوربى سيخلص من تلك الحالة الفردية إلى أن جميع المهندسين المصريين غير أكفاء، ولم يفكر لحظة فى أن بجانب هذا الغير كفء يمكن أن يجد مهندسين ممتازين. سوف يقول الأوربى بلهجة قاطعة لا.. إن المهندسين المصريين غير أكفاء لقد خبرتهم بنفسى أثناء العمل.

كذلك فى كل مكان، هل كل الذين يتعلمون علما ما أو فنا ما يكتسبون فيه كفاءة حقيقية؟ وكذلك فى أوربا ألا يوجد محامون لا يجدون قضايا وأطباء لايجدون مريضا، ومهندسون بين بين؟ وفى جميع أنحاء العالم ألا تشكل صفوة الناس أقلهم

عددا؟ لكنهم سيتساءلون إذا كان لديكم علماء حقا فلماذا لم يقوموا بأى اختراع حتى الآن؟ الجواب بسيط: إنه من المستحيل على شعب بدأ تعليمه منذ خمسين عاما فقط أن ينتج مخترعين.. إن هذا تماما كمن يطلب من طفل عمره ثلاث سنوات أن يتسلق الهرم الأكبر ! إن الاختراع عادة يتماشى مع حالة التعليم وبالأخص مع التجارب التى خطت خطوات تقدمية، ويتولد أيضا عن مجموعة من الأبحاث هى خلاصة أفكار أجيال متعددة، وهو اكليل من الغار لأعمال قام بها عديد من العلماء. إنه مثل الثروة الكبيرة التى تحتاج فى تكوينها إلى أكثر من ميراث[1].

(١)ولن استمع إلى من يقول لى بأن علماءنا يرفضون دراسة العلوم الدنيوية، وكثير من قدامى أهل العلم من المسلمين ممن وصلتنا مؤلفاتهم وكانوا من المتعمقين فى العلوم الإنسانية المعروفة فى وقتهم كلهم تلقوا دراساتهم فى هذا الأزهر نفسه، كذلك فإن دروس الرياضة والتاريخ التى أدخلت على المنهج الجديد، تجد منهم اليوم إقبالا شديدا.

اسباب ونتائج

واخلاق ومواعظ

لفاضل مصرى

(جمعها وطبعها على نفقته لتعميم نفعها)

محمد على كامل

صاحب مطبعة

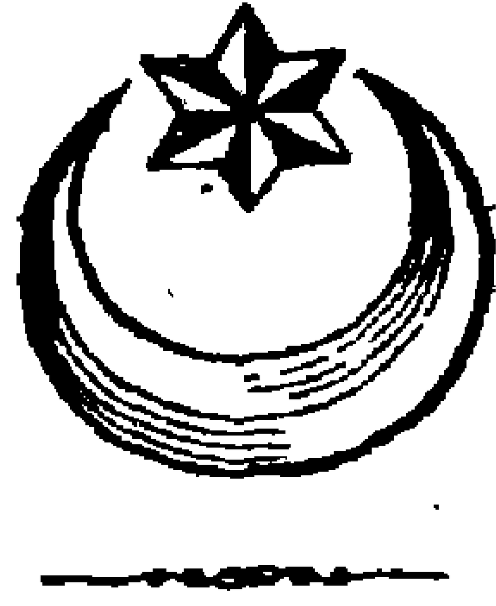
و

مكتبة الترقى

بالموسكى بجوار محل سوسمان الساعاتى

بمدخل سوق الخضار القديم بمصر

سنة ١٣١٦ - ١٨٩٨



بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وصلاة وسلاما على معلم الخير والمبعوث لتتميم مكارم الاخلاق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ❋ اما بعد ❋ فقدقال الله تعالى فى كتابه العزيز : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » وقال عز من قائل : « ذلك بان الله لم يكن مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم »

ولا يجهل واحد منا ما ناله اسلافنا من العزة والسؤدد وسعة الملك وقوة السلطان والتقدم فى المعارف والصنائع . وما كانوا عليه من الكمالات والفضائل وما نحن عليه اليوم من عكس ذلك كله . ونص الكتاب شاهد بان تغيير احوال الاقوام والامم منشؤه تغيير ما فى نفوسهم . والعقل السليم والعلم الصحيح مؤيدان للكتاب الكريم فى ذلك

فالنفوس المزينة بالمعارف الحقة المزكات بالسجايا الفاضلة يكون من

آثارها الرقي في معارج الكمالات الانسانية وبلوغ غايات ما اعد الله له بنى آدم من المدنيــة الصحيحة . والنفوس المجردة من حلى الفضائل العارية من حلل المعارف تهبط بذويها الى اسفل دركات الحيوانيــة وتجعلهم عالة على غيرهم فى كل شؤنهم . بل تحرمهم من المزايا الانسانية وتسلط عليهــم من يسومهم سوء العــذاب ويستعملهم كما تستــعمل الآلات الصامتة او الدواب . وكل هذا مشاهد بالعيان لا ينكره من له عينان

وقد تجهل النفوس الحقائق الظاهرة لاعراضها عن النظر فيها وينشأ هذا الاعراض عن عدم الشعور بالحاجة الى النظر في الحقيقة او لحجاب يحول دونها . لذلك مست الحاجة الى المرشدين والمنبهين وقد قال تعالى : « ولتكن منكم امة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »

ولما اطلعت على تلك المقالات المؤثرة التى نشرت بجريدة المؤيد الزهراء في عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ تحت عنوانى « اخلاق ومواعظ » و « اسباب ونتائج » وحقق لى المشاهد المحسوس ان حضرة كاتبها الفاضل هو احسن من وصف منا الداء ونبهنا الي حقيقة الدواء تمنيت ان لو جمعت مقالاته وطبعت في كتاب على حدتها تعميما لنفعها وتيسيرا لاقتنائها

تمنيت ذلك ثم اخذت فى انفاذ مشروع علمى تجارى كان يتردد في النفس من بضع سنين ولكن لم يكن ليخرج — والحق اقول — من عالم التخيل والفكر الى عالم الاجراء والفعل لولا اطلاعى على تلك الآراء السديدة والاقوال الحقة الصادقة : وخير الاقوال ما ارشد الى النافع من الاعمال

وحيث كنت اول متنفع بأفكار ذلك العالم الفاضل المتوقد غيرة على مصلحة بلاده حالا واستقبالا وقد آن لى ان احقق بنفسى امنيتى الاولى فها انا اقدم لك نبذ « اسباب و نتائج » و« اخلاق ومواعظ » مجموعة ومطبوعة على حدتها كما تحب وترضى

هذه هى باكورة منشوراتي فى كل ما يرقي الامة حساً ومعنى وما يصل بافرادها الى اوج السعادة الحقيقية معاشا ومعادا — اقدمها لك ياأخي ! ياشريكي في السراء والضراء ! يامن يؤمل فيه كل الخير لنفسه ولبلاده اذا هو فتح من نفسه العين ونظر وتبصر في حاله وما له هو وذراريه من بعده فاتعظ بالعظات واعتبر بمؤثرات الحوادث فعلم العلم الصحيح ثم عمل العمل الصالح النافع متذكرا على الدوام قول أحكم الحاكمين : « من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها » « ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى »

اسباب ونتائج

لاحد افاضل الكتاب المصريين في كل عام جولة قلم نبحث فى اهم المواضيع الاجتماعيه للامة واخلاقها بعنوان مخصوص يشتهر فى المؤيد اشتهار الشمس فى رابعة النهار . وقد اختار حضرته الكتابة هذا العام تحت العنوان السابق (اسباب ونتائج) فيما يريد ان يكتب من المواضيع النافعة والارشادات الحقة للامه . وهذه أولى رسائله المختصرة المفيدة

قال حضرة الكاتب المفضال :

يشرح المؤرخ اطوار امة في زمن من عمرها بتعريف اخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها وحالتيها الاقتصادية والسياسية داخلا وخارجا وما هي عليه من درجة الافكار والعلوم والآداب والفنون ويبين في خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة حتي يخيل للقاري مع ذلك البيان والشرح والتعريف المفيد انه كان عائشا في وسط أهلها وقد لا يعتني الا قليلا بسرد الحوادث كما يفعله مؤرخونا باجلائها امام اعين القراء كما يجلى الرجل صاحب (صندوق الدنيا) العجائب والغرائب امام ابصار الطفل وهي تكاد تزوغ من الدهشة والاستغراب

وبهذه الطريقة صار التاريخ من اهم العلوم التي موضوعها الانسان الاجتماعى

وكما يفعل المؤرخ في الماضي يفعل الكتاب المشتغلون بالاحوال العمومية في الحال فيدرسون زمانهم درساً تاماً ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم واخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم حتي يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك ان هذه الامور انما هي العلل التي انتجت تلك الحالة وان تغييرها لا يكون بالصدفة وانما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة اذ السبب والمسبب دائماً متلازمان عقلا وعادة متي وجد احدهما وجد الآخر حتما

وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى في العالم كله فليس في الكون شيء وجد بلا موجد وسبب واضح او خفي معروف الآن او يكشفه المستقبل

وهذا القانون الالهي وان كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية. اولا لان معارفنا المختصة بالمجتمع الانساني هي في الحقيقة في اول نشأتها وعلى حداثة عهدها. وثانيا لان الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد بل يشترك في مقدماتها عدة اسباب متنوعه. وثالثا لانها تظهر دائما انها تحت ارادتنا وان لنا سلطة في ايجادها واعدامها وتعديلها. ولكن يكون من الخطأ الجسيم ان نعتقد ان الجسم الاجتماعي ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره

وآية « ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بانفسهم » هي اساس لذلك القانون وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشؤنها رجالا اكفاء يخدمونها

تجد ويفهمونها باصابة ادراك

على ان حالة الامة فى السعادة والشقاء او التقدم والتأخر ليست حالة توجد او تتغير بحكم الصدفة بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الامة

فان كانت امة نشيطة مترببة متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا وان كانت كسولة جاهلة ذات اخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها

والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهى لا تتغير ابدا الا بحال آخر . بمعنى ان ارادة شخص او مائة شخص او اصدار قانون او مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس

وعليه فاذا اراد من يهمهم اصلاح حال امتنا من رجال الحكومة وابنائها الذين يفتكرون فى الطرق اللازمة لاخراجها من حالها ونقلها الى حال آخر ان يفعلوا شيئا نافعا : فعليهم ان يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق او مخجلة وان يربوها على التجمل بالعوائد الحسنة ان لم يكن بالتأثير على معاصريهم فعلى ذراريهم من بعدهم

ولذلك شرعت فى هذا العمل باحثا عن حالتنا الحاضرة لا من جهة السياسة فاني لست مشتغلا بها الا من حيث كونى مصريا احب الوقوف على الحوادث التي تجرى فى وطني . وللسياسة الآن رجال قائمون والحمد لله بخدمتها واستخدامها اكثر مما يحتاج اليه الحال . بل من الجهات الاخرى كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين

والغرض الوحيد الذى اسعي وراءه انما هو الوصول الى الحقيقة لانها وحدها هي التى تحتوى على البذور الجيدة التي تمو وتثمر

(السائح)



(الحالة الاقتصادية في مصر)

« اعطني مالية حسنة اعطك سياسة حسنة »

تقول العامة « ان مصر ام الدنيا »والاصح اذا قورن بينها و بين مدن الممالك الاخرى مثل لندره و باريس وهامبرج و بروكسيل وامثالها ان تسمى « خادمة الدنيا »لانها لو وضعت في جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة كما لو وضعت سائلة مكدية ذات اطمار بالية قذرة في جانب عروس متجلية بافخر الملابس واثمن الحلى وابهاها

وفى الحقيقة ان مصر بلدة فقيرة جدا نصف اهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشيء التافه الذى يقي الحى من الموت جوعا . والنصف الآخر ينقسم الى قسمين . الاول يشمل التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالي ملى . والآخر يحتوي على الموظفين وارباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا ما في معيشتهم . ولكن اغلبهم ان حيل بينه و بين مرتب المعاش شهرا واحد وقعوا في العسرة والضنك الشديد

اما ارباب الاطيان من الذوات والعمد والمشائخ والاعيان في

البلاد فالمم كحال « رايل » المؤلف الفرنساوى المشهور اذ قال في وصيته « انى لا املك شيأ وعلىّ ديون كثيرة واوصى ببقية ما املك للفقراء »

والبلد التي يكون اهلها فقراء مثلنا لا يمكنها مادام فقرها ان تؤمل خيرا في المستقبل لان حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها اذ بالمال يتم كل شيء وبغير المال لا يتم شيء مطلقا

والمملكة لا تكون غنية الا اذا كان اهلها اغنياء ولذلك قال احد السواس المشهورين : اعطني مالية حسنة اعطك سياسة حسنة

وعلى هذه القاعدة وجهت كل امم اوروبا التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتنائها بها كل الاعتناء فانشأت نظارة للتجارة والصناعة وللمستعمرات واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية وتهافتت على وسائل الاستعمار . وصارت كل أمة تزاحم الاخرى في هذا السبيل . والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد : فلا تتأخر واحدة منهن عن بذل المال والروح في توسيع دائرة تجارتها وفتح الابواب لتصريف مصنوعاتها حتى ان رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لا بد من الحرب يوما ما بين انكلترا والمانيا لان المنافسة بين الامتين في جميع انحاء الدنيا اوصلتهما الى درجة اعتقاد ان احداهما لا يمكن ان تستمر في طريقها الا اذا سحقت الاخرى

ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاشراف

على ميدان هذا التنافس للتفرج على المتنافسين والاعجاب بهذه الامة والاستهزاء بتلك . كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا الى هذه الدنيا للتفرج على اهليها اياما معدودة ثم العودة الى اوطاننا بعد ذلك بسلام

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن . نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منها ان يبتلعها في جوفه .

وبمثل تلك المساعي المتقدمة توصلت الامم الى اقتناء الثروة وكثر فيها الاغنياء والماليون الذين اصبحوا يتعاملون بالملايين كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات

ولكن الشيء المهم الذي ارجوا ملاحظته هو ان كل ثروة من هذه الثروات الماثلة هي نتيجة عمل صاحبها : ترى الرجل مثلا في امريكا يبتدئ في تجارة او صناعة حقيرة فيصل بعد بضع سنين الى مصاف الماليين الذين يحرزون الملايين . ولماذا ؟ — لانه يشتغل ليكسب فالواحد منهم يشتغل دائما . يشتغل بالنهار ويفكر في شغله بالليل . وهو قد تربى على ان يشتغل . وتربى على ان يعتمد على نفسه « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » . فالتربية والعادة قد اوجدتا فيه الاقدام على الشغل والعمل . فهو يتفكر في كل شيء ويلاحظ كل شيء ويجرب كل شيء . فان وصل فاز وشجعه النجاح على الاستمرار . وان خاب ووجد في طريقه عقبة ولم يستطع ازالتها بهمته استأنف السعي في عمل آخر او في نفس العمل من طريق

آخر. فهو على كل حال حي ثابت عامل . جسمه يتحرك ومخه يؤدي وظيفته كأنه آلة متى غادر سرير نومه في الصباح ادار دولابها فتدور وتستمر دائرة الى وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم

وعلى العكس من ذلك الواحد منا معاشر المصريين—او الشرقيين كافة—فهو كالبرذون الذى يعلق في الساقية يمشى الهوينا خطوة فخطوة وعلى عينيه غماء . وقد يقف بعد كل خطوة حتي يسمع صوت الفرقلة فيجاهد نفسه بخطوة ثم يقف . وهكذا حتي المساء حيث يقدم له علفه فيأكله طيبا او رديئا ثم يهوى بجسمه كالشبح المرضوض على الارض فينام تعبا كسولا بل مكسرا مهشما حتى الصباح

(السائح)

—﴿ اسباب ونتائج ﴾—

٢

«الاستقلال في المعيشة قبل كل الاستقلال»

ان اول شيء يجب على كل فرد من افراد اى امة ان يكد في طريقة تضمن لمعيشته ان لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلى الاقل لا يعود منه ضرر عليها . لان امر معيشة الانسان هو في مقدمة كل احتياجاته .

فعلى كل نفس تحترم ذاتها متي كانت قادرة على الكسب ان تكون مستقلة غير محتاجة للغير تكفل نفسها بعملها . ولا يباح لها مطلقا ان

تكون عالة على غيرها

ولكن من الاسف نحن نرى في مصرنا عددا غير قليل من اهليها عائشين بكيفية تأباها كل طبيعة شريفة فقد لا يخلو بيت من وجود شاب او رجل بلغ الاشد اوكهل ذى اعصاب قوية وقامة قويمة مقيم فيه آكلا شاربا بحجة انه قريب لصاحب المنزل او صاحبته

وربما كان هذا الرجل مستخدما فرفت فلا يلبث ان يحتل دار احد اقاربه احتلالا ابديا يأوى اليها ويأكل منها ويمضى اكثر اوقاته فى النوم . واذا لم يكن نائما تراه جالسا على كرسى امام الباب اوعلى حانوت او قهوة مجاورةله وفي الغالب تكون فى يده سبحة يحرك حباتها بأنامله . وقد يذهب الى الجامع في اوقات الصلاةان كان من الاصل صالحا او طالحا وأناب الى الله مؤقتا بعد رفته حيث يستمر كذلك الى ان يعود الى الخدمة فيعود الى فسوقه

ويعيش على هذه الحال الايام والشهور والسنين بلا سعى ولاعمل ولا حركة . واذا تحرك وسعي يوما ما فقصارى جهده ان يذهب الى احد دواوين الحكومة ليستعطف رؤساء المصالح ان يذكروا اسمه عند خدمة تفوته ويعيش بها

ومركزه في المنزل الذى يأويه مركز حرج فلا هو سيد ولا هو خادم وهو فى الحقيقة ممقوت من الاثنين وناقم عليهما حيث يخيل له ان قريبه قد مل مقامه عنده وصار يلحظه شذرا او يغض عنه النظر اولا

يعطيه ما يكفيه من الدخان او لا يفتكره بخمسة قروش فى اليوم؟ وان الخادم يعامله بالخشونة او لا يسمع كلامه كثيرا او يسخر منه ويزدري به من طرف خفى . وهكذا

واذا خلا بصاحب له يقول له ماذا اصنع ياأخى فى هذا الوقت الصعب والحكومة اقفلت ابوابها فى وجوه ابنائها

ماذا تصنع؟ اذا انت اصغيت لنداء ضميرك فاصنع كل شيء:

كن تاجرا . كن مزارعا . كن صانعا . كن خادما . كن كيفما تستطيع ان تكون . فانه احسن لك وللناس مما انت فيه

هب ان الحكومة قررت ان لا تأخذ من الآن موظفا مصريا فهل يموت المصريون جوعا؟

الا تنظر كيف يصنع الاجنبى . ولا اتكلم عن الانكليز فى بلادنا فان لهؤلاء نفوذا ظاهرا . ولكن اتكلم عن الرومى والارمني والسوري والهندى والعجمى والطليانى وامثالهم

انت تعلم ان الفرد من هؤلاء يأتى خالى الوفاض صفر اليدين فيبتدىء شغله بحرفة صغيرة مهما كانت دنيئة هي اشرف من البطالة التى هي حرفة الكثير من المصريين . وهو اذا ربح اليوم قليلا قليلا فقد ينمو وتزداد ثروته بعد ذلك حتي يصل الي اعلا درجات الثروة . وانت ايها المصرى البطال ابن البلاد وادرى بما فيها ولك فيها القريب والحبيب فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الي بلادنا؟

انا لا اجهل ان للانسان على الانسان وخصوصا على القريب حقوقا مقدسة وان مساعدة ذوى القربا واجب ديني واجتماعي ولكن ليس من الواجب بل ولا من البر مساعدة الكسلان والتشجيع على البطالة انما البر عند الاحتياج الحقيقي وهو يكون اذا وجد المانع عن الاحتراف والتكسب

اما مساعدة الشخص القادر على العمل فيجوز ان تكون وقتية لعذر طارىء ويجوز ان تكون لتحسين حالة شخص يكسب قليلا . ولكن من العبث ان يقوم شخص بجميع حاجات شخص آخر . ومن العار على هذا ان يقبل مثل هذه المعيشة وان لا يرضى بحال كل حرفة مهما كانت منحطة فى اعين الناس فلا يمكن ان تكون احط منها

ولهذا اتمنى قبل كل شيء ان ارى يوما جميع اهل بلادى مستقلين فى معيشتهم يعيش كل فرد منهم بنفسه

(السائح)

—﴿ اسباب ونتائج ﴾—

٣

(اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا)

اجزل وصية نطق بها الانسان للانسان « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

ونحن نقتصر على الوصية الذهبية الاولى لان المصريين اصبحوا

في خمود اشبه بالموت . فهم الآن اعوز الى التذكير بالحياة منهم بالموت

من البديهي ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف لانه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان التنافس في المزيد . فعلى الانسان ان يسعى والحالة هذه لتحسين حالتيه المادية والادبية . فان كان يكسب في اليوم قرشين فعليه ان يجتهد في توصيلها الى خمسة ثم الى عشرة وهكذا . اما المحافظة على حالة معيشة دنيئة فذلك امر لا يرضاه الا قليل الحيلة قليل العقل قليل الشعور بمزية الحياة الطيبة ان لم يكن عديمه بالمرة

ومن الاسف اننا قد وصلنا بالخمول الذى حافظنا عليه في المعيشة الى حدود السكون فالموت :

سر يوما بين الاسواق المصرية القديمة تجدها كما كانت قبل الطوفان حقيرة غير منظمة . لا تحرز الا نوعا او نوعين من اصناف البضائع العتيقة المهجورة الاستعمال . وتشاهد صاحب الدكان يجلس من الصباح الى المساء في شرب الدخان ومطاردة الذباب عائشا عيشة بهيمية لا يتخللها تصور ولا فكر الا اذا كان وقيعة بالغيبة والنميمة في حق جاره

ان حضرت اليه امرأة اجلسها بجانبه واخذ يجاذبها اطراف الحديث ساعة او ساعتين . وان حضر له رجل اجلسه وامر له بالقهوة . ومن

بعد التحيات والسلام والاكرام يتبادلان الاخذ والعطاء فالمناقشة فالجدال والنزاع كخصمين لدودين فالايمان الكاذبة . ثم ينتهي الحال على ان يبيع قطعة او قطعتين كل النهار فيربح قرشا او قرشين

نترك هؤلاء وننظر الى طائفة اخرى من ارباب الاشغال العقليه فنري هذا الطبيب او ذاك المهندس مستخدما في الحكومة بمرتب قليل نحو خمسة او عشرة جنيهات فى الشهر يعيش بها هو واولاده وزوجته وفى الغالب انه يعول واحد او اثنين من اقاربه . فاذا خرج من ديوانه اوفرغ من اداء وظيفته الذى لا يستغرق الا سويعات من نهار قضى بقية اوقاته في الزيارات والقهاوى

فهلا خطر ببال ذلك التاجر او هذا الطبيب او المهندس وامثالهم ان يخرجوا من هذه الحالة الدنيئة وان يزيدوا في اعمالهم فيزيدوا في جني ثمراتها

وليس الغرض من تحسين الحال على هذه الطريقة ان يجمع الانسان المال حبا فى المال بل المراد ان يكون عند كل واحد طموح شريف الي العلاء . ولا يكون له ذلك الا اذا سعي في استزادة موارد كسبه ليتسنى له ان يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه وان يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية في ترقية عقله وتربية اولاده بالرياضة والتعليم والسياحة . وان يأتى من الافعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله

ولا تحسبن ان المانع من اهتمام المصرى بترقية شأنه قناعة في النفس و زهد فى الاموال ورغبة عن زخارف الدنيا . لانه لو كان الامر كذلك ما وجد مصرى حاسدا غيره على نعمته ولا ناظرا لذى غنى نظرا شذرا . والمصريون كلهم بين شاك ومشكو من هذا الحال فالمصرى اذن طماع كغيره وليس عنده من الزهد ماليس لغيره ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه

فهو اذن يحب ان تمطره السماء ذهبا وان تنبته الارض فضة . يحب ان يكون اغنى الناس على شرط ان لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره

والسبب في سقوطه هذا امران : الاول سوء معاملة الحكومات السابقة له فانها بغدرها وظلمها اضاعت الامانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة في الشغل . والثانى سوء تربيته فان عدم تشغيل الجسم وتحريك الاعضاء والجلوس ساعات بل واياما على المقاعد والمراتب والمصاطب وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ وترك النظر فى الاشياء مع شدة التمسك بالاقوال والامثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم وتكرار سماع القصص والاحاديث التي وضعت فى الاصل لتسلية الفقير وازالة الاحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة ولكن غشيتنا جهالتنا والفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها وحشيناها ووشيناها حتى تشربت بها ارواحنا وعقولنا . كل ذلك قد انتهى مع

الزمن وبتاثير الوراثة الى اضعاف قوانا شيأ فشيأ ٠ فاذا نادينا يوما اعضاءنا وطلبنا منها حركة مهمة ولو كانت صغيرة خانتنا فلا تسمع نداءنا واذا سمعت واردنا الاستعانة بافكارنا وهنت فطاش سهمنا وعلى كل حال فلا نلبث ان نشعر ونحس بعجز انفسنا فلا نجد لنا ملجأ الا الراحة التى اعتدنا عليها وبئس المصير

وهذا هو السر في ان جميع الاعمال القليلة التى شرعنا فيها كتأسيس مدرسة او انشاء جمعية او تشكيل ناد اوعقد شركة لم تعش الا بقدر ما تعيش الوردة

« السائح »

—✽ اسباب ونتائج ✽—



(لماذا لا يوجد فى مصر اغنياء)

كان المصريون الي عهد غير بعيد ينظرون الاتجار بعين الاحتقار ويحسبون انها مهنة مهينة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ٠ والي الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الامراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ووضعوا النشانات على صدورهم وعلقوا في مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم الى الارض تخيلوا انهم من انسانية اخرى اعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بايديهم ويباشرون بانفسهم حل وعقد البضائع ويقفون فى حوانيتهم باشين فى

وجوه الوافدين منتظرين ان يطلبوا منهم شيئا فيحضروه بين ايديهم في الحال . وهم يرون كل خدمة غير اميرية وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي اشياء لا يليق الاشتغال بها

ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة الا فئة قليلة برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق عليها ثناء الامة المصرية باسرها

ولو قارن اى انسان لم يعمه الجهل بين هؤلاء التجار الذين دخلوا في ميدان الحياة والقوا بانفسهم في معامع الكفاح والتنازع حتى خرجوا منها فائزين . وبين اولئك الذين منبع ثروتهم فى الاغلب العطايا والمنح التي كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج او لسبب خدمة خصوصية او خلق مقبول او رذيلة محبوبة . لرأى اى فريق يحق له ان يعجب بنفسه او يحتقره الآخر

وقد مرت على اوربا ازمان كان فيها امراء البلاد متى قدم لهم رجل يسألونه : ابن من انت ؟ ؟ . ثم اتى حين بعد ذلك كانوا يسألونه فيه : ماذا تصنع ؟ ؟ . والآن لا يسألون الا عن قيمة الشخص فى حد ذاته من حيث مبادئه واعماله

ونحن لا نزال على شيء كثير من تلك الاوهام والوساوس القديمة متعلقين باهداب خدمة الحكومة معتبرين انها اشرف مطمح

وانا اخاطب اليوم كل اب لابن واسأله ماذا يقصد من تعليم ابنه

فاذا قال انه يريد ان يهيئه لخدمة الحكومة فقط لكي ينال الشرف والرتب والوسامات مثله فليس لى معه كلام • واما اذا كان ممن يحسبون ان خدمة الحكومة هي الطريق الذى يضمن مستقبل ولده فليعلم انه مخطىء خطا فاحشا

ولست محتاجا قبل كل شيء ان اذكره بان زمن العطايا قد انقضى بل يكفى ان اثبت له ان قد صار من المستحيل اليوم ان يصل الانسان من طريق الحكومة — لا الى الثروة حيث الامر واضح جلى لا يحتاج الى دليل — بل الى درجة من اليسر الذى بدونه لا يمكن الانسان فى وقتنا الحاضر ان يقوم بجميع حاجاته

ولتوضيح ذلك نضرب للقاريء مثلا

خرج الشاب من مدرسة الطب وفي يده شهادته فاذا اراد ان يستخدم فى الحكومة عينته حكيما لاحد المراكز ولكن بعد انتظار سنة على الاقل بمرتب متوسطه سبعة جنيهات • ثم ان كان له حظ بعد ذلك — وهيهات هذا الحظ — ترقى كل ثلاث سنوات مرة باضافة جنيه او جنيهين على مرتبه

فان وصل مرتبه بعد عشرين سنة الي عشرين جنيها مثلا كان محسودا من جميع اقرانه

ولا يختلف مستقبله عن مثل ذلك ان كان مهندسا او متشرعا او كاتبا او معاونا الخ

هذا اذا استمر فى وظيفته كل هذه المـدة ولم يرفت بالاستغناء اومجلس التأديب . اما اذا رفت ولم يكن له معاش او كان له معاش قليل فحسبك ان تراه بعد ذلك تعيس الحظ فى حيرة لا يدرى معها ماذا يصنع بعد ان نشأ وشب مطبوعا على التوكل على الله ثم على الحكومة وبعد ان قضى احسن وقت فى عمره بدون مجاهدة نفس وتفكر وبلا شغل يذكر

ولو فرضنا الآن ان الشاب اعتاد من اول نشأته على ان يتوكل على الله ثم على اشتغاله وكده وسارت معه وظائف فكره واعضائه تنمو بدوام الشغل والعمل وطار بأجنحة آماله فى الدنيا وذاق حلاوة الكسب من عرق جبينه فلا تراه بعد تعب عشرين سنة كالتى قضاها ذلك الموظف الا ذا ثروة عظيمة مالم يكن خلقه الله مجردا عن كل استعداد طبيعى

فعلى الآباء ان يعدوا ابناءهم الى غاية الوصول الى السعادة وان يفتحوا امامهم ابواب الآمال لانها ابواب الثروة الحقيقية وان يعطوهم الوسائل للحصول عليها . واول شىء يجب ان يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة

ان الاوربيين يجمعون الاموال الهائلة لا لان الله خلقهم اشد مناعضلا واتم تركيبا . ولا لانهم اوتوا مفاتيح كنوز خفية لا يمكن ان نصل اليها نحن . بل لانهم فهموا ان التجارة هى علم الثروة وهى علم حقيقى

لا يقل في الفضل عن اشرف العلوم · يدرس في المدارس ويتم بالاختبار والعمل · ويوجد الآن في المانيا عشرون الف تلميذ يتعلمون التجارة في المدارس وتوجد في النمسا اثنتان وستون مدرسة تجارية يتعلم الشبان فيها مسك الدفاتر ونظام البنوك والحساب والرسم والقانون التجاري والجغرافية الاقتصادية وقيمة النقود باختلاف البلاد والتأمينات واللغات الاجنبية

وفي انكلترا وفي امريكا كل تربية لا تعتبر تامة الا بعد ان يمكث الشاب ستة اشهر او سنة في مدرسة تجارية

فالاوربيون اذن لم يصيروا اغنياء الا بسببين: الاول احتقار الاستخدام في وظائف الحكومة وعدم الالتجاء اليها الا عند الحاجة · والثاني احترام التجارة والاقبال عليها اكثر من اقبالهم على بقية العلوم الاخرى

ونحن على عكس ذلك : نحترم الوظائف الاميرية ونعدها منتهى الفخار والشرف ونحتقر التجارة ولا نقبل عليها حتى عند الحاجة المطلقة — فكان نصيبنا الفقر الاسود

(السائح)

اسباب ونتائج



لماذا لا يوجد في مصر اغنياء ايضا

لانه علاوة على الاسباب التي سردناها في الشذرات الماضية

يوجد سبب مخصوص يجب الالتفات اليه : الا وهو سوء تربية الاولاد

فقد وجد في مصر عدد كبير من الرجال الذين احرزوا — اما بكدهم وجدهم واما من عطايا الولاة السابقين واما من مجموع ذلك اومن طرق اخرى لا حاجة لذكرها هنا — ثروة تذكر في مصر ولكن لسوء حظهم او حظ الامة المصرية الاسيفة انهم اعتنوا بجمع الاموال جهد الطاقة ولم يعتنوا مطلقا بتربية اولادهم

ولهذا شاهدنا ونشاهد كل يوم انه متى فارق الاب الحياة الدنيا وقبل ان تجف دموع الباكيات عليه تستطير نيران الشقاق بين وارثيه بانين منازعاتهم على الطمع والغباوة والعناد حتى يخسروا الجزء الاعظم من التركة بين مصاريف قضائية واجر للمحامين . ثم اذا كانت بقية بعد ذلك القوها في حجر عاهرة او بعثروها على طاولة قمار بحيث لا يمضى على الوارث الجديد بضعة اشهر او بضع سنوات حتى يكون في حالة يرثى لها

ولو كان المتوفي رحمه الله التفت الى تربية اولاده عشر ما التفت الى جمع المال فغرس فيهم الاخلاق الحسنة وافهمهم ما هي المعيشة واشركهم في اعماله وافكاره وفتح عيونهم في منظر الدنيا الحقيقي وايقظ عقولهم لحافظوا على ما ترك وجعلوه في المزيد

وان الثروات الطائلة الهائلة التي نشاهدها في اوربا او نسمع عنها

ليست ثمرة عمل شخص واحد بل يشترك دائما فى تكوينها عنصران او ثلاثة · فتنتقل من شخص لابنه لحفيده وهكذا تنتقل نامية مضاعفة

ولذلك ترى بيوت تلك البلاد السعيدة على الحالة التى تركها عليها الاب او الجد او هى — على الغالب — احسن مما كانت عليه

ترى هنالك بيوتا محترمة تمضى عليها العشرات من السنين بل والقرون قائمة جميلة تذكر اسم مؤسسها وتشهد لحائزها الحالى بانه من نسل عريق فى النعمة والمجد والشرف : هذه الصفات التى تلازم دائما الانسان الذى يبرهن على قدرة فى العمل

اما عندنا فالامر على العكس من ذلك : نشاهد بيوت ذواتنا وكبار سراتنا اياما معدودات ثم لا نلبث ان ننساها بالمرة بعد موتهم

يكون الرجل منا في كوكبة جلال وابهة ومظهر نعمة نخيم · ثم اذا قضى نحبه شاهدت البيت الذى كان بالامس كعبة الوفاد والقصاد مظهر النعمة والجلال والجمال على عكس حالته الاولى : خاويا كئيبا خربا يسكنه العنكبوت والبوم والفيران والجرذان · او يسكنه غلام لا يليق الاجتماع به

على انه لو كان تبديد الثروة على هذا المنوال راجعا بالفائدة على اهل البلاد بحيث يخرج المال من يد الوارث الى ايديهم لكان الضرر محتملا · ولكن كل يعلم انه توجد طائفة من سكان القطر تطوف دائما متخللة المنازل والجدران · فمتى ابصرت تركة مفتوحة حديثا حامت

حولها وتزاحمت على الوارث كما تجتمع الطيور المفترسة على الجيفة يتقدمون للوارث يبذل المال عن كرم حاتمي فيظن هذا المسكين انهم اخوان صفاء ورجال مروءة فيكب عليهم بجميع اهوائه ويقترض منهم ويمضى على اوراق لا يفهمها. ثم يستمر كذلك على ان يسلسل منهم دينارا بعد درهم ومئات بعد عشرات حتى اذا آن الوقت المناسب ونضج لحمه واستوى انقضوا عليه بمخالبهم وطعنوه الطعنة القاضية على حياته

ذلك هو تاريخ كل ثروة في مصر الا بعض مستثنيات نادرة . ونحن نراه كل يوم ونسمع ونتحدث به ونأسف عليه والاغنياء انفسهم يعلمون مصير ثروتهم من بعدهم . ولكن نراهم مع ذلك يتثبتون من النتيجة ولا يفتكرون فى المقدمات والوسائل التى تزيلها . وان افتكروا فيها فلا يعملون لازالتها . وان عملوا اهملوا اهم شيء وهو التربية لانها شيء صعب يحتاج الى عناية جسيمة ومراقبة مستمرة غير منقطعة

كثيرا مايتخذ اغنياؤنا بعض احتياطات لحفظ ثروتهم من بعدهم ولكنها في الغالب لاتوصل للمقصود وقد يترتب عليها اعظم ضرر للهيئة الاجتماعية مثل ان يقفوا املاكهم — كما سنبين ذلك

(السائح)



اسباب ونتائج

٦

الوقف ونتائجه

اذا نظرنا الى القصد الاول من الوقف من حيث هو وجدناه من اجمل مزايا الشريعة الاسلامية . لان تجرّد الشخص من املاكه وتخصيصها في حياته او بعد موته لعمل خيري هو امر لا يصدر الا عن نفس طيبة وعواطف شريفة واميال بارة وفكر عال

ومقصد شرعنا الشريف من تشريع الوقف ان لا تكون حوائل بين نية الخير وعمله . فسوغ لكل انسان عنده نزعة الى الخير ان ينفذ قصده مهما كان وبأيّ طريقة شاء وفي اي وقت اراد

وهذه الحرية التي لم يصل الى درجتها كثير من الشرائع والقوانين الاجنبية وعلى الاخص القانون الفرنساوي قد لوحظ بلا ريب عند سنها في شريعتنا السمحاء ان تتشعب طرق الخير في ملتنا وان تعود منها الفوائد الجمة على العالم الاسلامي . ولا مراء في ان خير وجوه النفع للمسلمين انشاء المدارس لنشر التعليم ومعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والبائسين وما يشابه ذلك من الاعمال النافعة العمومية التي تحفظ حياة الامم وتزيد في قوتها

وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف ازماناً طويلة : فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التي تعطى لطلبة العلم

والفقراء ونرى آثارها العديدة او معالمها القائمة منتشرة فى البلاد طولا وعرضاً تشهد لاجدادنا (اولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) انهم كانوا رجالا يعملون بعقل وروية لاصلاح شؤون بلادهم ومنافع امتهم

اما الآن فقد صار الوقف من الاعمال الاحتياطية التي يتخذها الاغنياء ضد اولادهم . فالواقف صار اول قصد له ان يحبس المال لا لفعل الخير بل ليحول بين ورثته وبين تبديده . وهو ان كان يترك منفعته بعد انقضاء ذريته الى محل خيري فذلك لانه يرى من المناسب او الواجب عليه ان يجعل عمله مطابقاً في الشكل لاحكام الوقف . ففكرة الخير من عمله آتية على سبيل اللزوم والتبعية . وما القصد الاول كما قدمنا الا ان يغل ايدى اولاده الذين يعلم انهم اغنياء جاهلون وفسقة مبذرون . وكأنه لا يدري ان الابناء اذا كانوا على هذه الصفة فكل احتياط معهم يذهب هباءً منثورا!

ونحن مما نشاهد ويقع بين ايدينا كل يوم يمكننا ان نحكم : هل منع الوقف شيأً مما كان يتوقعه الواقف ؟ هل ادى الوقف الوظيفة الحقيرة التى اراد الآباء الاغنياء ان يستخدموه فيها ؟

الم تدلنا المشاهدات والتجارب كل يوم على ان الاولاد اذا لم يكن لهم رادع من انفسهم فهم بحكم الضرورة خاضعون لتأثير الشهوات المنتجة للفقر والعسرة الشديدة فيستدينون حتي يستغرق الدين ايراد الوقف في الحال والاستقبال ؟ السنا نشاهد الاملاك الموقوفة

في جميع القطر شرقاً وغرباً وكيف آلت الى الخراب بسبب تنازع المستحقين وسوء ادارة النظار ؟ الم يصل الى علم الجميع ان الاملاك الموقوفة تعامل الآن كما تعامل الاموال المباحة وهي مطمح مطامع الكل وكل يريد ان يختطف منها نصيباً ؟

ولئن اعترض علينا بأن اكثر الاعيان الموقوفة صارت فى كفالة الاوقاف فأصبحت فى حرز المثل ومشمولة بادارته . فالجواب ان ديوان الاوقاف لايمتاز على غيره من نظار الوقف الا من جهة واحدة وهي انه يفعل كبيرا ما يفعله النظار صغيرا . وان هذه المصلحة فضلا عن سوء ادارتها الظاهرة سواء فيما يختص بتنمية ايراداتها او بطرق صرف اموالها قد فقدت اميال الامة وثقتها . لانها فوق اهمالها الاعمال العمومية النافعة قد تحولت عن الغرض العام الذي انشئت لاجله وهو اعطاء الحق لذويه فصارت اكبر خصم يصادفه المستحق اذا طلب حقه

ولو كان لمصر نصيب من الحظ لكانت هذه المصلحة اليوم كشجرة عالية منبسطة اغصانها الباسقة حيث يلتجيء اليها و يستظل بها فقراء الامة كلهم . او كقلب الامة الذي يخفق اذا هي حزنت او فرحت و يمد عروقها وشرايينها بالدم الذي يهبها الحياة الطيبة

فبالله كيف تصبح المصلحة الكبيرة النفع كآلة لهو فى ايدينا نلعب بهـا ونحن نتلفها كما يتلف الطفل كل العوبة تقع فى يده

وياليت شعري كيف يتحول استعمال الشرائع فينتج نتائج مختلفة بقدر ما يوجد من اختلاف وجوه تنفيذها ؟ وكيف ان الاخلاق تؤثر على القوانين والنظامات فتغيرها وتقلبها وتفسدها وتحول بينها وبين الوظيفة التي وضعت لاداثها؟

ولقد كنت هممت أن انصح الناس أن لا يقف أحد شيأ من ماله ولكن أمل النفس تغلب على همامتها . فاذا لم يكن عندنا رجاء في اصلاح الماضي فلا شيء يمنعنا ـــ اذا اردنا ـــ ان ننظر الى المستقبل من ان نرد الى الوقف اعتباره الشرعى وذلك يكون بأمرين :

الاول ان يخصص الواقف منذ الآن جزأً قليلا او كثيرا ليصرف من اليوم الذي يبتدئ فيه تنفيذ الوقف على مصلحة عمومية يعود نفعها على البلاد كمدرسة اوكتاب أو مستشفى او أجزاخانة او مساعدة الفقراء الذين يشتغلون او الذين لا يستطيعون الشغل بحال . وهذا الباب الاخير واسع يقبل صرف الملايين اذا وجدت . ولكن على شرط أن تكون مساعدة الفقراء بتمييز وفكر على النمط الذي نراه فى أوروبا . فيمكن مثلا تخصيص الصرف على تربية الاطفال اللقطاء او العائلات التي تفقد عائلها أو بصفة مكافآت سنوية لمن يؤلف أحسن كتاب

في تاريخ الاسلام او يترجم عددا من الكتب الاجنبية التي يجب نشرها في بلادنا .وهكذا

والثاني ان يعين الواقف الاشخاص الذين ينيط بهم ادارة الوقف من اهله او اصحابه او غيرهم ممن يرى فيهم الاستعداد والضمانة لتنفيذ ارادته ولكن على شرط ان لا تؤول النظارة الى ديوان الاوقاف او غيره من مصالح الحكومة باي حجة كانت ولاي سبب كان لاني اعتقد ان كل وقف تمسه يد الحكومة ليس للامة منه نصيب

اما اذا اراد اغنياؤنا ان يتمتع اولادهم بعدهم بثروتهم فالوسيلة الوحيدة التي يجب استعمالها ــ مع التأكد من نجاحها ــ انما هي ان لا يقصروا في تربيتهم

(السائح)

اسباب ونتائج

٧

كيف يصرف المال

ان كان كسب المال صعباً فمعرفة طرق صرفه كما ينبغي ان يصرف صعبة ايضاً . لان يحتاج الى تفكر وتدبير وتحكيم

عقلي وعلم تام بجميع حاجات الانسان كما يحتاج الكسب من الوسائل المتشعبة

واول شيء يجب ان يفهمه صاحب المال أن المال الذي يكسبه بكده ومجاهداته ليس هو الغاية المبتغاة لذاتها . وانما هو واسطة للقيام بحاجات النفس . فكل ما يصرف في المحافظة على صحة الجسم ووقايته من العلل أو معالجة أمراض حاصلة سواء كان بتحسين التغذية أو اختيار المسكن الاجود او بالرياضة من الحاجات اللازمة . وكل ما يصرف في سبل التعليم والتربية كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة لازم أيضا

وفي رأيي انه لا يجوز مطلقا الاستغناء عن صرف الاموال في هذا السبيل الاخير كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة . فلو فرضنا رجلين لكل منهما ابن وقدرنا ان النفقات اللازمة لتربية كل منهما الف جنيه فجاد بها احد الوالدين على ابنه وضن بها الآخر قائلا اني اجمعها في الصندوق حتى أتركها له كرأس مال بدلا عن انفاقها في سبيل تربيته لكان الاول قائما بالواجب عليه دون الثاني . بل ان الاول يحسب حكيما مقتصداً والثاني يعد مهملا مبذرا . لان التربية هي رأس مال لا يفنى أما المال فما اقرب ضياعه وخصوصا من يد الغبي الجاهل

وليس بلازم ان يكون الانسان غنيا ليقوم بهذه الواجبات

لان التربيـة من ضروريات الحياة كالاكل والشرب . وكل اقتصاد فيها غير ممدوح

ومما يؤسف عليه ان الموسرين في بلادنا لا يعرفون كيف يصرف المال اذ هم في الغالب فريقان كل منهما احط من الآخر واجهل :

فريق يصرف المال ..... في ان لا يصرف منه شيأ بل يفضل حبسه في الصندوق على كل شيء فيرضيه أن تراه دائما قذر الثياب ساكنا في مكان لا تسمح ذمتك أن تربط فيه حمارك . منعزلا عن الناس . حائزا لامرأة صبورة ترضى بالقليل على ان تنال يوما — ولو بعد موته — الكثير وقد يكون له عدة اولاد يتركهم الى التيه بلا تربية بل ولا نصيحة او موعظة حسنة او كلمة حنو . همه الوحيد في ان ماله يزيد

والفريق الآخر يصرف المال بان يلقيه بملء اليد في كل وقت وفي كل مكان

وظاهر ان كلا النوعين يصرف ماله بكيفية مضرة له وللهيئة الاجتماعية . ولو درى أغنياؤنا كيف يصرف الغربيون رجالا ونساء أموالهم لماتوا خجلا ان كانوا يألمون ويخجلون

نرى في كل مدينة من مدن أوربا بين عشرين ومائة محل من المحال الخيرية بحيث قد تربو وجوه مصارف الخير

على عدد انواع الفقر . والحرف والفنون والعلوم التي يراد علاجها او خدمتها باعمال البر بين الناس

نشاهد تلقاء كل نوع من تلك الانواع مصارف خيرية قد خصصت لها وجميع مواردها قائم بالعطايا والوصايا التي تسديها اليها الاغنياء

ان فى أوروبا نساء وهبن في دفعة واحدة نصف مليون ومليوناً ومليونين من الفرنكات : هذه لاسبتالية يعالج بها العساكر الذين جرحوا فى الحروب . وتلك للشبان المصابين بداء السل . واخري للمخترعين الذين لايستطيعون ان يتموا مشروعاتهم لقلة ذات ايديهم . ورابعة لاول مكتشف طريقة للمواصلات بين كوكبنا وكوكب آخر . وخامسة لاحدى البنات التي تشتهر بفضيلة مخصوصة . وسادسة للعائلات التى تصاب بكثرة الاولاد على غير ميسرة . وهلم جرا

ولا يتوهمن القارىء ان هؤلاء الاغنياء الذين يهبون ويوصون بمثل هذه المقادير ليس لهم بنون واقارب . كلا . بل ان جميعهم او اكثرهم من المعقبين ولكنهم يفتكرون — وهم مصيبون — ان الانسان اذا ترك لوارثه جزأ من ماله يكفيه لقضاء حاجاته المعيشية فقد فعل فوق ما يجب عليه

فلو فرضنا ان رأس مال احدهم يساوي مائة الف جنيه

فاوصى بنصفه او ثلثيه الى وجه من وجوه الخير وحفظ الباقي لورثته قد وفق بين مصلحتهم الخصوصية وبين المنفعة العامة .
وليس من النادر كذلك في أوروبا أن يحرم شخص جميع ورثته من كل ما له ويعطيه لجمعية خيرية اذا تبين له انهم على اخلاق فاسدة

فما لنا لا نقتدي بامثال هؤلاء ونحن أولى باعمالهم منهم اذ أننا على دين من اركانه الزكاة وفيه ان اطعام المسكين كفارة للذنب ؟
السائح

اسباب ونتائج



التربية

التربية بوجه عام هي تنمية القوى المودعة في الانسان الناطق أو الحيوان الاعجم

وقد مارس الانسان وظيفة التربية لنفسه وفي كل شيء وقع تحت تصرفه حتى وصل الى نتائج تشبه المعجزات

ففي النباتات مزج الالوان وعظم الحجم وحسن النوع ونسخ هيئته التي فطر عليها . وفي الحيوانات قد استأنسها واستخدمها وعلمها واستولد من الانواع المختلفة أنواعا جديدة

ولكن أكبر شيء يحق للانسان المباهاة به والافتخار بل والاعجاب والزهو هو تربيته نفسه

ولو رجعنا بالفكر القهقرى سائرين في الطريق الطويل الصعب الوعر الذي قطعه الانسان من اول خلقته وتخيلناه في ذهننا من مبدئه الى المحطة التي وصل اليها الآن لشعرنا بدوار عظيم أشبه بالدوار الذي يستولى على الدماغ ويستهوى بحواس احدنا اذا وجد نفسه فجأة على محل شاهق جدا وألقى ببصره الى هاوية سحيقة كذلك

وقد يتيه العقل ويذهل اذا تخيل الانسان الحالة التى ينتظر ان يرقى اليها النوع البشري على القياس السابق بعد نحو ألف عام أو الفين لان هذا التغير والتحول بل الحركة المستمرة الى جهة الترقي هي قانون الحياة الانسانية التي خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية التى لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان افريقية وامريكا ممن وصفهم العلماء بانهم قردة متمدنة عند ما شاهدوا أن المسافة التي بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التى بينهم وبين أناسي أمة متمدنة . حياك الله

ولو لم يقف هؤلاء العلماء على البراهين التاريخية القاطعة التى استخرجوها من بطون الارض فأثبتت انهم من جنس

آدمي لحكموا باخراج هؤلاء الاخوان التعساء من دائرة الانسانية

وها هو الانسان لم يزل يمشي صاعدا مرتقياً متنقلا من دور الى دور حتى وصل الى هذه المدنية الجميلة التي جعلته حقيقة سيد الكون واشرف المخلوقات وسيستمر كذلك باذن الله الى حد لا يعلمه الا هو

وهذه المرتبة العالية لم ينلها الانسان الا بتربية نفسه فلا غرو ان صارت التربية عند الامم المقدرة لها حق قدرها صاحبة المكان الاول فى النفوس معتبرة اياها عماد حياتها

والتربية هي التي انتجت كل الرجال الذين نسمع عنهم ونشاهدهم متحلين بمزايا الاستقامة والصدق والكرم والشجاعة والشفقة وحب الوطن واحترام الحق والدفاع عن الحقيقة والخضوع للواجب وبذل النفس والمال فى خدمة العلم والدين والجامعة الوطنية . والتربية هى التي انتجت ايضاً رجال أوربا الذين نقول عنهم عند ما يفيض اعجابنا بهم ونريد أن نسلي انفسنا عما يخفف تبكيت الضمير (انهم اخذوا كل فضائلهم عنا وعن ديننا وعملوا به) . وهي التسلية التى حقها أن يكون وخزها في القلوب اشد من طعن الاسنة والرماح اوهى كما يقول المثل « عذر اقبح من الذنب »

ولقد فعل المصريون شيئاً يذكر فيما يختص بتعليم ابنائهم

فبعد ان كان لا يمكن ادخال ابنائهم في المدارس الا بالقوة والارهاب من عهد ليس ببعيد صرنا نراهم الآن يسعون وراء التعليم مجتهدين في ادخال أبنائهم المدارس مجانا او بمصاريف بل ويتظلمون من ان الحكومة لم تفعل كل ما يجب عليها . وقصارى منيتهم التي يسهل استنباطها من اقوالهم وشكاويهم ان تفتح الحكومة في كل مديرية وفى كل محافظة مدرسة طويلة عريضة فسيحة الارجاء تسع كل ابناء سكانها . وربما لا يكتفون بذلك فيأملون ايضاً أن تعطيهم بلا منة عليهم الملبس . ولا بأس من ان تعطيهم فضلا منها بعض نقود ليصرفوها على انفسهم في فسح أيام الجمعة وثمناً للدخان الذي يشربونه

ثم اذا أتموا دراستهم بدون عطل ولا تدقيق زائد في الامتحانات كان على الحكومة ان تمنحهم الوظائف العالية فالرتب والنياشين حتى اذا مات احدهم فعلت مثل ذلك مع ابنائهم . واذا ناقشتهم في مطالبهم هذه رأيتهم مقتنعين بان الحكومة اذا فعلت ذلك كله كانت قائمة بالواجب عليها فقط وانه ليس فيما يطلبون شيء خارج عن حد الاعتدال ولا فوق المستطاع ولا ما يزيد عن الواجب وليت شعري لماذا لا يطلبون مع ذلك من الحكومة ان تتكفل بتزويج بناتهم حتى لا يبقى عليهم حمل ثقيل بعد ذلك

ومن الاسف أن المصري لا يزال يظن ان تربية الطفل عبارة

عن وضعه فى المدرسة وانه متى علم ولده ماكان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه: مع ان التعليم هو فى الحقيقة أقل فروع التربية شأنا وفائدة

نعم انه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة والفلسفة اذا شئت. ولو اني اعتقد ان التعليم النظري لا يفيد الغلام فائدة محسوسة خصوصا اذا كان في السن الذي يتلقى فيه العلوم العاليه

ولكن يجب ان الآباء يعلمون ان التعليم وحده لا يفيد شيأ اذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية . وان الجرعات العلمية التي يتلعها الغلام من سن السابعة من عمره الى سن العشرين ليس فيها الغذاء اللازم لتكوين روحه . اذ هذه الجرعات أشبه شيء بالحبوب المذهبة التي ينشر عنها مخترعوها الاعلانات المشوقة فى الجرائد حيث ينسبون لها جميع المزايا الصالحة لشفاء جميع الامراض وليس فيها فى الحقيقة ونفس الامر الا مزية واحدة :هي انها لا تضر

اما تربية الروح فانها تكون بتعويد الطفل لا على ان يفهم هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا. بل على ان يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع .لان ادراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا أمر سهل وقد لا يكاد يوجد انسان يفعل امرا مذموما وهو يعتقد أنه ممدوح . فالسارق والقاتل والخائن والبخيل كلهم يفهمون

ان ما يرتكبونه رذيلة من الرذائل .ولكنهم تعودوا استعمالهـا كما تعودوا ان يجفوا الفضائل

فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشيء المهم في فن التربيـة ولكن كله ينحصر في اكتشاف واظهار وتمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا او غرسها فى نفوسنا وتقويتها واحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك ابدا . ومتى وجدت التربية بهذا المعنى لازمت النفس الفضائل وتجافت الرذائل بقدر تلك الملازمة

وبديهي أن التربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب أو من قراءة وحفظ قواعد علمية . بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام بل وقبل ذلك كما سنبينه بالبرهان . واول من يطلب منهم القيام بهـذه الوظيفة الشريفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة والذين يؤثرون عليه باعمالهم واقوالهم وسلوكهم . ثم اذا اضفنا الى ذلك ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بانها لا تتم الا بواسطة من انتخبتهم الفطرة الالهية ــ اوكما يسميها بعضهم الطبيعة ــ لهذه المأمورية العاليـة وهم الوالدان

فاصلاح الانسان لا يكون الا بالتربيـة والتربية لا تكون الا بالعائلة . ولهذا اعتبرت العائلة اساس كل جامعة

السائح

اسباب ونتائج

٩

(التربية ايضاً)

قال احد الفلاسفة « لو عهدت الى تربيـة النوع الانساني لقومت كل اعوجاج فيه حتى يصبح ولا عيب في خلق من اخلاقه»

ومنزى هذه العبارة الجوهرى ان التربيـة تصلح كل اخلاق الانسان وتجعله ـ اذا تمت فيه على ما ينبغي ـ قويما منزها عن العيوب والنقائص التي تلاحظ الآن في مجموع النوع الانساني . وليس فى هذه الدعوى ادنى مبالغة بل هي الحقيقة التي لا ريب فيها

اما النسق اللفظي لتلك الحكمة الباهرة فهو مبالغ فيه لا محالة لان الشخص الواحد لا يمكنه ان يتولى تربية شخص مثله من جميع أطرافها في جميع اطواره بل فى مثل هـذا المقام يظهر عجز الانسان الضعيف وتتجلى قدرة الله في خلقه حيث جعل الكل عونا للكل

وبيان ذلك أن التربية لا يمكن ان تنتج فى الامم بل ولا فى الاشخاص نتائج سريعة الى مثل هذا الحد الذى يرمى اليه ظاهر لفظ ذلك الحكيم الفيلسوف . وان التقدم الادبي والارتقاء العقلى

لا يخلقان من العدم البحت الى مظهر الوجود الكلي مرة واحدة بل المشاهد عكس ذلك حيث سير التقدم بطيء غير محسوس يكاد لا تشعر به الامة التي يزورها . وقد يحتاج لرسوخه في النفوس والعقول لعدة اعصر متوالية فيترك كل عصر الى ما يليه تركته ويرث الخلف من السلف كل مملوكاته التي ورثها من اسلافه والتي اكتسبها بجده الذاتي

وهذا ما يسمى عند علماء الطبيعة بقانون الوراثة : ذلك القانون الذي لا يزال تطبيقه سراً غامضاً يجعل جميع الاعصر متضامنة مع بعضها تضامناً مفيداً أو مضراً حسب اختلاف اخلاق اهل كل عصر

ومن الثابت البديهي ان الانسان كما يرث عن والديه وامته وجنسه الصفات الجثمانية التي امتازوا بها يرث كذلك من هاته العناصر كلها القوى العقلية والادبية التي تكون مختصة بها

ولهذا لا يستطاع ان نطلب من التربية أن تفعل ما يفعله السحر الذي يقلب العصا حية . فان تحويل الامة دفعة واحدة من التوحش الى التمدن لا يقل عن قلب العصا حية تسعى

وحسب التربية شرفا وفضلا أنها هي الوسيلة التي تمكن الامة من الارتقاء فوق أعلى منصات المدنية والحضارة اذا لازمتها وراعت التحرز والاحتياط وتبعت الجد وابتعدت عن الطيش فلم

تنقل رجلا من مكانها صعودا الا بعـد أن تثبت الاخرى على الدرجة التي فوقها .والا عرضت نفسها الى خطر الانزلاق والسقوط واضطرت بعد ذلك ان تعاود الصعود وتكرره فيضيع الوقت بين صعود وهبوط وتقدم وتأخر

وقد اختلف العلماء في كيفية وضع قواعد التربية واتى كل منهم بمذهب على ما رأى وليس محـل بيان تلك المذاهب هذا المقام اذ الاطلاع عليها سهل لـكل من اراد ولكن كلها مجمع على لزوم البدء فى التربية منذ يستهل الطفل ويلتمس رضاع لبن امه ولا غاية للتربية الا بالموت اذ الانسان محتاج لها حتى يفارق الحياة الدنيا

ويلزم ان يكون البادىء في مباشرة التربية الوالدين حتى يبلغ الطفل رشده او بعبارة اخرى حتى يكون رجلا مستقلا بنفسه ثم هو يتولى تربية أخلاقه وتقويم ما يجده فيها من اعوجاج

ولكن من البديهى ان أصلح ضروب التربية انما هو ما يلازم الطفل فى مهده . فان أكبر عيوبنا يستولى علينا ونحن أطفال وهو الامر الذي اغفله الوالدان عندنا بالمرة . وكثيراً ما يتركون اولادهم يلعبون بتعذيب الحيوانات او يضربون خدمهم او يشتمونهم باقبح ألفاظ السباب والشتائم وهم يضحكون انبساطاً من هذا الانسان الصغير الذي يقدر على هـذه الكبائر . وكثيراً ما يعجب الوالدون باولادهم اذا اخترعوا واقعة كاذبة او استعملوا حيلة لحصولهم على

فائدة أو لتملصهم من ذنب وقد يصيحون قائلين : ما انبه هذا الصبي وما اشد ذكاءه

وكثيراً ما يضرب الوالدون أولادهم ضربا مؤلما الغرض تأديبهم أو يخاطبونهم بالعنف والتهديد وغليظ الصوت الذي يلقي الفزع والرعب فى قلوبهم: مع أن هذه الاعمال كلها هي البذور التي تنتج فى المستقبل نبات القسوة والحمق والخيانة والجبن والنذالة

وأغلب الوالدين عندنا يساعدون على غرس وتنمية العيوب في الاطفال . وقد يعتبرون الطفل كألعوبة وهبها الله اياهم ليقضوا بها اوقاتهم فى الفرح والسرور والضحك فلا يفكرون الا في ترويح نفوسهم به حتى اذا ما كبر الطفل وبلغ سبع سنين ولم يبق صالحا لتسليتهم بأقواله وحركاته هجروه وابعدوه وطردوه يلعب فى الطرقات مع اولاد الحارة او يقعد على الباب مع الاتباع والخدم فيرتبط الطفل بهم وتتكون علاقة بين نفسه ونفوسهم وروحه وأرواحهم ويأخذ منهم أضعاف ما يأخذ من أهله فيشب على عادات رديئة وأخلاق رذيلة تبقى معه ما دام حيا

وحسب كل منا أن يمعن النظر فى أخلاق نفسه فلا يصعب عليه أن يكتشف عيوبا نشأت فيه وشب عليها من الصغر ولو حاول يوما ما ان ينزع نفسه منها ويتجرد عنها بالكلية لوجد شخصه عاجزا عن ذلك تمام العجز . وقصارى ما يصل اليه جهد الانسان

أن يلطف هذه العيوب قليلا . بمعنى أنه اذا وضع الواحد منا عيبه نصب عينيه وحاذر من الوقوع فيه كفى شره بالاجتناب عنه ما دام يقظا محاذرا .ولكن استمرار الحذر غير متيسر فى كل وقت لكل احد فاذا ذهل ذلك المحاذر عن عيبه سويعة من الزمان واشتغل بأمر آخر فلا يشعر الا وهو مغمور في ذلك العيب الى رقبته . ولهذا كان المثل المصري الشائع « الطبع والروح في جسد » من أحكم الامثال وأصدقها

لهذا تجب ملاحظة الطفل في كل اعماله وحركاته واقواله ملاحظة مستمرة حتي لا تلتصق به عادة رديئة ويجب على الخصوص اجتناب الاعمال القبيحة أمامه . لان المثل يعدى خصوصاً مع الاطفال

ولا ينتظر لمباشرة التربية أن يتعقل الطفل الاشياء ويفهم المعاني ويعي ما يقال له . بل يجب الشروع فيها من أول ولادته بتعويده على انتظام الغذاء والنوم والنظافة وعدم البكاء . بل قد تطرف فريق من العلماء بجعل مبدأ زمن التربية من بدء ظهور الحمل في بطن أمه . وهذا الرأي مع ما فيه من الغرابة ليس ملقي على عواهنه أو خاليا من الصواب لاننا نشاهد ان الامّ تؤثر على ولدها تأثيرات مادية لا يمكن انكارها . فترى فى بعض الاحيان عند ما يولد الطفل آثارا ظاهرة في جسمه يكون سببها الوحيد تأثر

الام أثناء مدة الحمل بحادث مخصوص هيج احساسها الى الرغبة في شيء أوالنفور منه

وتوجد مشاهدات كثيرة تدل كذلك على أن الامهات اذا طرأ عليهن في مدة الحمل فزع شديد أوكدر عظيم أو شهوة قوية أثرت هذه الحوادث على أخلاق أولادهن وأورثتهم الشراسة أو الحمق أو العناد أو التهور في الاقوال والاعمال

فليس اذن من المستحيل ان نعتبر بقاء الام مدة الحمل على حالة اعتيادية واجتنابها كل ما من شأنه أن يثير عواطفها ويهيج حواسها من اول الحقوق التي يكتسبها الطفل عن والدته وأول الواجبات التى تفرضها عليها تربيته

وعلى كل حال فان تأثير الوالدين وعلى الخصوص الامهات في تربية الطفل أمر ثابت ونتيجته تكون مفيدة لسعادة الطفل ان راعى الوالدان الذمة واخلصا النصيحة الصادقة فى تربية أولادهم وتكون ضارة وسببا فى كل شقائه ان كانا على عكس ذلك

السائح

اسباب ونتائج

١٠

(أصول التربية)

ونعنى بالاصل هنا الأس الذي يشيد عليه البناء قائمًا ثابتًا لان

كل نفس صنعتها تربية حسنة تكون قائمة على قواعد متينة تحفظها من السقوط في مهاوي التلف وتمكنها من مقاومة عواصف الشهوات والحوادث التي لا بد من مصادفتها في الحياة . ومن الاسف اننا اذا نظرنا الى نفوسنا وجدنا تربيتنا كبناء على شفا جرف هار

واول أساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو الاحساس الديني . فالدين للانسان هو الشيء الوحيد الذي يمثل بين يدي كل نفس صورة الكمال الحقيق . وغرس بذور محبة الدين في نفس الطفل يجعل وجهته في كل حركاته وسكناته نحو الكمال في كل شيء ويخلق عنده رغبة كاملة في كل ما يراه جميلا

وليس في الحياة وقت أحلى وألذ على النفس من ان الانسان يجرد نفسه سويعة من الزمان عن كل ما يحيط به من عالم الكون الذي هو فيه ويذهل عما فيه من القبائح والمظالم والمصائب بل ومن الافراح التي لا تخلو دائماً من شائبة كدر تمازجها أو تتبعها . تلك الافراح الكاذبة الغاشة كما تغش التفاحة بهيئتها النضرة ظاهرا وقلبها مسكن للديدان

فاذا جردها كما تقدم وقلب وجهه في السماء زمنا خاشعاً ساكنا حيران راجياً ناسياً كل شيء حتى ذاته - ثم رجع بعد ذلك الى نفسه وجدها شيأً تافها حقيراً ناقصا فتميل روحه اذ ذاك الى الترفع

عن الاشياء المادية والتنزه عن الدنايا والشهوات ويرى نفسه ساعتئذ عالقة بمحبة الكمال في كل شيء

نتج من هذا انه اذا تعود الطفل عندنا على محبة دينه - وهو دين قويم جمع كل الكمالات - ثم غذى بتاريخ الاسلام وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح وبالجملة كل الرجال الذين اشتهروا بالكمالات من المسلمين ودأب أهله على محادثته بأمثلة ذلك التاريخ الشريف واضعين بين عينيه الكتب التي تشتمل على هذه الفضائل بدلا من قصص أبو زيد والزناتي وحكايات الجن والعفاريت . فلا ريب في ان الطفل يشب على اخلاق كريمة فيصبح بعد ذلك رجلا له في جانب عقله روح كبيرة ونفس مترفعة عن الدنايا واحساس عال قوي : وكلها عناصر لا يكون الرجل بدونها انسانا بل ولا رجلا

ونحن والأسفاه نكاد نكون مجردين عن الاحساس الديني الذي يودع في الشخص تلك الكمالات ويربيها . ولست أتكلم عن أبناء المدارس فقط بل وعن طلبة العلم الذين قصروا تعلمهم على ما يلقى في الجامع الازهر الشريف من العلوم الدينية وما يتبعها . وأمثالهم . لان هؤلاء قد تعودوا ان يتلقوا احكام الشريعة كعلم يجب حفظه في الذهن مهملين مع ذلك كل ما ينتج تولد الاحساس الديني العميق وتميته

وعلى عكس ذلك نرى الاوربيين . فانهم وان كانوا أقل من المسلمين معرفة بأمور دينهم ولم يعتادوا الاشتغال بدراسته مثلنا لكنهم على الدوام يظهرون في أقوالهم وأعمالهم احتراما شديداً لكل ما يختص بدينهم واحترازا عظيما عن كل ما يمسه ولو أقل مساس

وكلهم يرونه عنوان المدنية ومنبع الآداب والوسيلة الوحيدة لتهذيب النفوس . وربما كان أقلهم اعتقاداً في صحته أكثرهم احساسا بمحبته واحتراما له

والاساس الثاني للتربية هو الاحساس الوطني . وهو يتولد كذلك عند الطفل من الحديث والقراءة والاحاطة بكل ما يعلي شأن الوطن وما يسقطه وتعويده على النظر اليه كشيء محترم جليل مقدس وتفهيمه بانه وحده ليس لعمله قيمة ولا لوجوده اعتبار ذاتي . وانه بانضمامه لامته يكوّن قوة عظيمة . وان منفعة الانسان صغيرة زائلة ومنفعة الامة كبيرة راسخة . وانه يجب علينا ان نعمل لمن يخلفنا في وطننا مثل الذي عمله اسلافنا لنا

تأمل ايها القارىء برهة تر ان بلادنا مثلا ما وجدت في الدنيا بالحالة التي هي عليها الآن . بل ان كل ما تراه فيها نتيجة اعمال ألوف من القرون كل قرن يتلقى من سابقه ما تركه ناقصاً فيتمه ويهيء غيره الى خالقه سواء كان في الزراعة او الصناعة او المباني اوالعلوم

او اللغة او الكتابة او الشرائع او التوسع في الفتوحات او المحافظة على الامن داخلا وخارجا . فان كنا اليوم نتمتع بهذه المزايا فعلينا ان نشكر آباءنا وان لا ننسى ان سيخلفنا خلف لهم علينا حقوق ولنا عليهم واجبات كما كان بيننا وبين آبائنا سواء بسواء . والوطن هو الذي يمثل للذهن هذه السلسلة مرتبطا بعضها ببعض واننا الا حلقة فيها

اما الاساس الثالث فهو مراقبة الوازع النفسي او ما يسميه بعضهم تنمية الضمير . ويسميه الاوربيون المحكمة الباطنية التي يحاكم الانسان نفسه امامها

وقد يظهر ان رجوع الانسان الى نفسه بهذه الطريقة امر فطرى الا انه ليس هذا صحيحاً الا عند ما يقع فى عمل يوجب التبعة والمسئولية اذ في ذلك الوقت يكون حكم الضمير قويا صارما فيعرف الانسان انه مذنب ومقصر ويندم على فعله

ولكن أي الناس يحاسبون نفوسهم على اعمالهم اليومية ؟ اي الناس يستعملون الذمة مع اولادهم وازواجهم واقاربهم واصحابهم وخادميهم ومن يتعاملون معهم بالبيع والشراء والاجارة وغير ذلك ؟ بل نرى ونشاهد اكثر الناس مشغولين بمراقبة اعمال غيرهم حاكمين عليها اشد الاحكام وكأنهم لم يخطر على بالهم ان يراقبوا اعمالهم لحظة واحدة ولا ان يحكموا على انفسهم ولو بمنتهى الحنان والشفقة يوما واحدا

ولهذا يجب تعويد الطفل من الصغر على ان يتداول مع نفسه ويختار ويحكم ويحاسب ذاته أمام ضميره

(السائح)

اسباب ونتائج

١١

عيوب تربيتنا « حب النفس »

حب النفس فطرة في كل انسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس . وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية بل هو خلق وجدمع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه

ولما كان الانسان في حالته الفطرية الاولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التي تنازعه في معيشته بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذي يتبعه في سلوكه فلا يتأخر عن فعل امر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحاً أوفيه شر للناس

ولكن منذ اليوم الذي ابتدأ الانسان فيه أن يعيش في جامعة من أبناء جنسه متضامنة في وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص عند كل فرد من افراد هذه الجامعة لما تحققه من ان حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده بل من وظيفة جميع اعضاء

العائلة التي هو منها .فالقبيلة التي تشمله . فالحكومة التي ترعاه

ومن ذلك اليوم وجد في جانب هذا الواجب الذي تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها في ان لا يعمل فرد منها عملا يعود عليها أو على عضو منها بالضرر . ومع التقدم رويداً رويداً في نظام الاجتماع صار كل عضو من الامة يتمتع باعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء . وعلى ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد منا اليوم مرتبطاً بأهل بلده ارتباطاً شديداً لا يمكن ان أشبهه باحسن مما يعبر عنه المتشرعون في اصطلاحهم بارتباط التعهدات المتضامنة

ثم ان حب النفس لا يزال في فطرة كل انسان بل انه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل لاحدنا ان كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج في الحقيقة عن كونه شعبة من حب الانسان لنفسه بالواسطة بمعنى ان الانسان يحب نفسه في كل انسان وفي كل شيء يميل اليه . لكن لا ريب في ان الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعي حتى أضعفه أو على الاقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها . فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة. وهي ممنوعة اذا كانت بعكس ذلك . وضرر الغير تمنعه الشرائع وآداب كل أمة

والتربية الحسنة النافعة انما تظهر في اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس في آن واحد . وفي الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم فى تحقيق آماله لان العمل اذا كان يحتوي على منفعة عمومية رضي به الناس اجمعون وعضدوا عامله باقوالهم واعمالهم . وهذا التعضيد يساعد العامل ولا شك فى تنفيذ ما اراد وتحقيق ما قصد. واذا تأملنا فى تاريخ الرجال المشهورين الذين صارت لهم المكانة العظمى في التاريخ كبسمارك وغلادستون وغامبتا لم نجدهم مجردين عن احساس حب النفس . بل بالعكس ربما كانوا أشد الناس حباً لنفسهم لكنهم عرفوا كيف ينتخبون مطالبهم الذاتية موافقة للمصالح العمومية وتسنى لهم بذلك ان يخلطوا بين منافعهم الشخصية ومنافع اوطانهم فجعلوا المنفعتين واحدة غير متجزئة حتى اذ استمروا على هذه الخطة زمناً صار من الصعب على الناس وعليهم ايضاً ان يميزوا الحد الفاصل بين المنفعتين . وهذا ما حدا بأهل بلادهم ان يقيموا لهم التماثيل لتخليد ذكراهم اعلانا لرضاهم عنهم وارتياحهم من اعمالهم

ولكن من الاسف نرى اهل بلادنا قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس في تربية اولادهم فنشئوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة فى انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير . فهم يتهافتون

على العمل النافع لهم اذا كان فيه اضرار بالمصلحة العامة . وقد لا يقبلون عليه اذا تجرد عن ذلك

فالموظف المصري يعرف لتقدمه كل الطرق ماعدا طريقاً واحداً وهو الشغل

والفرد من الاهالي لا يستعين فى طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات وبجميع اعمال الزور حتى ضد اقرب الناس اليه

وهذه الحالة التي تمثل اكبر عيب فينا هى ايضا نتيجة الحكومات الاستبدادية الماضية لان الاستبداد أصل كل فساد في الاخلاق . وقد اهملناه في تربيتنا فنما هذا النبات الخبيث نمواً شديدا حتى ضعضع كل ما يوجد فى جانبه من احساس شريف وعاطفة بشرية وارتباط اجتماعى . وعلى الخصوص ارتباط عائلي

وها نحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الآخر بدون ان يمتزج به الا امتزاجا سطحياً . كل منا سائر في طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط : مع اننا نرى غيرنا على خلاف هذه الاخلاق

نرى الامة المكونة من اربعين مليونا من النفوس مثلا كل أفرادها على قلب رجل واحد . اذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفاً من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأخرى فنية وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون . بل نرى

لكل نوع من انواع الرياضة كركوب الخيل والمصارعة ولعب الكرة والسباحة وما أشبه جمعية مخصوصة . نرى حب الاجتماع في كل شيء وفي كل انسان حتى اذا لم يبق شيء يكون موضوعا للاجتماع اجتمعوا لمجرد التشابه في الجسم كالجمعية التي أنشئت من سنتين في باريس لكل من يزيد وزنه عن مائة كيلو . أو للتشابه في الاميال كجمعية العذاب

وظاهر ان هذه الامور هي أسباب للاجتماع فقط واما الغاية الاصلية فهي الاجتماع

ولهذا يلزم تعويد اطفالنا على الاجتماع بامثالهم كما يفعل الغربيون حتى اذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية الى انحلال اجزائنا والاضرار بجامعتنا كما هو الآن (السائح)

اسباب ونتائج

١٢

عيوب تربيتنا « الكسل »

ان لكل أمة عيباً مشهوراً تعرفه في نفسها كما يعرفها به الاجانب وعيبنا الكبير الذي يشاهد بوجه التقريب عاما بيننا ويكاد لا يخلو منه أحد وان كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل

نعم نحن كسالى في اعمالنا وفي اقوالنا وفي افكارنا وفي رياضتنا .

نحن كسالى في جميع اطوار الحياة ومظاهرها . نحن كسالى في الجد وكسالى في الهزل وكسالى امام المصائب وامام الافراح وتلقاء النافع وازاء الضار

نحن كسالى فى الصباح وفي المساء . نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى . ونعيش بين هذين الوقتين كسالى

انظر فى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوأ بالاكل والشرب والنوم ورواية القصص القديمة والنوادر المضحكة والتنكيت والضحك الصناعي والاقوال الفارغة والالفاظ التي معانيها غامضة او ظاهرة نصف ظهور . وقد لا تجد في صحيفة واحدة من صحف احدنا عملا يذكر

وليس المقصود ان نعمل ما فوق الطاقة او ان نأتي بالعجائب والغرائب بل نقول اننا لا نعمل الاعمال العادية التى بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل .

فمن لوازم الجسم ان يصرف في كل يوم مقدارا من القوة بتحريك الاعضاء وتمرينها سواء كان ذلك بالمشى او الركوب او اللعب او الشغل والا سقط في الهزال والضعف المورثين للكسل

وكذلك العقل يقع فى مهوات الكسل اذا لم تتوارد عليه صور اشياء شتى لان المخ هو فى الحقيقة مخزن واسع تأوى اليه الصور التي تتكون بواسطة حواسنا حيث الاجهزة العصبية للنظر

والسمع والشم والذوق واللمس هى الينابيع التي يستمد منها المخ مادته وتتكون منها وظيفة التفكر وتتألف بها اجزاء المعاني . فان كانت الاحساسات متوفرة متنوعة كان العقل كبيرا . وان كانت قليلة كان صغيرا

والارتقاء العقلي لا يكون الا بتوارد احساسات جديدة من شأنها تحريك الصور القديمة والاضافة اليها ووضع المخ في حالة التنبه التى بدونها لا يتأتى ان يؤدى وظيفته وهي توليد المعاني وانتزاعها من بين تلك الصور

ونشاط الجسم والعقل يتعلق ببنية الشخص وتربيته . ونحن لا يكاد يكون لنا سلطان على البنية ولكن لنا سلطان قوي او ما يقرب من ذلك على التربية . فان كانت البنية سليمة امكننا ان نحافظ على صحة الجسم بالتمرينات والاشغال المادية التي تبعد عنه الكسل . وان نحافظ ايضاً على نشاط العقل بالتعويد على التفكر والتأمل والمطالعة كل يوم . واذا نشأ الطفل على هذه العادة فلن يتركها

ونحن معاشر المصريين قد اهملنا تربية الجسم وتربية العقل معا . اما الاولى فلاننا لم نعتد من الصغر علي التمرينات التي يستعملها الغربيون . واما الثانية فاننا لا نحسب الا انه يلزمنا

الاجتهاد حتي نحصل على شهادة تفتح لنا ابواب الوظائف حتى اذا بلغنا هذه الامنية لم يبق علينا بعد ذلك شيء آخر

يقول الاوربيون كثيراً ان المصري من السنة السابعة من عمره الى سن العشرين يضاهي الاوروبي فى الفهم والحفظ والنشاط ولكنه بعد ذلك يأخذ فى التقهقر شيأ فشيأ حتى ينسى ما تعلمه ويسقط فى مهواة الجهالة والخمول التي فيها جنسه

وهذا الرأي مهما كان قاسيا بالنسبة لنا فهو صحيح من جهة وباطل من جهة اخرى . اما بطلانه فلانهم يريدون ان يحكموا على الجنس المصري باجمعه فى الحال والماضى والمستقبل بانه غير قابل للارتقاء لوجود عاهة طبيعية اختلفوا فى تشخيصها . وهو زعم لا دليل عليه بل التاريخ اعظم شاهد على بطلانه

واما كونه صحيحاً فلان المشاهد ان المصرى لما يكون في زمن التعليم يستفيد كثيره منه . وفى بعض الاحيان يفوق التلامذة اقرانه من الاجناس الاخرى . بل كثيراً ما نبغ التلميذ المصرى هنا وفى أوروبا وبرهن على ذكاء متوقد . ولكنه متى اتم دروسه واخذ شهادته وانخرط فى سلك موظفى الحكومة طوى الكتب وهجر العلم وظن ان زمن التعلم قد انقضى وانه لم يبق مستعداً ومتهيئاً الا لأن ينال وظائف سامية ومرتبات فائقة . فاذا مضى عليه زمن يسير وهو على هذه الحالة ضاعت القواعد

التي كانت تملأ ذهنه وتبخر علمه وطار في الهواء ولم تبق لديه الا كليات يظنها معاني وقطع من جمل واجزاء من عبارات واصطلاحات محرفة تكفيه اذا نطق ان يوصف بالجهالة ويرمق بعين الازدراء والاحتقار

وعلى عكس هذا القياس نرى غيرنا من الامم الاخرى فان المتخرجين من معاهد التعليم فيها يجهدون انفسهم بعد انتهاء دراسة التلمذة اضعاف ما كانوا عليه زمنها فيتقنون بذلك الفرع من العلم او الفن الذي اختصوا به دائبين على البحث فيه متطلعين الى ما يقال او يكتب فيه . لانهم يعلمون ان العلم لا يقف عند حد وانه دائماً في تبدل او تقدم

السائح

اسباب ونتائج

١٣

عيوب تربيتنا « احساس الاحترام »

احساس الاحترام هو محك التربية فكلما كان نامياً في أمة كانت تربيتها جيدة واذا فقد كان فقدانه انذارا بانحلال جامعتها وسقوط ابهتها وعظمتها

وان اهم شيء يحفظ الامم ويزيد في رفعة شأنها هو احترام جملة امورها الجوهرية الاساسية مثل الدين والوطن والسلطة

العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف او جميل او نافع

واذا كان هذا الاحترام عاما عند الجميع وشاملا لجميعها كان دليلا على قوة تربية الامة حيث لا يجرأ على مخالفة هذا التيار القوي الا نفر قليل

ونحن معاشر المصريين وياللاسف لا نحترم وطننا ولا نعرفه وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الاجانب الذين لا يمكن ان يعرفوه كوطن لهم بحال من الاحوال وفاتنا ان كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا . حتى أن كلمة « فلاح » التي كان الاتراك يستعملونها في مقام الذم عند ما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصري اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضاً

ومن هذا القبيل ايضاً نرى بعض الاشخاص الذين ولدوا في هذه الديار من آباء ولدوا فيها بعد ما ترك اجدادهم بلادهم ولم يبق لهم أمل في العودة اليها يجتهدون دائماً في ان يثبتوا انهم من اصل تركى أو سوري او عربي ولا يكادون يعترفون - وخصوصاً امام الاجانب - انهم من ابناء البلاد التي يرتعون في خيراتها ويعيشون من نعيمها

وبديهي ان المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه

وانا لا اقول انه لا توجد في الامة المصرية عيوب كبيرة قل ان يوجد مثلها في أمة أخرى . ولا انه لا يباح للمصري أن يذكرها ـ ونشر هذه الجمل في هذه الجريدة يدل على عكس ذلك وعلى وجوب انتقاد عيوبنا بنفسنا وعدم اخفاء شيء منها حتى لا نغفل عن تلافيها اذ ذلك اولى من ان يلقيها يوما ما في وجهنا عدو لنا ـ ولكن اقول انه لا يباح لانسان يحترم نفسه ان يخجل من وطنه ولا ان يغضب عليه الا كما يغضب الولد من ابيه غضباً ممزوجا بالاسف والحنو

اما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً في نفوسنا لا في الماضي ولا في الحال . اذ في الماضي كان المصريون يخشونها ويرهبونها اشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة . واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة انقلب الخوف بناء على حركة رد فعل طبيعي وبمحرضات أخرى الى استخفاف . وكلاهما بعيد عن الاحترام الذي يلزم ان يكون متبادلا بين الهيئتين الحاكمة والمحكومة

فاذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها الى راحة الامة والاعتناء بسماع ندلها وتنفيذ رغباتها كما ينبغي وبحسب الامكان . ومن جهة الامة بان تثق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التي تراها لازمة لها وتغيير القوانين التي تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف . وتقدر اعمالهم حق

قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم ان اخطأوا وتشجعهم على الاستمرار في الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاماً لهم كان ذلك من اهم اسباب سعادة الامة

والعائلة - يلزم ان يكون اساسها الاحترام . ونحن مع الاسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيرا ما يتغلب عليها هوى النفس . فليس بالنادر ان يتزوج الرجل امرأة وتلد له اولادا ثم يتركها واولادها ويتزوج سواها وقد يترك هذه حاملا ليأخذ غيرها كذلك . وهكذا يقضي حياته فى تشييد بناء عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لانه لم يفكر الا في لذة دنيئة لا تذكر فى جانب الاضرار التى تنجم عنها

وان اهم الاسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق - وهو ابغض وجوه الحلال الى الله - وقد اعتاد اهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً لا يمكن ان يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل

نعم ان شريعتنا الغراء جعلت بقاء العصمة بين الزوجين على مبدأ الحرية فكان الرجل مالكا لامر الطلاق وهو حر فيه . ولكن هذه الحرية ما اعتبرت مبدأ له الا لانه ليس فى الوسع حصر الاسباب التى تستدعى حل رباط الزوجية وعلى الخصوص حتى لا يكون الرجل ملزماً بالافصاح عن هذه الاسباب . وحاشا أن

تقصد شريعتنا الشريفة تسهيل قضاء الشهوة البهيمية على الشرهين فيها ليشغلوا انفسهم بالتمتع بالنساء واحدة عقب الاخرى ويتركوا اولادهم هملا شرداً فى الطرقات بلا مأوى ولا نفقة ولا تربية

واقبح شيء شائن فى اخلاقنا هو اعتياد الازواج على الحلف بالطلاق كلما نوقشوا في شيء حتى فيما لا علاقة له بالزوجية على الا طلاق . ولو اقتفينا أثر رجل من أصحاب هـذه العادة الذميمة يوماً من الايام واردنا حصر اعداد الطلاق فى الايمان الكاذبة التي يلفظونها بهذه الطريقة السخيفة لوجدناها تفوق حد النصاب الشرعي تكعيبا وجذرا ثم جذرا وتكعيبا وهكذا . وهو ما ينبغى ان يستدعى التفات الحكومة والعائلة معا الى هذاالامر المهم الذي له اعظم مساس بالهيئة الاجتماعية

فعلى الآباء ان يحترموا انفسهم أمام اولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب ان تكون لا كما هي الآن : ميدان يتخاصم فيه الاهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون

ونحن كذلك مجردون عن احساس الاحترام للعلم والفضيلة ولذلك لا نميز فى المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة بل فى بعض الاحيان قد يكون احترامنا للثاني اكثر من الاول

على ان المدنيـة الصحيحة تعتبر اكبر مكافأة لمن عمل عملا

صالحا أن يحترمه الناس . واكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث أن يحتقروه

ولا يمكن ان تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها والرذيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا احس الناس بقوة حكم الرأي العام وسلامته . ولا يوجد شيء يبرهن على فساد أخلاق الامة اكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها.اذ لا شيء أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة

وكأننا نحن لا نريد أن نعترف لاحد منا بالفضل : نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم . ونرى شباننا يهزؤون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم - ان كانوا من أصحابها - ويزاحمونهم في الاقوال والاعمال ولا يتأخرون عن أن يتسوروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم

السائح

اسباب ونتائج

١٤

« الامهات والتربية »

اذا كان للأم المحل الاول فى التربية كما بينا فهل يصح ان تكون هي نفسها مجردة من كل حلى التربية ؟

واني ليؤلمني أن أكتب حرفا واحدا ليس فيه معنى الاحترام العظيم لكل والدة لان الاحترام والامومة فى نظري شيآن لا يسوغ فصل احدهما عن الآخر . ولكن للحقيقة سلطان يصعب على كل ذى نفس أن لا يحس به وأن لا يخضع لحكمه

وعلى ذلك فأراني مضطرا أن أجهر باعتراف يشق عليّ كثيرا ألا وهو ان الام المصرية لم تهيأ مطلقاً لان تقوم بوظيفتها في العائلة وكاننا استغنينا عنها بوجود الاب وهو خطأ عظيم. لانه فضلا عن كون الام صاحبة الحصة الاولى من تربية الطفل في المدة الاولى من عمره فوجود الاب نفسه بجانب الطفل ليس مضمونا اذ قد يحرم منه بموت او بانفصال الوالدة عنه فتصبح الام رئيسة العائلة (او الحاضنة الشرعية لولدها) وعندئذ يقع على عاتقها الحمل الثقيل الذي كان ينوء به ظهر زوجها فتكون هي المكلفة والحالة هذه بالقيام بشؤون واحتياجات المنزل وطلب الرزق وادارة الاموال وتربية الاولاد

ولما كانت الام في بلادنا مجردة عن كل تربية عقلية أو أدبية كان تأثيرها لغاية الآن على الاولاد رديئاً سيئاً وكانت هى السبب في عدم نجاح القليل من التربية التي يكتسبها الطفل من والده ومن تعليم المعلمين

واذا صرح لي أن أبدي كل فكري أقول ان الأم في بلادنا

صارت مدرسة ثانية عملها الوحيد مكافحة كل ما يتلقاه الطفل من سواها. وقد يحتار هذا الضعيف المسكين بين من يصدق ومن يكذب ومن يتبع ومن يخالف. الا أن مدرسة الام لا شك فائزة على كل حال. لان الطبيعة تشتغل معها وتساعدها بما أودع الله في نفس الطفل من الميل الى الوالدة ولانه يباشرها أضعاف ما يباشر غيرها

ويكفي الواحد منا أن يلتفت الى الوسط الذي هو عائش فيه الآن ثم يرجع بفكره الى عهد شبوبيته الاولى فعهد طفوليته ليحكم بنفسه أن حالة الامهات لا يمكن السكوت عليها والاستمرار على قبولها وانها لا تناسب حاجات الوقت ولا تتفق مع ضالتنا التي ننشدها ونوجه لتحقيقها كل مساعينا وآمالنا

ليس بين الامهات الا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة. وليس بينهن واحدة لها المام ولو سطحياً بمقدمات اي علم من العلوم او فن من الفنون. وهي فوق ذلك جاهلة بكل احوال الدنيا ولا تدري شيأ من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التي تسكنها فضلا عن الالمام باي شيء من احوال البلاد الاخرى. وهي مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر او عمل. وامة داخل الامة لها اخلاقها وعوائدها ومعتقداتها. وفي الحقيقة انهن آثار عتيقة لاجيال مضت وبقايا ازمنة بعيدة. وقد

كنا نحن على حالتهن الحاضرة من ثلاثمائة سنة واكثر . ثم تقدمنا وارتقينا وهن باقيات على ماكن عليه في تلك الاوقات

قلنا انهن آثار عتيقة لازمان خالية ولكنها آثار حية غير بالية لها عمل وتأثير على عكس ما نريد . فهن لا يروقهن شيء من افكارنا كما لا تعجبنا افكارهن

هن يعتقدن ان قواعد الصحة اشياء باطلة . وان دواء الطبيب لا يؤثر على الامراض. وان الحركة والسكون فى ايدي الاولياء والمشايخ والجن والعفاريت

فاذا مرض الولد بادرت الام فاخذت (آثره) واسرعت الى الشيخ المشهور فيأمرها باستعمال بخور او يكتب لها حجابا .ولا شيء فى الدنيا يمنعها من اتباع رأي الشيخ وهي تمنع كل شيء سواه. فكيف يمكنها مع هذا ان تحافظ على صحة ولدها وكيف تمنع عنه الخرافات التي تفعل فى عقله ما يفعل السم في البدن ؟

ان الام لا يمكنها ان تبعد ولدها عن صفات الكذب والتحيل والغش والحمق والكسل والسفاهة اذا كان لا يخطر بفكرها ان هذه العيوب تبقى عند الطفل متى اعتاد عليها بلغ ولا انها عيوب شائنة

وهى لا يمكنها ان تنصحه او ترشده او تشجعه على دراسته او شغله اذا كانت لا تعلم شيأ منها ولا تتخيل في ذهنها منفعة الشغل والمطالعة

فهي نفسها طفل كبير لا تزيد عن ولدها الصغير من جهة العقل ولا من جهة العواطف ولا تختلف عنه الا فيما ينتج حتما من اختلاف السن بينهما . فهو يحب اللعب وهي تحب اللغط وكثرة الكلام . وهو يحب الحلوى وهي تحب شرب الدخان والقهوة . وهو يضرب اقرانه بيده او بالعصا وهي تضرب قريناتها بحد لسانها . ومتى خرجت من هذه الدائرة الصغيرة فهي لا تستطيع ان تفهم كلمة ولا ان تعبر عن معنى

ومن الاسف اني شاهدت بنفسي مرات عديدة صبية يختلف سنهم بين ١٠ و ١٢ سنة وسمعتهم يتكلمون عن والداتهم بما يقرب من الاحتقار والازدراء ويسخرون بما تقوله لهم وما تفعله معهم . فاذا كان الصبي قبل أن يبلغ رشده يرى نفسه – وله الحق – أرقى من والدته فليت شعري ما يكون مع هذا حال الام ؟

ولعله لهذا السبب عينه ترى الامهات ترمين دائماً اولادهن الذكور بالخسة وعدم الوفاء اذ يرونهم يميلون الى آبائهم اكثر من ميلهم اليهن . ولكن لو كان عند الامهات قليل ادراك لعذرن الابناء . اذ هم يألفون بالطبع من يفهمهم ويفهمونه. وهم يشعرون ولا ريب بأن آبائهم أرقى منهم . يجاوبونهم على كل سؤال بما يتحقق منه الابناء ان آباءهم يعلمون مايعلمون هم واكثر منه فينجذبون

الى معاشرتهم والاختلاط معهم اكثر من أمهاتهم . والبنات بعكس ذلك

ونتيجة ما تقدم كله ان الرجال في مصر محرومون من اكبر لذة تقتضيها الحياة : الا وهي محبتهم لوالداتهم وبناتهم واخواتهم بقدر ما ينبغي

وليس مرادي اننا صرنا الى حالة نكره فيها اقاربنا النساء او أننا مجردون عن الحنو لهن . ولكني أقول ان المحبة الجوهرية التي تتكون من اتحاد الفكر واتحاد الاحساس - هذه المحبة الحقيقية الكلية التي تمزج الشخصين وتجعلها شخصاً واحداً . هذه المحبة التي تتمتع بها حتى مع الصديق الاجنبي عن عائلتنا عندما تأنس معه بالحديث في الجهر وبالسكوت في السر كانما الارواح تناجي بعضها وتتواحى باشياء لطيفه - لا يمكن ان توجد بين رجل وامرأة مصريين

فاذا أردنا ان نحصل على أمهات محترمات يلدن رجالا يخدمون أنفسهم وأوطانهم فما علينا الا ان نبادر بتربية البنات ونصرف في سبيلها اكثر مما نفعله . او على الاقل مثل ما نفعله في تربية أبنائنا

(السائح)



أخلاق ومواعظ

١

(الموظف فلان بك)

لم يأت وقت على مصر فشت فيه المنافع الشخصية بين الموظفين واستعملت فيه الدسائس لقضاء الشهوات والانانية الدنيئة مثل هذه الايام التي يعدها بعضهم عصراً جديدا لتقدم المصريين

نعم حدثت نهضة خفيفة في قوة التميز واستعدت العقول للبحث عن الحقيقة المطلقة علمية كانت أو ادبية أو سياسية ونمت القوة المدركة قليلا بقدر ما يلوح الفجر . ولكني اقول والحزن يملأ قلبي ان أخلاق الموظفين وعلى الخصوص الكبار منهم لم تتقدم عن ذى قبل بل هي تقهقرت تقهقراً بينا

ومهما كان اثبات امر من هذا النوع مخجلا فقد رأيت من الواجب عليّ ان اطرق باب البيان في هذا الموضوع عل الذكرى تنفع المؤمنين

وان من يتأمل فى حركات الموظفين يشاهد منظراً عجيباً ذا فصول متقنة التمثيل لنوع أخلاقهم وفصول تتجدد فى كل آن

بطرق مختلفة وقد أحببت ان أقربها بالبيان لافهام اخوانى المصريين الذين يحول بينهم وبينها ستار المناصب فأقول :

هذا الموظف « فلان بك » الذي يرشح نفسه فى كل يوم ثلاث مرات مرة عند الجناب الخديوي ومرة عند قنصلاتو انكلترا ومرة عند احد النظار العاملين

وهو رجل مشهور عند القوم . ومن أين جاءت له هـذه الشهرة ؟ من غفلتنا جميعا . لاننا نحكم عليه بما نسمعه عنه منه فيقول لنا أنا صنعت كذا وكذا وقلت كيت وكيت وطلب مني فلان العظيم ذاك الشيء فامتنعت واجبت فلانا الباشا بكذا . ووبخت المستر فلان على فعل كذا . وهلم جرا . ونحن السذج البسطاء نصدق ذلك ونعتبر ما يقوله حقاً مطابقاً للواقع . فيلذ لنا بعد ذلك أن ننشر عنه تلك الفضائل وتؤسس شهرته بأيدينا ونحسبه من الافراد الذين يعدون على الاصابع والذين يدخرون لوقت الحاجة

نراه اذا كان في مجلس تحقق انه يكره الانكليز أول من يذمهم . واذا وجد نفسه فى جمعية انكليزية كان أول من يذم أبناء جنسه . صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين يقول لهم آه لو كان الفرنساويون هم الذين دخلوا بلادنا لكنا أسعد الناس . فان المصري ميال بطبعه الى الفرنساوى ونحن نعتبر ان كل تمدننا هو عمل الامة الفرنساوية .. .. وسمعته مرة أخرى بين جماعة من الانكليز

وقد فتح أزرار قلبه فى خطابه لهم يناجيهم : أنا أقول لكم فكري بالصراحة ولا أخشى من مخالفة أغلب المصريين لرأيي . أنا اعتبر من حسن الحظ لبلادي ان فرنسا احجمت عن الدخول في مصر وان الامة التي احتلت وطني العزيز هى الامة الانكليزية العظيمة الشأن لانني لا أنسى أبداً مافعله الفرنساويون في مصر عند ما احتلها بونابرت

يقول للسوري انه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم وانه لا يحب التمييز مطلقا بين أفراد أمتين تجمعهما جامعة واحدة . ويقول للقبطي انه ممن يبغض السوريين ويعلم سر كراهية المصريين لهم لانهم أجانب . ولكن الاقباط والمسلمين أمة واحدة فيلزم أن يتحد الفريقان ليستأثرا بمنافع بلادهم الخ

وعلامة هذا الموظف المشهور هي انه متى وجد في مجلس لا بد وان يترك له أثراً يذكر به بعده فى نفوس بعض الحاضرين ان لم يكن كلهم وعلى الاقل المهمين منهم. والاهمية عنده تكون على الترتيب الآتى فى الظروف الحاضرة :

الانكليز . ثم الاوربيون عموما. ثم الاقباط . ثم السوريون . ثم نصارى الشرق على العموم . ثم اليهود . ثم المصريون المسلمون

هذا الشخص يظن أن علم السياسة العملية هو غش الناس بكل وسيلة . ومن الغريب انه يحفظ لنفسه مكانة بهذه الطريقة

ولا يكشف حقيقة أمره الا نفر قليل اذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف كما تضيع قطرة الماء فى الاوقانوس الاعظم

أيحب الناس من يغشهم دائماً ؟ أم قوة التمييز لا تزال ضعيفة فيهم ؟ انني لا أعلم أيهما حقيقة الواقع

ومن ذا الذي يعلمني ان رجلا غشاشا يكره الناس ولا يريد لاحد مطلقاً الخير – لا يحب الا نفسه . ولا يهتم الا بمنافعه الشخصية . ان رجلا يده مغلولة الى عنقه وقلبه جاف لا يفرح يوما لفرح غيره . ولا تدمع عيناه لاحزان اقرب الناس اليه . ان رجلا يهزأ بالناس كلهم حتى يتخذهم آلات لقضاء شهواته واطماعه – يستطيع ان يعيش محبوبا محترما مشهوراً بين قوم متمتعين بقواهم العقلية ؟؟؟ !!!

هذا الذي ترك الاوهام حائرة * وصير العالم النحرير زنديقاً

اخلاق ومواعظ

٢

« الموظف وانا مالى »

هذا الموظف كثير العدد في مصالح الحكومة ومنتشر في جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشار الذباب في الاماكن القذرة

يذهب فى الصباح الى الديوان حتى اذا دخل فى قاعة شغله وجلس على كرسيه أخرج من جيبه علبة السجاير وأحرق واحدة منها . وفى خلال ذلك تأتيه القهوة فيشربها رويداً رويدا ثم يتثاءب ويتثاءب . ويتثاءب . وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعدة ليضطجع ولو نصف اضطجاع . واما أن يعن الله عليه بالزائرين وينفتح باب المقابلات ويدخل عليه الطالبون والملحون ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم الى الديوان من الاصحاب والمحسوبين عليه ومن استدعاهم لقضاء مصلحته كجزار يحاسبه ،او طباخ جديد ليجربه، أو مرضعة لنجله تطالبه فيلقون منه ما تقتضى شعائر المودة والبشاشة والوعود حيث يخرجون واحداً بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه في أثناء ذلك كأنما انشط من عقال : غاب كسله . وذهب تثاؤبه . يبتسم مسروراً . لا يأنف من شيء . ولا يمل من انسان ــ الا اذا كان طالبا ملحاً ــ يحكى بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط حرف (لا) لانه نفى قاطع . ولكنه يعد ويعد ويعد بعبارات لا ترفع الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الامر مستحيلا : مع انه يكون مصمما على أن لا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنال

ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين بورقة يريد عرضها عليه، تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تقطب

وجاهد فى استحضار قواه ليسمع ما يعرض عليه ويعي - وأني له ان يسمع ويعي - فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثا متفننا فى طرق التفهيم عساه يوقظ الفكر النائم - وهو ليس هنا -

ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكتون منتظرون فيتدارك الامر ويجيب باي عبارة صادفت أولم تصادف . وربما حوله على فلان المرؤوس له بحجة انه مشغول الآن . او امره بارجاء عرضها الى وقت آخر لانها مهمة او غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها بأي طريقة كانت

لو سألته لماذا ترك مسئلة مهمة أو لماذا لم يعارض فى امر كان من الواجب والنافع ان يعارض فيه . أجابك يا أخي ما ذا اصنع ؟؟؟ الانكليز ... الخديو ... النظارة ..

فاذا ألححت عليه ساق الحديث الى اختلاف الجوّ بين أوربا ومصر . او الى كدورة الهواء . او الى اشتغاله بانحراف صحة اهل بيته ،، او الى بيت لطيف تذكره من قول أبي نواس

واكره من هذا النوع على الخصوص « الموظف وانا مالي » الفشار الذي يفهمك انه قال وعمل ما يجب ان يعمل

يقول نعم انا ما سكت . واستلفت أنظارهم الى جميع اطراف المسئلة وشرحت لهم جميع نتائجها وما يترتب على عملهم من المضار . ولم اتأخر برهة عن اقامة الحجة عليهم بكل ما وسعني. واظهرت لهم

بالصراحة انى لست مشاركا لهم في الامر وانهم يعملون على نقيض مبدئي بالمرة ـ ثم يختم كل عباراته هذه بقوله حينئذ : وأنا مالي !!! . مع انه في كل ذلك لم يكن قدنطق بكلمة واحدة

يقابلك بغاية اللطف وحسن المحيا والاشارات المطيبة للخاطر فتظنه شريكك فى الاحساس حتى اذا قصصت عليه شيأ مما يشغلك الفيته بعيدا عنك . أبعدمن ساكني القمر اليك . وترى اذا امعنت النظر فى وجهه كأنما رسمت عليه هذه الكلمة باحرف جلية : وانا مالي ، وانا مالي . وانا مالي

آه لو لم يكن مطلوبا منه ان يتكلم في بعض المسائل الخطيرة لكان « الموظف وانا مالي » سعيدا، سعيدا، سعيدا

ولذلك تشاهده ما سعى ولن يسعى الا على وظيفة لا تكون ذات أهمية الا في مرتبها . ومتى ادركها طمحت نفسه الى غيرها اهم منها من جهة المرتب ايضا . وهكذا يستمر متنقلا من مرتب مهم الى اهم منه حتي يأتي اليوم السعيد الذي يناديه في كل آن فيحال على المعاش بمبلغ مهم جدا جدا جدا

اخلاق ومواعظ

٣

« الموظف الناش بوطنيته »

كنت يوما في مقتدى جمع بين جماعة من خيار الموظفين والشبان الاذكياء الذين يدأبون على المطالعة ويحبون الجد والنشاط

في الاعمال ممن يربطني واياهم اتحاد الفكر وتجمعني معهم وجهة الاحساس والشعور بحاجة جامعتنا . فدار الحديث بيننا على تعيين أحد رفقائهم في وظيفة عالية وقد اتفقنا جميعاً على ان هذا التعيين يكون مجابة خير كثير للبلاد . ثم مضت على ذلك ستة أشهر او حوالي ذلك واتفق أننا اجتمعنا مرة أخرى وقد دار الحديث على ذلك الموظف ـ الذي لم يزل في وظيفته العالية ـ فاتفقنا جميعاً على ان تعينه كان مجلبة شر كثير للبلاد

وذلك ان هذا الموظف كان دائماً يتأوه معنا علي حالة الانحطاط الاجتماعى من حيثية الاخلاق التي نحن فيها . وكان يقول كما نقول نحن ان اكبر اعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم واعتبروا ان الوظائف ما خلقت الا لكي تخدمهم لا لكي يخدموها .وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكمنا على انفسنا لانه كان مثلنا يرى من الواجب على الموظف ان يقوم بالمسئولية الملقاة عليه حق القيام. بل كان يزيد علينا فى الرأي بان هـذا الواجب يتعلق بالموظف ايا كانت الظروف والاحوال على درجة واحدة حيث كنا نختلف معه من هذه الوجهة ونقف بالواجب فى كل حالة عند الحد الذي يناسبها بالحكمة والاعتدال . بمعنى ان الانسان لا يلزم الا بالواجب المستطاع أداؤه في كل وقت بلا مغالاة ولا تقصير . لان السير الحسن فى الواقع ونفس الامر هو مايترتب عليه نفع للوطن

ولو كان مذموماً عند بديهة النظر بين الناس . وان السير القبيح هو على العكس من ذلك بشقيه . ومن هذه الوجهة كان يطول بيننا وبينه الجدال ساعات ما احلاها لو تعود كما كانت عليه

ولكنها لا تعود : فقد ثبت عند الخاص والعام ان الوطنية كانت لدى صاحبنا هذا كلمة كغيرها يلفظها اللسان من اطراف مخارج الحروف فلا يعرفها القلب . كانت معدة لديه قنطرة ليجتازها بقدميه توصلا الى مكان مقصود له بالذات . كانت قلعة اختارها للدفاع عن نفسه من مهاجمة اعدائه . كانت رايه تتبعها شهوات دنيئة وكان التفافنا حولها خطأً

على ان غاية ما كنا نؤمله في وطنيته ان ينهج خطة الرشد في العمل ويألف مقال الحق ويشتغل على قدر ما تجود به قوته وتسمح به استطاعته . وان يساعد ابناء جنسه ويوجد لنفسه بعمله ونشاطه ويقظته وحسن سياسته مركزاً يجعله انسانا فعالا نافعاً خادماً اميناً لابناء وطنه

فلما وصل الى حيث كان يرمى صار مثل كل جبان نذل يحب ذاته ويعبد انانيته . لا يهتم ولا يتحرك الا لصيانة مركزه الخصوصي وتحسينه ومحا من ذاكرته — محوا نهائياً — تلك الاقوال الجميلة الشائقة التي كان يطنطن بها عند ما كان الحديث يدور على اعمال الغير . بل

صار مستحقاً للاحتقار اضعاف ذلك لانه غش الناس واستعمل الحيل لايهامهم انه يحرز شمائل وصفات لا يوجد ظلها في الحقيقة عنده : واني لفي حيرة من امره

ما الذي حمل هـذا الرجل الذي توفرت لديه وسائل واسباب كثيرة تمكنه من ان يعيش راضياً مرضياً عنه و محترماً على ان يسلك طريقاً لم يكسبه الا المعرة ؟!!!

فهو متعلم ونبيه . ذو قدرة على الفكر والعمل . لو ولد انكليزيا او فرنساوياً او المانيا ـ بل او بلغاريا اوارمنيا ـ لما وضع صفات التعلم والنباهة والقدرة على الفكر والعمل فى غير خدمة ابناء وطنه . فهل عيبه الوحيد انه ولد مصرياً فلم يفكر الا في خدمة نفسه ؟ ؟

على ان الجمع بين الخدمتين ليس محالا ولا متعذر الحصول : فقد راينا فى جميع بلاد الدنيا ان الانسان قد تكون عنده شراهة في حب جمع المال والكسب وشغف بنوال الالقاب والرتب والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعد اخوانه ويكره اعداءه واعداء وطنه

فلماذا ياترى يخالف الموظف المصري غيره حتى يعتبر ان منفعته الخصوصية ملزم ان تكون فى جميع الاحوال مضادة للمنفعة العمومية ؟ ؟ ؟

كيف يتصور ان رجلا ـ تلقى العلم عن اهله وتربى على اجود

قواعد التربية المتبعة فى احسن الممالك وعاش في وسط فيه حب الشغل والعمل تام وشاهد احوال الامم الاخرى وراى تنافسها لبعضها فى سبيل الترقي واحتك برجالهم العقلاء - يرضى لنفسه عيشة الخمول والكسل، لا تحركه غيرة ولا يهزه احساس، ولا تستنهضه غاية شريفة يسعى وراءها

وماذا يكون بعد هذا الحال ؟ .. زيد خلف عمرا وبكر خلف زيدا . الخ . الخ . وقال كلهم نحن نأتى بما لم يستطعه الاوائل قبلنا . نحن ندري كيف نخدم وطننا . كيف نذود عن حقوق اهلينا . كيف نحفظ لجامعتنا شعارها وذمارها ودثارها . فلما جلسوا على الكراسي المذهبة . وتناولوا المرتبات الوافرة . وتصدروا في المجالس بحيثيات مناصبهم . ورأسوا الموائد في الولائم والمآدب قالوا لانفسهم انها لعيشة جميلة فلنتمتع بها ، واما بعدنا فلا نزل القطر :

ألم يفكر المصريون فى عواقب هذه المخازي ؟

ألم يسمع هؤلاء المغرورون ان بعض الاجانب الذين يحبون مصر يقولون جهارا : « اذا كان أبناء هذا العصر هم كما نرى فنحن نفضل عليهم آباءهم واجدادهم »



أخلاق ومواعظ



« الموظف السياسي »

اذا كان المقصود بالسياسة الدأب على ارتكاب الاشياء الدنيئة كما عرفها (رشليو) المشهور فذلك الموظف يكون جديراً بأن يسمى سياسيا . لانه ماهر في فن المداهنة واستمالة الخواطر واختلاس الثقة من صدور الناس والدخول في دائرة مودة ولاة الامور بالالحاح والعنف والسقوط على أسرارهم الى اعماق الضمائر حتى اذا اخذ كل ما يريده منها كانت له سلاحا يستعمله عند الحاجة لقضاء مآربه

يقول مالا يعتقد ويعتقد مالا يقول ، ويتظاهر بالشفقة على ذويه وباغاثة المظلومين ومساعدة الضعفاء ، ويهتم دائما لان يكون له ملاذ قوي يلجأ اليه عند الضرورة ، وحزب يتقوى به عند الحاجة الى استعمال القوة الذاتية ، ومحاسيب يستعين بهم كوسائل لمطالبيه

عرف الناس جيداً ووقف على أخلاقهم فوضح له ان اكثرهم يفضل كلمة حلوة ـ ولو لم يعقبها عمل نافع ـ على أنفع الاعمال مجردا عن تلك الحلاوة . فحقق من ذلك ان لفظة عذبة وحركة ناعمة تكفيان لان يؤسس عليهما شهرة سامقة وسمعة فائقة !!!

ولا أقول انه لا ينفع احداً مطلقاً . وانما اقول لا ينفع

الا نفراً من الناس يرى فيهم الاستعداد لان يكونوا مماليك فى قبضة يده يتحركون حسب اشارته

أما مبدؤه فهدم المبدأ : كان عرابيا مع عرابي حيث كان رجل الوقت . فلما شام نجمه آخذا فى السقوط تحول عنه وقطع اوداج العلائق معه وانكر بالمرة معرفته

ثم كان أول من اخذ طنبورته وغنى عليها نغمة المديح فى الخديو سيد البلاد . ولكنه لما رأى قدم الانكليز يثبت بعد الاحتلال شيأ فشيأ وسلطتهم تتزايد يوما فيوما انحاز الى صفهم وارشدهم ونصحهم وواصلهم باخبار « آخر ساعه » ، وقدم لهم قوائم باسماء المشبوهين وأطلق على برنامجه هذا « سر الوطنيين »

ثم لما رأى مركز الخديو قد تقوى على اثر تولية مولانا العباس وصار كما يجب ان يكون ـ أول عامل فى ادارة البلاد ـ اخذ يقدح في الانكليز من ورائهم ويهجو اعمالهم ويشرح مقاصدهم السيئة حتى حرك النفوس لدى البعض، واثار الشهوات عند البعض الآخر، وبذر الفتن، وجهز الزلازل، ونفخ بفمه ريح العواصف، وعكر المياه فطاب له العيش في هذا الوسط المحشو بالاخطار . وكنت تراه خلال ذلك منشرحا مسرورا كمن آل اليه ميراث جديد وصار في نشاط غريب حتى اوصل سياسة الغش والدهاء الى درجة لم يكن يحدث نفسه بها

وكان يذهب الى كل فريق فيخاطبه بالالفاظ المذبة التي تحلو على مسمعه فتمكن وقتئذ من الايقاع بأشخاص كثيرين اما بنميمة القاها في وسط الحديث، او باستعلامات غير حقيقية اخترعها: ولم يفكر لحظة فى النتائج الوخيمة التى تترتب على هذه الاعمال

وقوة هذا الموظف كونه دائماً متيقظاً وعالما بحركات الناس واميالهم وصفاتهم وعيوبهم . وكونه يشتغل ويعمل دائماً بنشاط وحركة لا يقبلان الملل :

لذلك تمكن من ان يكون ذا مركز مهم ومنزلة سامية بين الناس

يعتبره الاوربيون من ابناء مصر الفتاة الذين يقدرون اوربا حق قدرها ويعترفون لها بالفضل على مصر ويتمنون المعيشة تحت سيطرتها . والذين منتهى آمالهم ان تكون مصر بلدة مختلطة محكومة بحكومة مختلطة

ويعتبره الانكليز رجلا نبيها قد يلزم رغما عن عيوبه في بعض الاحيان لحل المعقود او لعقد المحلول من الامور على حسب مقتضيات الاحوال

ويعتبره المصريون انه رجل ذو دهاء يمكنه ان يؤدي للبلاد خدامات كثيرة وينال من الانكليز بالخديعة والحيلة مالا يناله غيره

ولكنه في الايام الاخيرة قد اكتشف كثير من المصريين

الذين يستطلعون دخائل الامور وما يجري وراء الستار ان سياسة الرجل لا تخرج عن حبل « قره كوز » البسيطة . وان هذه الاوقات الصعبة التي تنتقل فيها البلاد من حالة الى حالة تستدعي رجالا يفهمون منافع الوطن الحقيقية الدائمة ويشيدون آراءهم واعمالهم على العلم لا على الحيل

اولم يكن الاجدر بهذا « الموظف السياسي » ان يستعمل بعض الصفات التي امتاز بها على كثير من غيره في خدمة بلاده ، وان يسعى الى المجد ورفعة القدر وحسن السمعة من طرقها الحقيقية التي تنحصر في تقوى النفس وعمل الخير ؛

اخلاق ومواعظ



(صاحب المعاش)

تركت الحكومة ـ او على الاصح تركته الحكومة ـ وهو اكثر ما يكون في الغالب متمتعاً بقواه البدنية والعقلية . وسواء كان معاشه كافيا لاقتضاء لوازم معيشته او غير كاف . وسواء كان غنيا في حد ذاته او فقيراً تراه دائماً كثيف البال آسفاً على وظيفته اسفا شديداً لانه يظن ـ كما اعتاد اهل بلادنا ان يعتقدوا ـ ان الانسان قليل بنفسه كثير بوظيفته . ولانه يشاهد دائماً ان الواحد عند ما يكون في وظيفة عالية يحترم ويجل مقامه ويزار وتتزاحم العربات

والبقال والخير على باب منزله الذي يكون مزهراً بهجاً تحييه حركة مستمرة وتحف به حياة طيبة . فاذا احيل على المعاش انقضى كل ذلك واصبح هذا الشخص بذاته مهملا مهجوراً بل ومندهشاً :

كمن رأى رؤيا مفرحة واستيقظ من نومه فجأة

فلما يتخيل صاحب المعاش كل ما كان عليه بالامس وما اصبح فيه اليوم لا يستطيع ان يمنع نفسه من التأثر والتحسر

ولو تذكر وتذكر الناس ان الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جدا . وان كل انسان قادر على ان يرقي نفسه بنفسه وان يعلو على اكبر ملك في الدنيا بفضيلته وعلمه ، لما رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيأ

ولكن كيف يتأتى وجود هذه الملكة فى امة تصورت انها خلقت ليحكم نصفها النصف الآخر ؟ !!! وعند رجال اذا قلت لهم علموا اولادكم قالوا « انا لا نجد فى التعلم فائدة حيث الحكومة اقفلت ابوابها فى وجود ابنائنا » !!! . كأن العلم لا قيمة له في حد ذاته او كأن كسب المال سهل وحل في الحكومة ، صعب وحرام خارجها .

ومما يزيد تألم صاحب المعاش على فراق وظيفته انها كانت فى الحقيقة الشيء الوحيد الذي يشغل اوقاته بها ـ لا لانه كان منهمكا فى تأدية جميع الواجبات المتعلقة بها ـ بل لانه اعتاد على ان يمضي وقته

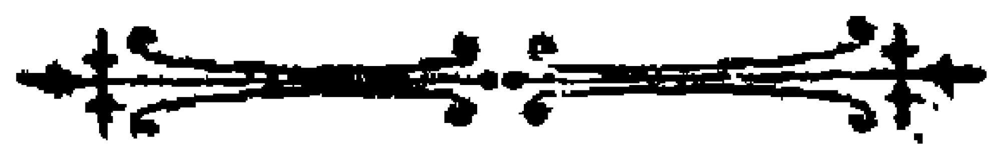
بكيفية مخصوصة لم يعد في امكانه استعمالها . ولذلك ترى ارباب المعاشات في حيرة لا يدرون معها ماذا يصنعون لاجل ان يقتلوا الزمان قبل ان يقتلهم . فمنهم من يخرج في الصباح لزيارة من هم على شاكلته يوميا ولا يعود الا وقت الظهر . ومنهم من يقصد القهاوى والاندية العمومية للعب النرد او ما شاكله من الساعة السابعة صباحا الى ان ينبهه دوى مدفع الظهر ايضا . ومنهم من يجلس على كرسى امام باب منزله او حانوت اواجزاخانة ليتأمل في حركة الشارع نحوا من اربع او خمس ساعات . ومنهم من يقضي اكثر اوقاته معتكفا فى المساجد . ومنهم من يطوف على مصالح الحكومة يومياً ليتمتع بمشاهدة السلطة التي حرم منها حيث يجد فى الاحتكاك بأهل الحل والعقد بعضا من اللذة او التعزية

ولم ار فيهم من اوجد لنفسه عملا يشتغل به بدلا عن وظيفته !!

اتعرف ايها القارئ واحداً من ارباب المعاشات الذين يكثر عددهم كل يوم يشتغل في منزله ساعة او ساعتين بتعلم علم يجهله او اتقان فن تعلمه، ومنهم الطبيب والمهندس والعسكري والادارى والمتشرع، وبين جميع هؤلاء الغنى والفقير المحتاج ؟؟فهلا اشتغل الغنى لترقية عقله والفقير كذلك .او استعان هذا على معالجة فقره بالسعى فى طلب الرزق ؟؟

ايليق بقوم يطمعون في تحسين مستقبلهم ان يعيشوا في وسط التنافس العام بالبطالة والكسل ؟؟

ومما يدهش الفكر ويؤلم النفس ان صاحب المعاش يرى من حين تخليه عن المنصب انه لم يبق من الواجب عليه ان يهتم بشيء مما يحصل فيها بالمرة. فاذا سمع خبراً محزناً او نبأ واقعة مكدرة تراه بعيد الشعور بقدر ما هو بعيد عن الوظيفة او بقدر ما هو قريب امل الرجوع اليها . واول كلمة تخرج من فيه « الحمد لله على اني في بيتي وبعيد عن نصب المنصب ». كأنه صار اجنبياً عن البلاد بالمرة . وكثيراً ما يتصامم عن سماع اى حديث يكون موضوعه المصلحة العمومية : لانه لا يحب ان يتداخل فى شؤون الحكومة !!! وقد يفضل على ذلك سماع القصص الخرافية ونوادر الاعصر القديمة التي يحفظها بوعي وذاكرة قوية ليته استعملها لحفظ شيء نافع



تحرير المرأة

تأليف

قاسم أمين

المستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

ملتزم الطبع

محمد علي كامل

صاحب

مكتبة الترقي

ومطبعتها

{ بشارع عبد العزيز بالقاهرة }

سنة ١٣١٦ - ١٨٩٩

فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (وبعد) فان البحث فيما عليه نساؤنا الآن من صفات واخلاق وعوائد وما يجب أن يكون عليه من ذلك هو من أوجب الواجبات على كل من يحس حقيقة بالفرق بين العائلة عندنا وعند غيرنا أو بالفرق بين العدم والوجود ويود أن يكون عضواً من جسم امة تحيا لانها تعمل عمل الاحياء وترتقى لانها تعمل فعل المرتقين

ولو كانت معرفة أسباب تهدم بناء عائلتنا - أو أمتنا - والوقوف على طرق اعادته بناء عالياً ثابتاً مما يتعين على ذلك العضو الذى يجب أن يكون فى بلاده انساناً حياراقياً فاطلاعه على (تحرير المرأة) الذى انشره اليوم يفى ولاشك بجل حاجته

محمد على كامل

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسئلة من المسائل التي اجملتها في هذه الاسطر القليلة يصح ان تكون موضوعاً لكتاب على حدة · وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة · وغاية ما اريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني · وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونمى نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها

ويرى المطلع على ما اكتبه اني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب لان تحويل النفوس الى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر اثر العاملين فيه ببطىء شديد في اثناء حركته

الخفية· وكل تغيير يحدث في امة من الامم وتبدو ثمرته في احوالها فهو ليس بالامر البسيط وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج في نفس كل واحد شيئاً فشيئاً ثم تسري من الافراد الى مجموع الامة فيظهر التغيير في حال ذلك المجموع نشأة اخرى للامة

وما نحن فيه اليوم ليس في الطاقة البشرية تغييره في الحال· وليس من العار علينا اننا وجدنا في مثل هذه الحالة لان كل عصر لا يسأل الا عن عمله · وانما العار ان نظن في انفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعي ان عوائدنا هي احسن العوائد في كل زمان ومكان · وان نعاند الحق وهو واحد لا يحتاج في تقريره الى تصديق منا به وكل ما نقوله او نفعله لانكاره لا يؤثر فيه بشيء وانما يؤثر فينا اثر الباطل في اهله ويقوم حجاباً بيننا وبين اصلاح نفسنا اذ لا يمكن لامة ان تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعوراً حقيقياً بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له

لا اظن انه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في ان امته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها · فهؤلاء المتعلمون الذين اخاطبهم اليوم اقول ان عليهم تبعة ما نألم له في عصرنا هذا · ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم ان يسجلوا على انفسهم وعلى امتهم العجز واليأس والقنوط · فان ذلك صورة من صور الكسل او مظهر من مظاهر الجبن او حال من احوال من لا ثقة له بنفسه ولا باهله ولا بملته ولا بشرعه ولا باممه واراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف

في الجماد والنبات وتقذف بهم الى حيث يحبون اولا يحبون

قد طرقت باباً من ابواب الاصلاح في امتنا والتمست وجهاً من وجوهه في قسم من افراد الامة له الاثر العظيم في مجموعها واتيت في ذلك بما اظنه صواباً . فان اخطأت فلي من حسن النية ما ارجو معه غفران سيئة خطائي . وان اصبت كما اظن وجب على اولئك المتعلمين ان يعملوا على نشر ما اودعته في هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل .

تمهيد

حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية

(تابعة لحالة الآداب في الامة)

اني ادعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين من انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن احكم الاشياء التي يدور عليها تقدم النوع الانساني ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التي تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية او ادبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعي في عقله واعتقد انها تساعد على تقدم ابناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها من وجد في نفسه شيئاً منها . يشعر

انه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل في قهرها وظهرت في غير ما يجب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لا يكتم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتي على هلاك ما حواه

والبراهين على ذلك كثيرة في الماضي فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التي قامت في سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل وكانت الأمم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك او يزيد في البلاد الغربية التي يصح ان يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلي بين افراد الامة في جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجي بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصاً في هذا القرن الذي الغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والابعاد وهدمت الحدود الفاصلة والاسوار المانعة حتى ان الاشخاص الذين ساحوا في جميع انحاء الارض يعدون بالألوف . واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتاباً ترجم في اثناء طبعه وظهر في خمس او ست لغات في آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يغده اهل الوقت

حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى او قضت به المصالح في هذه الازمنة

وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوة في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم او الخروج من عناء العمل في البحث او الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاســلام . بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها .

لمَ يعتقد المسلم ان عوائده لا تتغير ولا تتبدل وانه يلزمه ان يحافظ عليها الى الابد ؟ ولمَ يجر على هذا الاعتقاد في عمله مع انه هو وعوائده جزؤ من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله في خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح امة على سلوك طريق خاصة في معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذي يمكنه ان يتصور ان العوائد لا تتغير بعد ان يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان

يختلف باختلاف الاماكن والازمان ؟ المسلمون منتشرون في اطراف الارض . فهل هم انفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذي يمكنه ان يدعي ان ما يستحسنه عقل السوداني يستحسنه عقل التركي او الصيني او الهندي . او ان عادة من عادات البدوي توافق اهل الحضر . او يزعم ان عوائد امة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة ان لكل امة في كل مدة من الزمن عوائد وآدابًا خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائمًا تغيرًا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الادبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك . وان كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتمًا اثر يناسبها في العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم ان يكون بين عوائد السوداني والتركي مثلاً من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما في العقل . وهو الامر المشهور الذي لا ريبة فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والاوروباوي

ولا يمكن ان يتصور احد ان العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون في امة جاهلة او متوحشة مثل ما تكون في امة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته

ولهــذا الارتباط التام بين عادات كل امة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة انفذ حكماً فيها من كل سلطان وهي اشد شؤونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للامة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت او انحطت عن درجتها في العقل ولهذا نرى انها تتغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع • ويؤيد ذلك مانشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الامة تنقلب في الحال الى آلة جديدة للفساد • وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه

وهذا هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التــلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الامة ومدنيتها • فقد علمنا ان في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلاً تحت سلطة ابيها ثم زوجها ثم من بعده اكبر اولادها • وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها • وكان من المباح عنـد العرب قبل الاسلام ان يقتل الآباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عـدد محدود • ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقا

وامريكا المتوحشة . وبعض الامم الاسيوية يعتقد ان المرأة ليس لها روح خالدة وانها لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها . ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له احسن متاع يمتلكه

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه . وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء اخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الامريكية في اول صف ثم تتلوها الانجليزية وتأتي بعدها الالمانية وتليها الفرنساوية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت انها حقيقة بالاستقلال فهي تبحث عن الوسائل لنيله . وانها جديرة بالحرية فهي تسعى للوصول اليها . وانها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق للانسان

والغربي الذي يحب ان ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد ان المرأة الغربية ترقت لان دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها . ولكن هذا الاعتقاد باطل . فان الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل

حرية المرأة ولم يبين حقوقها باحكام خاصة او عامة . ولم يرسم للناس في هـذا الموضوع مبادئ يهتدون بها . وقد اقام هذا الدين في كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثرًا محسوسًا في الاخلاق من هـذه الجهـة بل تشكل نفسه بالشكل الذي افادته اياه اخلاق الامم وعاداتهـا . ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الارض

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فاعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الاحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير ان يتوقف تصرفها على اذن ابيها او زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الاولاد خلافًا لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجل في الحقوق

والميل الى تسوية المرأة بالرجل في الحقوقـــ ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسئلة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لهـا في

ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافاً لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين

ولم أرَ الأ مسئلة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهي تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التي لا يقوم للزواج حياة بدونها وسيأتي الكلام عليها ايضاً فيما يلي . وبالجملة فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمي اليه من مقاصدها ما يمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الامر بالعكس فانها اكسبتها مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية

لكن وا آسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجليل اخلاق سيئة ورثناها عن الامم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد واوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى المقام الذي احلتها الشريعة فيه . وكان اكبر عامل في استمرار هذه الاخلاق توالي الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والاماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً فكان لسلطانهم واعوانه سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وادارو مصالح الرعية بدون ان يكون لها صوت فيها

نعم كان الحاكم صغيرًا او كبيرًا ملزمًا باتباع العدل واجتناب الظلم لكن من المجرب ان السلطة الغير المحدودة تغري بسوء الاستعمال اذا لم تجد حدًا تقف امامه ورأيًا يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الامم الاسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق واساء حكامها في التصرف وبالغوا في اتباع اهوائهم واللعب بشؤون الرعاية . بل لعبوا بالدين نفسه في اغلب الأزمنة . ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم

اذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف اثره في الانفس عند ما هو في نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من دونهم وينفث روحه في كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسري ذلك في النفوس رضى الحاكم الأعلى او لم يرضَ

كان من اثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل في قوته اخذ يحتقر المرأة في ضعفها . وقد يكون من اسباب ذلك ان اول أثر يظهر في الامة المحكومة بالاستبداد هو فساد الاخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على ان الأمة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع ارضها لنمو الفضيلة ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا

تحت حكم المستبدين السابقين — وما العهد منهم ببعيد — يعلمون ان شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الاهالي · والعمدة الذي كان يضرب مائة كرباج كان عند عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح

فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الاّ القوة ولا يردع الاّ بالخوف · ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بارجله على شخصيتها · عاشت المرأة في انحطاط شديد ايّاً كان عنوانها في العائلة زوجةً او أُمّاً او بنتاً ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأي خاضعة للرجل لانه رجل ولانها امرأة · ففنى شخصها في شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الاّ ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذة · يلهو بها متى اراد · ويقذف بها في الطرق متى شاء · له الحرية ولها الرق · له العلم ولها الجهل · له العقل ولها البله · له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن · له الامر والنهي ولها الطاعة والصبر · له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه !

من احتقار الرجل للمرأة ان يملأ بيته بجوار بيض او سود او بزوجات متعددة يهوى الى ايهن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقاً بباعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما اوجبه عليه من العدل فيما يأتي

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب

من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النسآء من ام واخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظًا على عرضها مثل اغا او مقدم او خادم يراقبها ويصحبها اينما تتوجه

من احتقار المرأة ان يسجنها في منزل ويفتخر بانها لا تخرج منه الا محمولة على النعش الى القبر

من احتقار المرأة ان يعلن الرجال ان النسآء لسن محلاً للثقة والامانة

من احتقار المرأة ان يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في اي شيء يتعلق بها : فليس لها رأي في الاعمال ولا فكر في المشارب ولا ذوق في الفنون ولا قدم في المنافع العامة ولا مقام في الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي

ولست مبالغًا ان قلت ان ذلك كان حال المرأة في مصر الى هذه السنين الاخيرة التي خفت فيها نوعًا سلطة الرجل على المرأة تبعًا لتقدم الفكر في الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم. ورأينا النساء يخرجن لقضآء حاجاتهن ويترددن على المنتزهـات العمومية لاستنشاق الهوآء وترويح النفوس بتسريح النظر في الكائنات التي عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلاً كان او امرأة . وكثير منهن يذهبن مع

رجالهن الى السياحة في بعض البلاد الاخرى . وكثير من الرجال قد اعطوا لنسائهن مقاماً في الحياة العائلية

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة في نفوس اولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى امانتهن : وهو احترام جديد للمرأة

نعم لا ننكر ان هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد في الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التي احتفت به واهمها رسوخ عادة الحجاب في انفس الجمهور الاعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الادب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في اغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات وامكن للامة ان تنتفع بجميع افرادها نساء ورجالاً

تربية المرأة

المرأة وما ادراك ما المرأة . انسان مثل الرجل . لا تختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان . اللهم الاَّ بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف

فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف في الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون ان تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعاً او هو محرم بمقتضى الشريعة !

واتذكر اني اشرت يوماً على أب وقد رأيت معه بنتاً بلغت من

العمر تسع سنوات اعجبني جمالها وذكاؤها بان يعلمها فاجابني : « وهل تريد أن تعطيها وظيفة في الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلاً : « وهل في مذهبك لا يتعلم الا الموظفون ؟ » فاجابني : — « اني اعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ولا افعل غير ذلك » . قال هذا على وجه يشعر انه لا يحب المناقشة في رأيه . ويعني هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشى نكيراً انه مخطيء في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها

في رأيي ان المرأة لا يمكنها ان تدير منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب ان تتعلم كل ما ينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائي على الاقل حتى يكون لها المام بمباديء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت

فاذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على اصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد واجالت النظر في تاريخ الامم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة

وطرح الخرافات والاباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء

وعلى من يتولى تربية المرأة ان يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها . والفضائل التي لها اثر في معاملة الاهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التي يظهر اثرها في نظام الامة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في نفسها : ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولي والقدوة الصالحة

هذه هي التربية التي اتمنى ان تحمل عليها المرأة المصرية ذكرتها بالاجمــال وهي مفصلة في المؤلفات المخصصة لها في كل اللغات . ولا اظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها ان تقوم بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية وفي العائلة :

١

اما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء في كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الاقل . فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع باعمال نصف عدد الامة . وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفى

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من ان تشتغل مثل الغربيــة بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الا جهلها واهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم في الاعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت

نفساً حية فعالة تنتج بقدر ماتستهلك لا كما هي اليوم عالة لاتعيش الا بعمل غيرها . ولكان ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه في الصندوق ويكتفي بان يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنين قليلة

من عوامل الضعف في كل مجتمع انساني ان يكون العدد العظيم من افراده كلاً عليه لا عمل له فيما يحتاج اليه وان عمل كان كالآلة الصماء او الدابة العجماء لا يدري ما يصدر منه

المرأة محتاجة الي التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا أننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها ان يكون لها ولي يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولي أمر مضمون في جميع الاحوال . مع أن الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن . فالبنت التي فقدت اقرباءها ولم تتزوج والمرأة المطلقة والارملة التي توفى زوجها والوالدة التي ليس لها أولاد ذكور اولها اولاد قصر — كل هذه المذكورات يحتجن الى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات اولادهن ان كان لهن اولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو الى التطفل على بعض العائلات الكريمة

ويمكن ان يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب — وما أكثر هذه المذلة على المرأة — لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتي وقعن في العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا ان نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد .

لهـذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم في مالية العائلات فان الرجـل المصري الذي يشتغـل لكسب عيشـه وعيش اولاده يرى شطرًا من المال الذي يجمعه ينفق على اشخاص من اقاربه أو معارفه او ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلا يموتوا جوعًا . وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ما حرموا من التربية

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيرًا أو تخفيف شيء من اثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنيًا ؟ فان كانت المرأة غنية بنفسها — وهو نادر — بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها

التعليم في تدبير ثروتها وادارة شؤونها ؟

نري النساء كل يوم في اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب أو أجنبي . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون انفسهم اكثرمما يشتغلون بشؤون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل الا وقد اغتنى الوكيل وافتقر الاصيل

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوي عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما اودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش او اختلاس يرتكبه زوجها أو احداقاربها أو وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم في حد ذاته هو في كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية . وهو الآن من الحاجات الأولى في كل مجتمع دخلت فيه المدنية . وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التي يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية

ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقي الكرامة والشرف . ولكل نفس حق طبيعي في تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حد ترمي اليه باستعدادها

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية

كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجل . فاي نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة في الدنيا والآخرة ؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ونحن نرى ان الصبيان من الذكور والأُناث يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث؟ وربما كان الولع بذلك في الانثى أشد منه في الذكر

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على ان المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثاً . وانه أتاها من الحواس وآلات الادراك ما أتاها لاجل ان تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل . وان وظيفتهنّ تنتهي عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش في عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه .

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذي

جر ضياع حقوقها · فان الرجل لما كان مسؤولا عن كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ في نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه على أن يتسلى به

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ ان يتخذها الا امرأ صالحًا لخدمته مسيرًا بارادته · وأغلق في وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل امرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه الا ان تعيش ببضعها اما زوجة أو مفحشة

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها ان تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء وجهت جميع قواها الى التفنن في طرق استمالته اليهـا والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه

مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف في ارادتها · فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر · وهو الرائد لها في الاختيار بين النفـع والضرر · فهي تنفر أو تميل · فان أحبت أخلصت لا عن عقل · وصدرت منها الاعمال الجميلة في ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأي · وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عـارفة بالمصائر · فلو كانت ادركتها

العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرّفت في اعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الادب

أضلت المرأة عقلها في ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ما تشتهي من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة واخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي امرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه · ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءهـا منزع · فاصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر في المظـاهر المتضادة والألوان المختلفة في كل حال بحسبها · كل ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هي حيل الثعالبة

ولكن لا لوم عليها وعذرها انها ليست حرة · وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة في قوة التمييز · بل اللوم كل اللوم على الرجال : اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نسائنا

٢

✵ واما بالنسبة للوظيفة العائلية ✵

فيكفي لكل انسان متفكر ان يتأمل في حالة عائلته ليتأكد ان استمرار الحال على ما هي عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله

اني اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة واخذت بمجامع خواطري · ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلي

أنها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فان مثارهذه الحوادث جميعها هو شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة . فقد تساوت النسآء عندنا في الجهـل مساواة غير محبوبة ولا يظهر اختلافهنّ الا في الملبس والحلى . بل يمكن ان يقال انه كلمـا ارتفعت المرأة مرتبة في اليسرزاد جهلها . وان آخر طبقة من نسآء الامة وهي التي تسكن الارياف هي اكملهن عقلاً بنسبة حالها

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . مداركهما في مستوٍ واحد لا يزيد احدهما عن الآخر تقريباً . مع اننا نرى ان المرأة في الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لان الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو اكبر سبب في شقآء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب يميـل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة ويبلغ الاهتمام بهـا عند بعض الافراد حداً ينتهي الى اهمال الامور المادية . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات و يتكلم في أخرى و يضحك في غيرها . له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير و يحزن مع

المظلوم ويفرح بالخير للناس · وفي كل فكرة تتولد في ذهنه او احساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه· وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه · فاذا كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان يرى نفسه في عالم وحده وامرأته في عالم آخر· اذ هي تعتبر ان الرجل ما خلق في هذه الدنيا الا ليشتري لها الاقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف اوقاته في ملاعبتها كأنه صورة أكبر من الصور التي كان يشتريها لها والدها في صغرها لتلهو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها واعتبرها من الاعدام التي لا اثر لها في شؤونه·وهي متى رأته اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت انه يظلمها وبكت سوء حظها الذي ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ونبتت البغضاء في قلبها · ومن ثم تبتدى · عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالاً منها · عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة

ولا يُظن ان هذا يختص بذوي الاخلاق الفاسدة من الرجال والنساء · فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على احدهما بل الذنب على اختلافهما في التربية كما تقدم · ومنتهى هذه الحالة — إن استمر الاقتران بينهما — ان يميت احدهما حقه في سبيل راحة الآخر او يجرّ

كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر. ولكن مهما كان حال الزوجين — وهما على ما ذكرنا من الوصف — فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص: ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء في القصص الدينية المسطورة في الكتب السماوية ان الله خلق حواء من ضلع آدم. وفيه على ما اظن رمز لطيف الى ان الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم الا باتحادهما. ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل. وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع

وهذا الانجذاب الغريزي الذي اوجده الله في كل المخلوقات الحية — حتى في النباتات التي يشاهد في بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار في تفسيرها علماء الطبيعة — هو اهم عنصر يدخل في تركيب الحب. وهو يكفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الانسان عن الحيوان. اما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً. وانما يرجح قسم من العلماء انه سيال يتولد في المراكز العصبية. فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما. فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح. تتكلم عيونهما

ونترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل ان ينطق اللسان كأن روحيهما صديقتان افترقتا في عالم قبل هذا العالم واخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها · وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأماني اكبر من مجرد التلاقي فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ان لا تفترقا· ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الاّ باتصالها بالأخرى

لكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى يأخذ في التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً · فمهما كانت شدة الرغبة عند اول التلاقي فهي صائرة الى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الأمزجة · وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأماني ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلي من بهاء الارواح وسناء العقول · فهو يضم الى المنظر البديع الجسداني منظراً آخر قد يكون ابدع في اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي · وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التي لا بقاء لها بلذة العقل والوجدان التي لا تنتهي اطوارها ولا تفنى مظاهرها · يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر · ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة

على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية · ووجدان اللذة بهذه المعاني عنصراً آخر يدخل في تركيب الحب ايضاً — ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام

واما ما يروى من ان رجلاً عشق امرأة عشقاً روحانياً محضاً او ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات الادبية فقد يكون لان الأول رجل خيالي والثاني رجل جاهل شهوي · على ان التجارب دلت على ان هذه الشهوات البتراء ليس لها حظ من البقاء · فهي كالنار ذات اللهب تهب وتنطفي بسرعة

واليك بياناً يزيد وضوحاً في فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الافراد فهي دائماً واحدة · فان افراد اللذة المتحدة في النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان او المكان مثلاً فما يحصل منها اولاً هو ما يحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهي ان تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر او لذة سمع او لذة ذوق او لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها فياتي زمن لا تنتبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها · والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية · هذه اللذة في طبيعتها انه

يمكن تجددها في كل آن . تأمل في مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسرح عقلهما من موضوع لموضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل او فكر او حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد انفسهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة احدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ويزيد في رابطة الأُلفة بينهما عقدة جديدة .

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف ان العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من اكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها

فهذا الحب لا يمكن ان يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ولا يجب ان يُفهم ان الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها ان تحبه . فان توهم ذلك يُعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقي الذي عرّفت عنصريه المادى والمعنوي لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها

سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسائهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون — اني بحثت كثيراً في عائلات مما يقال

انها في اتفاق تام فما وجدت الى الآن لا زوجاً يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهري الذي يشاهد في كثير من العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لان الزوج تعب وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه واما لانهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الاخير هو حال اغلب الازواج المصريين . ولا ارى ما يقرب من السعادة الا في هذا النوع الاخير وان كانت سعادة سلبية لا قيمة لها

اما في النوعين الاولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء احد الزوجين في سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن ان اسلم به هو انه قد يشاهد في عدد قليل من الازواج شيء يقرب من المودة يظهر في بعض الاحيان ثم يختفي . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهي عدم الحب : عدم الحب من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه في العقل والتربية تأخراً فاحشاً بحيث لا يكاد توجد مسئلة يمكن ان يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . ولا يكاد يوجد امر يتفقان في الحكم عليه برأي واحد . ولانها بعيدة عن العواطف والمعاني والاشغال التي يميل اليها ومغمورة في شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى انها في الامور التي هي من عملها وترى انها خلقت لاجلها لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعرهن كل يوم . ولا على الاستحمام اكثر من مرة في الاسبوع . ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين

بما يلي البدن من الملابس مع ان جودتها ونظافتها لها اعظم تأثير في استمالة الرجل · ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها وكيف تكون موافاتها · ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة اسباب الميل والنفور فاذا ارادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك

واما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب · ولو اردنا ان نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد انه يتركب من امرين ميل اليه من حيث هو رجل ابيح لها ان تقضي معه شهواتها · وشعور بان هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها · اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الاخرى من بين آلاف من سواها امتزاجاً تاماً يؤلف منهما موجودا واحداً كأن كلاً منهما صوت والآخر صداه · ذلك الاخلاص التام الذي ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكرًا الا في صاحبه · ذلك الاخلاص الذي لا نجد له مثالاً اظهر من حب الوالدة لولدها — فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض · لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الام لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير ابيض او اسود · اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده في الوجود وكل ما

تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في امته ـ فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها . وعلى هذا يكون اول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن انها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف ان يمد لهم يده ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا . ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلي والحلوى . وابغض الرجال عندها من يقضي اوقاته في الاشتغال في مكتبه . كلما رأته جالساً منحني الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع اذا اراد ان يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه في حيرة اشد من الرجل الذي جمع بين زوجتين . فقد رأينا احياناً كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سمع قط ان امرأة مصرية ممن نعني رضيت بمباشرة العلم .

ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل . لان العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعاً بالهدو والسكون

خالياً عن الاضطراب والتشويش · ولأن الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم ان المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصاً اذا كان زوجها متعلماً يصرف وقته في الاعمال النافعة

قد يقال ان الحب الذي تكلمت عنه هو من كمال السعادة وليس من الامور الضرورية التي لا يُستغني عنها في الزواج · وانه عند فقده يمكن ان يعوض بصفات أُخرى عند الزوجة ويكفي ان المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له في المنافع والمضار ولذلك فهي تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة — هذا يمكن ان يكون · ولكن كيف الوصول اليه ايضاً مع جهل المرأة ؟

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هي زميلة الرجل في كل اعماله وهي قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها · ذلك سهل لأن العيشة في الأرياف سازجة بدوية تقريباً وحاجات العائلة قليلة · اما في المدن التي ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة مصلحة من كبار المصالح فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها الا بالتعليم والتربية

والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة · فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة · وعليها مراقبة

الخدم بحيث لا يُفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه . فتحلو له الاقامة فيه ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضي اوقاته عند الجيران او في المحلات العمومية . وعليها — وهو اول الواجبات واهمها — تربية الاولاد جسماً وعقلاً وأدباً

وظاهر ان تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على المعيشة الجارية بالتفصيل يستدعي عقلاً واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقاً سليماً : ولا يتأتى وجود ذلك في المرأة الجاهلة وخصوصاً ما يتعلق منها بتربية الأطفال

بالغنا في نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات لهن النصيب الأوفر في هذه الصناعة . بالغنا في اعتقاد ان الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد . وانه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ من جهة ان الله قادر على كل شيء ومن متناول قدرته ان يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود ان الله يمكنه ان يفعل مثل هذا فلا شك في قدرته سبحانه وتعالى . وليس من ينازع في انه لو شاء فعل ذلك . كما انه لو شاء لجعل الناس امة واحدة ولأنبت الحيوان من الارض . لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاماً وللمخلوقات نواميس تجري عليها احكامها :

« فِطرةُ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها · لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ · ذلكَ الدينُ القيِّمُ »
وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن ايد ثبات هذه السنن واستمرارها

من اكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها لنا العلم وهي ان كل فرد من الانواع الحية — وفيها النوع الانساني — ليس الانسخة مطابقة للاصل المتولد منه · ففيه صورة نوعه الكلي وفيه صورة والديه خصوصاً · بمعنى ان هذا الفرد يحتوي اولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بابويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على ان كل الملكات العقلية والادبية في الانسان انما هي مظاهر من وظائف المخ كما ان الصفراء من عمل وظيفة الكبد · وما يسمى عقلا او عاطفة فلا عمل له الا عمل تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ · وانما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الاصل الذي تولدت منه فلا ريب ان يكون لها تبعية عظمى لذلك الاصل · ثم من الظاهر ان الجسم لا يستغنى في نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لا بد في النمو والبقاء من التربية والغذاء · فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما اودعته المدارك والقوى من الاستعداد الاول بل لابد في ظهور اثرها وسيرها فيما اعدت له من الغذاء الذي يوافقها والتربية التي تلائمها · فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان او انثى وليس

هناك شيء وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان صالحًا كان او فاسدًا و يرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو في بطن أمه . فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه اسلافه من جهة الام ومن جهة الاب . و بالتربية يمتلىء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها في نفسه ألمًا كان او لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ارادة مربيه . فهو الذي يريه و يسمعه ويذيقه و يفيده كل معلوم . وهو الذي يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقًا به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة . اولم يشعر من العواطف الا بما يظهر اثره في اقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع اول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون . وان كانت معلوماته كثيرة تحتوي على صور الاشياء وصور ما يحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك : وكان وجدانه رقيقًا لطيفًا كان الناشىء كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع اول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ و بيده ميزان يزن به اعماله و يقدر به حركاته و يشاهد فيه وهو في صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار .

لانقول ان الطفل يكون في ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها اوائل وجراثيم من الكمال العقلي والادبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك

الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة · فسلامة العقل لا تتم الا بحسن الوراثة وحسن التربية وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد في الاخلاق الى مرض في المخ او في الاعصاب موروث او مكتسب · وان شوهد ان الولد لا يشابه ابويه في بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى احد اسلافه القريبين

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتأصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسناً فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من ابوين فاضلين ويظهر اثر ذلك ايضاً في اولاده واعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذي صار به هذا الوالد رجلاً صالحاً · اما ان كانت التربية فاسدة وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجني على اولاده تلك الجناية التي جناها عليه والداه

قال الغزالي في التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت ان اوردها هنا وهي : « الصبي امانة عند والديه · وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة سازجة خالية عن كل نقش وصورة · وهو قابل لكل ما ينقش · ومائل الى كل ما يمال اليه به · فان عوّد الخير وعُلمه وعَلِمه نشأ عليه وسعد في الدنيا

والآخرة وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب . وان عوّد الشر واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له . وقد قال الله عزوجل : « يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا »

والتربية تحصر في امر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هي ان يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله . لأن التقليد في غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته . فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة . ويرى من الأعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالاخلاق القبيحة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة في بيته وفي الخارج وكلما تقدم في السن رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا وصل الى سن الرجولية رأى نفسه او رآه الناس رجلاً سيء التربية ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله . ويندر جداً ان يوجد شخص يبتدىء بعد بلوغه سن الرجولية في اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك . اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النساء . فهو دائماً محاط بامه واخواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى اباه في اوقات قليلة . فاذا كان هذا الوسط الذي

ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والام الجاهلـة *ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها* بصبغة الصـفات الجميلة لانها لا تعرفها . وغاية ماتستطيع هوأنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ان لم تبذر بيدها حبوبها في نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة

أليس من جهل الام بقوانين الصحة ان تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشرداً فى الطرق والازقة يتمرغ فى الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها ان تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذي هو رأس ماله مضطجعاً او نائماً او لاهياً مع ان سن الطفولية لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من اثر جهلها اننا جميعاً مصابون بشلل في اعصابنا حتى صرنا لانتأثر من شيء مهما بلغ في الحسن والقبح . فاذا رأينا عملاً جميلاً مدحناه من طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلاً قبيحاً استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون ان نشعر بانبعاث باطني يقهرنا على الاندفاع الى الاول ولا على الابتعاد عن الثاني ؟ أليس من جهلها ان تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت . وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبـور وفى زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الجاهلون باصول الدين وفضائل الاعمال وله من الاثر السيء فى انفس الناشئين بل وفى ارواح الرجال مايجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لايفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السير ان يقال فلان تربية امرأة — على اننا نرى ان تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجل . وان احسن الناس تربيةً هم من ساعدهم الدهر فى ان تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها اقوى استعداداً للنجاح فى التربية . ذلك انها اصبر من الرجل فيما تحب . وانها الطف منه فى المعاملة وارق منه فى العواطف والاحساسات . ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى احوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى احد كتب رونان الفيلسوف الشهير ماحصله : « أن اجمل ماوضعه فى مؤلفاته كان الهاماً من اخته » وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد في بعض ما كتبه : « ان كنت استحق فخراً فلامرأتى نصفه » . وامثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على احوال الاوروباويين . وكلها تدل على ان تربية المرأة امر لايستغنى عنه . وان القسم الاعظم منها منوط بالمرأة

وقد نجد فى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم مايشير الى ذلك . بل كان يجب ان يعد اصلا من الاصول التى نركن اليها في بناء امورنا الملية حيث قال في شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت .

اود ان كل مصري يرى ان مسئلة التربية عندنا هى ام سائر المسائل . وان كل مسئلة غيرها مهما كانت اهميتها داخلة فيها

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هـذا محل ذكرها . تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة في الدين ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم وقل مايشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد آن الوقت على ماأظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية . تربيـة تنشىء رجالاً أولى علم وأصالة رأي يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل . تربيةً تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الاجنبي في كل يوم وبكل لسان وكلها ترجع مهما اختلفت فى الاسم الي سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر في مصر على ان التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأي الصائب فى الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح ان يقال انه اصبح رأياً عاماً . وتولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها .

ولكن ارى همم الناس موجهةً الى التعليم ولا ارى احداً يلتفت الى تربية النفوس . وارى ان الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور . مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم . وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور :

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم فذلك غير

ضروري · وانما اطلب الآن ولا اتردد في الطلب ان توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الاقل· وان يعتنى بتعليمهن الي هذا الحد مثل مايعتني بتعليم البنين ·

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فاراه غير كاف · لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة اجنبية وشيأ من الخياطة والتطريز والموسيقى ولا يتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت اليها· وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بانفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت اترابها وارتفع شأنها وسما عقلها· ولا تتنازل بعد ذلك لان تشتغل بعمل من الاعمال المنزلية· فتقضي حياتها في تلاوة اقاصيص وحكايات قل ماتفيد الاً في اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة الى دخان السجارة التى تقبض عليها

اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هوالقراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها ·ومابقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منهاواحدة بعد واحدة حتي لا يبقي شيء · اين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوي بها على مطاردة الوهم! ـلاشيء ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمي عقلا عملياً· اريد بذلك مايقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه في اوهام وهواجس لا ترجع الى حق ثابت · فان

كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال · كلما تجرد الانسان عن الاوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة

الحقيقة هي ضالة الانسان في العالم ويجب عليه ان يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب · الحقيقة هي الكنز الذي اودع الله فيه كل آمال الانسان لايجدها الامن رغب فيها ومال عن سواها · الحقيقة هي مشرق السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس · والنساء مثل الرجال في الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل سليم يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة

انظر الى الطفل تجده يشتهي وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويسكن ويغضب وهو في كل ذلك انما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد الي خيال · واذا أراد شيئاً فمنع عنه لم يستعمل للوصول الي غرضه الاشيئاً من الغش والمكر والكذب · لم ذلك ؟ لان عقله ضعيف ومعارفه قليلة · ولم تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتي تحمله على الصبر احياناً وطلب المرغوب من ابوابه ووسائله الصحيحة احياناً اخري : والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرنا ·

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن اعوان ابليس · فلا تسمع الا ذماً لخصالهن وتنقيصاً لعقلهن وتحذيرا من مكرهن · وانا

لا ابرئ النساء الآن من هذه الصفات · ولكن اري ان التبعة ليست عليهن بل على الرجال

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب اخلاقها وتثقيف عقلها ؟ أيجوز ان نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الانعام ؟ أيصح ان يعيش النصف من امتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئا مما يرحولهن كما في الكتاب صم بكم عمي فهم لا يعقلون ؟ أليس بينهن امهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا · وهن زينة حياتنا الدنيا والجزء الذى لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن ؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمنا انفسنا من اكبر لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوي القربي من النساء ·

كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط انفسهما بعضها ببعض حتي يذهل كل عن ايهما يتكلم وايها يسمع · فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وامه او اخته او زوجته · ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحنّ اليهن ونعذرهن · ولكن

لا تكمل محبتنا لمن لان الحب التام هو ذلك التوافق · وهو معدوم

والانسان محتاج الي ان يكون محباً وان يكون محبوباً · ومن فضل الله عليه ان وضع بجانبه امهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن وهذه اكبر نعمة منَّ الله علينا بها · لان هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التى لولا هذه التسلية لافضت في بعض الاوقات باقوي رجل منا الي اليأس · فعـدم تقديرها قدرها وانصراف العناية عن تميتها وتكميلها كفرانٌ بنعم الله وتقصيرٌ في شكره

بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لايمكننا السكوت عنه لانه في الحقيقة هو المانع الوحيد الذي اتفقت اغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من ان التعليم يفسد اخلاقها ·

رسخ في اذهان الرجال ان تعليم المرأة وعفتها لايجتمعان · وقال الاقدمون في ذلك اقوالاً طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة · فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة · فخدونا مثالهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحاً جديداً تتقوي به طبيعتها الخبيثة علي ارتكاب المفاسد ·

اما أن المرأة الآن ناقصة العـقل شديدة الحيلة فهذا ممـا

لايختلف فيــه اثنان . وقد بينا ان هذه الحالة هي اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة . وانه متى زال السبب فلا شك ان المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه . فان التعليم ـ خصوصاً اذا كان مصحوباً بتهذيب الاخلاق ـ يرفع المرأة ويرد اليها ابتهاواعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفكر وتتأمل وتتبصر فى اعمالها . وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع ان ألوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم او خادمة او دلالة او جارة عجوز .

والحقيقة ان طهارة القلب في الغرائز والطبائع . فان كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى . وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال في الرجال . وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لايمنع من تعاطيه . فقد قال الله في شأن كتابه : « يُضِل به كثيراً و يهدي به كثيراً . وما يُضل به الا الفاسقين » .

فاثر التعليم لايمكن ان يكون ضرراً محضاً . ولا يمكن ان يكون منشئاً حقيقياً لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور اكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها . بخلاف الجاهلة فان من اخلاقها الطيش والخفة . وأذكر ملاحظة واحدة

تؤيد ماقدمته وهو ان نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهنّ في الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً اياماً واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما وتراهنّ في الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار يغضضن أبصارهنّ عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفيّ . أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهنّ ان يكون باطنهنّ خيراً من ظاهرهنّ ومتى رأت الواحدة منهنّ رجلاً نظرت اليه وتأملته والتفتت نحوه ولوت عنقها اليه ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهنّ في الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالادب التي يستحي القلم عن ان يجري برسمها : هذا الفريق من الاجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها اهل الخلاعة

ثم ان البطالة التي ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتهن هي ام الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتاباً ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ اقول لك وانت تعلم مثلي ان مايشغل امرأة الغني والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرّع الى مالا نهاية له و يتشكل في كل آن بشكل جديد وهو

يتبوع رضاها او سخطها على حسب الاحوال . ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل انه يكرهها . وتارة تظن انه يحبها . واحيانا تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً او خاسراً واحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير او هو باق . واحياناً تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزع منه محبتهم ان كان ودوداً لهم . ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائماً موضوع الشك . ومن وسائل الاحتياط ان لاتقبل الخادمةَ الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر و بشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها . ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا أفرغته في اذن اخرى من امثالها . فاذا فرغت من تصويره في العبارات رجعت الى تمثيله في الخيالات وهكذا . لهذا تُرى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير و بخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ماينها و بين زوجها واقارب زوجها وأصحاب زوجها وحزنها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل مافي صدرها حتي لايبقي سر من اسرارها — ولو كان متعلقاً بالفراش — الا وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . اما اذا كانت لاتميل لزوجها او كانت غير متزوجة فأكرر سؤالي بماذا تشتغل حينئذ ؟ اما الاولى فانها تفتكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . اما الثانية

فاعظم همها ان تشتغل كذلك بالبحث عن زوج ايًا كان ولا تضيع وقتها في حسن انتقاء الرجل الذي يصح ان يكون لها زوجًا فانها انما تطلب رَجلا . ومن البديهي ان المرأة التي يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد ان تقدم له افضل شيء لديها وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون امر النساء المتعلمات . اذا جري القدر عليهنّ بامر مما لايحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام باحوال المحبوب وشمائله وصفاته فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت وهي تحاذر ان تضع ثقتها في شخص لايكون اهلا لها ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الامزجة . وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي مافي نفسها عن اخص الناس بها

والمعوّل في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على ان تشغل اوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية وتربت بين اهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل مايؤثر في مشاعرها اثراً غير صالح او يهيج حسها الى امر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكمًا على قواها الحسية — كان من النادر ان

تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقي بنفسها في غمرات الشهوات التى لاتسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم

و بالجملة فانا نرى ان تر بية العقل والاخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل · بل هي الوسيلة العظمى لان يكون في الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه · وأرى ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما ان يترديا في اول حفرة تصادفهما في الطر يق

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب بوجه اجمالي في كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من اربع سنين مضت رداً على الدوك داركور و بينت هنالك اهم المزايا التي سمح لي المقام بذكرها ولكن لم اتكلم فيما هو الحجاب ولا في الحد الذي يجب ان يكون عليه · وهنا اقصد ان اتكلم في ذلك

ربما يتوهم ناظر انني ارى الآن رفع الحجاب بالمرة · لكن الحقيقة غير ذلك · فانني لاازال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلا من اصول الادب التي يلزم التمسك بها · غير اني اطلب ان يكون منطبقاً على ماجاء في الشريعة الاسلامية · وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ماتعارفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالاحكام حتي تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الامة

والذي أراه في هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة من التعرض لثارات الشهوة ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات او متاعاً من المقتنيات وحرمناها من كل المزايا العقلية والادبية التي اعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية . و بين هذين الطرفين وسط سنبينه — هو الحجاب الشرعي — وهو الذي ادعو اليه

اني اشعر ان القارىء الذي سار معي الى هذه النقطة وتبعني فيما دعوته اليه من وجوب تربية النساء ربما يستجمع قواه لمقاومتي فيما اطلب من الرجوع بالحجاب الي الحد الشرعي و يستنجد جميع الاوهام التي خزنتها في ذهنه اجيال طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن . ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل الى ان تبقى زمناً طويلاً

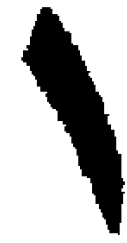
ماذا تفيد الشجاعة والثبات في المحافظة على بناء آل أمره الى الخراب والتهدم وقد انقضّ اساسه وانحلت مواده ووصل حاله من الاضمحلال الي انك ترى في كل سنة تمر جزءاً منه ينهار من نفسه ؟ أليس هذا كله صحيحاً ؟ أليس حقاً ان الحجاب في هذه السنين الاخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد ان النساء في كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن و يتعاملن بانفسهن مع الرجال

فيما يتعلق بشؤونهن و يطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجوّ و يطيب الهواء و يصحبن ازواجهن في اسفارهم • ونرى ان هذا التغير حدث في عائلات كانت اشد الطبقات تحرّجاً من ظهور النساء ؟ اذا قارنا بين مانشاهد اليوم و بين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيدعنا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها • وان يري طولها اجنبي وكان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلاً حتي لايراها احد من الناس • وحيث كانت ام الرجل او اختهاو بنته تستحي ان تجلس معه على مائدة واحدة — اذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك ان هذه العادة آخذة في الزوال من نفسها

وكل من عرف التاريخ يعلم ان الحجاب دور من الادوار التاريخية لحياة المرأة في العالم • قال لا روس تحت كلمة خِمار : « كانت نساء اليونان يستعملن الخِمار اذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الامم الشرقية » • وقال : « ترك الدين المسيحي للنساء خِمارهن وحافظ عليه عند مادخل في البلاد فكن يغطين رؤوسهن اذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة • وكانت النساء تستعمل الخمار في القرون الوسطى خصوصاً في القرن التاسع • فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الارض تقريباً • واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى ان صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد • ولكن بقي بعد ذلك بزمن

في اسپانيا وفي بلاد امريكا التي كانت تابعة لها »

ومن هذا يرى القاريء ان الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً بنا ولا ان المسلمين هم الذين استحدثوه · ولكنه كان عادة معروفة عند كل الامم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقي · وهذه المسئلة المهمة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية :



« الجهة الدينية »

لو أن في الشريعة الاسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب عليّ اجتناب البحث فيه وَلَمَا كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة في ظاهر الامر لان الاوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة · لكننا لانجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة · وانما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها واخذوا بها و بالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها · ولذلك لانرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب ان نُلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس الى تغييرها ·

جاء في الكتاب العزيز :

«قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهِم ويَحفظوا فروجَهم . ذلكَ أزكي لَهُم . انّ اللهَ خَبيرٌ بما يصنعُون . وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أَبصارِهِنَّ وَيَحفظنَ فروجَهنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ الاَّ مَاظَهَرَ مِنهَا . ولِيَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ علي جيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زينَتَهُنَّ الاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوآبائِهِنَّ أو آباءِ بعُولَتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أَوْ أبنَاءِ بعولَتِهِنَّ أَو إِخْوَانِهِنَّ أَو بني إِخوَانِهِنَّ أو بني أخَوَاتِهِنَّ أَو نِسائِهِنَّ أَو ما ملكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَو التابعين غيرِ أُولي الاِرْبَةِ من الرجال او الطفلِ الذين لم يَظهروا على عَوْرات النساء . ولا يَضرِبْنَ بأرجُلُهِنَّ ليُعلمَ ما يُخفِينَ من زِينَتِهِنَّ»

أباحت الشريعة في هذه الآية للمرأة ان تظهر بعض اعضاء من جسمها أمام الاجنبي عنها غير انها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على ان الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية ووقع الخلاف بينهم في اعضاء أُخر كالزراعين والقدمين . جاء في بن عابدين : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل في الأصح خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد . وصوتها علي الراجح وزراعيها على المرجوح . وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة كمسه وان أمن الشهوة لانه اغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتي في الحظر . ولا يجوز النظر

اليه بشهوة كوجه أمردَ . فانه يحرم النظر الى وجهها ووجه الامرد اذا شك في الشهوة . اما بدونها فيباح ولو جميلاً » (١)

وذكر في كتاب الروض في المذهب الشافعي : « نَظَرُ الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز . ويجوز نَظَرُ وجهِ المرأة عند المعاملةِ وعند تحمل الشهادة . وتكلف كشفه عند الأداء » (٢)

وجاء في تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن على الزيلعي : « وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفها وقدميها لقوله تعالى « ولا يُبدين زينتهن الا ماظهر منها » والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجه والكفان . قاله بن عباس وبن عمر . واستثنى في المختصر الاعضاء الثلاثة للابتلاء بابدائها ولانه عليه الصلاة والسلام نهى المحرِمة عن لبس القفازين والنقاب . ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترها بالمخيط . وفي القدم روايتان والأصح انها ليست بعورة للابتلاء بابدائها » (٣)

وحكم الوجه والكفين وأنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولانطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين

ومما يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ان اسماء بنت ابي بكر دَخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فقال

« ١ » صحيفة ٣٣٦ جزء ١ « ٢ » صحيفة ١٠٩ و ١٠٤ جزء ٢

« ٣ » صحيفة ٩٦ جزء ٣

لما يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يُرى منها الا هذا وهذا واشار الى وجهه وكفيه » . وورد ايضاً في كتاب حسن الاسوة للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رُخِّص للمرأة في هذا القدر لأن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » (١)

خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق وألقت عليها تَبعة اعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق في ادارة اموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل ان يتعاقد معها من غير ان يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلَّفة من رأسها الي قدميها او تقف من وراء ستار او باب ويقال للرجل ها هي فلانة التى تريد ان تبيعك دارَها او تقيمك وكيلاً في زواجها مثلاً . فتقول المرأة بعت او وكلت ويكتفي بشهادة شاهدين من الأقارب او الاجانب على انها هي التى باعت او وكلت والحال انه ليس في هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها احد . وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الاحوال . فكم رأينا ان امرأة تزوّجت بغير علمها وأجّرت املاكها بدون شعورها . بل تجردت من كل ماتملكه

« ١ » صحيفة ٩٢

على جهل منها · وذلك كله ناشيء من تحجبها وقيـام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها·

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة او تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال ؟ كيف يتسني لزارعة محجوبة ان تفلح ارضها و تحصد زرعها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها إذا أجرّت نفسها للعمل في بناء بيت او نحوه ؟

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانساني ليتمتع من منافعـه بما تسمح له قواه في الوصول اليـه · ووضع للتصرف فيه حدوداً تتبعها حقوق · وسوّي في التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع · ولم يقسم الكون بينهما قسمة إفراز · ولم يجعل جانباً من الارض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانباً للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء · بل جعل متاع الحياة مشتركاً بين الصنفين شائعاً تحت سلطة قواهما بلا تمييز — فكيف يمكن مع هذا لامرأة ان تتمتع بما شاء الله ان تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حظر عليها ان تقع تحت اعين الرجال الامن كان من محارمها ؟ لاريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل · لهذا رأينا

ان الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند اغلب الطبقات من المسلمين كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من اهل الطبقة الوسطى بل وبعض اهل الطبقة العليا من اهل البادية والقري : والكل مسلمون بل قد يكون الدين امكن فيهم منه في اهل المدن !

اذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما او شاهدا كيف ان يسوغ لها ستروجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما يهم في هذه المسئلة متساهلون فى رعاية الواجب فيها . فهم يقبلون ان تحضر المرأة امامهم مستترة الوجه وهي مدَّعية اومدَّعى عليها اوشاهدة وذلك منهم استسلاماً للعوائد . وليس بخاف مافي هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما اظن . ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من اهمها صحة التمسك بقولها . ولا اظن انه يسوغ للقاضي ان يحكم على شخص مستتر الوجه ولا ان يحكم له . ولا اظن انه يسوغ له ان يسمع شاهدا كذلك . بل اقول ان اول واجب عليه ان يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصاً في الجنايات . والافاي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده؟ وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروفا بشخصه؟

والحكمة فى ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهرة . وهي تمكن القاضى من التفرس في الحركات التى تبدو على الوجه والعلامات التى تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لا ريب ان ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج في حكمة إباحة الشرع الاسلامى لكشف المرأة وجهها وكفيها — ونحن لا نريد أكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب ايضاً على انه يجوز للخاطب ان ينظر الى المرأة التى يريد ان يتزوجها . بل قالوا بندبه عملاً بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار — وكان قدخطب امرأة —: «أنظرت اليها» — قال لا — قال: «انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما» .

هذه هى نصوص القرآن وروايات الأحاديث واقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية في ان الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التى لا يصعب اداركها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسرَ فيه لا على النساء ولا على الرجال . ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى مافيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى اداء كل منهما ما كلف به من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً او تكليفاً قضت به ضرورة المعاش

اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا إخالها صحيحة لأنه

لا أصل يمكن ان ترجع اليه هذه الدعوى. وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال والنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسئلة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته. وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره كما انه على من يخافها من النساء ان تغض بصرها. والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء. وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها.

عجبا! لِمَ لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل اضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه. واعتبرت المرأة اقوى منه في كل ذلك حتى ابيح للرجال ان يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال. ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوف ان ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط في الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟. ان زعم زاعم صحة هذا

الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بان المرأة اكمل استعدادا من الرجل — فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلمَ هذا التحكم المعروف ؟

على ان البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة . لأن هذا النقاب الابيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من خلفه العيوب . والبرقع الذي يختفى تحته طرف الانف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والاصداغ وصفحات العنق — هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر . ولو ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها

ليست اسباب الفتنة مايبدو من اعضاء المرأة الظاهرة . بل من اهم اسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التى ترشد عما فى نفسها . والنقاب والبرقع من اشد اعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ماتعمل لتحريك الرغبة . لانهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف ان يعرفها قريب او بعيد فيقول فلانة اوبنت فلان او زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ماتشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب . اما لوكان وجهها مكشوفاً فان نسبتها الى عائلتها او شرفها في نفسها يشعرانها الحياء والخجل

ويمنعانها من ابداء حركة اوعمل يتوهم منه ادنى رغبة منها فى استلفات النظر اليها .

والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لاللتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده . ويدلنا على ذلك ان هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الاسلامية وانهـا لم تزل معروفة عند اغلب الامم الشرقية التى لم تدين بدين الاسلام

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شيء من التبرقع والانتقاب .

هذا مايتعلق بكشف الوجه واليدين . اما مايتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها ان تخالط الرجال فالكلام فيه ينقسم الى قسمين : ما يختص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر في الشريعة لغيرهذين القسمين

اما القسم الاول فقد ورد فيه مايأتى من الآيات :

« ياأيها اللذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم. واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولاان تنكحوا من بعده ابداً . ان ذلكم كان عند الله عظيماً » .

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء . ان اتقيتن فلا

تَخضعنَ بالقول فيطمع الذى في قلبه مرضٌ . وَقُلْنَ قولاً معروفاً وَقَرْنَ في بيوتكُنّ ولا تبرّجنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى »

ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من اى مذهب كانت ولا في كتب التفاسير فى ان هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو انهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصاً بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت اسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على احد من نساء المسلمين . (١)

واما القسم الثاني فغاية ماورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الاجنبي وهو : « لايخلونّ رجل بامرأة الا مع ذي محرمٍ » قال بن عابدين : « الخلوة بالأجنبية حرام الا لملازمة مديونة هربت ودخلت خربة او كانت عجوزاً شوهاء او بحائل — وقيل الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن ابى يوسف ليست بتحريم » (٢)

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرَم او امرأة ثقة قادرة — وهل تنتفى ايضاً بوجود رجل آخر ؟ لم أره » (٣)

ربما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء

« ١ » صحيفة ١٢٦ من كتاب حسن الاسوة « ٢ » صحيفة ٣٢٣ جزء خامس
« ٣ » صحيفة ٣٢٤ جزء خامس

المسلمين كافة — فنجيب ان قوله تعالى « لَستُنَّ كأحد من النساء » يشير الى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم وينبهنا الى ان في عدم الحجاب حكماً ينبغي لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة. وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير او تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق او تعطيل لشيء من مصالح الحياة وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين. قال تعالى: " يريد بكم اليسرَ ولا يريد بكم العسرَ ". وقال: " ما جعل عليكم في الدين من حَرَج ". وقال ايضاً: " يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياءٍ إن تبدَ لكم تسؤكم ". ولو كان اتباع الأسوة مطلوباً في مثل هذه الحالة لمارأينا احد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجري في عائلته على ما يخالف الحجاب. وأستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية:

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بواقعة حربية. فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال: " فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من ادم محشوتين ليفاً فنبذ اليَّ باحديهما فجلست عليها واذا بهوفى صُفَّة فيها بيت عليه ستير فقال: "يا أُم كلثوم غداءنا" فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق. فقال: " يا أُم كلثوم الا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا؟ " قالت: " اني اسمع عندك حِسَّ رجل ". قال: "نعم ولا اراه من اهل البلد ". قال فذلك حين عرفت انه

لم يعرفني قالت : « لو اردتَ ان اخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » — قال : « او ما يكفيك ان يقال أم كلثوم بنت علي بن ابي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر » — فقال كل فلو كانت راضية لأطعمتك اطيب من هذا » (١)

وفضلاً عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتي على بيانها في المبحث الآتي :

٢

« الجهة الاجتماعية »

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى احكام الشريعة الاسلامية لا لاننا نميل الى تقليد الأمم الغربية في جميع اطوارها وعوائدها لمجرد التقليد او للتعلق بالجديد لانه جديد . فاننا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ونرى أنها مزاج الأمة التي تتماسك به اعضاؤها ولسنا ممن ينظر اليها نظره الى الملابس يخلع ثوباً كل يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لاننا نعتقد ان لرد الحجاب الى اصله الشرعي مدخلا عظيماً في حياتنا المعاشية . لسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق او منافرته . وانما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة اوما به قوام حياتنا .

كلامُنا الآن في هل يلزمنا ان نعيش ونحيي او نقضي على انفسنا بأن نموت ونفنى؟ هل علينا ان نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا

(١) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبري جزء خامس

والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة ويمرون علينا سراعاً ونحن شاخصون اليهم اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون ؟ او من الواجب علينا ان ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا . كيف تقووا وضعفنا . كيف سعدوا وشقينا . ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية في ديننا وما كان عليه اسلافنا الصالحون . ثم نقتدي بهم في استماع القول واتباع احسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ونسير في طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ؟ ذلك هو الامر الخطير الذي وجهنا اليه نظرنا .

ها هي مسئلة الحجاب مسئلة من أهم المسائل ولها مكان عظيم في شؤون الأمة . اذا ترك القارئ نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن لانه ألفه في صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم انه ورثه عن آبائه واجداده فلا يستغرب به بل يميل اليه ميلاً غريزياً ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا . وأما اذا نزع من نفسه العوامل التي احدثت فيه تلك العواطف وخلع ما البسه اياه اسلافه من أردية الوراثة وبحث في المسئلة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر الا بالتجربة التي تجري فى الوقائع الصحيحة وحصل لنفسه رأياً من ملاحظاته الشخصية . وكان ممن تجذب نفسه الى الحق وتنبعث الى السعي للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع . وكان لا يغش

نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين وانما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس — فعند ذلك يرى ان المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجودًا تامًا الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معًا ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها . ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها .

بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التي تترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها وفي الاجتماع الذي هي فيه . وذكرنا ان من اكبر اسباب ضعف الامة حرمانها من اعمال النساء وان تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت أمه مرباة . وقررنا ان الولد ذكرًا كان او أنثى لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلاً ولا عاطفة الامن طريقين : الوراثة والتربية . واستدللنا على ان الولد يرث من امه قدر ما يرث من والده على الاقل . وان تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته اعظم من تأثير ابيه . ونريد ان نبرهن هنا على ان تربية الأم نفسها لا يمكن ان تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الآن حتى اذا انتهى القارىء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض وكيف ان اصغرها يتوقف عليه اعظمها :

اذا أخذنا بنتًا وعلمناها كل ما يتعلمه الصبي في المدارس الابتدائية

وربيناها على اخلاق حميـدة ثم قصرناها في البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك انها تنسى بالتدريج ماتعلمته وتتغير اخلاقها على غير شعور منها وفي زمن قليل لانجد فرقاً بينها وبين اخرى لم تتعلم أصلاً . ذلك لأن المعارف التي يكسبها الانسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها ولذلك لايكون علمه فيها علماً تاماً كاملاً . وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبي يحفظ اسماء الاشياء اكثر مما يفهم معانيها وأكبر فائدة يستفيدها في هذا الطور من التعليم انما هي التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فان وقف سير التعليم في هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئاً فشيئاً وكان مامضى من الوقت في التعلم زمناً ضائعاً .

ولما كان السن الذي تحجب فيه المرأة ــ وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ــ هو السن الذي يبتديء فيه الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث في الحياة وما تستدعيه . وهو السن الذي تزهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات . وهو السن الذي يتعلم فيه الانسان نوعاً آخر من العلم أنفس مما تعلمه في المدارس وهو علم الحياة وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم . وفي هذا السن يبتديء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه

ودينه وحكومته . وفى هذا السن يبتديء استعداد كل شخص وميله وكفاءته في الظهور فيندفع الى الأعمال اندفاع الماء في المنحدرات . وهو سن الآمال والرغائب والنشاط — فان حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد ان كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها بل رجعت القهقري وفقدت كل ما كان يزين نفسها ونسيت كل معارفها وخابت كل مساعيها وضاعت آمالها وآمال الناس فيها : ولا ذنب عليها في ذلك فهى عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقى والكمال .

ربما يقال ان في طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها فى بيتها وهو وهم باطل . فان الرغبة في اكتساب العلم والتشوف لاستطلاع ما عليه الناس في احوالهم واعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الي المطالعة والدرس لا يتوفر للمرأة مع حجابها . ذلك لان الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا ما يقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفاً مقلوباً . اما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي فانها تكتسب بالنظر في حوادثه وتجربة ما يقع فيــه معارف غزيرة تنبث فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم في جميع مظاهر الحياة . وقد يكفي في اعانتها

على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى وربما يمكنها أن تستغني عن تعلم تلك المعارف الأولى اذا حسنت الفطرة وجادت القريحة

وعلى فرض ان المرأة يمكنها في احتجابها ان تستكمل ما نقص منها علماً وأدباً بقراءة الكتب فمن البديهي ان كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا اخوتها الصبيان كما نعاملها وحجبناهم في البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الاربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه ان يعيش بين اربعة جدران وسط النساء والاطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجي في قواه العقلية والادبية ولا بد ان يأتي يوم يجد فيه نفسه مساوياً لهم . فاذاً يكون من الخطأ أن نتصوّر اننا متى علمنا بناتنا جاز لنا ان نحجبهنَّ متى بلغن سناً مخصوصاً وان مجرّد ذلك التعليم الأول يكفي في التوقي من الضرر . لان الضرر في الحجاب عظيم وهو ضياع ما كسبنه بالتعلم وحرمانهنَّ من الترقي في مستقبل العمر والأمر في ذلك واضح لا يحتاج الى دليل . ويكفينا ان نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه في الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا اننا كنا أشبه بالاطفال لا نكاد نعلم شيئاً من العالم ولا نعرف للحياة قيمة ولا نميز كمال التمييز بين ما لنا وما علينا ولا تمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة في مجاهدة أنفسنا . وان أكبر

عامل له أثر في تكميلنا هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمراراً لا انقطاع معه . وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والممارسة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث

وفي الحقيقة ان تربية الانسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهي عنده . فهي لا تنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الانسان نفسه في اكتسابه في سنين معدودة ثم يقضي حياته بعد ذلك في الراحة .

التربية ليست ذلك الشيئ البسيط الذي يفهمه عامة الناس حيث يتصوّرون انها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة في پروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها الاّ البطالة والجمود . وانما التربية هي العمل المستمر الذي نتوسل بهِ النفس الى طلب الكمال من كل وجوههِ . وهذا العمل لا بد منه في جميع ادوار الحياة حيث يبتدئ من يوم الولادة ولا ينتهي الاّ بالموت .

واذا أراد القارئ ان يتبين صحة ما اسلفته من مضار الحجاب على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الاّ ان يقارن بين امرأة من أهله تعلمت و بين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن لم يسبق لها تعليم . فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة اجنبية وتلعب البيانو ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير امرها وتقويم حياتها . وان الثانية مع جهلها قد

أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممــارسة الاعمال والدعاوي والحوادث التي مرت عليها وان كل ذلك قد أفادها اختبارًا عظيماً : فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى.

ومن هذا نرى اغلب نساء نصارى الشرق وان لم يتعلمن في المدارس اكثر ممــا يتعلمه بعض بناتنــا الآن فهنّ يعرفن لوازم الحيــاة لكثرة ما رأين وسمعن باختلاطهنّ بالرجال فقد ورد على عقولهنّ معانٍ وافكار وصور وخواطر غير ما استفدنه من الكتب فارتفعن بفضل هــذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمــة المواطنة لهن مع انهن من جنس واحد واقليم واحد.

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لان تكون مساوية لغيرها من الأمم الأخرى لكنها اليوم في حالة انحطاط شديد. وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جرّدناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقرّرة لها و بخسناها قيمتها .

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهنّ فألزمناهنّ القعود في المساكن وحرمناهنّ الهواء والشمس وسائر انواع الرياضة البدنية والعقلية

ليس فينا من لا يعرف ان من النساء من لا يفارقن بيوتهنّ لا ليلاً ولا نهارًا بل يلازمنها ولا يرين لهنّ شريكاً في الوجود الاجارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتتصرف عنها. ولا يرين

ازواجهنَّ الاَّ عند النوم لانهم يقضون نهارهم في اشغالهم و يقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم او في الاماكن العمومية

ليس فينا من لا يعرف ان نساءً كثيرة فقدن صحتهنَّ في هذه المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد · وانهنَّ عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئاً من لذَّة هذه الحياة الدنيا ·

لذلك كان اغلب نسائنا مصاباً بالتحم وفقر الدم ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهي في ريعان شبابها : كل ذلك منشأه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على ان القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لا يمكن الاستدلال عليه لانه لم يقم احد الى الآن باحصاء عام يمكن ان نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد التي تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الاخرى التي تتمتع فيها بحريتهنَّ · ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلاً على الاثبات أو النفي في المسئلة لان ازدياد الفساد في البلاد ونقصه مما يرتبط بامور كثيرة ليس الحجاب اهمها

ومن المعروف ان لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلاً عظيماً في فساد اخلاقها وصلاحها · ولهذا نرى الفساد يختلف في بلاد اوروبا بين بلد وآخر اختلافاً ظاهراً ونرى ايضاً مثل هذا الاختلاف بين البلاد التي لا تزال فيها عادة الحجاب باقية · بل

نرى اختلافاً كبيراً بين زمن وزمن في بلد واحد . والتجارب ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلاً على ان الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب . فمن المشاهد الذي لا جدال فيه ان نساء امريكا هنَّ اكثر نساء الأرض تمتعاً بالحرية وهنَّ اكثرهنَّ اختلاطاً بالرجال حتى ان البنات في صباهنَّ يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقي العلوم . ومع هذا يقول المطلعون على احوال امريكا ان نساءها احفظ للاعراض واقوم أخلاقاً من غيرهنَّ وينسبون صلاحهنَّ الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحيـــاة . ومن المشاهد الذي لا نزاع فيه ايضاً ان نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهنَّ بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللائي لم يمنعهنَّ الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في المفاسد

وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة . والسبب في ذلك ان الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فاذا رأت رجلاً أيا كان لم يحرك منظره فيهـا شيئاً من الشهوة . بل لو عرض عليها شيء من هذا فانمـا يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات في خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب الى الآخر : وهذا هو ما منعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق . اما الثانية فمجرد وقوع نظرهـا على

رجل يحدث في نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة . وانما هو أثر منظر الرجل الاجنبي لانه قد وَقَرَ في نفسها أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر اليه كاف في اثارة هذا الخاطر

وقد شاهدت مراراً كما شاهد غيري هذا الأثر عينه في الرجال . فرأيت ان الرجل الذي لم يتعوَّد الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوي لا يملك نفسه اذا جلس بينهن . فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل في محاسنهن وينسى في ذلك كل أدب ولياقة . وربما طلب الوسائل لملامستهن بيدهِ أو مماستهن بكتفه ويندفع الى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين كأنه يظن — بل هو يظن بالفعل — انه لا معنى لاجتماع الرجل مع المرأة في مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوته مع الآخر . بخلاف الرجل الذي اعتاد على مخالطة النساء فانه لا يكاد يجد في نفسه أثراً من رؤيتهن اكثر مما يجده عند رؤية الرجال ولا يشعر بأدنى اضطراب في حواسه ولا في مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب انه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معاً لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت . وهـذا يوضح لنـا السبب فيما نشاهده كل يوم من ان المرأة اذا رأت رجلاً في الطريق أودعتها الضرورة لمخاطبته تصنع في حركاتها وصوتها ما تظن انه يروق في عين الرجل — والرجل كذلك .

وقد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد أوروبا وفي الاستانة وفي القرى المصرية وبين الاعراب في البادية حيث يمر

الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت احدهم الى الآخر :

ولا ريب ان استلفات الذهن دائماً الى اختلاف الصنف من أشد العوامل في اثارة الشهوة

وبديهي ان المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر اضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة . فان عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهي اختيارية والفرق كبير بينهما . ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد انهنّ مصونات بقوّة الحراس واستحكام الاقفال وارتفاع الجدران ؟

أيقبل من مسجون دعواه انه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس ؟ فاذا كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهنّ أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال انهنّ عفيفات ؟ ان العفة هي خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الالهي انما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لا بما يستكره عليه من الاعمال . فالعفة التي تكلف بها النساء يجب ان تكون من كسبهنّ ومما يقع تحت اختيارهنّ لا أن يكن مستكرهات عليها والاّ فلا ثواب لهنّ في مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد " .

والحقيقة انا نعمل عمل من يعتقد ان النساء عندنا لسنَ أهلاً

للعفة . أليس من الغريب ان لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور ان أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أيليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهن الى هذا الحد ؟

اني اسأل كل انسان خالي الغرض : هل هـذه المعاملة يليق ان يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وعقل وحواس . وهل سوء الظن في المرأة الي هـذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعـاقل يرى ان الاحتياط الذي يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهمـا بلغ من الدقة لا يفيد شيئاً ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امرأته . فان ملكه ملك كل شيء منها وان لم يملكه لم يملك منها شيئاً . ذلك لانه ليس في استطاعة رجل ان يراقب حركات امرأته وسيرها في كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج احدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلى م يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل ان يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لأي شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلاً فأعجبها ومالت اليه بقلبها وودت أن تواصله لحظة أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجـاب

العفة في هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب لان العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب . ولكن في نظر أهل الأدب والتقوى لا عبرة للبعد بين الاجساد اذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ما الذي فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى في داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كلا .

ربما يقول قائل ان ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء اكثر مما كنا نسمعه سابقاً وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشاراً . بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلاً ولا منشأ لذلك الارقة الحجاب . فالحالة القديمة على ما فيها كانت أصون للاعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء — فنجيب عن ذلك باننا لا ننكر ان بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سبيلاً من تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واتيان ما تميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه انه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن — والنفوس على ما هي عليه — لعمت البلوى وازداد الفساد انتشاراً .

غير ان السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب . بل هو راجع

الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية .

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش . وهو الذي يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها ان تطيل نظرها الى شاب يمر في طريقها . وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها . وسوء التربية هو الذي يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقى بل والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها . وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولا عن درجة من العرفان ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين

سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة من الفساد كل باب . وهو الذي يخشى معه أن تسرى العدوى من امرأة الى امرأة ومن طبقة الى طبقة . فقد نرى ان المحجبات مهما بالغن في التحجب لا يستنكفن أن يخاطن بنساء أحط منهنّ في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة . فسيدة المنزل لا ترى بأساً في مخالطة زوجة خادمها بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها . ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وبائعات الاقمشة . بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئاً من حالهنّ ولا من أي مكان أتين ولا بأي خلق

من الاخلاق تخلقن. وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا في افساد الاخلاق ان نساء من الموسات اللاتي يحملن تذكرة رسمية يدعون في الافراح و يرقصن تحت أعين الامهات والبنات والكبار والصغار!

هـذا ما يأتي من سوء التربية وهو من أشد العوامل في تمزيق ستار الأدب وليست رقة الحجاب بشيء في جانب هذا كله.

طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا و بينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة. ومال ذلك بالجمهور الاغلب منا الى تقليدهم في ظواهر عوائدهم خصوصاً ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقاً من قيد. فكان من ذلك ان كثيراً من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن في الخروج الى المنتزهات وحضور التياترات ونحو ذلك وقلدهن في ذلك كثير ممن يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد في الاخلاق.

تلك حالة طرأت للاسباب التي تقدمت وتبعهـا من العواقب ما بيناه. ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب. بل صار من متممات شؤوننا ان نحافظ عليها ونتقي تلك المضار التي نشأت عنها. وذلك هو ما نستطيعه ايضاً.

اما انه ليس من مصلحتنا ان نمحو هذه الحالة فلما قدمناه في مضار الحجاب على الوجه المعروف. واما اننا لا نستطيع ذلك فلان اسباب

هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة وهي تزداد بمرور الزمان رغماً عنا . ولاننا قد وجدنا من أنفسنا ميلاً الى حسن المعاملة في معاشرة النساء وزين في أنفس الكثير منا حب المجاملة في مرضاتهن ونشأت لهن في قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل . وأحس النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق حقاً من الحقوق وضرورياً من ضروريات المعيشة : فلا يسهل على الرجل ان يقضي على امرأته اليوم بما كان يقضي به من قبل اربعين سنة .

والذي يجب علينا هو معالجة المضار التي يظن انها تنشأ عن تخفيف الحجاب . ولا توجد طريقة انجع في ذلك العلاج الا التربية التي تكون هي الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم في أية درجة وصلت اليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض ان التربية والتعليم يصلحان اخلاق المرأة واما الاطلاق فربما زاد في فسادها . فنجيب ان الاطلاق الذي نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع اجنبي . وفي هذا الحظر ما يكفي لاتقاء المفاسد التي لا تتولد الا من الخلوة . اما الاطلاق في نفسه فلا يمكن ان يكون ضاراً ابداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية الصحيحة تكون افراداً اقوياء بانفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون بانفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير في كل أموره . فالاستقلال في النساء

كالاستقلال في الرجال يرفع الا نفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس : لذلك يجب ان يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان في تقدم الرجال في كل زمان ومكان . وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها . وهما من أشرف الوسائل لا بلاغها من الكمال ما أعدت له . فكيف يمكن لعاقل ان يدعى ان لهذين العاملين اثرا آخر سيئًا في أنفس النساء ؟ ومن زعم ان التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الاخلاق في المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التي لا يخلو عنها أمر من الامور النافعة في العالم فان لكل نافع ضررًا اذا أسيئ استعماله

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل احدًا من الناس على أن يقول ان من الصواب أن لا يعلم الرجال شيئًا خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم . وان من الواجب أن يتركوا في الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن ان عاقلاً يخطر هذا الخاطر بباله . فاذا كان اجماعنا قد انعقد على أن لا خير للرجال في الجهل والاستعباد . وان لا سبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا بالعلم وحرية الفكر والعمل . فما لنا نختلف في هذه القضية نفسها اذا عرض ذكر المرأة ؟ وأي فرق بين الصنفين في الفطرة والخلقة ؟

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة في النساء وفي الحرص عليها وفى ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منهـا وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شيء فداءها وطلبنا ان يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شيء في المرأة وأبهى حلية تتحلى بها . ولكن العفة لا تغني شيئاً عن بقية الصفات والملكات التي يجب أن تتحلى نفس المرأة بهـا من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام المعيشة في البيت والقيام على كل ما يعهد اليها من الشؤون الخاصة بها . بل نقول ان لهذه الصفات دخلاً كبيراً في كمال العفة وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لا ينقص في ضرره وفي الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على ان عقد الزواج وحده هو الذي يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت . ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية فالعمل على ما يخالفه قبيح مذموم بلا ريب . غير أن تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالاً أخرى وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تنحط عن منزلة الخنا . ووضعت عليهـا عقوبات أشد من العقوبة عليه لانها اعتبرت ان لتلك الاعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلاً بجريمة القتل فانها أعظم من جريمة الزنا في نظر الدين والقانون . فلمَ لم نتخذ

للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون في كل ساعة تمر من حياتنـا الى مصائب لا تحصى وهذا لم يمنعنا من ان نتحرك ونسعى ونقتحم الاخطار في الاسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه · انا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرهـا من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك فانا نحتمل مصائبها ونسلم لحكم القدر فيها ونجتهد في تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة · فلِمَ لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التي لا يخلو منها مجتمع انساني ؟ ولِمَ نتخيل انها أشنع وأفظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها مالم نتخذه لمنع غيرها ؟

وعلى أي حال فليس من الجائز أن نأتي مافيه ضرر محقق لنتقي به ضررًا وهميـاً · فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربمـا لا يكون · أما حجابهـا ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لا حق بها حتما · ويا ليته اقتصر عليها ولكنه يتعداها الى كل ما يقع تحت رعايتها ·

يتوهم أحدنا ان امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها فلذلك يزج بها وراء الابواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك انه قد استراح من الوساوس وهو لا يدري ما ربما يأتيه من ··· حيث لا يدري فلم يفده حرصه شيئاً في الحقيقة · ومع هذا فهو بعمله قد قتل

نفساً حيةً وأفسد نفوساً كثيرة ممن تتولاهم زوجته في بيته في سبيل ما يظنه راحة لنفسه .

توهم كثير ممن سبقنا مثل ما توهمنا وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم . وانني أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان أوروبا في القرون الوسطى وهي ما كان يسمى عندهم بنطاق العفة . وهو نطاق من حديد يتصل به حفّاظ ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه في جيب الرجل دائماً . ولكن هذا لم يمنع النساء من أن يمنحن عشاقهنّ مفتاحاً مصطنعاً ؛ ثم ما لبث هؤلاء الامم أن أدركوا خطأهم وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها . ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا في قياس أعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم . وادركوا أن سعادتهم لا تتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا شاركهم نساؤهم في مساعيهم وعاونهم في لم شعثهم وتكميل نقصهم فأعدوهنّ بالتربية والعلم الى ما أملوا منهنّ . فتمكن من أسرهنّ وتمتعن بحريتهنّ وسرن مع رجالهنّ يعاونّهم في الحياة ويمددنهم بالرأي في كل أمر . ولست مبالغاً ان قلت ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الاصول الثابتة انما شيد على حجر أساسي واحد هو المرأة

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهنّ في

مخالطتهم قاصرًا على المزايا التي أشرنا اليها بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة في تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد

تدخل بيت الغربي من اهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظامًا واكمل ترتيبًا واجمل اثاثًا من بيت الشرقي من اهل طبقته · ومع ذلك تجد نفقة الغربي اقل من نفقة الشرقي بكثير

أنظر الى الواحد منا تجد مسكنه لا بد ان يكون الي قسمين قسم للرجال وآخر للنساء · فان اراد ان يبني بيتًا فعليه أن يهيئ ما يكفي لبناء بيتين في الحقيقة واذا استأجر بيتًا فهو انما يستأجر في الواقع بيتين ويتبع ذلك مايلزم لكل منهما من الاثاث والفرش · ولا بد له من فريقين من الخدم فريق يخدم الرجال في القسم المختص به والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت · ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال لانه ليس من الجائز في عرفنا ان يركب الرجل مع زوجته او مع والدته في عربة واحدة · وهو مضطر لان يزيد في النفقة للطعام وما يتبعه لانه اذا أتى ضيف واحد رجلا كان او امرأة وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفي · وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء

هل يظن المصريون ان رجال اوروبا مع انهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغًا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على مانشاهده باعيننا · وان تلك النفوس التي تخاطر في كل يوم بحياتها في

طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة . هل يظنون ان تلك العقول وتلك النفوس التي نعجب بآثارها يمكن ان يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ؟ هل يظنون ان أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيرًا فيه ؟ — كلا . وانما الافراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن اليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور ادرك الرجل ان المرأة انسان من نوعه لها ماله وعليها ماعليه . وأن لا حق لاحدهما على الآخر بعد توفية مافرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا مايعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره .

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل عرف ان حجاب المرأة اعدام لشخصها فلا تسمح له ذمته بعد ذلك ان يرتكب هذه الجريمة توسلا الى مايظنه راحة بال واطمئنان قلب .

متى تهذب العقل ورق الشعور في الزوج وجد من نفسه ان لا سبيل الى اطمئنان قلبه في عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجال

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل ادرك ان الذ شيء تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة . فيسعى جهده في مايقويه ويشد

عراه ويبذل ما في وسعه للمحافظة عليه ·

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل والمرأة لا تقنع نفوسهما بالاختلاط الجسداني وحده بل يصير اعظم همهما طلب الائتلاف العقلي والوحدة الروحية ·

ان طبيعة العصر الذي نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد ميالة الى سوق القوى الانسانية في طريق واحد وغاية واحدة · فهذا الطائف الرحماني الذي طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلاً لا بد ان ينال منه النساء نصيبهن · فمن الواجب علينا ان نمد اليهن يد المساعدة ونعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم :"اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم" · ولا شيء ادخل في باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ولا من حسن المعاملة واللطف في المعاشرة · فعلينا ان نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة · هذا ما تفرضه علينا الانسانية وتطالبنا به الشريعة وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها

وقبل ان اختم الكلام في هذا الباب ارى من الواجب علي ان انبه القارئ الى اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم · فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة

لا يتأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي. وانما الذي اميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير:

فيعودن بالتدريج على الاستقلال و يودع فيهن الاعتقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم. ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة اوليائهن. عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار في معاملة الرجال بدون ادنى خطر يترتب على ذلك اللهم الا في احوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية

المراة والامة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم في دور مهم بل في أهم دور من تاريخها

اني لا اجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام في أنحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن · ولكنها من جهة اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هي في هذا الزمان · فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه · وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة · ولم يدع وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين ·

فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها و باي طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكليزي على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والالماني زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوي على كنوز لا يعرف اهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها

فان صادفوا امة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا اهلها واهلكوهم أو أجلوهم عن ارضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقا حيث لا يرى اثر لاهالي البقاع التي احتلها الاوروباوي لانهم خرجوا منها طوعاً او كرهاً . وان صادفوا امة كامتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية خالطوا اهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على اهم اسباب الثروة لانهم اكثر مالاً وعقلاً وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم في الحياة : فطرة الله التي فطر عليها جميع الانواع واودعها لما لتعدها الى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها

عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم . وما قوي عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على انه افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها . وهي ان تستعد الامة لهذا القتال وتأخذ له اهبتها وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من اي نوع كانت : خصوصاً تلك القوة المعنوية وهي قوة العقل والعلم التي هي اساس كل قوة سواها

فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت في التربية مسالكهم واخذت في الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكنها أن تعيش بجانبهم . بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لان البلاد بلادها وارضها أبر بها منها بالغريب عنها وابناءها اقدر على المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من انفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون !

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة امامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من انفسنا

فان كان للمصريين هم وصدق عزيمة في طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من انفسهم كل

خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على انفسهم في اصلاح انفسهم . ولا يضيعوا اوقاتهم في امانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلاً . اما هم فانهم يستطيعون ان يأتوا في اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم ان يقولوا كل يوم ان الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من ان نفعل ما يجب علينا لانفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا اظن ان مصر رأت ما يماثلها في اي زمن من ازمانها . وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة اشد الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح في عمل من الاعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان ننتهز فرصة ما وصلنا اليه ونحرث ارضنا ونسقي غراسها وننتظر ما يأتي به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزارع يجب عليه قبل ان يلقي البذور في الارض ان يهتم بمعرفة طبيعتها بما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئتها حتى لا يضيع ماله وتعبه كذلك يجب علينا ان نبحث في اسباب تاخرنا . فاذا عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا انفسنا من التخبط على غير هدى وارحنا انفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا امراً لاحظه كل من له المام باحوال الشرق : وهو ان تاخر المسلمين عام فيه اين كانوا . فالسبب يجب ان يكون عاماً ايضاً .

اما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في انحطاط المسلمين · اذ لو كان له اثر لوجد اختلاف بين التركي والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث العمران والمدنية ولكنا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور في بعض الصفات النفسانية و بعض العوائد · ذلك هو كل ما فعله اختــلاف الشعوب والاقاليم · فالتركي مثلاً نظيف صادق شجاع والمصري على ضد ذلك الا انك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط · اذاً لا بدَّ ان يكون بينهما امر جامع وعلة مشتركة هي السبب الذي اوقعهما معاً في حالة واحدة ·

ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم في البلد الواحد · ولم يقصد احد منهم خصوصاً افاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامي الحقيقي بانه السبب في انحطاط المسلمين · فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلاً عن ابنائه المنتسبين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر بينها برهنت على انه وسيلة من افضل الوسائل وعامل من اقوى العوامل التي تسوق الانسان في طرق الترقي والتقدم الى غايات السعادة · ولكنهم يرون

ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عاماتهم بل واغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقي الطاهر وانما هي بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخليط الذي سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو المانع من الترقي ·

وليس في امكان احد أن ينكران الدين الاسلامي قد تحول اليوم عن اصوله الأولى وان العلماء والفقهاء — الا قليلاً ممن انار الله قلوبهم — قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزوا وحقت عليهم كلمة الكتاب : « واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا » ·

ولكنني اعتقد انهذا الانحطاط الذي طرأ على الدين ليس سبباً لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشي فى المسلمين عامة رجالاً ونساءً ·

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا في آن واحد · وصرحت السنة كما اجمعت عليه الائمة بان لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه · فلم يمض الا قرن واحد منعهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على اهم اقسام العالم · ولم يكن الغرض من هذة الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الأخذ بهذا الدين· وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً

لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذي يعمل له الاوروباويون في بلاد الشرق الآن ٠

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء الكون بنور العلوم التي نشرهـا المسلمون في كل ارض احتـلوها و بلد اقاموا به ٠ فلم يتركوا فرعاً من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه وألّفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة الأُمية التي ربمـا صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية ابداً — اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم ٠ وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام ٠ وآخر بالعـلوم الطبيعية ٠ وثالث بالفلك والحساب ٠ ورابع بالتاريخ والجغرافيا ٠ وخامس بالفلسفة والاخلاق ٠ ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجري في البحار حول الارض ٠ واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى ان رزئ المسلمون بوقائع التاتار في الشرق وانقراض الخلافة منه ٠ وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى اوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام و بعض شيء من قواعد اللغة العربية وانصرفوا عن كل شيء سواها ٠

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكمت ظلماته في اذهانهم لم يعد في استطاعتهم ان يفهموا حقيقة الدين وشعروا ان ضعفهم لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد . ثم اخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق : والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه .

انظر الى الجاهل تجده دائمًا يختار من فكرين اقلهما صوابًا ومن طريقين اصعبهما ومن عملين اضرهما . ذلك لان الحق سواء كان فضيلة او مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الاّ بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الامور وعواقبها . ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول . وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبلة .

ومن رأي علمائنا اليوم ان الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم ان يعرفوا في اعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل . وان سألتهم عن شيء من الاشياء المتداولة في ايديهم كيف صنع او عن حال الامة التي هم منها أو امة اخرى تجاورهم أو الامة التي احتلت بلادهم اين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف . بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من اعضائه او مكانه من بدنه — هزوا اكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقارًا لهما . وان تكلمت معهم في نظام

حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتها السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً · وسواء عاشوا في العز او في الذل فهم على كل حال عائشون و بما يحطون اليه راضون · ويرون أن ليس للانسان ان يعمل لمصلحة نفسه وان يختار لها امراً · ويزعمون انهم وكلوا جميع امورهم الى ما يجرى به القضاء · مع انك تراهم اشد الناس احتيالاً في طلب الرزق من غير وجهه واحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم · فهم في الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلاً للعامة واقناعاً للسذج بانهم في تقصيرهم في أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء ·

ظن هؤلاء المساكين انهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تعذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما في الدين والدنيا: والبعد بينهم وبين الدين الحقيقي عظيم ·

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في بيان ما جاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لانه احسن ما كتب في هذا الزمان لتنبيه افكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت « وعليها ما اكتسبت » فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره · ومن يعمل مثقال « ذرة شراً يره » · « وان ليس للانسان الاّ ما سعى » واباح لكل احد

« ان يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة . ولم يحظر
« عليه الا ما كان ضاراً لنفسه او بمن يدخل في ولايته او ما تعدى ضرره
« الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر
« كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم
« في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به .

« انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت
« فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة في المدارك ونسفت
« ما كان له من دعائم واركان في عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة
« ازعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه
« شعاع من نور الحق خلصت اليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم » ثم فان
« الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة »

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم
« يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم والاعلام اعلام
« الكون ودلائل الحوادث . وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق
« البحث هادون .

« صرّح في وصف اهـل الحق بانهم « الذين يستمعون القول
« فيتبعون احسنه » . فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين
« القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه .
« ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يامرون وينهون

« ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم
« حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون ·
« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء
« وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على أن
« السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على
« عقول ولا لأذهان على اذهان · وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة
« سيان · بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها
« والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
« اسلافه وآبائه · وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها اهل الجيل
« الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل
« اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة
« المكذبين » · وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي
« وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب ·

« عاب ارباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند
« ما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم : « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ·
« انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » (١)

ومما يستحق ان نفرح له هو أن نفراً من علماء عصرنا في مصر وفي
غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون ما نرى ويقولون ما نقول

«١» رسالة التوحيد صحيفة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

ويعترفون بان العلوم التي تقرأ الآن في الازهر وفي غيره لا تفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية التي تهيئ العقول لقبولها والانتفاع بها .

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمبادىء العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفي معاملتها مع بقية البشر . وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقي به العقل ؟ أليس العلم في الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فروع وافنان تتصل كلها باصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقة كل شيء في الوجود ؟

وما علينا الآ ان نصغي لمقال هولاء العلماء الافاضل الذين هم ادرى منا بحاجات الدين ولا يخفى عليهم شيء من حاجات الدنيا . وان نعضدهم في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقبات ويتغلب على المصاعب التي اقامها اهله في طريقه .

ولا حاجة بنا الى التطويل في شرح امر صار معلوماً عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم في جميع مظاهره حتى في العبادات . وانما اردنا ان نبين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول . وأن العلة الأولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقي هي

اهمال التربية في الرجال وفي النساء معاً ·

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل امر على حاله : والدين ايضاً · وان زال ذلك السبب صلح حال الامة في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية وصلح منها الدين ايضاً

اما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل احد ومسلماً عند الجميع · واما وجوب تربية المرأة ايضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية · اما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها · فيجب ان تربى كما يجب أن يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة · لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والخفة انما هو ناشىء عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم

فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم · وهذا هو السر في تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره ·

ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صديقي احمد فتحي بك زغلول من اللغة الفرنساوية الى العربية (١) كيف ان نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الامم

---

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين

بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل . والحرية والاستقلال في الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم ذكوراً وأناثاً . ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم في تقليدهم لانهم ادركوا ان تربية العقل التي اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم . وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا تذكر القارىء ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه خصوصاً من امه الحالة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيده المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة .

واما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هي حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ويحفظ بها النوع الانساني . لكنها في ذلك انما تؤدي وظيفة كل انثى من سائر انواع الحيوانات . وهي لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

وفي الحق انا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه اننا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء في القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا أن الرجل انما يكون في كبره كما هيأته والدته في صغره .

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذي اريد ان يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب .

اني اكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم امهات قادرات على ان يهيئنهم للنجاح . فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا وهي تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً .

وبديهي ان العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . اما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة .

والامر الذي يلزم ان تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامة لان العائلة هي اساس الامة . ولما كانت المرأة هي اساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية اول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة . فان كانت منحطة احتقرها زوجها واهلها واولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً في معيشتهم فتفسد آدابهم وعوائدهم . اما ان كانت المرأة على جانب من العقل والأدب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا انفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين اقوياء باتحادهم . وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في

عائلته . ومن المحال ان يكون للانسان من الصفات والاخلاق في امته ما ليس له نموذج في منزله . وان يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعامل بها افراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق في عائلته كان كذلك في أمته وان كان سيء الاخلاق في عائلته ساءت اخلاقه في امته ايضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الامم وتأخرها .

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة ايضاً من اهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو اهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الابطاء في اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواه وان اهملناه افسد علينا كل اصلاح سواه .

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء اوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التي وقفها اولئك الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية

محل الاستبداد رأى العالم ان في المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال . وان انحطاطها كان عارضاً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت في رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر في خيال احد من اهل تلك العصور الخالية . وهي الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك في انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفاً لكتف . ولا يوجد عمل خيري الا وهي في اول العاملين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا وللمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تنل الحقوق السياسية فاذا منحتها كما هو المنتظر في بلاد اوروبا تمت المساواة بينهما . على انها قد نالت منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب في امريكا وفي انكلترا في المجالس البلدية وفي فرنسا في المحاكم التجارية وفي بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس الشورية . ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوروبا وامريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعي في سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر نترك

في تاريخ اعمالهن اثرًا شريفًا وتنتهي بفوز جديد ·

ولا يشك احد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لا بد ان تصل في زمن قريب الى مستو تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال في جميع الحقوق · ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله · وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال في ميدان التقدم والترقي ·

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء في التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر اثرها للناظر في احوال الامة ولكن لجميعها مجموع واحد يظهر اثره في احوالها تمام الظهور · وهي رأس مال عظيم نحن مقصرون في العناية والانتفاع به ·

وعندي أن من اعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من اعمال النساء الخيرية · لان الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب · ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله اعظم الرجال جلدًا · ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب · غير ان المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدًا يهديها الى سبل الخير فتصرف ما اودعه قلبها من كنوز الرحمة في اصغر الامور واحقرها ·

هذا هو عمل المرأة في الامم المتمدنة وقد وجد في مبدأ الاسلام

عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر في مصالح المسلمين العامة. فجميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية على اختلاف مواضيعها قد رويت عن عائشة وام سلمة وغيرهما من امهات المؤمنين ونساء الصحابة. وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر. وان عائشة تداخلت في مسئلة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد الخلفاء. واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القتها عند دخولها البصرة:

« ان الغوغاء من اهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول « الله صلى الله عليه وسلم واحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين « واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين « (عثمان) بلا ترةٍ ولا عذر. فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال « الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام. ومزقوا الاعراض والجلود « واقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين « ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت في المسلمين اعلمهم « ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في « اصلاح هذا. وقرأت: « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة « او معروف او اصلاح بين الناس ». ننهض في الاصلاح ممن امر الله « عز وجل وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر

« والانثى . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه . ومنكر
« ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره » (١)

ويروى عن ام عطية انها قالت : « وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم فى رحالهم واصنع لهم الطعام واداوي الجرحى واقوم على المرضى » .

والذي يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غريبة من المرضات اللاتى وهبن حياتهن لخدمة الانسانية .

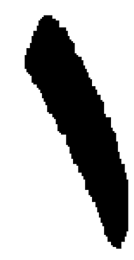
والناظر في الاحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الاحوال لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال . وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه الى الآن التمدن في اوروبا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقهـا . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها اهليتها لان تكون وصية على رجل — يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

(١) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦

والقارئ الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغـاية الايجاز لا بد ان يكون قد لاحظ انها كلها تتلخص في عبارة واحـدة هي:انه لا بد لحسن حال الامة من ان تحسن حال المرأة . فاذا ارسل الناظر فكره ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع اسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسما . يرى المرأة التي تهيئها المستقبل تتلألأ في انوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كما لها الثنائي : الجسم والعقل .

العائلة

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة · نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير في ارتقاء المرأة وانحطاطها · ولهذا رأينا من الضروري استلفات الذهن الى اهم المسائل التي تمس بحياة العائلة وهي الزواج وتعدد الزوجات والطلاق · وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب :



﴿ الزواج ﴾

رأيت في كتب الفقهاء انهم يعرّفون الزواج بانه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى ان بين الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية · وكلها خالية

عن الاشارة الى الواجبات الادبية التي هي اعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر .

وقد رأيت في القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج ويصح ان يكون تعريفاً له ولا اعلم أن شريعة من شرائع الامم التي وصلت الى اقصى درجات التمدن جاءت باحسن منـــه . قال الله تعالى : " ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة " . والذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه الى اي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهائنا وسرى منهم الى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التي سقط اليها الزواج حيث صار عقـدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الاحكام الفرعية التي رتبوها على هذا الاصل الشنيع .

فهذا النظام الجميل الذي جعل الله اساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع في يد الرجل وجرى العمل على اهمال كل ما من شأنه ان يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعي المودة أن لا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر . ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقي

الشرعي استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك ان يتم عقد الزواج قبل ان يرى كل من الزوجين صاحبه

بينا فيما سبق ان جميع المذاهب في اتفاق على ان نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم امر به احد الانصار أن ينظر الى خطيبته وهو قوله : « انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما » . فما بالنا اهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة مع اننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها في الاهمية ؟ — ذلك لان الجاهل من عادته ان يميل الى ما يضره وينفر مما ينفعه

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمي العقل قبل ان يتعارفا ان يرتبطا بعقد يلزمهما ان يعيشا معاً وان يختلطا كمال الاختلاط ؟ ارى الواحد من عامة الناس لا يرضى ان يشتري خروفاً او جحشاً قبل ان يراه ويدقق النظر في اوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه . وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار امامها الفكر !

لعلك تقول ان المرأة ترى خطيبها من الشباك مراراً وان الرجل يعرف بواسطة امه أو أخته أوصاف خطيبته مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما اشبه ذلك فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال وشمائل . — نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن ان ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها

الآمال . وانما الذي يهم الانسان البصير هو ان يرى بنفسه خلقاً حياً يفكر ويتكلم ويفعل . خالقاً يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيراً ما يرى الواحد شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه في الحال نفوراً تاماً ولا يعلم لذلك سبباً . وربما يستقبح الناظر شخصاً على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل عنده ما وجد منه اولا بضده . وربما زين لاول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لاول كلمة تصدر منها . وخصوصاً ان هذا الاحساس المادي سواء كان ميلا او نفوراً لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة . فان الانسان الواحد يكون منظره سبباً للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبة الحسية لا بد منها عند الزوجين . وهي ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا ارى في اي شيء آخر تكون لازمة !

على ان الانجذاب المادي ليس كافياً في الزواج بل يلزم ان يوجد ايضاً توافق بين نفوس الزوجين . اي انه يوجد — لا اقول اتحاداً لانه مستحيل — وانما ائتلاف بين ملكاتهما واخلاقهما وعقولهما : ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا اذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلاً

ولا يختلف اثنان في ان الزواج الذي يبنى على هذا التوافق يكون امرًا محترمًا في نفوس الزوجين وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ويكون ايضاً موجباً للعفة والتصون . وعندى ان كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لاحد من الزوجين مهما طال اجل الزواج ومهما كانت صفات الرجل والمرأة . ولهذا قال الاعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فامره هم وغم »

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لاول عرض يطرأ عليها . واغلب ما يكون من ذلك لا سبب له الا رغبة كل منهما في الخروج من قيد لا يرى وجهاً للمحافظة عليه والتنصل من امر لا قيمة له في نفسه .

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجته فانه امر يهمها اكثر مما يهم ذوي قرابتها . اما حرمانها من النظر في كل ما يختص بزواجها وقصر الرأي في ذلك على اوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا ان يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذي خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته واخلاقه ولا تسأل هل تحب الاقتران به ولا يبحث احد عن ذوقها ورغبتها وميلهـا وهي لا تجد من نفسها جراءة على ان تبـدي ما في ضميرها . ويرى الناس انه لا يليق بالمرأة ان يكون لها صوت في اهم الاشياء لديها فيعطي القريب او البعيد

رأيه في زواجها ما عداها ويظنون ان هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الادب : وهم مخطئون فيما يظنون

منحت شريعتنا السمحاء الى النساء حقوقاً لا تنقص عن حقوق الرجل في الزواج · فلها الحق مثله في ان تتأكد بنفسها من امكان تحقيق آمالها · وما علينا الا ان نسمع صوت شريعتنا ونتبع احكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم واعمال الصحابة لتتم لها السعادة في الزواج

جاء في الكتاب العزيز : « ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف » وكان ابن عباس يقول اتباعاً لهذه الآية الكريمة : « اني احب ان اتزين لامرأتي كما احب ان تتزين لي » وقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقال في تعظيم حقهن : « واخذن منكم ميثاقاً غليظاً » وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً والطفهم باهله » · وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد في الحديث : « حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى انه كان يضع ركبته على الارض لتضع زوجته عليها رجلها اذا ارادت ان تركب · وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى انه كان يسابق عائشة رضي الله عنها فسبقته يوماً وسبقها في بعض الايام فقال : « هذه بتلك » · وكان يرأف بالنساء ويوصي عليهنّ دائماً · فما روى عنه قوله : « خياركم خياركم

لنسائكم » . وقوله : « استوصوا بالنساء خيرًا » . والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على ان الدين الاسلامي يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف .

ولكن ما دامت المرأة على ما هي عليه اليوم من الجهــل فالزواج لا يكون — كما هو الآن — الا شكلاً من الاشكال العديدة التي يستبد بها الرجل على المرأة

اما اذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معًا . عند ذلك تؤسس الزوجية على انجـذاب شخصين يحب احدهما الآخر حبًا تامًا بجسمها وقلبها وعقلهما . عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقـد الزواج ويعرف اهلها أن في كمال عقلها ما يكفي لحسن اختيارها فيكونون معها على اتفاق في الرأي فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها . عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقي

انظر الى زوجين متحابين تجدهما من اليوم في نعيم الجنة ، ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليًا من المال او أن يكون على المائدة عدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب في كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذي يبعث النشاط في الجسم والطمأنينة في النفس ويحيى في القلب شعورًا بلذة الحياة ويزينها لهو يخفف ثقلها عليه ويجعلها منه

في مكان الرضى حتى قال عمر ابن الخطاب : « ما اعطي العبد بعد الايمان خيرا من امرأة صالحة » .

أين هذا من حال عائلتنا اليوم التي نرى فيها الزوجين واحدهما ابعد الناس عن الآخر . ولو لم يكن الا هذا البعد لخف احتماله . لكن لما كان في طبيعة الانسان أن يجري وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها . ومن هذا الاعتقاد يتكون في المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر . وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات في كل آن بسبب وبغير سبب في الصباح وفي المساء حتى وفي الفراش .

وتنتهي هذه الحالة بان تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون . فيستولى الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون باهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده وتغفل شؤون الزوج والاولاد في مأكلهم ومشربهم وملابسهم . وتقضي الزوجة اوقاتها في مكان واحد تفكر في سوء ما وصلت اليه او تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها تلك الهموم .

وليس الرجل باحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش في القهاوي او عند جيرانه . فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر كما هو حاصل الآن انما هو طريقة يستعملها الرجل في الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن في حيازته دفعة واحدة او على التعاقب ولا تجد فيه المرأة مزية ترضي نفسها ·

وكل رجل يقصد من الزواج ان تكون له صاحبة تشاركه في السراء والضراء يصعب عليه بل قد يتعذر ان يبلغ ما يريد من ذلك · ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الاخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه · ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد في كل سنة — لان الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيراً في المستقبل — صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية امراً ضروريا لا يستغنى عنه · والا فما علينا الا أن نعلن ان الثقة بالزواج قد فقدت وان المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس ·

ولست مبالغاً ان قلت ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه آمانيهم المحبوبة · فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل في كل شيئ · ويطلبون ان تكون ام اولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية اولادها على مبادىء الاخلاق الحسنة وقواعد الصحة ·

وكل من تجرد عن التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لا بد ان ينشرح صدره عند ما يرى نمو هذا الميل في نفوسهم ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر في مطالبهم فلا يستهجنها لاول

وهلة ولا يرميهم بالتفرنج في آرائهم قبل البحث فيها . بل يزنها بميزان العقل والشرع ومتى ثبت له ان هذا التغيير الذي نطلبه ليس الا رجوعا في الحقيقة الى اصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وانه اصلاح يقضي به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

٢

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام ومنتشرة في جميع الانحاء يوم كانت المرأة نوعاً خاصاً معتبرة في مرتبة بين الانسان والحيوان . وهو من ضمن العوائد التي دل الاختبار التاريخي على انها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية فتكون في الأمة غالبة عند ما تكون حال المرأة فيها منحطة وتقل أو تزول بالمرة عند ما تكون حالها مرتقية . اللهم الاَّ اذا كان التعدد لاسباب خاصة قضت به عند فرد أو افراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم . حتى في الأمة التي ألف تعدد الزوجات فيها نري الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله واولاده وعرف أن من حقوقها ان تكون في المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات . ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن احداً ينازعنا فيه من ان هذه العادة خفت

في بعض الطبقات من اهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة ٠

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود في سقوط هذه العادة حيث قطع ورود الجواري التي كانت تملأ بيوت اكابر القوم واعيانهم٠ ولكن يظهر لي ان ترقي عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم ايضاً في تلاشيها ٠ ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها ٠

وبديهي أن في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة لانك لا تجد امرأة ترضى ان تشاركها في زوجها امرأة اخرى كما انك لا تجد رجلاً يقبل ان يشاركه غيره في محبة امرأته ٠ وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة كما انه طبيعي للرجل ٠ ولو سلم انه ليس بطبيعي كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذي يعيش بين العشرات من الدجاج فاقل ما فيه انه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت في نفوس افراد هذا النوع عند ارتقائه من ادنى درجاته من الحيوانية الى ما اعد له من الكمال الانساني ٠ فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل في الانفس والرسوخ فيها لا يقل اثره عن اثر الغرائز الفطرية

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة اخرى اذ لا يخلو حالها من احد امرين : اما ان تكون

مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها · واما ان لاتكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الاسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في اهــله فاذا ارتبط باخرى سواها قاست من الالم ما يبعثه احساسها بان ذلك المقام الذي كان باقياً لها قد انهدم ولم يعد لها امل في بقاء شيء من كرامتها عنده · فالالم لاصق بها على كل حال

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو اكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتهــا · فالجواب عنه من وجهين : الاول ان ما يدعي من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح الا في بعض افراد نادرة لا حكم لهــا في تقدير حال امة وان وقائع المنازعات بين النساء وازواجهن والجنايات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى · وهو شاهد على ان تعدد الزوجــات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين ازواجهن ومصدر لشقاء الاهل والاقارب · فمن يدعى ان نساءنا يرضين بمشاركتهن في ازواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت ·

والثاني ان مايكون من ذلك الرضاء في القليل النادر فهو ناشيء عن ان المرأة انما تعتبر نفسها متاعاً للرجل فله ان يختص بها وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء · وليس لها على هواه حق تطالبه به : كما كان الرجال عندنا يعتبرون انفسهم متاعاً للحكام في عهد ليس بعيداً عنا !

ويظهر لي أن رجلاً مهذباً عارفاً بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلاً عن أكثر ·

قدمنا ان في فطرة المرأة ميلاً الى التسلط على قلب الرجل · فاذا رأت بجانبه امرأة اخرى في فطرتها ذلك الميل ويمكنها ان تبلغ منه بضروب الوسائل ماتشتهي تولاها الاضطراب والقلق وهجرتها الراحة وكانت حياتها عذاباً اليماً · وتلك الحال لاتخفى على الرجل المهذب · فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الاليم ؟

ويزيد النساء قلقاً واضطراباً ما صرح به الفقهاء من انه لا يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه وانما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها

ولا ريب في أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائماً بانه هو السبب في هذا الشقاء ·

ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم · بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز ويبني في نفوسهم البغضاء ولا يستطيع احد ان يحول بين ما يشهدون من تخاصم امهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصمهن مع والدهم وبين اثر ذلك في نفوسهم · بل يسرى في افئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر اثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الاوروباوية تظهر بحالة السلم وهي تاخذ اهبتها للحرب

حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهم على الآخر فمزق بعضهم بعضاً كما نشاهده في اغلب العائلات .

اين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الاولاد في حضن والديهم . تجمعهم محبة صادقة . لا يتنافسون الا في زيادة الحب ولا يتسابقون الا الى الخير يصل من بعضهم لبعض . يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كاعضاء جسم واحد ان فرح احدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه . هم سعداء الدنيا في كل حال . اسبغ الله عليهم اكبر نعمة يتمناها العاقل وهي المودة في القربى .

فلا ريبة بعد هذا ان خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . ذلك ادنى ان يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته واولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة واقرب الى الوصول الى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج اكثر من امرأة : اللهم الا في حالة الضرورة المطلقة كأن اصيبت امرأته الأولى بمرض مزمن لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية . اقول ذلك ولا احب ان يتزوج الرجل بامرأة اخرى حتى في هذه الحالة وامثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها . والمروءة تقضي أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب ان تتحمل هي ما عساه كان يصاب به .

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل ان يتزوج بثانية اما مع المحافظة على الاولى اذا رضيت أو تسريحها ان شاءت : وهي ما اذا كانت عاقراً

لا تلد لان كثيراً من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلاتهم ·

أما في غير هـذه الاحوال فلا أرى تعـدد الزوجات الا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية · وهو علامة تدل على فساد الاخلاق واختلال الحواس وشره في طلب اللذائذ ·

والذي يطيل البحث في النصوص القرآنية التي وردت في تعـدد الزوجات يجد انها تحتوي اباحة وحظراً في آن واحد · قال تعالى :

" فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع · فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم · ذلك ادنى ان لا تعولوا " ·

" ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء · ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة · وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما " ·

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بان العـدل غير مستطاع · فمن ذا الذي يمكنه ان لا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من ان العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخـاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ اظن ان كل بشر اذا اراد الشروع في عمل غير مستطاع يخاف بل يعتقد انه يعجز عن القيام به والوقوع في ضده ·

ولو أن ناظراً في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيداً عن معناهما لولا ان السنة والعمل جاءا بما يقتضي الاباحة في الجملة ·

وكأن بمجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة وبان الله تعالى وكل الناس في ذلك الى ما يجدونه من انفسهم . فمن بلغت ثقته من نفسه حداً لا يخاف معه ان يجور اذا اراد ان يتزوج اكثر من واحدة ابيح له ذلك بينه وبين الله . ومن لم يصل الى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه ان يتزوج اكثر من واحدة . ثم نبه مع ذلك على ان هـذه الغاية من قوة النفس لا يمكن ادراكها زيادة في التحذير .

وغاية ما يستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور . وهذا الحلال هو كسائر انواع الحلال تعتريه الاحكام الشرعية الاخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح . فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد في ازماننا او نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين اعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاماً جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط او بغير شرط على حسب ما يراه موافقاً لمصلحة الامة .

وانه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من انفسهم ولا اظن أن احـداً من اهل المستقبل يأسف على تركها . فان التمتع بالنساء وان قل في هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد

من الناحية المعنوية التي يلزم ان تكون وجهة كل راغب في الزواج . فان رجلاً يسوقه الى الزواج سائق العقل ويوجه رغبته اليه حادي الفكر يعلم انه انما يتخذ لنفسه بالزواج قريناً صالحاً يمده بالمعونة في شؤونه ويؤنسه في وحدته ويشفعه في عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من اهله . فهو يتخير لذلك خير العقائل واكرم السلائل ويصطفيها على ما يجب من العقل والادب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن فيكون له منها منظر بهي وملمس شهي وصورة تعجب ومعنى يطرب . فهم يسبق الاشارة وذكاء يستغني عن العبارة . لذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة . تحسن القيام على اولاده بالتربية الصالحة . وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها . فتأخذ ارواحهم من روحها ما اخذته ابدانهم من بدنها . فينشأون على المحبة ويشبون على الالفة فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء . عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فاين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟

٣

« الطلاق »

قال فولتير الكاتب الفرنساوي الشهير على طريقته من الفكاهة

المعروفة في كثير من مؤلفاته : « ان الطلاق قد وجد في العالم مع الزواج في زمن واحـد تقريباً غير اني اظن الزواج اقدم ببضعة اسابيع · بمعنى ان الرجل ناقش زوجته بعد اسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة ثم فارقها بعد ستة اسابيع »· وقد اراد بذلك أن يقول ان الطلاق قديم في العالم وانه يكاد ان يكون من الاعراض الملازمة للزواج · وهو حق لا يرتاب فيه فقد دل تاريخ الأمم على ان الطلاق كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان وانه لم يمنع الاّ في الديانة المسيحية بعد مضي زمن من نشأتها ·

ولا يزال أثر ذلك المنع باقياً الى الآن في شرائع الأمم الغربية التي وضعت الزواج على قاعدة انه عقد لا ينحل الاّ بموت احد الزوجين · وهذا افراط في احترام هـذا العقد ومغالاة فيه الى حد يصعب أن يتفق مع راحة الانسان

نعم أن من اماني الأمم الصالحة ان تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تحل الاّ بالموت · ولكن مما تجب مراعاته ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر ·

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على مر الأزمان بان أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم · وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من رقة تلك الاحكام فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم

وما تقتضيه الحاجات · ولقد اشتدهذا الشعور في الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير احكام في احوال سمتها " احوال بطلان الزواج " · ورتبت على ذلك البطلان احكاماً لا تختلف في آثارها عن احكام الطلاق · فقبلت فسخ الزواج اذا اثبت احد الزوجين انه لم يكن عنـد الزواج مطلق الاختيار أو انه اخطأ في معرفة الآخر أو اذا ادعى احد الزوجين ان الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية · واخذت تتوسع في تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شيء · وفي الحالة الاخيرة قد تكتفي بأن يتفق الزوجان على ان يدعى احدهما ان الآخر لم يقم أو لم يعد في امكانه أن يقوم باول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الا من قبل الزوجين فقولهما هو الدليل الذي يصح التعويل عليه ·

الا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم في هذا الباب · فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير احكام كافلة للراحة · خصوصاً وقد رأت ان هذه الاسباب التي قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تعاب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة · وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهـذبة والاذواق السليمة ·

ومن اجل ذلك اضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها واوسعت له محلاً من قوانينها . وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله في هذه المادة كما بطلت سيطرتها في كل مالم تتفق فيه احكامها مع مصالح تلك الامم . وهذا هو الشأن في كل شرع او دين لا يراعى اهله في احكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الانسان ويقفون به في مكان واحد عند ما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر في اسراره وطرق تنفيذه .

دخل الطلاق في جميع الشرائع الغربية تقريباً رغماً عن معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له ان يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق . ولكنه لم يصل الى الدرجة التي يستحقها من القبول والاعتبار ولم يستوف احكامه الا عند الامة الامريكانية التي فاقت غيرها ببذلها المجهود في الاقدام على طلب الترقي ففتحت ابواب شريعتها للطلاق ولم تقيده باحوال مخصوصة كما قيده غيرها

وكل مطلع على احوال الامم الغربية يرى الميل عند جميعها الى التوسع في الطلاق ولا بد ان تنتهي يوماً الى الاعتراف بان ما اباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على احد الزوجين او الحكم عليه بعقوبة في احوال مخصوصة غير واف بالحاجة . وعند ذلك تقرر اباحة الطلاق متى وجدت اسبابه في نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما

نعم ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر . ولكنه من المضرات التي لا يستغنى عنها ويكفي لتسويغه ان منافعه تزيد عن مضاره . فان كل نظام لا يخلو من ضرر والكمال التام في هذه الحياة الدنيا امر غير مستطاع

ونحن لا نريد البحث في هذا الموضوع الواسع لاننا اجتنبنا في هذا المختصر كل بحث نظري . وانما نقول ان من اجال النظر في نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق واحكامه يشعر بالنعم التي افاضها الله على المسلمين ويقتنع بأن كتاب الله قد أتي من الحكمة على منتهاها وانه وفي كل شيء حقه.

واول ما يجب الالتفات اليـه هو أن شرعنا الشريف قد وضع اصلاً عاما يجب أن ترد اليه جميع الفروع في احكام الطلاق وهو أن الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة . والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وما جاء في كلام الائمة نورد منها ما يأتي :

قال تعالى : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا »

وقال جل شأنه : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما »

وقال تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزًا او اعراضاً فلا

جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . واحضرت الا نفس الشح . وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

وجاء في الحديث : « ابغض الحلال عند الله الطلاق » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تطلقوا النساء الا من ريبة . ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات » . وقال علي كرم الله وجهه : « تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش » .

وجاء في حواشي ابن عابدين : « أن الاصل في الطلاق الحظر بمعنى انه محظور الا لعارض يبيحه وهو معنى قولهم الاصل فيه الحظر والاباحة للحاجة الى الخلاص . فاذا كان بلا سبب اصلاً لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الايذاء بالمرأة وباهلها واولادها . ولهذا قال تعالى : « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » اي لا تطلبوا الفراق » انتهى (١)

والمطلع على كتب الفقه وان كان يجد ان جميع الائمة قد نظروا على العموم الى هذا الاصل الجليل الذي من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان . لكنه لا بد أن يلاحظ ايضاً انهم لم يراعوا في التفريع تطبيق هذا الاصل على طريقة واحدة متساوية . ويرى ان الفقهاء من اتباع الائمة قد توسعوا في امر الطلاق ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة في تطبيق الاحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف

(١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢

يشاهد على الخصوص في ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات :

اولها مسئلة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية — فقد خالف بعض الفقهاء خصوصاً من المذهب الحنفي في هذه المسئلة الاصول العامة التي بنى عليها معظم احكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل والمخطيء واخرج الطلاق من مشمول هذا الاصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطيء والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذي لا يميز السماء من الارض .

وظاهر ان اهل هذا الرأي لم يعولوا على النية التي هي اساس الدين الاسلامي كما يستفاد من حديث « انما الاعمال بالنيات » . كما انهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع في ان الطلاق محظور في الاصل وانه ابغض الحلال عند الله . وقد عللوا نفاذ الطلاق في الاحوال التي اشرنا اليها باسباب اذكرها للقاريء واترك له مسؤلية الحكم عليها :

قرأت في كتاب الزيلعي ما معناه « ان طلاق الهازل والمخطيء يقع لان لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج . وان طلاق المكره يقع لانه عرف الشرين واختار اهونهما . واما السبب في وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجراً له » (٢)

ولكنا نحمد الله على ان في المذاهب الاسلامية الاخرى ما يخالف

ذلك ويتفق مع اصول الشريعة ومصلحة العامة ويمكن لمريد الاصلاح ان يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذي يقع في تلك الاحوال ·

ثانيها — ان الطلاق الذي نص عليه القرآن هو واحد رجعي دائمًا · قال تعالى : « يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم · لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة · وتلك حدود الله ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه · لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا · فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم» · وقال تعالى: «وبعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادا اصلاحًا»

ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكناية وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة او نوى واحدة بائنة · اما بالكناية فيكون الطلاق بائنًا لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا في بعض الفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثًا ان نوى الثلاث

الا انه يوجد في مذهب آخر كمذهب الشافعي رضي الله عنه ان الكنايات جميعها رجعية · ووجه الحق في هذا المذهب ظاهر فانما الطلاق طلاق على كل حال وهو فصل عصمة المرأة من الرجل · فاختلاف الالفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة لا يصح ان يتعلق به اختلاف حكم · ولو سلم اختلاف الاحكام باختلاف

الالفاظ في مثل هذا الباب لكان الاوجهان يكون حكم الكنلية اخف من حكم الصريح ·

ثالثها — اتفق اغلب المذاهب على ان الطلاق ثلاثاً متفرقة في حيض واحد او في مرة واحدة و بلفظ واحد يقع ثلاثاً · على ان هذا النوع من الطلاق الذي اعترف الفقهاء انفسهم بانه بدعي — اي مخالف للكتاب والسنة — لا يمكن تصوره على الكيفية التي قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم · قال تعالى: « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان » · وجاء في تفسير هذه الآية في كتاب حسن الاسوة: « وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى انه ينبغي ان يكون الطلاق مرة بعد اخرى لا طلقتان دفعة واحدة · كذا قال جماعة من المفسرين » · وجاء فيه ايضاً: « قد اختلف اهل العلم في ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا او واحدة فقط · فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق · وقد قرره العلامة الشوكاني في مؤلفاته تقريراً بالغاً وافرده برسالة مستقلة · وكذا الحافظ بن القيم في اغاثة اللهفان واعلام الموقعين » (١)

وجاء في ابن عابدين: « وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا » في حالة الحيض لانه بدعة محرمة · وعن ابن عباس يقع به واحدة وبه » قال ابن اسحاق وطاوس وعكرمة لما في مسلم ان ابن عباس قال: كان

(١) صحيفة ١٦

" الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من
" خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر ان الناس قد استعجلوا
" في امر كان لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم فامضاه عليهم . وذهب جمهور
" الصحابة والتابعين ومن بعدهم من ائمة المسلمين الى انه يقع ثلاثاً . قال
" في الفتح بعد سوق الاحاديث الدالة عليه وهذا يعارض ما تقدم . واما
" امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بانها كانت
" واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا في الزمان المتأخر على وجود ناسخ او
" لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم باناطته بمعان علموا انتفاءها في الزمن المتأخر .
" وقول بعض الحنابلة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة الف
" عين رأته فهل صح لكم عنهم او عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث
" باطل . اما او لا فاجماعهم ظاهر لانه لم ينقل عن احد منهم انه خالف عمر
" حين امضى الثلاث ولا يلزم في نقل الحكم الاجماعي عن مائة الف
" تسمية كل في مجلد كبير لحكم واحد على انه اجماع سكوتي ".(١)

وقد روى في هذه المسألة من الاحاديث مالا يدع شكاً في ان الطلاق الثلاث في مجلس واحد لا يقع الا واحدة . جاء في الزيلعي :
" وقال ابن عباس اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال : " ايلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم ". ذكره القرطبي ورواه النسائي . " (٢) وجاء فيه

(١) صحيفة ٥٧٦ جزء ثاني (٢) صحيفة ١٩٠ جزء ثاني

ايضاً : " وذهب اهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى ان الطلاق الثلاث " جملة لا يقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس انه قال: " كان الطلاق " الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من " خلافة عمر رضى الله عنهم واحدة فامضاه عليهم عمر رضي الله عنه » " رواه مسلم والبخاري . وروي ابن اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس انه " قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن " عليها حزناً شديداً فسأله عليه الصلاة والسلام: " كيف طلقتها ؟ " قال: "طلقتها ثلاثاً في مجلس واحد " . قال : " انما تلك طلقة فارتجعها » (١)

يرى القاريْ من هذه العبارات التي بسطناها ليحصل لنفسه منها رأياً أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر رضي الله عنه بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ويمكن للامة اذا ارادت الاصلاح ان تأخذ بقولهم . لان عمر رضي الله عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : " ان الناس قد استعجلوا في امر كان لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم " فكأنه اجتهد في جعله عقوبة لردعهم عنه . وكانا نعلم انه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه في محاوراتهم وايمانهم .

بل لم لا يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذي نقله ابن عابدين وهو مذهب الائمة من آل البيت في قولهم كما مر : " ان الطلاق

(١) صحيفة ١٩١ جزء ثاني

لا يقع بالطلاق الثلاث ولا في الحيض لانه بدعة محرمة »

وان سمح لي القاري، ان ابدي هنا كل ما اظنه صواباً اقول لا يمكنني ان افهم ان الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . نعم ان الاعمال الشرعية لا تستغني عن الالفاظ اذ لو حللنا اي عقد لوجدناه مركباً من ظهور ارادة او مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها او عليهما من الفاظ صدرت شفاهياً او بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه في الاعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلاً على النية

فينتج من ذلك انه يجب ان يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة في انه انما يريد الانفصال من زوجته . لا ان يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به في كتبهم ان الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) .

والذي يطلع على كتبهم يندهش عند ما يرى اشتغالهم بتأويل الالفاظ والتفنن في فهم معانيها في ذاتها بقطع النظر عن الاشخاص . وعندهم متى ذكر اللفظ تم الاثر الشرعي . ولهذا قصروا ابحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم طلقتك وانت طالقٌ وانتِ مُطلَّقةٌ وعليَّ الطلاقُ وطلقتُ رجلكِ او رأسكِ او عرقك وما اشبه ذلك . وصارت المسئلة مسئلة بحث في اللفظ والتركيب

ربما كان مفيداً للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقاً علم الفقه بشيء،

على اننا نظن ان علم الشرائع يقبل ابحاثاً اخرى غير تاويل الالفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملاً شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق وانشاء حقوق جديدة وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الاهمية حيث يتعلق به اعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به الى هذا الحد امر يدهش حقيقة كل من له المام ولو سطحي بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم .

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالالفاظ وبحثوا في ماخذ الاحكام التي يقررونها وعرفوا تاريخها واسبابها وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقي لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقاً الا اذا كان مصحوباً بنية الانفصال .

ويمكن لناظر ان يجد في كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال فقد نقل عن شرح التلقين : " ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة او كلمات في حال الغضب او النزاع لا يقع طلاقه " . ورووا في ذلك احاديث مثل قول علي بن ابي طالب : " من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب او اللجاج فرق الله بينه وبين احبائه يوم القيامة . قاله الرسول عليه السلام " .

ثم ان ناقل هذا القول اجتهد في رده وبالغ في ابطاله . ولكن مريد الاصلاح له أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء

مهما كانت خصوصاً اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاماً .

نحن في زمان ألف الرجال فيه المذر بالفاظ الطلاق فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب في ايديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقاً . فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتي طالق فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته وهي لا تعلم بشيء ما ولا تبغض زوجها ولا تود فراقه بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها . وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فاذا افترق منها بتلك الكلمة التي صدرت منه لا بقصد الانفصال من زوجته وانما بقصد الزام شخص آخر بالعمل الذي كان يريده كان الطلاق على غير نية منه .

رب رجل يناقش زوجته في بعض شؤون البيت فيرد على لسانه في وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال ايضاً وقع الطلاق ويعقبه أيضاً ما سبق ذكره من البلاء الذي ينزل على الزوجين .

ورب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلاً فيسأله العمدة او مأمور المركز عما وقع منه فينكر فيستحلفه بالطلاق فيحلف انه ما سرق والحال انه سرق فيقال كذلك وقع الطلاق وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه ولم يخطر بباله عند الحلف انه مباغض لزوجته كاره لعشرتها .

فلمَ لا يجوز مع ظهور الفساد في الاخلاق والضعف في العقول

وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من ان الاستشهاد شرط في صحة الطلاق كما هو شرط في صحة الزواج كما ذكره الطبرسي وكما تشير اليه الآية الواردة في سورة الطلاق حيث جاء في آخرها: « وأشهدوا ذوي عدل منكم » ؟

أليس هذا أمرًا صريحًا بالاستشهاد يشمل كل ما اتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع ان يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لِمَ لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحًا فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذي يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب ؟ نظن أن في الاخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا ان الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل اليه الامة في زمان كزماننا هذا فانزل تلك الآية الكريمة لتكون نظامًا لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم .

بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيرًا للأمة فعليها ان تضع نظامًا للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الاولى »

كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه ان يحضر امام القاضي الشرعي او المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي

بينه وبين زوجتــه

« المادة الثانية »

يجب على القاضي او المــأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على ان الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه ويأمره ان يتروى مدة اسبوع ·

« المادة الثالثة »

اذا اصر الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من اهل الزوج وحكماً من اهل الزوجة او عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما ·

« المادة الرابعة »

اذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي او المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج في الطلاق

« المادة الخامسة »

لا يصح الطلاق الا اذا وقع امام القاضي او المــأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية ·

والذي يتأمل في الآيات التي سبق ذكرها في الاستشهاد والتحكيم يرى ان نظاماً مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها في شيء ·

وليس لمعترض ان يحتج بان نظاماً مثل هذا يسلب الزوج حقه في

الطلاق لان حق الزوج في الطلاق باق على ماهو عليه الآن · فهو الذي يملك عصمة الزواج واسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره · وغاية مافي الامر انا اشترطنا ان يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضي · وليس في هذا تعد على حق من حقوق الزوج وانما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة واولادها بل ولمصلحة الزوج نفسه حيث نرى كثيراً من الازواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلاً لمداواة طيشهم ·

الا يرى افاضل الفقهاء ان مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هي تقليل عدد الطلاق فضلاً عما فيها من اتباع اوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه في الآية التي ذكرناها واتبــاع أمر شرعي بقي معطلاً الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوماً خصوصاً في امة كامتنـــا بلغ امرها من فساد الاخلاق والطيش الى حد ان الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشي ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأته جالسة في بيتها لا تعلم شيئاً مما جرى في الخارج بينه وبين غيره ·

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة في مدة الثماني عشرة سنة الاخيرة على أن كل اربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط · واليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨	١٣٦٠١	٦٩٠٢
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢
١٣٠٠	٤٣٥٠٠	٤٦٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠
١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

واذكر هنا احصائية اخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذي حصل في عموم القطر المصري في سنة ١٨٩٨ :

سنـــة	زواج	طلاق	
١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠	(١)

ومنها يظهر ان كل اربع زوجات تطلق منهن واحدة و تبقى ثلاث وهذه النتيجة وإن كانت احسن من الاولى بسبب انها تشمل سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل اهل مصر الا أن كلاهما من اقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها ٠

ومن الغني عن البيان ان المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق فانها لا تقبل ان تعامل بطرق القسوة والاهانة التي تعامل بها وهي جاهلة ٠ وعند ذلك يحس الرجال انفسهم بانه ليس من اللائق بهم ان يستعملوا حق الطلاق الذي وكله الله بامانتهم الا عند الضرورة التي شرع الطلاق لاجلها ٠ فتربية النساء مما يساعد على اصلاح اخلاقنا وتأديب السنتنا٠ فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ولكنه يشعر رغماً عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلاً ومعرفةً وعلواً في الاخلاق فيعف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها ويؤدي لها حقوقها ٠

ولكن لا يجمل بنا ان ننتظر ذلك الزمان الذي يبلغ فيــه النساء

---

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندي اسماعيل الموظف بنظارة الحقانية والمنتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى

بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن . بل يجب على كل من يهتم بشأن امته ان ينظر في الطرق التي تخفف من مضار الطلاق الى ان يأذن الله بتلك الغاية التي هي منتهى كل غاية . وقد بينا ان مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من الاحكام ما يساعد على وضع حدود نقف عندها العامة وتكون مراعاتها من الوسائل الى تقدمنا في طريق الصلاح . واقل ما يكون من اثرها ان لا تجد المفاسد سبيلاً من الشرع الى ظهورها فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة في طمأنينة وراحة بال ولا تكون في كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا ان نلاحظ انه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن ان تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ ان شريعتنا النفيسة لا تعوقنا في شيء مما نراه لازماً لتقدم المرأة . والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدى طريقتين : الطريقة الاولى ان يجري العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذي حرم المرأة في كل حال من حق الطلاق حيث قال الفقهاء من اهله : « ان الطلاق مُنع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى » . مع ان هذه الاسباب باطلة لان ذلك ان كان حال المرأة في الماضي فلا يمكن ان يكون حالها في المستقبل ولان كثيراً من الرجال احط من النساء في نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى .

واستدل على ذلك بملاحظة وردت علي عند اطلاعي على احصائية الطلاق في فرنسا فقد رأيت انه في سـنة ١٨٩٥ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق في ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريباً حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت امام المحاكم ان العيب كان من الرجال ·

ولا يصح في الحق ان شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التي تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه كأن كان شريراً او من ارباب الجرائم او فاسقاً او غير ذلك مما لايمكن معه لامرأة سليمة الذوق والاخلاق ان ترضى بعشرته ·

وقد وفى مذهب الامام مالك للمرأة بحقها في ذلك وقرر ان لها أن ترفع امرها الى القاضي في كل حالة يصل لها من الرجل ضرر ·

جاء في كتاب البهجة في شرح التحفة لابي الحسن التسولي ما يأتي:

« ان الزوجة التي في العصمة اذا اثبتت ضرر زوجها بها بشيء من الوجوه
« المتقدمة والحال انها لم يكن لها بالضرر شرط في عقد النكاح من انه
« إن اضربها فامرها بيدها فقيل لها ان تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر
« عند الحاكم من غير أن تستأذنه في إيقاع الطلاق المذكور اي لا يتوقف
« تطليقها نفسها على اذنه لها فيه وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا
« عنده كالطلاق المشترط في عقد النكاح اي المعلق على وجود ضررها
« لها أن توقعه ايضاً بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقاً · وقيل حيث
« لم يكن لها شرط به لها ان توقع الطلاق ايضاً لكن بعد رفعها اياه للحاكم

« وبعد ان يزجره القاضي بما يقتضيه اجتهاده من ضرب اوسجن او توبيخ
« ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها • ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر •
- ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم فهو الذي يتولى ايقاعه ان
« طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج وان شاء الحاكم امرها ان توقعه • فعلى
« هذا القول لا بد ان يوقعه الحاكم او يأمرها به فتوقعه • واذا امرها
« به فهي نائبة عنه في الحقيقة كما انه هو نائب عن الزوج شرعاً حيث
« امتنع منه • وروي ابو زيد عن ابن القاسم انها توقع الطلاق دون
« امر الامام • قال بعض الموثقين: والاول اصوب »

الطريقه الثانية — أن يستمر العمل على مذهب ابي حنيفة ولكن تشترط كل امرأة تتزوج ان يكون لها الحق في ان تطلق نفسها متى شاءت او تحت شرط من الشروط: وهو شرط مقبول في جميع المذاهب

وهذه الطريقة افضل من الأولى من بعض الوجوه • فان من المضار الحقيقية التي تتفق كل النساء في التحفظ منها وبذل المستطاع في اتقائها مالا يكون سبباً يسمح للقاضي ان يحكم بالطلاق في مذهب مالك وذلك كتزوج الرجل بامرأة اخرى وزوجته الاولى في عصمته • فان الزوجة الأولى لو رفعت شكواها الى القاضي وطلبت منه ان يطلقها لم يجز للقاضي ان يجيب طلبها فلو اشترطت ان تطلق نفسها متى شاءت او عند ما يتزوج زوجها عليها كان الامر بيدها • ولكن العمل على الطريقة الاولى احكم واحزم فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي ادعى الى تضييق دائرته وادنى

الى المحافظة على نظام الزواج ٠

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العــدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تحل ارواحهم بالوجدانات الانسانية السليمة كان لي الامل الشديد في ان يحرك صوتي الضعيف همة كل رجل محب للحق من ابناء وطني خصوصاً من اولياء الامور الى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات ٠

خاتمة

تبين للقارئ مما سبق ان ما نريد ادخاله من الاصلاح في حالة النساء ينقسم الى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية ·

والقسم الثاني يتعلق بدعوة اهل النظر في الشريعة الاسلامية والعارفين باحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء وان لا يقفوا عند تطبيق الاحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقاً لمصلحة عصره · وأن يدققوا البحث فيما تغير من الاحوال والشؤون فان وجدوا في قول امام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع اقاموا مقامه قول امام آخر يكون في مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن اصول الشريعة العامة ·

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الاعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة :

١

« اما العلم »

فهو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها وبه تنتبه اذهان افرادها الى ماهم فيه وما درجوا عليه من الاخلاق والعوائد والكمالات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم باحوالهم وتكون تلك الأمور دائمًا موضوع بحثهم ·

ان من الغفلة بل من اسباب الشقاء ان تكون شؤوننا في حياتنا قائمة بعوائد لانفهم اسبابها ولا ندرك آثارها في احوالنا بل انما نتمسك بها لانها جاءت الينا ممن سلفنا وورثناها عمن تقدمنا وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا · مع ان هذا وحده لا يكفي لان يكون سببًا في الاخذ بها ولا في الثبات عليها بل يجب ان نفهم أن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم وذلك من البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان ·

فعلينا ان نأخذ من العوائد وان نكسب من الاخلاق ما يلتئم مع مصالحنا فنكون مالكين لمصادر اعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع لا أن نكون عبيدًا لعاداتنا التي وجدنا عليها آباءنا فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقًا فرأى ان يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا ان يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه ·

انا لا نجد عقبة في طريقنا الى السعادة اصعب اجتيازًا من شدة

تمسكنا بعادات من سلفنا من غير ان نميز بين تلك العادات صالحها وطالحها . نعم ان الماضي لا يصح أن يطرح جملة . لكن يجب ان ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما اظهر من منافع ومضار .

لا ارى اعجب من حالنا ! هل نعيش للماضي او للمستقبل ؟ هل نريد ان نتقدم او نريد ان نتأخر ؟ نرى العالم في تقلب مستمر وشؤونه في تغير دائم ونحن ننظر الى ما يقع فيه من تبدل الاحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندري ماذا نصنع ثم ننهزم الى الماضي نلتمس فيه مخلصاً ونطلب منه عوناً فنرتد دائماً خائبين .

رأينا في هذا القرن حادثة عجيبة اظنها وحيدة في التاريخ . رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وابطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها الا ما كان متعلقاً بجامعة شعبها . ثم همت فبنت بناء جديداً مكان البناء القديم فلم يمض عليها نصف قرن الا وقد شيدت هيكلاً جميلاً على آخر طرز افاده التمدن فهبت من نومها ونشطت من عقالها وشعرت بان الحياة تدب في بدنها وتجري في عروقها دماً حاراً قوياً فتياً : تلك هي الامة اليابانية صارت تعد اليوم في صف الامم المتمدنة بعد أن قهرت في بضعة ايام دولة الصين الجسيمة التي لم يقتلها الا اعجابها بماضيها . أليس في ذلك عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء، لها اساس في شريعتنا لكان

في ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا . اما وقد برهنا على ان كل ما عرضناه من اوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع احكام الشريعة ومقاصدها فلم يبق لنا عذر في التمسك بها سوى انها قد تقدست بمرور الزمان الطويل واننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شؤوننا .

اذا توهم بعض القراء ان ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة هو من الاحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها . فنقول ان هذا الاعتراض مردود بان الاحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الاخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى انظار المكلفين ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم وعلى هذا جري العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين اصحابه واتباعه .

ولما اتسعت خطة الاسلام وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت احكاماً ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من اصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ففصلوا ما اجمله القرآن والسنة من الاحكام وفرعوا منها ما يناسب الاحوال والامصار والاعصار . فهم لم يضعوا بذلك شرعاً ولم يضيفوا على الدين شيئاً وانما كان اجتهادهم قاصراً على النظر في الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة في الكتاب والسنة .

الا ترى ان القرآن لم يبين اهم الفروض مثل احكام الصلاة

ومواقيتها وركوعها وسجودها ولا مقادير الزكاة واوقاتها ولا مناسك الحج . وان السنة هي التي رسمت جميع تلك الاحكام بجملة ثم جاء المجتهدون ففصلوا احكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى اصل واحد .

فالشريعة الاسلامية انما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الاحكام لما حق لها ان تكون شرعاً عاماً يمكن ان يجد فيه كل زمان وكل امة ما يوافق مصالحها .

فهذه القواعد الكلية التي تحدد اعمالنا بحدود يجب الانتهاء اليها على حسب ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة هي التي لا تقبل التغيير والتبديل . اما الاحكام المبنية على ما يجري من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الاحوال والازمان وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي ان لا يخل هذا التغيير باصل من اصولها العامة . فكشف الرأس مثلاً قبيح في البلاد الشرقية لانه كان معتبراً في العادة مخلا بالمروءة ولهذا السبب اعتبر عند اهل الشرق قادحاً في العدالة . ولكنه غير قبيح في البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحاً . فالحكم الشرعي يجب ان يختلف باختلاف ذلك . وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصاً في اشخاص الشهود وانما الغرض منه اثبات هذه التصرفات بالطريقة التي وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها مألوفاً . فاذا تغيرت الاحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس على

التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعي وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة . واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم اقتضاء الحال لكشفه في زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ولا تقضي ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها فلا مانع من ان يتغير هذا الاستحسان الى ضده في زمان آخر . ذلك لان اختلاف الاحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس في الحقيقة اختلافاً في الشريعة وانما هو رد لأحكام الجزئيات الى اصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية .

تبين من ذلك ان لنا في مأكلنا وملبسنا ومشربنا وجميع شؤون حياتنا العمومية والخصوصية الحق في ان نتخير ما يليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ان لا نخرج عن تلك الحدود العامة التي اشرنا اليها .

اما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التي رسموها لانفسهم فهو القضاء على الامة الاسلامية بجمود القرائح وتقييد الارجل وغل الايدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها . بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال .

٢

« واما العزيمة »

فهي حث الارادة الى كل خير ارشدنا اليه العلم والعرفان والفرار

بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هي اشرف قوى الانسان واجلها واعظمها اثرًا في اعماله . فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والاميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لا يفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد عن العزيمة : ولهذا كان ضعف الارادة اكبر عيب في الانسان

نرى الكثير من اهل بلادنا يستحسنون فكرة او عملاً ولكنهم لا يجدون من انفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة او ذلك العمل ويكفي انهم يعلمون ان بعض الناس لا يتفق معهم في رأيهم لتلاشي ارادتهم وسقوطها . اما اذا علموا انه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فرارًا .

ان كان لنا امل في نجاح مانعده صالحًا لنا فانما يكون في الرجل الذي يجب ان يعرف ويبحث ليعرف ويعرف بالفعل ما تحتاج اليه بلاده وله عزيمة تدفعه الى العمل في جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التي تؤدى الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان او قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بان الخطوة الاولى في كل شيء هي من اصعب الامور لان الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدئ في اي امر خطير . ومن النادر ان يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فاحسن طريقة اراها لتنفيذ ما عرضناه في هذا الكتاب هي ان تؤسس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة

التي شرحناها وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا اظن ان الطبقات العليا من اهل بلادنا تخلو من واحد منهم) وان يكون عمل هذه الجمعية في امرين : الاول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة . والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية ولكن بدون ان تتقيد بمذهب من المذاهب بل تأخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا كما حصل مثل ذلك في وضع المجلة العثمانية وكما حصل عندنا مراراً في بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من اعضائها فان قوة الانتقاد تأتي متوزعة على جملة من الافراد فيسهل احتمالها ومقاومتها فلا يكون في شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل . لان في قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس في قوة الفرد الواحد : والاجتماع هو القوة الحقيقية التي بدونها لا ينجح شيء .

نرى حكومتنا تهتم بمسئلة صغيرة كمسئلة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث في المذاهب وتجمع ما تراه منها مناسباً من الاحكام . ونرى كثيراً من المصريين يدخلون في كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الازهار وغيرها ولا يضنون بوقتهم ولا بمالهم في تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته . ونرى

الجرائد تنشر بين طبقات الامة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها وقد آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الامة وارباب الاقلام ان يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية فاني لا ارى مسئلة تمس بحياة الامة اكثر منها ولا احق منها بان تكون موضوعاً لنظرهم ومجالاً لآرائهم وافكارهم ·

المرأة الجديدة

تأليف

قاسم أمين

المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٠

الى صديقي سعد زغلول

فيك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفتكر وارادةً تعمل

انت الذي مثلت اليَّ المودة في اكمل اشكالها .

فادركتُ ان الحياة ليست كلها شقاء وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها

من هذا امكنني ان احكم ان هذه المودة تمنح ساعات احلى اذا كانت بين رجل وزوجته

ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لاعلنهُ لابناء وطني رجالاً ونساءً

قاسم امين

١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المرأة الجديدة هي ثمرة من ثمرات التمدن الحديث بدأ ظهورها في الغرب على اثر الاكتشافات العلمية التي خلصت العقل الانساني من سلطة الاوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ورسمت له الطريق التي يجب ان يسلكها . ذلك حيث اخذ العلم يبحث في كل شيء وينتقد كل رأي ولا يسلم بمقال الا اذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة . وانتهى به السعي الى ان ابطل سلطة رجال الكنيسة والغى امتيازات الاشراف ووضع دستوراً للملوك والحكام واعتق الجنس الاسود

من الرق ثم اكمل عمله بان نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهن بأن يساوينهم في شيء منها

كان الاوروبيون يرون رأينا اليوم في النساء وان امرهن مقصور على النقص في الدين والعقل وانهن لسن الا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان وكانوا يقولون ان «ذات الشعر الطويل والفكر القصير» لم تخلق الا لخدمة الرجل وكان علماؤهم وفلاسفتهم وشعراؤهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التي تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا انهم هم انفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها وعرفوا ان طبيعتها العقلية والادبية قابلة للترقي كطبيعة الرجل وشعروا انها انسان مثلهم لها الحق في ان تتمتع بحريتها وتستخدم قواها

وملـكاتها وان من الخطأ حرمانها من الوسائل التي تمكنها من الانتفاع منها

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربيـة في طور جديد واخذت في تثقيف عقلها وتهذيب اخلاقها شيئاً فشيئاً ونالت حقوقها واحداً بعد الآخر واشتركت مع الرجال في شؤون الحياة البشرية وشاركتهم في طلب العلم في المدرسة وسماع الوعظ في الكنيسة وجالستهم في منتديات الادب وحضرت في الجمعيات العلمية وساحت في البلاد . ولم يمضِ على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك — الانثى — تلك الذات البهيمية التي كانت مغمورة بالزينة متسربلة بالازياء منغمسة في اللهو وظهر مكانها امرأة جديدة هي المرأة شقيقة الرجل وشريكة الزوج ومربية الاولاد ومهذبة النوع !

هذا التحويل هو كل ما نقصد

غاية ما نسعى اليه هو ان تصل المرأة المصرية الى هذا المقام الرفيع وان تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال

اللائق بصفتها فتمنح نصيبها من الرقى في العقل والادب ومن سعادة الحال في المعيشة وتحسن استعمال ما لها من النفوذ في البيت

اذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه ادنى شك من ان هذه الحركة الصغيرة تكون اكبر حادثة في تاريخ مصر

اذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح ان يصدنا عن المثابرة في السعي الى تحقيق آمالنا ان الجمهور من العامة لم يلتفت اليه او ان بعض الكتاب اظهروا السخط عليه ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا وساخر يقضي عمره في السفاسف ومفتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟

نحن لا نكتب طمعاً في ان ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين اذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلي معناه لا يفهمونه الا اذا جاء محرفاً عن وضعه منصرفاً عن قصده برأي شيخ هو اجهل الناس بدينه ولا يحبون الوطن الا اذا تمثل لاعينهم في صور قبيحة

واخلاق رثة وعادات سخيفة وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع امانينا في المستقبل فهي التي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسئلة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث

لم نر هذه الدفعة حاجة الى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فان ما اوردناه في كتاب تحرير المرأة من النصوص القرآنية صريح في اباحة كشف الوجه واليدين ومعاملة النساء للرجال . وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . اما ان فريقاً آخر من الفقهاء استحسن التشديد في الحجاب فهذا رأي لا يلزمنا الدين باتباعه

واذا كان في هذه المسئلة قولان فمن الصواب ان يرجح القول الموافق للحرية الانسانية وللمصلحة العامة

وقد كتب صاحب مجلة المنار كلمة في الحجاب نوردها هنا تأييداً لرأينا . قال :

« واما الامر الثالث وهو حكم الشرع في هذه »
« المكالمة فالمعروف ان الشرع انما حرم الخلوة بالمرأة »
« الاجنبية . واخبار الصدر الاول مستفيضة بمكالمة »
« النساء للرجال وحديثهن معهم في الملأ دون الخلوة . »
« وكفاك ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم — وهن »
« اللاتي امرن بالمبالغة في الحجاب — كن يحدثن »
« الرجال حتى ان السيدة عائشة كانت قائدة عسكر »
« ومدبرة له في وقعة الجمل المعروفة وما اخال ان مكابراً »
« يقول انها لم تكن تكلم احداً منهم الا ذا محرم »

هذا هو رأي رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان اهل الازهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلاً عن اشتغالهم بالالفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا في شيء مما قلناه

ومن العجيب ان الجرائد واصحاب الافكار يرمون كل يوم علماء الدين الاسلامي بانهم السبب في انحطاط وتأخر الامم الاسلامية عن سواها في المدنية ويصفونهم

بالتساهل في فهم الدين وعدم مراعاة احكامه ثم اذا تحركت غيرة لعرض رأي يظن ان فيه خيراً للامة تحولت انظارهم الى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيه . وغاب عنهم ان الذين يحاربون الاصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم في تهذيب عقل و استكمال ادب او تقويم عمل ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ الا رغم انفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بابداء رأي في شأن من شؤون الامة فضلا عن مسئلة من اهم مسائل الاجتماع البشري

والمطلع على الشريعة الاسلامية يعلم ان تحرير المرأة هو من انفس الاصول التي يحق لها ان تفتخر به على سواها لانها منحت المرأة من اثني عشر قرن مضت الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية الا في هذا القرن وبعض القرن الذي سبق . حتى انها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهي الآن مشتغلة بالمطالبة بها

فاذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفائة ذاتية في

تدبير ثروتها والتصرف فيها وحثت على تعليمها وتهذيبها ولم تحجر عليها الاحتراف باي صنعة والاشتغال باي عمل وبالغت في المساواة بينها وبين الرجل الى حد ان اباحت لها ان تكون وصية على الرجل وان تتولى وظيفة الافتاء والقضاء : اي وظيفة الحكم بين الناس بالعدل . وقد ولى عمر رضي الله عنه على اسواق المدينة نساء مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم مع ان القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة الا في العام الماضي . اذا كانت شريعتنا تحابي عن المرأة الى هذا الحد وتمنحها هذه لدرجة من الحرية فهل يجدر بنا في هذا العصر ان نتغافل عن مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التي تأهل المرأة الى استعمال هذه الحقوق النفيسة ونضيع وقتنا في مناقشات نظرية لا تانتج الا تعويقنا عن التقدم في طريق اصلاح احوالنا .

لا اظن ان ذلك يليق بنا وأرجو ان كثيراً من القراء يرون مثل رأينا

المرأة في حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم الا بعد معرفة حالها في الماضي . تلك هي قاعدة البحث في المسائل الاجتماعية فاننا لا يمكننا ان نقف على حقيقة حالنا في أي شأن من شؤوننا الا بعد استقراء الحوادث الماضية والالمام بالادوار التي تقلبت فيها وبعبارة أخرى يلزم ان نعرف من اي نقطة ابتدأنا حتى نعلم الى اي نقطة نصل

ذكر شيخ المؤرخين هيرودوت ان علاقات الرجل مع المرأة كانت متروكة الى الصدفة ولا تفترق عما يشاهد بين الانعام وكان الشأن اذا ولدت المرأة ولداً ان يجتمع القوم متى وصل الولد الى سن البلوغ وينسبوه الى اشبه الناس بهِ . وهذه العادة كانت معروفة ايضاً عند القبائل الجرمانية وعند العرب في الجاهلية وقد جاءت روايات

السواح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ فان جميع السواح الذين طافوا بلاد تابتي وجزائر مركيز وغيرها من اقاليم استراليا وزيلاندة الجديدة وبعض بلاد الهند وافريقيا ذكروا ان الزواج غير معروف في تلك البلاد

ولا خلاف في ان المرأة التي هذه حالها تعيش مستقلة تعول نفسها بنفسها مساوية للرجل في جميع الاعمال بل لها من المزية عليه ان نسب الاولاد يتعلق في الغالب بها وحدها فالمرأة في هذا الدور الاول هي ذات الشأن في الهيئة الاجتماعية وربما كانت تشترك في الدفاع عن قبيلتها مع الرجل ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات في التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة الى الآن في بعض البلاد تقضي بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل ان ملك سيام له عدد من النساء عهد اليهن حراسته وكان لملك الداهومية بهانزن الذي استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندي من الرجال وخمسمائة من النساء

ولما ودع الانسان بداوته واتخذ له وطناً قاراً واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ومن اهم ما ساعد على تشكيل العائلة انه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين اسلافها كما كان جارياً عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين وكما هو جارٍ الى الآن عند الامم المتوحشة وله بقية في بلاد الصين وكانت العائلة تقدم القربان الى آلهتها فكان هذا باعثاً للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية

وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً لزوجته وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء وهذا امرٌ يعلمهُ كلُّ مطلعٍ على القانون الروماني وذكرهُ المؤرخون ورواه السواح المعاصرون لنا . يشتري الرجل زوجته من ابيها فتنتقل اليه جميع حقوق الاب عليها ويجوز له ان يتصرف فيها بالبيع

لشخص آخر فاذا مات انتقلت مع تركته الى ورثته من اولادها الذكور او غيرهم

ومما يتبع هذه الحال ان المرأة لا تملك شيئاً لنفسها ولا ترث وان يتزوج الرجل بعدة نساء لان الوحدة في الزواج تفرض المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات . ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعاً بتأثير الحكومة فردت اليها حق الملك كله او بعضه وحق الارث تماماً او ناقصاً على حسب الشرائع ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ في اي بلد من البلاد الى حد انها سوّت بين الرجل والمرأة في الحقوق فالمرأة في الهند كانت مجرّدة عن شخصيتها الشرعية وعند اليونان كانت النساء مكلفات بان يمشين في الحجاب التام ولا يخرجن من بيوتهن الاّ عند الضرورة وعند الرومان كانت المرأة في حكم القاصر وفي مبدإ تاريخ اوروبا عند ما كانت خاضعة الى سلطة الكنيسة والقانون الروماني كانت في اسوأ حال حتى ان بعض رجال الدين انكروا ان لها روحاً

خالدة وعرضت هذه المسئلة على المجمع الذي انعقـد في ماكون في سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة ان المرأة انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل وكان من الضروري ان تعيش تحت قيامة رجل وهو ابوها قبل زواجها ثم زوجها بعد الزواج واحد ابنائها اذا مات الزوج او احد اقاربها من الذكور او اقارب زوجها ان لم يكن لها اولاد ولا يجوز لها في اي حال ان تتصرف بنفسها وكانت غير اهل للشهادة في العقود ولا للوصاية على اولادها القصر ولا لان تكون حكماً او اهل خبرة وشوهد في بعض ولايات سويسره ان شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل واحد.ولا تزال آثار هذه الاحكام باقية الى الآن في كثير من ممالك اوروبا ذلك لان مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها ان تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها

هذا الضرب من الحكومة الاستبدادية هو اول

حكومة سياسية ظهرت في العالم وقد اضمحل ثم زال بعد ان اقام اجيالاً في البلاد الغربية وحل محله النظام الدستوري المؤسس على ان الحاكم ليس له حق على الاشخاص ولا على الاموال الا ما تفرضه القوانين

ولكنه لا يزال سائداً في الشرق عامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين الى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين

وليس هنا محل البحث عن الاسباب التي وقفت بهذه الجميات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذي حرمها الترقي في المدنية وحصر حركاتها في مدار واحد بدون ان تنتقل من مكانها وانما يهمنا هنا ان نثبت امراً يتعلق بموضوعنا وهو وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وافقدها وجدان الحرية وبالعكس في

البلاد التي تتمتع فيها النساء بحريتهنَّ الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً

وان لسائل ان يسأل اي الحالتين اثرت في الاخرى نقول انهما متفاعلتان وان لكل منهما تأثيراً في مقابلتها وبعبارة اخرى ان شكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية :

انظر الى البلاد الشرقية تجد ان المرأة في رق الرجل والرجل في رق الحاكم فهو ظالم في بيته مظلوم اذا خرج منه ثم انظر الى البلاد الاوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل وان كنَّ لم يصلنَ الى الآن الى مستوى ما اعد لهنَّ ثم انتقل الى بلاد امريكا تجد الرجال مستقلين في معيشتهم الخاصة استقلالاً تاماً وان سلطة الحكومة وتداخلها في شؤون الافراد يكاد يكون معدوماً ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هي في اوروبا بكثير حيث

تساوى المرأة والرجل من البلاد الاميركية في جميع الحقوق الشخصية وفي بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما ايضاً في الحقوق السياسية

ففي ولاية يومنج نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ واني انقل هنا رأي رئيس حكومتها المسيو شامبل الذي جاهر به في خطبة القاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملنَ »
« حقوقهنَّ السياسية فينتخبنَ نواب الامة وينبنَ »
« بانفسهنَّ عنها ويجلسنَ « في مراكز القضاء ويؤدينَ »
« ما دون ذلك من الوظائف العمومية ومن العدل ان »
« نعترف ان النساء قد قمنَ بهذه الواجبات الجديدة »
« على وجه من الرزانة وحصافة الرأي وسلامة الذوق »
« لا ينقص عما يقوم به الرجال . وهذه التجربة بالنسبة »
« لقصر مدتها لا تصلح ان تكون دليلاً مقنعاً لاثبات »
« استعداد المرأة في القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل »

« على حسن الظن بفطرة المرأة . وما دام الحال على »
« هذا المنوال فلهنَّ الحق في الاستمرار

وبعد تجربة اخرى مدة اربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء في »
« استعمال حقوقهنَّ السياسية وقد اعلنت رأيي في »
« جلسة سابقة وصرحت بالفوائد التي اظهرتها التجربة »
« والآن اقول ان ما شاهدته في مدة هذه الاربع »
« سنين اقنعني اقناعاً تاماً باننا اصبنا في تخويل النساء »
« حق الانتخاب وان مساواة المرأة للرجل في الحقوق »
« السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحاً لا يماري فيه احد »

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال طاير وقد انتخب من بين اعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة فخطب قائلاً :

« لقد مضى ثمان سنين والنساء يتمتعنَ في ارضنا »
« بالحقوق السياسية وكل يوم يمرّ يزيد الاهالي ثقة »

« بالنساء وفي رأيي ان هذه نتيجة حسنة لانها موافقة »
« لمصالح امتنا »

ثم بعد ذلك بخمس سنين في ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هو آت :

« ان مملكة يومنج هي المكان الوحيد الذي تمتع فيه »
« النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا »
« فرق بين الصنفين وهذا الإقدام من امتنا التي »
« ارشدها حب الحق والعدل الى إصلاح خطأ طال »
« عليه الزمن قد وجه انظار العالم الينا . ولئن زعم »
« اخصامنا اننا لا نزال في دور التجربة فكلنا نعلم ان »
« هذا الدور قد انقضى بالنسبة الينا . واني اصرح هنا »
« بأن اشتراك النساء في اعمال الحكومة مع الرجال »
« ترتب عليه ان القوانين عندنا اصبحت احسن مما »
« كانت عليه وان عدد الموظفين الاكفاء وصل الى »
« درجة لم تعهد لها من قبل وان حالتنا الاجتماعية ارتقت »
« كثيراً وهي الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الاخرى »

« وان جميع المصائب التي كنا نهدد بحلولها مثل فقد »
« النسآء رقة الطبع واضطراب النظام في معيشتنا »
« المنزلية لم نرَ لها اثراً الاّ في مخيلات خصومنا »
« ان السواد الاعظم من نسائنا قدرنَ حقوقهنَّ »
« الجديدة حق قدرها واعتبرنَ القيام بها واجباً وطنياً »
« وبالجملة فاني اقول ان تجربة اثنتي عشرة سنة مع »
« النجاح الباهر قد مكّنت في عقولنا ونفوسنا ان »
« مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه »
« كل هذه المقدمات تنساق بنا الى طلب الكمال »
« في حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية يومنج نجماً »
« يهتدي به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالانسان »
« الى ذروة الحرية »

وليس عليّ ان اضيف على آراء هؤلاء الرجال العظام الاّ ان قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولاً بهِ الى الآن في يومنج وان ثلاث ولايات اميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخوّلت النساء الحقوق السياسية وهي ولاية اوته

وكولورادو وايداهو

اما في باقي ولايات اميركا فالمرأة لم تنل الى الآن حقوقها السياسية ولكن كل مطلع على حركة الرأي العام فيها لا يشك انها ستنال هذه الحقوق في زمن قريب جدًا واليك رأي رجلين من اكبر رجالها السياسيين

قال نميلون العضو في مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « اني اعتقد ان انتشار الفسق في مدننا الكبيرة لا يمكن ان يضيق نطاقه الا اذا منحت النساء حق الانتخاب »

ومن رأي جيلبير هاقيه وهو ايضاً من اعضاء مجلس الشيوخ « ان فساد الاخلاق السياسية لا يصلحه الا اشتراك النساء في الانتخابات لاننا نعلم ان الخمارة هي مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك الا لأن الخمارة هي المحل الوحيد الذي لا تدخل فيه المرأة »

لعل القارئ يستغرب كيف ان الرجال في امريكا يرون ان لا سبيل الى محاربة الفسق وفساد الاخلاق الا بمعونة النساء . هذا امر يحتاج الى البيان ولذلك انقل

هنا رأي القاضي الامريكاني جون لينجمان وقد نشر في سنة ١٨٨٢ في اهمّ جرائد اوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء في الوظائف »
« العمومية اذا اجتمعوا في مكان لا يخلو جيب واحد »
« منهم من مسدس فاذا قام نزاع خفيف بين بعض »
« الحاضرين لم يكن ينتهي عادةً الا بقتل او جرح »
« وكان المحلفون يحكمون في الغالب ببراءة الجانين فلما »
« اشترك النساء في الوظائف القضائية مع الرجال نتج »
« عن ذلك معاقبة المذنبين وكذلك كان المحلفون لا »
« يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور فتغير »
« الحال الآن — وقد ترتب على حضور النساء في »
« الجلسات اننا نرى الآن قاعاتها متحلية من النظام »
« والادب والوقار باكثر مما كان يعرف فيها من قبل

«. ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية »
« انهنّ اهملنَ ما يجب عليهنّ في منازلهنّ ولم يصل الى »
« علمي ان زوجاً اشتكى من زوجته بسبب اشتغالها »

« عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم ارَ شقاقاً بين »
« زوجين بسبب اختلاف ارآئهما السياسية ولم اسمع »
« به على اني اعرف عدة عائلات ينتمي فيها الزوج الى »
« حزب وزوجته الى حزب آخر »

على ان المرأة الامريكانية منحت في جميع الولايات المتحدة حقاً عظيماً من الحقوق العمومية فانها ان تحترف بحرفة المحاماة وتترافع امام جميع المحاكم ويوجد قضاة من النساء في ولاية كانساس ويومنج وكولومبيه وشيلي وزيلنده وغيرها وعين بعض افرادهنَّ في وظيفة نائب عمومي ويوجد عدد عظيم منهنَّ في نظارات الخارجية والداخلية والحربية

اما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية والنساء القسيسات والمهندسات ومديرات الجرائد والمستخدمات في الرصدخانات والبوستة والتلغراف فلا يكاد يحصى

وتشغل النساء اغلب الوظائف في ادارة المعارف فقد

بلغ عددهنّ خمسة وتسمين في المائة في المدارس الابتدائية

قال بول بورجيه الكاتب الفرنسلوي الشهير في كتاب حديث ألفه عقب زيارته امريكا في وصف حال نسائها ما يأتي

« اذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن
« مع الصبيان في مكان واحد والاستاذ الذي يلقي »
« الدرس رجلاً او امرأة بلا فرق واذا دخلت في معمل »
« علمي وجدت بناتاً محنيات الرؤوس على آلة الميكرسكوب »
« وبجانبهنّ شبان من طلبة العلم والكل مشتغل بفحص »
« مسئلة من علم التشريح ويزورك احد مكاتبي الجرائد »
« من غيران يسمي نفسه فتجد انه امرأة وتروم »
« استدعاء احد الاطباء المشهورين فتجد عدد الاطباء »
« من النساء مساوياً لعدد الاطباء من الرجال وان لم »
« يكن مساوياً في بعض الجهات فهو من الكثرة »
« بحيث لا يعد التطبب منهنّ من قبيل النادر »

ويكفي لبيان ارتقاء شأن المرأة الامريكانية ان نقول

انه تبين من الاحصائية التي عملت في سنة ١٨٨٠ ان النساء المحترفات بالعلوم والادبيات فقط بلغ عددهن خمسة وسبعين في المائة و٦٣ في المائة في التجارة و ٦٢ في المائة في الصناعة

فاذا انتقلنا من اميركا الى انكلترا وهي اقرب الامم اليها وجدنا ان اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريباً عما يشاهد في اميركا فقد نتج من احصائيتها الاخيرة ان مليوناً منهنَّ يشتغلنَ بالعلوم والادبيات وثلاثة مليون بالتجارة والصناعة

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب في المجالس البلدية وفي مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى في المستعمرات الانكليزية كالكاب وكندا واستراليا

اما مسئلة منحهنَّ الحقوق السياسية فهي لا تزال في دور التحضير واول طلب تقدم من النساء الانكليزيات الى مجلس النواب كان في سنة ١٨٦٦ وامضى عليه ستمائة

الف امرأة واول مشروع تقدم الى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان في سنة ٦٧ وكان من حسن حظه ان العلامة استوارت ميل هو الذي اخذ على نفسه المدافعة عنه امام المجلس فاكتسب في الحال ثمانين صوتاً من النواب اذكر من بينهم ديزرائيلي وغلادستون وفي سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانياً ونال ١٥٩ صوتاً وفي سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتاً وما زال يتقدم من حين الى حين ويكسب اصواتاً جديدة حتى توفرت له الاغلبية في سنة ٩٧ فاقرّ عليه مجلس النواب ولم يبقَ لنفاذه الاّ تصديق مجلس الاعيان

وفي فرانسا لم تصل حركة الافكار في شأن النساء الى هذا الحد فعدد المشتغلين من النساء بممارسة العلوم قليل وعدد الموظفين في المصالح الاميرية يكاد يكون محصوراً في مصلحة البوستة والتلغراف والتلفون والحرفة التي اتجهت اليها على الخصوص نساء فرانسا هي التجارة وقد خاب ظن فيكتور هيجو اكبر شعراء العصر في فرانسا الذي قال

« ان القرن الثامن عشر قرّر حقوق الرجال وسيقرر القرن التاسع عشر حقوق النساء » حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شيء كبير من الاصلاحات التي يطالب بها كثير من رجال فرانسا غير انه في هذه السنين العشر الاخيرة حصل تقدم محسوس في حركة الافكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب في المجالس التجارية وفي العام الماضي صدر القانون الذي يخوّل النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة

وحال النساء في الممالك الاوروباوية الاخرى لا يختلف الا قليلاً عن حال النساء في فرانسا

اما مملكة روسيا فمركزها الجغرافي قضى عليها بان تتأثر بالعادات الشرقية ولهذا فقد عاش نساؤها من اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات كنساء الشرق مسجونات في البيوت محرومات من التربية والتعليم وليس لهنّ من الحقوق الاّ ما تسمح به رحمة ازواجهنّ واوليائهنّ ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية الاّ

في سنة ١٧٢٥ حيث صدر امر عالٍ من بطرس الاكبر بالغاء الحجاب مرة واحدة ثم تولت بعده الامبراطورة كاترين فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ الى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ونشرت بينهن التربية العقلية والادبية

ولكن لما تولى الملك الكسندر الاول وكان يبغض الحرية وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثاني وكان ميالاً الى ترقية بلاده محباً لتقدمها فابطل استعباد الرجال (السرفاج) وانشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليم الابتدائي والثانوي كن يتعلمن فيها العلوم التي يتعلمها الذكور واول مدرسة انشئت على هذا النمط كانت في سنة ١٨٥٧ ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية ان تقدم النساء في المعارف له اثر كبير في حالة الامة السياسية وان حزب المعارضين للحكومة اخذ ينمو فاقفلت في سنة ١٨٦٢ ابواب المدارس العالية في وجوه الرجال والنساء ولكن

النساء لم يقبلن ان يرتكسن في الجهل بعد ان ذقن طعم الحرية والعلم فرحل الكثير منهن عن وطنه طلباً للمعارف واخذن يهاجرن الى فرنسا وسويسرا والمانيا لتحصيلها وطفقن في مهاجرهن يطعن في الحكومة وينشرن افكارهن في الكتب والجرائد ويشتركن في المؤامرات مع الرجال فكانت عاقبة اقفال المدارس اشتداد ثورة الافكار عما كانت عليه من قبل فتفطنت الحكومة الى هذا الامر وعرفت انها اخطأت فقررت في سنة ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس وقد زاد عددها من ذلك العهد الى الى الآن زيادة ظاهرة

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة في العالم نلخصه في كلمتين عاشت المرأة حرة في العصور الاولى حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشيء من الحق ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها

بان لا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوى المرأة والرجل في جميع الحقوق او على الاقل في معظمها . اربعة احوال يقابلها اربعة ادوار من تاريخ التمدن في العالم

فالمرأة المصرية هي اليوم في الدور الثالث من حياتها التاريخية بمعنى انها في نظر الشرع انسانٌ حرٌّ له حقوق وعليه واجبات ولكنها في نظر رئيس العائلة وفي معاملته لها ليست بحرَّة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هي من توابع الاستبداد السياسي الذي كان يخضعنا ونخضع له

ومع ان الاستبداد السياسي اصبح الآن في حالة النزع واشرف على القوات بحيث لا ترجى له عودة لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم

وما سبب ذلك الآ ان قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل ان نرتقي وسبقتنا الى ما لم نصل اليه بعد فهي تقرّر

ان كل فرد منا له ان يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية لافرق في ذلك بين الذكر والانثى ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخاً في طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء

وهذا يدل على ان سلطان الاخلاق القديمة لا يزال نافذاً في نفوسنا وله اثر ظاهر في اعمالنا فقوانيننا وضعت لامة حرة واخلاقنا لا تزال اخلاق امة مسترقة لهذا نرى رجالاً وردوا موارد العلم وتنقلوا من مدرسة الى مدرسة ومن درجة الى درجة حتى فازوا باعلى لقب علمي وفقهاء يعلمون الحقوق وشعراء من نوابغ العصر على ما يقول العارفون بفنهم وكتاباً نصبوا انفسهم لافادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية او الادبية او الفنية او ما شئت من هذه الالقاب وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال رأينا جميع من ذكرنا عندما سمعوا القول بان للمرأة حقاً مهضوماً وانها انسان محروم اخذوا يتساءلون هل يسوغ لها ان تخرج من سجنها او يرفع عنها غطاء من جهلها وبعد

طول التساؤل رجعوا الى ما هو مركوز في طباعهم فانكروا عليها هذا الحق وحكموا عليها بان تبقى في ظلمات الجهل وفي السجن المؤبد !!

فهل كان ذلك لان المسئلة عويصة تحتاج الى العناء في حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؟ كلاً وانما نحن نتصوّر الحرية ولا نشعر في الحقيقة بحبها ونعرف حق الغير ولا نجد من انفسنا احتراماً له . نحن في دور التمرين على العمل بالاخلاق الحرّة ونحتاج الى زمن طويل لترسخ في نفوسنا

اما الاوروباويون فانهم يقدرون الحرية حق قدرها ويحبونها ويحترمونها في غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها في انفسهم

وهذا شأن من له احساس حقيقي بمزية فضيلة من الفضائل فانما الفاضل من يجل الفضيلة اينما كان مظاهرها

قال كوندوروسيه الاصولي الشهير في هذا المعنى :

« اما ان لا يكون حق حقيقي لاحد من الناس واما ان يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر ومن جرّد غيره

من حقه مهما كان دينه او لونه او صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه . »

لهذا يشتغل محبو الترقي في اوروبا وامريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق ما وصلت اليه الآن وآلوا على انفسهم ان يجاهدوا في هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم في جميع الحقوق الانسانية

ولا انكر ان عدداً غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل في صحة اصل المساواة التامة بين الصنفين

فهناك مذهبان يتزاحمان احدهما يكتفي بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق والثاني يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين

هكذا انقسم العالم الانساني في كل امر الى فريقين فريق المحافظين وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان في طرق الخير وسبل السعادة

ومن تتبع سلسلة التاريخ في جميع الازمان يعلم علم اليقين ان المرأة في كل زمان وفي كل مكان قائمة

بوظيفتها الطبيعية ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير في طريق الكمال التدريجي منتقلة من منزلة الى ارقى منها ومن مرتبة الى ارفع منها

فالقول بلزوم بقائها على حالٍ واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التي قضت بتغير حالها في الماضي وتهيئها الآن للانتقال من طورها الحالي الى طور آخر . وبالجملة فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشأه ان الغربيين فهموا طبيعة الانسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا انفسهم من الحقوق في جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها احد منهم في حق التمتع بحريتها في الاعمال البدنية والعقلية الا ما حرمته الآداب وسووا بينها وبين الرجل في كل ذلك وانما اختلفوا في مسئلة مساواتها بالرجل في الحياة العامة فيرى بعضهم ان اشتغالها بالاعمال العامة يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه

الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرروا المساواة بينها وبين الرجل ايضاً فيما يتعلق بالحياة العامة

اما نحن فاننا لا ننظر الى المرأة نظرنا الى الرجل ولم تستعد عقولنا الى ادراك هذه الحقيقة الظاهرة وهي ان المرأة انسان مثل الرجل جردناها عن استعمال جميع حقوق الانسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة. اما اشتغال المرأة بالاعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبنا في هذا الكتاب ولهذا لا نرى فائدة في الكلام فيه واما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذي نقصد البحث فيه وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل الاولى حرية المرأة — الثانية الواجب على المرأة لنفسها — الثالثة الواجب على المرأة لعائلتها — وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلي ذلك مبحث في التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوي على حالة الافكار الآن في مصر بالنسبة للنساء.

حرية المرأة

لم يخطأ قدماء الفلاسفة في مسئلة خطأهم في معنى الحرية الانسانية وذلك انهم كانوا يعتقدون ان الله خلق الناس على قسمين قسم ميزه بالحرية والقسم الآخر قضى عليه بالرق

وكانت معيشة الاحرار بعيدة عن الاستقلال الذاتي ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة

والتاريخ يحدثنا بان الحكومة في تلك الاعصر الخالية كانت تتداخل في كل ما يتعلق بالحياة الخاصة وكان لها الشأن الاول في نظام العائلة والتربية والديانة والاخلاق والعواطف حتى انها كانت تحدد في المعاملات التجارية اثمان البضائع . وقد وصلت بها الاثرة بالتداخل في شؤون الحياة الخاصة الى حد ان قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهن الا في

احوال مبينة . فكانت العيشة الاجتماعية هي اشبه شيء بالعيشة العسكرية يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين الا ان يطيعوا اوامره

ولما تقدم العالم في المدنية تخلص الفرد شيئاً فشيئاً من سلطة الهيئة الاجتماعية ووسع في دائرة حريته وانعكس الامر فما كان في السابق اصلا عاماً اصبح الآن من المستثنيات . ومن ثم صارت غاية التمدن ان ينال الفرد اقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية .

ذلك لان الانسان ترقى في فكره فهو يرى ان تسليم نفسه الى تصرف الحاكم امر لا تسلم به منزلته من الانسانية ولا يتفق مع راحته وسعادته . ولهذا فهو لا يقبل ان يتنازل لاحد عن حريته ولا ان يأمن احداً عليها ولو كان اقرب الناس اليه ولا يسمح بان يترك منها الى الحكومة الا بقدر ما يلزم تركه لتتمكن من تأدية وظيفتها وهي المحافظة على الامن العام في الداخل والمدافعة عن سياج الامة في الخارج . وايضاً القيام بالاعمال التي تعود

منفعتها على الجميع

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد الى ما تقرر عليه من الاعمال والاموال اما اذا ارادت الحكومة او اي فرد من الناس ان يدخل في عمل من اعماله او شأن من شؤونه الخاصة فانه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد في نفسه ألم الظلم

ولذلك سببان

الاول ان رأي الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف اهواء الاغلب لان الامزجة مختلفة والغرائز متباينة والاذواق متفاوتة على حسب الاشخاص والاعمار والازمان والامكنة فوضع قاعدة واحدة لجميع الاعمال الخاصة بكل فرد لا يسهل على الطبائع البشرية قبوله .
والثاني ما دلت عليه التجارب من ان تداخل الحاكم في الشؤون الخاصة للافراد يضعف من قواهم ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل والاتكال على الغير وهو وان اشعر بعض النفوس

لذة الكسل والخلود الى الراحة لكنه يسود عليها بالخسة وشقاء المعيشة

فالحرية هي قاعدة ترقي النوع الانساني ومعراجه الى السعادة ولذلك عدتها الامم التي ادركت سر النجاح من انفس حقوق الانسان

ومن المعلوم ان المقصود من الحرية هنا هو استقلال الانسان في فكره وارادته وعمله متى كان واقفاً عند حدود الشرائع محافظاً على الآداب وعدم خضوعه بعد ذلك في شيء لارادة غيره اللهمَّ الاَّ في احوال مستثناة كالجنون والطفولية حتى بالنسبة للاطفال رأى علماء التربية الصحية ان الضغط على الاطفال مميت لعزيمتهم ورجحوا ان يترك الطفل يتصرف في نفسه بحريته وانما على والديه ارشاده ونصحه

فهذه الحرية على ما بها من سعة هي التي يجب ان تكون اساساً لتربية نسائنا

يتعجب بعض الناس من طلبي تخويل الحرية للنساء

ويتساءلون هل هن في قيد الرق ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا في الرأي

ليس مرادنا ان نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى في الاسواق ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذي يباح الاتجار به فقط بل الوجدان السليم يقضي بان كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله ملكاً تاماً فهو رقيق

لا اظن ان القارئ المنصف يختلف معي في الرأي ان قلت ان المرأة في نظر المسلمين على الجملة ليست انساناً تاماً وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ويجري في معاملته معها على هذا الاعتقاد والشواهد على ذلك كثيرة :

فليس من الادب في كثير من العائلات ان لا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الادب ان يجلس النساء مع الرجال ولا من الادب ان يأكلن معهم وقد رأيت مراراً بعيني ان الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد في الغالب في بعض الطبقات خصوصاً في بلاد الارياف لكن استعباد المرأة في الطبقات الاخرى وفي المدن موجود على اشكال اخرى :

فالرجل الذي يحجر على امرأته ان لا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته في ان لا تخرج لا يحترم حريتها فهي من هذه الجهة رقيقة بل سجينة والسجن اشدّ سلباً للحرية من الرق — ولا يقال ان عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلا فانه وان قل بالنسبة الى الماضي لكن كلنا نعلم ان من النادر جداً ان تكون المرأة متروكة لارادتها واختيارها في ذهابها وايابها على ان كلامنا الآن انما هو في مقام المرأة في نفس اغلب الرجال وما يجب عليها في اعتقادهم ان تعمل به وان تكون عليه فسواء قل احتباس المرأة او لم يقل فالمرأة المقصورة في بيتها التي لا تفارقه تعتبر عندهم خير امرأة

ولو اخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم وهم اهل

الرأي عندهم لرأوا من الواجب عليهم ان يسجنوا نساءهم وان لا يسمحوا لهنَّ بالخروج الا لزيارة الاقارب في العيدين ورأوا من الافضل ان لا تخرج من بيتها في جميع الاحوال وقد عدّوا من مفاخرهم ان لا تخرج المرأة من خدرها الاّ محمولة الى قبرها !

ولا شك ان تقرير الحق للرجل في سجن زوجته ينافي الحرية التي هي حقٌ طبيعي للانسان

والمرأة التي يسوقها والدها كالبهيمة الى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئاً من احواله معرفة تسمح لها بان تتبين حقيقة امره وتحصل لنفسها رأياً فيه لا تعتبر حرة في نفسها بل تعد في الحقيقة رقيقة . ومن المعلوم ان عموم الآباء في جميع طبقات الامة يزوجون بناتهنَّ على هذه الطريقة فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج اما هنَّ فلا رأي لهنَّ في هذا الامر الخطير الذي تتعلق به سعادتهنَّ وشقاوتهنَّ في المستقبل . ولا يقال ان حال الرجل في ذلك كحال المرأة اذ هو ايضاً لا يعلم من احوال

خطيبته شيئاً لان الرجل يمكنه ان يتخلص من عواقب جهله بان يطلقها في اي وقت شاء او يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع اما المرأة التي تبتلي برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها الى الخلاص منه سبيل. فتزويج المرأة برجل تجهله وحرمانها حق التخلص منه مع اطلاق الارادة للرجل في امساكها وتسريحها كيف يشاء هو استعباد حقيقي

والمرأة التي يجب ان لا تتعلم الاّ فروض العبادة كما يقول الفقهاء ومن اخذ عنهم او يجب ان لا تتعلم الاّ مقداراً محدوداً من مبادي بعض العلوم تحسب رقيقة لان قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النموّ الى ان تبلغ الكمال الذي أعدت له يعد استعباداً معنوياً

والمرأة التي تلزم بستر اطرافها والاعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشي ولا من الركوب بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم الا بمشقة تعد رقيقة لان تكليفها بالاندراج في قطعة من قماش انما يقصد منهُ ان

تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الانساني الطبيعي في نظر كل رجل ما عدا سيدها ومولاها

وبالجملة فالمرأة من وقت ولادتها الى يوم مماتها هي رقيقة لانها لا تعيش بنفسها ولنفسها وانما تعيش بالرجل وللرجل وهي في حاجة اليه في كل شأن من شؤونها فلا تخرج الا مخفورة به ولا تسافر الا تحت حمايته ولا تفكر الا بعقله ولا تنظر الا بعينه ولا تسمع الا باذنه ولا تريد الاّ بارادته ولا تعمل الاّ بواسطته ولا تتحرك بحركة الاّ ويكون مجراها منهُ فهي بذلك لا تعد انساناً مستقلاً بل هي شيء ملحق بالرجل

انظر الى صبي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة وقارن بينه وبين والدته تجد انها احط منه في العقل والمعلومات والتجارب وانه اكبر منها شأناً ليس فقط فيما يتعلق بالامور الخارجة عن المنزل بل في نفس بيتها . كيف لا وهو الذي يأمر وينهي فيه وهو الذي ينوب عنها في اشغالها وادارة بيتها وتدبير ثروتها

انظر الى امرأة تمشي في الطريق ومعها خادم تجد في نفسك لأول وهلة ان الخادم يشعر من نفسه انه هو صاحب الارادة والرأي والقوة يمشي امامها وهي وراءه وكأن لسان حاله يقول اني أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها

لاحظ ان امرأة محجبة تمرّ على جماعة من اهل الخلاعة تجد انهم لا يتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالادب وفي بعض الاحيان يترامون عليها باجسامهم ويلمسونها بايديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الافعال القبيحة . لم تصبر المرأة على مثل هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لاتنبعث الى دفاع و لمَ لا يجرأ هؤلاء الرجال على اتيان ما يأتونه من الاقوال والاعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة اشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلا . وانما وقر في نفوس الرجال

عندنا ان البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ورأوا في عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ولا تحس باحترامها لنفسها وانها سهلة القياد لينة المغمز تتبعه لأول اشارة يبديها اوكلمة يرميها وانها تخشى الرجل ولا تجرأ على تأديبه فاستخفوا بها وتجاسروا على امتهانها وتعودوا على ان لا يحترموا امرأة مبرقعة الا اذا وُجد معها رجل ولوكان خصياً !

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؟ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس انسان ؟

سيقول قوم كيف لمدع ان يدّعي ان المرأة مستعبدة عندنا مع انّا نراها في مكانة من السلطان على قلب الرجل منّا بحيث تسخره لارادتها وهواها وتصرفه في اعماله لقضاء رغائبها وان الرجل ليتجشم الاسفار ويتردد بين المدينة والاخرى ليتنقي لزوجته لباساً او يختار لها نوعاً من انواع الحلي يرضى به هواها ويقضي به رغبتها ويستجلب رضاها ثم هي سيدة بيته لا يرفع فيه الا ما

رفعت ولا يضع فيه الا ما وضعت فهل مع هذا كله يقال ان المرأة مسترقة للرجل ؟ نعم لا ننكر شيئاً من هذا كله ولكنا ننكر ان يكون ذلك عاماً عند جميع الناس كما ننكر انه ناشيء عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وما كسبته من حق الصحبة الناشيء عن عقد الزواج . وانما يرفع المرأة احياناً الى تلك المنزلة افراط في الشهوة من الرجل يحدثه براعة في الجمال او تفنن في ضروب الاحتيال . فهي سيدته ما تعلقت بها شهوته فاذا خمدت نيران الشهوة وعاد ما بينهما الى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها الى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق

سيقال ايضاً ان حرية المرأة تستلزم في الواقع ان يعاملها الرجل بالاحترام وان لا يضغط على ارادتها وفكرها وان يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم . فالجواب ان الزام النساء بالاحتجاب هو اقسى

وافظع اشكال الاستعباد . ذلك لأن الرجال في أعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء أما بالشراء كما بيناه واما بالاختطاف

وفي كلتا الحالتين كانوا يعتبرون انفسهم مالكين نساءهم ملكاً تاماً وتبع ذلك لن الرجل جرد امرأته عن الصفات الانسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهي ان تمتعهُ بجسمها فاقرها في مسكنهِ وألزمها بان تلازمه ولا تخرج منه حتى لا يكون لاحد غيره حظ في ان يتمتع بها ولو بالنظر او الحديث . شأن المالك الحريص على ملكه الذي يريد ان يستأثر بجميع مزايا المتاع الذي يملكه

ولما كان من المحال ان لا تعرض ضرورة تقضي على المرأة بالخروج من منزلها في بعض الاحيان اراد ان يتبعها بالحجاب حيث سارت فالزمها بستر وجهها اذا خرجت

هذا الحجاب الذي قرّره الرجل في الاصل الى زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والامهات والاخوات

والى عموم النساء لأن كل امرأة هي زوجة او كانت زوجة او مستعدة لأن تكون زوجة

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم وأثر من آثار تلك الاخلاق المتوحشة التي عاشت بها الانسانية اجيالاً قبل ان تهتدي الى ادراك ان الذات البشرية لا يجوز ان تكون محلاً لالملك لمجرد كونها انثى كما اهتدت الى ان تفهم ان سواد البشرة ليس سبباً لأن يكون الرجل الاسود عبداً للابيض

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذي اوجده اي بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل فقد جرت سنة الله في خلقه بان الانتقال من طورٍ الى طور آخر لا يكون دفعة واحدة وانما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعاً لها . فكثيراً ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها منتقلون الى غيرها متحولون الى اردأ او احسن منها وهم لا يشعرون . حتى اذا انتهت

الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذي كانوا من قبل ينكرون

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان لكنه ناقص غير تام . كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التي كانت ملكاً له بالامس مساوية له اليوم فحسن لديه ان يضعها في مرتبة اقل منه في الخلقة . وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم ان تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بان تقصر في بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها او تخدعهم بحيلها وانها ليست اهلاً للرقي العقلي والادبي فيلزم ان تعيش جاهلة

وذلك هو السر في ضرب الحجاب وعلة بقاءه الى الآن فاول عمل يعد خطوة في سبيل حرية المرأة هو

تمزيق الحجاب ومحو آثاره

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا ان نبحث في طبيعة المرأة لنعلم ان كانت كما يقال احط من طبيعة الرجل ام لا

اذا سألنا الرأي العام فالجواب سهل معلوم . ولكن الرأي العام لا يصح ان يكون له صوت في مسئلة علمية كهذه . لان مبنى الرأي العام القضايا المشهورة التي صاغتها العادة وقرّرتها الالفة بدون بحث ولا تنقيب . فهي مرجع العامة في احكامها يردون اليها كل حادث طبيعي او اجتماعي لا يعرفون اسبابه والرأي العام يعتبر ان تغيير كل عادة الفها مخالف للطبيعة لانه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن ان ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى الى الابد

ولا ريب ان المرأة اليوم احط من الرجل في الجملة ولكن علينا ان ننظر هل هذه الحال طبيعية لها او

ناشئة عن طرق تربيتها . تلك هي المسألة التي يلزمنا لحلها ان نرجع الى الاصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها

رأى العلماء انه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الانساني بآثارها التي صدرت منها الى الآن . وانما يصح ذلك بعد ان تملك من حريتها ما يملك الرجل وبعد ان تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوي المدة التي قضاها الرجال في تربية ملكاتهم العقلية والادبية غير انهم حكموا بان المرأة ليست مثل الرجل في الخلقة وانه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ولكن ليس في هذه الاختلافات ما يدل على ان احد الصنفين ارقى من الآخر او احط منه

ذلك ما يستنتج من كلام العلامة جاك لوربيت في كتابه المسمى المرأة امام العلم

وقال الاستاذ فرشلو : « اني ألقيت دروساً كثيرة في العلوم الحسابية وعلوم الاخلاق والفلسفة لطلبة العلم

وكان بينهم كثير من النساء والذي شاهدته بنفسي هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين وكانت دائماً نسبة الدرجات بينهما واحدة . »

وقال العلامة مانتجازا المدرس لعلم الانسان والعضو في مجلس الشيوخ الطلياني في كتاب جديد سماه فسلوجيا المرأة « جميع المناقشات التي تدور على خفة مخ المرأة في الوزن وصغر جمجمتها وضعف التلافيف المخية تلك المناقشات عبث اذا أريد ان يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما أكفر الرجل الجاذ كبره ان يزور حتى في علم »
« التشريح فلم يكتف بان يغتصب المحل الاول في العالم »
« بل اراد ان يبرهن ان المرأة اقل منه في الانسانية »
« وانها في مرتبة بين القرد والانسان . ولهذا فيكون »
« له الحق في ان يجردها عن الحقوق التي منحها نفسه »
« كأنه نسي ان الذات التي يريد ان يحط بقدرها هي »
« امه . والحقيقة ان المرأة امام علم التشريح ليست اقل »

« من الرجل ولا ارق منه وانما تختلف عنه لان لهـا »
« وظايف تقوم بها غير وظايف الرجل

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف فقال ما ملخصه : ان السبب في اهمّ ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الادبية هو الاستبداد الذي استولى على المرأة زماناً طويلاً حيث تغلب الرّجل على المرأة في الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفي الطبقات الاخرى بعلو معارفه وتربيته . وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بان تتحمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها . ويظهر ان الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات في اعماله . ولكنها تمتاز عليه في قوة الاحساس وتحمل الآلام وهي تصبر على الامراض والعمليات الجراحيـة صبراً يعجز عنـه الرجل وربما كان السبب في ذلك انها اقل اثرة من الرجل او انها اعتادت على الاستسلام والخضوع

وتمتاز المرأة على الرجل ايضاً بانها اضعف شهوة

منه فالحب عند الرجل ميل شهواني الى استيفاء اللذة الجسدية والحب عند المرأة وداد قلبي غايته امتزاج الروحين واستدلّ على ذلك بان الرجال يستعملون جميع انواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهنّ والكثير منهنّ مع ذلك يدافع عن عرضه ويتغلب على شهواته وقال انه اذا عكس الامر وفرضنا انه أبيح للنساء ان يستعملنَ مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل ان يحافظ على عفته

وقال ان حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة اما الرجل فيسود عنده حب النفس لذلك تراه يفتكر اولاً في نفسه ثم في اولاده بخلاف المرأة فهي تفتكر اولاً في غيرها ثم في نفسها فهمّ الرجل ان يكون سعيداً وهمّ المرأة ان تجعل الغير سعيداً . وهذا الاحساس يشاهد في جميع اعمال الحياة صغيرها وكبيرها واعظم مثال لايثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها . فهي تحبه اكثر مما يحبه ابوه وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن

ان يقال انه كلما كان ولدها سيء البخت زاد حبها له . والاب على عكس ذلك

فالمرأة في رأى اعظم العلماء وادقهم بحثاً مساوية للرجل في القوى العقلية وتفوقه في الاحساسات والعواطف وانما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لان الرجال اشتغلوا اجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فانهن حرمن من كل تربية فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي . لا نريد بهذا التساوي ان كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ولكنا نريد ان مجموع قواها وملكاتها تكافئ مجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما لان مجرد الخلاف لا يوجب نقص احد المتخالفين عن الآخر

فعلى اي دليل علمي يستند الرجال لاستبداد النساء وبأي حق جاز لهم ان يحرموهن من حريتهن ؟ لنفرض

جدلاً ان عقل المرأة اقل من عقل الرجل فهل نقصان العقل في شخص يبيح ان يجرَّد من حريته ؟ اما يوجد بين افراد الرجال اختلاف في العقول اكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصري يختلف باختلاف طبقات الامة المصرية ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هنَّ اكبر عقلاً واكمل اخلاقاً من ازواجهنَّ او ابائهنَّ او ابنائهنَّ ؟

لا يصح ان يكون اختلاف العقول سبباً لتجريد الانسان عن حرّيته بل الذي يجرّ اليه الاختلاف انما هو ان يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع او تسود ارادة على ارادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها

وما قرّرته الشريعة الاسلامية من حقوق المرأة وقد اشرنا اليه في ما تقدم يقودنا الى ان هذه السلطة الادبية هي التي ترمي اليها الآية الشريفة التي ذكرت ان الرجال قوامون على النساء وقد نحت الشرائع الاوروبية

هذا النحو تخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ومع ذلك فكل انسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن

لنفرض جدلاً ايضاً ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفي ذلك لحرمانهن من حريتهن ؟

اذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة الى الرجل والمرأة وهل يوجد حقان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذي اختيار موكولاً الى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج في عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟

نرى ان مسئولية المرأة في هذه الدنيا وفي الآخرة لاتقل امام الشرع عن مسئولية الرجل ونرى ان القوانين لاتعافيها من العقوبات اذا ارتكبت جريمة ولا تقضي بتخفيف عقوبتها بل نرى ان الرأي العام جسم مسئوليتها

حتى جعلها اشد من مسئولية الرجل فاذا استهوى رجل عمره اربعين سنة بنتاً عمرها خمسة عشر سنة وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأي العام ان هذه البنت الصغيرة هي التي فقدت شرفها ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكراً أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن اعمالها ؛ فان كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان ايضاً بانها حرة مختارة ؛

لا اظن ان عقلاً يقبل ان تعتبر المرأة انساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ثم تعتبر انها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة المادية ؛

اعتقاد الرجل ان امرأته اذا منحت حريتها تسيء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها لانه لا يباح لانسان ان يتعدى على آخر بسلب حريته والسيطرة على ارادته بحجة انه يريد منعه من ارتكاب خطيئته ولو جاز لدفع

ضرر محتمل الوقوع بجريد الإنسان عن حريته لوجب وضع تسعين في المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعاً لهم من الفساد .

بل لو قبلت المرأة ان يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاماً صحيحاً بحيث يمتنع عليها بعد ذلك ان تحل عقدته لانه التزام باطل لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية

على ان ما قيل ويقال من ان حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا اصل له يبطله التجارب وينبذه العقل اذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدلّ على ان حرية النساء تزيد في ملكاتهن الادبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لانفسهن وتحمل الرجال على احترامهن

ولا نذهب في تأييد هذا الرأي مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم في الجرائد الهزلية تفكهة للقراء ونسب فيه الى احد العلماء انه شاهد

ان المرأة الالمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات واربعة اخماس المرة ! والهولندية اربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة اسداس والفرنساوية مرة واحدة !! وهكذا الى ان وصل الى التركية والمراد بها الشرقية فقال انها لا تخون زوجها الا عشر المرة الواحدة !!!

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاء الى الاعتقاد بان ما نشر في تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من « الابحاث العلمية الدقيقة المستندة على الارقام » ولم يمر بفكره ان الحصول على احصاء في مثل هذا الموضوع هو من الامور المستحيلة لان وقائع الزنا لا يمكن احصاؤها الا اذا وصلت الى المحاكم ومعلوم انه لا يصل الى المحاكم منها الا النادر

ولا نسند رأينا ايضاً الى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل كما يفعل أولئك الذين يدعون ان المرأة متى جلست مع الرجال في مكان واحد مدة خمس دقائق

وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات . فان كل قضية لا ترجع الى احد انواع البديهيات المعروفة عند اهل النظر لا تصح ان تكون مقدمة لدليل . أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وُجد في خزانة عقله الا ان الرجل والمرأة هما دائماً في طوع شهواتهما هكذا شأنهم يستملون من انفسهم الاخلاق التي جبلوا عليها ويعتقدون انها اخلاق الانسانية كلها فهم في نظر انفسهم يمثلون الرجل من حيث هو والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل في نظرهم المرأة من حيث هي . وما دروا ان الرجال يختلفون في اخلاقهم ومزاياهم الى ما لا نهاية له على حسب الزمان والمكان وطرق التربية وان المرأة تختلف اخلاقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال

هذا الاختلاف الذي يعرض في حياة النساء الادبية ينشأ غالباً من اختلاف العادات

اول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو ان

تكون عفيفة ولهم الحق في ان يطلبوا منها ان تكون متحلية بهذه الفضيلة ولكنهم بذلوا ما في وسعهم لمحو هذه الفضيلة وجعلها من المستحيلات . وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل الى الشهوات فان سجن المرأة والتضييق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الاعصاب ومتى ضعفت الاعصاب اختلّ التوازن في القوى الادبية . هذه حقيقة يلزم ان يعترف بها كل انسان فان من الحقائق الثابتة ان الجسم اذا كان قوياً وكان القلب يرسل الدم الى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الانسان بقوتها فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهي لا تضعف عن مقاومة الاهواء والنزعات الرديئة ومن المشاهد ان التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور في الجسم وانحلال في القوى يؤثران في الارادة وفي العزيمة فكما اذا حاول الجسم نهوضاً لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل الى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط اهوائها ومقاومة

كل ميل تقتضي مدافعته جهداً ومشقة

لا شك ان قوة البنية وسلامة الاعصاب هما من اهم اعوان الانسان على ضبط نفسه وان ضعف البنية واعتلال الاعصاب هما من اهم الاسباب التي تجعل الانسان آلة تلعب بها الشهوات والاهواء

فان كانت حاجة الى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فاني انقل ما قاله رجل اجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلوري

قال في كتابه المسمى جسم وروح الولد : « ان آلة العقل هي المخ فكل انحراف يعرض في الصحة البدنية يؤثر فيه فاذا استوفينا شروط صحة الجسم امكنا ان نحصل سلامة الارادة وقوة الحكم ونحسن في اخلاق المرء وآدابه »

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شيء نساء مريضات ولهذا فهن اشد تعرضاً لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتي يتمتعن بحريتهن

فاذا اقترن الحجاب بالبطالة ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها تبعها قتل كل فضيلة في نفس المرأة

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل اوقاتهن وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سبباً في تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها الى امور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا الا تقرير الحقيقة كما هي نحن نقول ان وجود الواجبات شيء والقيام بها شيء آخر وان نساءنا اللاتي لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لأزواجهن واولادهن وانهن تركن شؤون الحياة البيتية الى غيرهن بخلاف النساء الغربيات التي اتسعت دائرة اعمالهن حتى كادت تساوي دائرة اشغال الرجال فانهن يجدن مع ذلك الوقت الكافي لتأدية جميع واجباتهن المنزلية . وما سبب ذلك الا ان العمل يدعو

الى العمل والراحة تدعو الى الراحة

ثم ان الطريقة التي يربى بها الاطفال في البيوت لها مدخل عظيم في انحطاط الآداب ايضاً

يمكني ان اجاهر هنا بلا تردد ان صبياً من اولادنا ذكراً كان او انثى لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد الى ذهنه من الالفاظ والصور المحركة للشهوة وينمو في قلبه من الميل مع ما تدعو اليه غريزة التناسل ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب او شابة في سن الخامسة عشر او الثامنة عشر من ابناء البلاد الاوروبية

وليس لاختلاف الاقليم دخل في ذلك وان كان له أثر فهو أثر ضعيف وانما الاثر الحقيقي فهو لطريقة تربية الاطفال

لو كان الرجال الاذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال امامهم كل يوم لو كانوا يفتكرون في ما يعرض على اعينهم وآذانهم في الطرق والمجتمعات في كل آن لاتفقنا جميعاً في هذه المسئلة وغيرها من المسائل

الأخرى التي لا سبب لاختلاف الرأي فيها الا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام احد منا بان يفهم ما يقول الآخر

لو امكننا ان نفصل جميع المؤثرات المادية والادبية التي تتكون منها احساسات الطفل واميال لرأي القارئ بنفسه ان البنت التي تربى في عائلة مصرية لا يمكن ان تنمو فيها خلال الفضائل ويكفينا ان نذكر هنا امثالاً من هذه المؤثرات التي تقع في العائلات المتوسطة التي هي احسن الطبقات ادباً :

فمنها ان اقارب الاطفال لا يتحاشون غالباً عن تسمية كل شيء باسمه الحقيقي ويذكرون الوقائع التي تجري بين الزوج وزوجته امامهم بدون ان يخطر على بالهم ان يأمروهم بالخروج في هذا الوقت الى مكان آخر . وايضاً اول شيء يأتي على لسان الزائر اذا صادف بنتاً صغيرة في بيت هو ان يسألها اذا كانت تريد ان تتزوجه او تتزوج بابنه الصغير واذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن

اعجبها من بينهم

ومنها حضور الاطفال في حفلات الافراح ومشاهدتهم رقص الباغيات وسماعهم الاغاني التي تدور كلها على الحب الشهواني

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة الى ما كان يجب ان تغفل عنه وينبت فيها الميل للشهواني

ثم اذا عرض ان بنتاً عانقت صبياً في اثناء اللعب يوجه اللوم عليها من اهلها ويقال لها انها اتت امراً فاضحاً فاذا سألت البنت اي عيب في ما فعلت اجابها المسؤول بما يعن له وما تسمح له به تربيته وكلما تقدمت الصبية في السن زاد الحجر عليها وابعادها عن مخالطة الرجال وفي هذا من استلفات ذهنها الى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها الى البحث في هذا الامر الذي يشغلها ويشغل اهلها الى هذا الحد فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها فتتعلم منهن بعضه وتشتغل مخيلتها بفهم الباقي

فهذه المعيشة التي تمرّ على البنت واهم ما فيها عندها الرجل واحواله ونسبتها اليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه هي بلا ريب اعظم مؤثر في مزاجها لانها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الاول في حياتها

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا وشعورهم بان النساء لا همّ لهنّ ولا شاغل لعقولهنّ الاّ شأنهنّ مع الرجال لا ترى رجلاً بين المصريين يأمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل اجنبي عنها . وفي بعض البيوت لا يأمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته ان تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضراً معها ! وكذلك في كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته

وليس من رأيي ان اعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض الى هذا الحد . لان عوائدنا واخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بان لا يثق بعضهم ببعض وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخلق ولا من

حسن الادب ادنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش

ولكن ليسمح لي القارئ ان آتي على بقية فكري فاقول :

بقي الحجاب الى الآن مستمراً للاسباب التي بيناها اي لانه كان تابعاً لهيئتنا الاجتماعية الماضية من الجهة السياسية والعقلية والادبية : كنا محكومين بالاستبداد فظننا ان السلطة العائلية لا تؤسس الا على الاستبداد فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج واستعملنا في تربية اولادنا الامر والنهي والاخافة والضرب . وكنا جهالاً فتخيلنا ان المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها الا ان تكون موضعاً لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته وفاتنا انها هي ايضاً انسان مثلنا وان لها الحق في ان تسعى الى طلب سعادتها بالوسائل التي وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم فلما اسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه . فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت

اخلاقنا وفسدت تربية اولادنا واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا ان حياة الامم الاسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبقَ لها في التزاحم العام نصيب من النجاح واخذوا يتباهون بالمدنية الاسلامية القديمة كلما تحدث الاوروبيون بعلومهم وفنونهم ويفتخرون بالتمدن العربي في الاعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربي الحديث كما تسلي نفسها عجوز وصلت الى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها

لكننا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغيراً كلياً فاصبحنا احراراً ونحب الحرية وبدأ التعليم الصحيح في ان ينتشر بين افراد امتنا وتهيأت عقولنا الى ادراك منزلة الانسان في الوجود ومرتبة المرأة في البيت وشأنها في العالم فهل يليق بنا بعد هذا ان نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة او يكون من الاليق بنا ان نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التي انتقلنا

اليها ويكون من شأنها ان ترتقي بنا الى ما هو خير منها ؟

وبعبارة أخرى يوجد مذهبان احدهما ينصح الناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بابطاله فاي هذين المذهبين يجب ان نختاره وما هو رائدنا في الاختيار حتى لا نقع في عاقبة الخطإ ؟

اذا استخدمنا عقولنا واتخذنا الفكر السليم رائداً لنا فلا شك اننا نختار المذهب الذي يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ولا نخشى بعد ذلك ان يقع اختيارنا مخالفاً للحق والصواب لان المنافع الصحيحة التي تقوم على قواعد الفكر السليم هي من الحق الذي يدافع عنه الشرع ومن المستحيل ان حقاً من الحقوق التي يدافع عنها الشرع يكون منشأ لضرر يعود على الناس او ان فضيلة من الفضائل يكون شرها اكبر من نفعها

فاي المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ؟

اما الحجاب فضرره انه يحرم المرأة من حريتها الفطرية . ويمنعها من استكمال تربيتها . ويعوقها عن

كسب معاشها عند الضرورة . ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والادبية . ولا يتأتي معه وجود أمهات قادرات على تربية اولادهن . وبه تكون الامة كانسان أصيب بالشلل في احد شقيه

ومزاياه تنحصر في امر واحد هو انه يقلل الزنا حيث يحول بين الصنفين ويمنع الاختلاط بينهما في الظاهر وان لم ينزع الميل اليه من النفوس . فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل « ان من العصمة ان لا تجد » فالاجساد في صيانة واغلب القلوب في خيانة واما الحرية فمزاياها هي ازالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها وضررها الوحيد انها في مبدأها تؤدي الى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة الى ان تعرف مسؤليتها وتحمل تبعة اعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتي تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود

حائل ليس في الامكان ازالته بل لانه قبيح في نفسه

وليس من الممكن ان تصل المرأة الى هذه المنزلة الادبية ما دامت في الحجاب ولكن من السهل جداً ان تصل اليها بالحرية

تصل اليها كما وصلت اليها غيرها من النساء الغربيات فانا نرى انه كلما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام انفسها ولزوجها ولعائلتها

قال العلامة ماتجازا : «اعظم شيء يؤثر في اخلاق البنات الحرية التي تعطى اليهن من عهد طفوليتهن»

وقال « ان الفضائل الجليلة التي تشاهد عند النساء اللاتي يتمتعن بحريتهن لا يصح ان تنسب الى الاقليم . لاني وجدت هذه الفضائل في بيونس - آيرس التي تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها اديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية . ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الاثر في الاخلاق لفسدت اخلاق النساء في تلك البلاد . كانت البنات عندنا في القرن الماضي وفي مبدأ هذا القرن

لا تخرج من الاديرة الا عند الزواج وكنّ جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكنّ يتلقينَ دروس الحب من غير الزوج في اغلب الاحيان . ذلك لأن من القواعد العامة ان البنت التي لا تختار زوجها بل تُكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التي توصلها الى الخطيئة فلا شيء يقي البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد ان تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال . »

وقال في وصف نساء وطنه : « ان المرأة الطليانية اقل من غيرها عفة لانها تتزوج غالباً من غير ان تحب زوجها وكذلك الحال تقريباً في نساء فرانسا »

اما النساء الانكليزيات والاميركانيات والالمانيات فاثني على كمال عفتهنَّ ونسبها الى طرق تربيتهنَّ وتمتعهنَّ بالحرية والاستقلال في اعمال الحياة . فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة ولكن ما اعظم الفرق بينهما في النتائج التي تترتب عليهما حيث ان الوسيلة الأولى تضع المرأة في صف الادوات والامتعة وتجني على الانسانية .

والثانية تخدم الانسانية وتسوق المرأة في طريق التقدم العقلي والكمال الادبي

فقد رأيت مما ذكرناه ان ما اخترناه في تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنياً على امر نظري لا يستند الى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة

وصل احترام الرجل الغربي لحرية المرأة الى حد ان الأب يحجر على نفسه فتح الخطابات التي ترد لبنته وكذلك الزوج رأى الاجدر به ان لا يفتح الخطاب الذي يرد الى امرأته . وهذه المسئلة الاخيرة كانت موضوع بحث مهم بين اعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريباً وتقرّر فيها ان سلطة الزوج لا تبيح لهُ ان يطلع على اسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسساً مهيناً لحرية المرأة وشرفها

نعم ان اغلب الزوجات يطلعنَ ازواجهنَّ على ما يرد اليهنَّ من الخطابات كما ان اغلب الازواج يعرضوا المراسلات التي ترد اليهم الى زوجاتهم . ولكن يوجد

فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجباً بمقتضى حق يدعى

بلغ من أمر احترام الرجل الغربي لحرية المرأة ان بنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من اميركا الى أبعد مكان في الارض وحدهن او مع خادمة ويقضين الشهور والاعوام متنقلات في السياحة متنقلات من بلد الى أخرى ولم يخطر على بال احد من اقاربهن ان وحدتهن تعرضهن الى خطر ما

كان من حرية المرأة الغربية ان يكون لها اصحاب غير اصحاب الزوج ورأي غير رأي الزوج وان تنتمي لحزب غير الحزب الذي ينتمي اليه الزوج . والرجل في كل ذلك يرى ان زوجته لها الحق في ان تميل الى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها . وان تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها

ومع كل ذلك نرى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الامم في نمو مستمر !

ولم يحل بهم شيء من المصائب التي يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين اطالوا الكلام في شرح المضارّ التي تنتج عن اطلاق الحرية للنساء ، فكثيراً ما سمعنا منهم ان اختلاط الرجال بالنساء يؤدي الى اختلاط الانساب وانه متى اختلطت الانساب وقعت الامة في الهلاك

فهذه ممالك اوروبا جميعها نساءها ورجالها مختلطون في كل اطوار الحياة وفي كل آن . وها هم اخواننا وابناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههن ومعاملة الرجال . فاين هم من الاختلال والهلاك ؟

لنترك هذه النظريات الخيالية التي لا قيمة لها امام الوقائع

دلت التجربة على ان الحرية هي منبع الخير للانسان واصل ترقيه واساس كماله الادبي وان استقلال ارادة الانسان كانت اهم عامل ادبي في نهوض الرجال فلا يمكن

ان يكون لها الآن مثل ذلك الاثر في نفوس النساء

غاية الامر ان كل تغيير يعرض على الانظار في صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو في الحقيقة فكر سبق اوانه وقت عرضه. ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره الآن العدد القليل ممن يمتد نظرهم الى ما يكنه المستقبل من الحوادث

انظر الى حالة مصر: عاشت الامة المصرية اجيالاً في الاستعباد السياسي فكانت النتيجة انحطاط عام في جميع مظاهر حياتها. انحطاط في العقول وانحطاط في الاخلاق وانحطاط في الاعمال. وما زالت تهبط من درجة الى اسفل منها حتى انتهى بها الحال الى ان تكون جسماً ضعيفاً عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات اكثر من عيشة الحيوان. فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في اول الامر في حيرة لا تدري معها ما تصنع بحريتها الجديدة

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ولا يقدر

لها قيمة وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية بل ويتألمون منها وينسبون اليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم فكم من مرة سمعنا بأذننا ان سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية وبدأوا يشعرون بان اختلال عيشتهم لا يمكن ان يكون ناتجاً عنها . بل له اسباب أخرى . وتعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها . ولنا الامل في ان اولادنا الذين يشبون على الحرية التامة يجنون جميع ثمراتها النفيسة التي من اهمها تهيأة نفوسهم للعمل . عند ذلك يعرفون جيداً ان الحرية هي اساس كل عمران

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء

اول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ويظن الناس ان بلاء عظيماً قد حلّ بهم لان المرأة تكون في دور التمرين على الحرية ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً

فشيئاً وترتقي ملكاتها العقلية والادبية . وكلما ظهر عيب في اخلاقها يداوى بالتربية حتى تصير انساناً شاعراً بنفسه

ذلك لان النمو الادبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي . فكما ان الطفل يحبو قبل ان يمشي ويتعلم المشي بالتدريج فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته ثم متى تعلم المشي وحده لا يحسنه الاّ بعد تمرين يدوم مدة اشهر يقع في خلالها مرات كثيرة . كذلك الانسانية في سيرها الادبي لا تنتقل من حال الى حال احسن منها الاّ بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم في سيرها

تلك سنة الفطرة . فلا يجوز لنا ان نتخيل ان في امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة ان نرجع الى الوراء أو نوقف تقدمنا الى الامام

فان اردنا ان نصل الى الغاية التي وجهنا اليها آمالنا فما علينا الاّ ان نستسلم الى حكم السنة الالهية ونقبل

المتاعب والمشاق التي بدونها لا يمكن الوصول اليها
والآ كان مثانا كمثل، أب مجنون خاف على ولده
اذا مشى ان يسقط على الارض فمنعه المشي حتى كبر
فعاش مقعداً مشلول الرجلين

الواجب على المرأة لنفسها

اول ما يستوقف نظر الشرقي الذي يحل في مدينة من مدن اوروبا هو المركز المهم الذي تشغله المرأة فيها ويظهر له من اول وهلة ان التقسيم المصطلح عليه في بلادنا بين المعيشة الداخلية والمعيشة الخارجية هذا التقسيم الذي يحول بين اشتراك الصنفين في جميع اطوار الحياة ومظاهرها ليس من القواعد المعترف بصحتها في تلك البلاد

فاذا ترك اوروبا وجال في ارض اميريكا شخص بصرهُ مندهشاً من المنظر العجيب الذي يراه واستولى الاستغراب على عقله الى درجة الاضطراب . فيجد ان تقسيمه العزيز قد اضمحل حتى كاد يكون معدوماً ويرى النساء يشتغلنَ باشغال الرجال والرجال يعملنَ اعمال النساء بلا فرق . ويسمع اهل اميريكا يتهمون سكان اوروبا بانهم ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهنّ كما يرمي الاوروبيون

رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نساءهم

هذا المنظر يراه الشرقي ويستغربه في اول الامر ثم ينساه

ولا يفتكر فيه بعد ذلك . فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئاً من احوالهم . وان اتى ذكرها عفواً في بعض الجرائد او الكتب فلا يحرّك ذلك في نفسه ادنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفي منها

ذلك لانه وقر في نفســه ان عاداته هي احسن العادات وان كل ما خالفها ليس جديراً بالتفاته واهتمامه

لكن طالب الحقيقة الذي تعود على طريقة الانتقاد العلمي لا يحكم في الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل

فان رأى يوماً في احدى الجرائد ان الست غوردون ترافعت امام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل . ثم رأى يوماً آخر في مجلة ان الست

كاري رينار احدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت في الكنيسة في مدينة لوروا على ملاء عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى ان الست ستون تدرّس الاقتصاد السياسي في كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكوراً وأناثاً . ثم علم ان لتلك المحامية زميلات يشتغلنَ امام جميع المحاكم ولتلك القسيسة زميلات في كثير من الكنائس ولتلك الاستاذة زميلات في اغلب المدارس . وان تلك النسوة قائمات باعمالهنَّ على طريقة لا تزيد ولا تنقص في الاتقان عما يقوم به الرجال في اعمالهم فماذا يعتقد حينئذٍ ؟ يعتقد ان قول الشاعر:

« كتب الحرب والقتال علينا

وعلى الغانيات جر الذيول »

هو قول لا ينطبق على الحقيقة في شيء فلا يصح الاستناد عليه في الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذي لم يفعل سوى حكاية حال النساء التي وجدهنَّ عليها في عصرهِ . ولكن هل يمكن ان نعذر انفسنا في اعتقادنا

ان النساء لا يصلحن الا لجر الذيول مع ان نظرة واحدة في الاعمال النفيسة التي يأتي بها النساء في الغرب تكفي في العلم بان حياة المرأة تصح ان تكون مملوءة بشيء افضل من اللهو واللعب وجر الذيول ؟

هذه الصورة التي شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لانها ليست صورة انسان بل ولا حيوان . اذ ليس في الوجود حي الا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ولا يوجد بين انواع الحيوانات من افضلها الى ادناها فرد الا وهو خاضع لقانون التزاحم في الحياة

اذا اردنا ان نرتب اعمال الانسان بحسب اهميتها نجد انها تنقسم الى ثلاثة انواع . اولها الاعمال التي يحفظ المرء بها حياته . وثانيها الاعمال التي تفيد عائلته . وثالثها الاعمال التي تفيد الوجود الاجتماعي

ومن البديهي ان كل تربية صحيحة يجب ان تمكن الانسان من القيام بهذه الاعمال وان تراعى هذا

الترتيب الطبيعي . فالمعارف التي تضمن سلامة الحياة والقيام بالضرورات والحاجات اللازمة لها هي اهم من غيرها فيلزم ان تفضل على المعارف التي تختص بالواجبات العائلية لانه لا يمكن القيام باي واجب عائلي الا بعد قضاء الواجبات الأولى . كذلك المعارف التي ترشد الانسان الى معرفة واجباته العائلية هي مقدمة على المعارف التي تختص بالواجبات الاجتماعية لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت

اذا تقرر ذلك نقول ان التربية التي تشمل هذه الانواع الثلاث على الترتيب الذي وضعناه هي لازمة للرجال والنساء على حدٍ سواء

ولكن دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية فاني ما طلبت ولا اطلب المساواة بين المرأة والرجل في شيء منها . لا لأني اعتقد ان الحجر على المرأة ان تتناول الاشغال العمومية — حجراً عاماً مؤبداً — هو مبدأ لازم لانتظام الاجتماعي . بل لأني ارى اننا لا نزال الى

الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالاعمال العمومية وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ويلزمها ان تقضي اعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تهيأ الى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية

لهذا نترك الكلام على الاعمال والمعارف التي تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر في الكلام هنا على الاعمال والمعارف التي تختص بالنوعين الاولين

مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة لا يجوز ان يدعى احد انها يمكنها ان تستغني عن الاعمال التي تحافظ بها على قواها الحيوية وتمدها للقيام بحاجات وضروريات الحياة الإنسانية

كذلك مهما اختلفنا في تحديد وظيفة المرأة في العالم لا بد ان نعترف انها لا يمكنها ان تتخلى عن الاعمال والمعارف التي تتعلق بواجباتها العائلية ، اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الاعمال يكون نافعاً وكل

تربية تأهل المرأة الى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو ايضاً نافع

يظن الكثير منا ان المرأة في غنى عن ان تتعلم وتعمل ويزعمون ان رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معهُ ان يتحملنَ متاعب الكد وشقاء العمل

ولكن هذا الكلام هو في الحقيقة تدليس على النساء وان كان ظاهره الرأفة عليهن

والناظر في احوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يحمله على بيّنة من ذلك . يرى ان الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان الا في لحظات قليلة وانهما يتحاربان اناء الليل واطراف النهار . يريد الرجل ان ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تملكه ويستأثر وحده بالمنافع . وتجتهد المرأة على قدر امكانها في الدفاع عن نفسها ولا تجد الى ذلك سبيلاً

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين في كتاب

لكانت احسن ما يمكن ان يكتب للدفاع عن حقوق المرأة

لا اظن اني مبالغ ان قلت انه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة لاي سبب من الاسباب سواء كان لزواج وقع بينهما او لاشتراك في ملك آل اليهما او لتعهد ارتبطا به فاول ما يسبق اليه فكر الرجل هو ان يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها . والمسكينة غافلة عن الاخطار التي تحدق بها . وان اكتشفتها فلا يكون في الغالب الا بعد خرابها . وعلى اي حال متى وقعت في الشرك لم يبق لها من حيلة الا البكاء والعويل لانها ترى نفسها في حيرة وارتباك لا تدري معها ماذا تصنع للخلاص

وكل المصريين يعلمون ان النساء في الوجه القبلي عامة كنّ محرومات من حقوقهنّ في التركات التي يرثنَ فيها بمقتضى احكام الشريعة . وان هذه الحال بقيت مستمرّة الى ان دخل نظام المحاكم الاهلية في

الصعيد حتى ان بعض المديرين الذين اخذ رايهم في تشكيل المحاكم الجديدة في الوجه القبلي كانوا يعدون من موانع تشكيلها انها لو شكلت يكون من احكامها ان يعطى النساء حقوقهن في التركات وان في هذا تغييراً كبيراً للعادات المتبعة في تلك البلاد!

وليس في هضم حقوق النساء شئ من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لاحد

نحن نفهم ان رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبه على ورقة ان ليس على النساء الا ان يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك لان الورق يحمل كل شيء

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . اذ يكفي في ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة في قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشرعاً حكيماً ويحكم على القوانين والعادات والاخلاق

وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد على ان يحلل

النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع . فانهُ اذا اراد مثلاً ان يحصل لنفسه رأياً في ما هي حقوق النساءِ التي نحن بصددها يجب عليه اولاً ان يسوق نظره الى الوقائع التي تمرّ امامهُ . اعني ان يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه منفذة ومعمولاً بها في قرية ثم في مدينة ثم في اقليم . وتمثل امامه النساء في جميع اعمارهنَّ واحوالهنَّ وطبقاتهنَّ . فيراهنَّ بنات ومتزوّجات ومطلقات وارامل . ويراهنَّ في المدرسة وفي البيت وفي الغيط وفي الدكان وفي الاماكن الصناعية . ويقف على سلوكهنَّ مع ازواجهنَّ واولادهنَّ واقاربهنَّ والاجانب ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادنا وكيف انهنَّ يستعملنَ حقوقهنَّ والنتائج التي ترتبت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة في الازمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها

ذلك عمل ليس بالسهل . لانه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له ان يحكم في المسئلة حكماً قاطعاً . لانه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها الا تقريبية . لذلك تراهُ دائماً على طريق البحث . لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضمه قاعدة لعمل مؤقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل

والامر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية . فهو يعتقد ان قضيته تشبه قضية حسابية فهي لا تخطأ ابداً . مع انها مؤلفة من معانٍ عامة مبهمة لا يستقرّ الذهن فيها على شيء محدود — مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة الى داخلية وخارجية وهكذا — هذه المعاني تملأ عقله . ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهي في الحقيقة الفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان

فهو لا ينظر الى الاشخاص الحقيقيين . ولا يرى نفسه محتاجاً الى ان ينظر اليهم ولا ان يبحث في احوالهم

ولا يخطر ببـاله ان للمادة الانسانيـة صورة غير الشكل الخيـالي الذي ملك عقله . لذلك لا يهتم بان يرى تلك المادة في صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا ان يبحث ان كانت غنية أو فقيرة . عائشة وحدها أو في عائلة . ساكنة في المدن أو القرى أو البادية

هذه الصور المديدة المختلفة لا تنفذ الى مداركه ولا تقرّ فيها لان جميع نوافذها قد سدت بجسم النظرية التي احتلت عقله من اوله الى آخره حتى لم يبقَ فيه مكان لشيء آخر

فهو ان كتب او تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان . وانما يكتب ويتكلم عن المرأة التي في ذهنه

وهي امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين . جميلة المنظر رقيقة الطبع . شهوية المزاج . تكفي اشارة منها لكي تنال ما تشتهيه نفسها لانها ذات ثروة عظيمة او لان لها بعل وافر الثروة ولا يبخل عليها بشيء . اما

اخلاقها فانحطاط النفس والميل الى الكذب والاحتيال والتطلع الى اعمال السوء . لا يحول بينها وبين ذلك الا الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال

ولا نرى في تمثيل المرأة في اذهاننا بهذا المثال الا توارثنا اراء العرب فيها

ذلك ان حياة العرب كانت حياة حرب وقتال وارزاقهم كانت من الغنائم . وغنيٌّ عن البيان ان امة معاشها متوقف على القتال لا يمكن ان يكون فيها للمرأة شأن كبير . اذ المرأة في هذه المعيشة لا تستطيع ان تجاري الرجل . ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم حتى حسبت من المتاع وادوات الزينة وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الاموال

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الامة العربية لانحصار المعيشة كلها في الغزو والدفاع عن القبيل كذلك

لم يكن لها عمل في العائلة لان التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والاكل حتى ينشأ رجلاً مقاتلاً لا عالماً فاضلاً

فلا عجب اذا رأينا في كلام العرب وشعرهم وقصصهم بل وفي مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم ما يدل على احتقارهم للمرأة

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة في عقول المسلمين

وهي صورة حقيقية اذا نظر الى الماضي ولكنها مزورة اذا نظر الى الحال والمستقبل . ذلك لان المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التي كانت تعيش من آلاف سنين لا في الظاهر ولا في الباطن . وتختلف عنها في الملبس والماكل والمسكن وفي العادات والاخلاق والحاجات والضرورات . لان الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي هي موجودة فيها الآن تغيرت تغيراً كلياً عما كانت عليه في الماضي . وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب

فالمرأة العربية كانت تكتفي من طعامها بخبز من شعير . ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها بيت من شعر . وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج الى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشؤون المعاشية لان عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين اليها في قوام حياتهم العائلية والاجتماعية . والمرأة العربية كانت مستعبدة لانها كانت في الحقيقة متاعاً يدخل في حوزة الرجل بالسلب او بعقد هو اقرب للبيع منه الى الزواج

اما الآن فنحن في عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضاً واستقرّ النظام فيهم فلم تبقَ الحرب شغلاً شاغلاً لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض . واصبح الناس غير محتاجين الى الغزو في كسب ارزاقهم . فبعد ان كانت قيم الرجال تعلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائمهم في القتال وحسن بلائهم فيه وبعد ان كان الفائق في الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الاعلى والضعفاء

كلهم تحت كنفه انقلب الحال . ولم يبقَ للقتال حاجة الا في احوال مخصوصة يتولاه فيها اناس معروفون . واقبل افراد الامة رجالاً ونساءً بعضهم على بعض يتنافسون في امور اخرى . فنهم المتنافسون في المجد بالعلم ومنهم المتسابقون اليه بالثروة وفيهم المجدون في طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة . واتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة انسان مثل الرجل . زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها ان تسمو اليوم الى ما يقرب من درجته ان لم تستطع ان تساويه فيها . ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات واصبح المقصر في سعيه الساقط في عزمه القاعد في كسله وجهله مهدداً بالموت محفوفاً بخطر العدم . وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد . فاهل البلد الواحد يتزاحمون في طرق الكسب ويتدافعون في سبله بوسائل العمل وحيل العقل . وجميعهم يزاحم الاجنبي الذي سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوفر اسباب الامن . وما هذا الجهاد بالهين السهل بل هو مما يحتاج الى اعمال

للقوى العقلية والبدنية اكثر مما يحتاج اليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها الى قانون الفطرة . ففرض لها من الحاجات ما لا يمكن معه ان تعيش مقصورة في بيتها فهي مضطرة رغماً عنها ان تدخل في ما دخل الرجال فيه وان تعمل لتكسب وتعيش وتعلو وتعلو فهي بحكم هذه الضرورة في اشد الحاجة الى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة في هذه المزاحمة العظيمه

وما نسمعه الآن من صياح النساء وعويلهنّ وشكواهنّ من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهنّ او اغتيال حقوقهنّ ومن احاديث تطوح الكثير منهنّ في مهاوي الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بيننا

وانا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده هل يمكنهم ان يقولوا ان لا حاجة للمرأة تدعوها الى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة او يقولوا انها في حاجة الى ذلك ولكن

وا أسفاه ليس في فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لاخذ اهبتها في هذا الجهاد ؟

هذه المسئلة لا تحل ببعض كلمات مثل كون المرأة ضعيفة او قاصرة العقل . لان الضعيف والقوي وصاحب العقل الكبير وذو العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون امام ضرورات الحياة . وانما الذي يفيد في فهم حقيقة هذه المسئلة وحلها هو ان يعرف اولاً هل يوجد نساء ليس لهنّ عائل يقوم بحاجاتهنّ او يوجد لهنّ عائل لكن كسبه لا يكفي لقضاء ما يحتجنَ اليه . ثم اذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهنّ وهل هو كثير او قليل . ؟

والذي يمكننا الرجوع اليه في ذلك هو تعداد اهالي القطر المصري الذي حصل في سنة ١٨٩٧ وهو آخر احصاء جرى . جاء في هذا الاحصاء ان جملة النساء المصريات اللاتي يشتغلنَ بصنعة او حرفة هو ٦٣٧٣١ اي انه يوجد الآن في مجموع المصريات اثنتان في كل

مائة امرأة يشتغلنَ بصنعة . ولم يدخل في هذا الاحصاء نساء الارياف اللاتي يشتغلنَ بالزراعة ولا النساء الاجانب اللاتي بلغ عدد المحترفات منهنَّ بصنعة عشرين في المائة .

وغنيٌّ عن البيان ان هاته المحترفات هنَّ نساء لا عائل لهنَّ لما نعهدهُ من ان الرجال لا يسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم ان يحترفنَ بصناعة ما لم يكونوا انفسهم عاجزين عن كل كسب

واذا رجعنا الى مشاهداتنا نجد ان النساء اللاتي لا عائل لهنَّ يزدنَ عن هذا المقدار اضعافه لأن الاغلب منهنَّ يعيش عالةً على اقاربهنَّ ومنهنَّ من يستعمل لكسب العيش وسائل لا يعترف بها . واضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتي لا يكفي كسب ازواجهنَّ لضرورات معاشهنَّ ومعيشة اولادهنَّ . فهنَّ مع ازواجهنَّ دائماً في نزاع وشقاق ثم تزدحم اقدامهنَّ في ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدّر القاضي للزوجة قرشين في اليوم صاح الزوج هذا كثير . وعدد

هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع ما سبقهنّ

اذا سلمنا ان عدد النساء المصريات اللاتي ليس لهنّ عائل لا يزيد عن اثنين في المائة من مجموع النساء المصريات أفلا ينبغي لهؤلاء النسوة اللاتي قضت عليهنّ ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الاقوياء لكسب عيشهن ان يتهيأنَ الى النجاح قبل الدخول في معترك الحياة بالوسائل التي يستمد بها الرجال انفسهم؛ وهل يكون من الحق والعدل ان يحرمنَ من التربيـة التي تأهلنَ للدفاع عن انفسهن؛ وهل من مصلحة للرجال او لعموم الهيئة الاجتماعية من ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات؛

نحن لا نجادل في ان الفطرة اعدت المرأة الى الاشتغال بالاعمال المنزلية وتربية الاولاد وانها معرّضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الاعمال التي تقوى عليها الرجال . بل نصرّح هنا ان احسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هي

ان تتزوج وتلد وتربي اولادها . هذه قضية بديهية لاتحتاج في تقريرها الى بحث طويل . وانما الخطأ في ان نبني على ذلك ان المرأة لا يلزمها ان تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة اولادها ان كان لها اولاد صغار عند الحاجة

ذلك لانه يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق او بموت الزوج . ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرّة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره او عجزه او كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهنّ اولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهنّ عن تناول الاشغال الخارجة عن المنزل بحجة ان لهنّ رجال قائمين بمعاشهنّ او لأن عليهنّ واجبات عائلية او لوجود عوارض طبيعية تحول بينهنّ وبين العمل

نحن لا نقول للمرأة اهجري الزواج ولا تبغي النسل او اتركي زوجكِ واولادكِ في البيت وقضي اوقاتكِ في

الطرق وعيشي كما يعيش الرجال فانا نكرر القول باننا نود ان كل امرأة تكون زوجة وان كل زوجة تكون اماً . ولكن هذا لا ينسينا ان الواقع هو غير ما نتمنى . اذ الواقع ان عدداً عظيماً من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائليـة

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية فاننا لو اخذنا آخر احصائية في فرانسا لوجدنا انه يوجد ٣,٦٢٢,١٧٠ من النســاء غير متزوجات و ٢,٠٦٠,٧٧٨ ارامل و ٩٢٤٢٨٦ متزوجات وليس لهن اولاد . اي يوجد في فرانسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرات اليه بدون ان يكون في اعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنيـة في بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل ان يوجد اليوم اثنان في المائة من النسـاء المصريات يتعيشن بصنعة او حرفة سيوجد عن قريب اضعاف هذا العدد . ذلك

لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من امرها في المستقبل

لهذا يمكننا ان نأكد ان عدد النساء المحترفات لا بد ان يزداد في كل سنة عن الاخرى لاننا سائرون في الطريق الذي سارت فيه اوروبا قبلنا

ولا خلاف في ان عدد الزواج في اوروبا هو اقل منه في الشرق . وسبب ذلك ان الواحد منهم لا يتزوج بالسهولة التي يتزوج بها الواحد منا . فان الاوروبي يطلب من الزوجة قريناً يرافقه طول حياته وصاحباً يشاركه في جميع اعماله وافكاره وعواطفه فهو يطلب لها جميع الصفات التي يبحث عنها الواحد منا اذا اراد ان يتخذ له صديقاً . فالعثور عليه يكون صعباً

وأضيف على ذلك سبب آخر . وهو ان الحالة الاقتصادية في البلاد المتمدنة لا تسمح للفرد ان يكون قادراً على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين الا في النادر . لانه يصادف في طريقه مزاحمات عظيمة وعليه

ان يخرق الصفوف التي امامه . هذا ان ساعدهُ الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز في التجارة او الصناعة او الحرف الادبية . والكثير منهم يقضي حياته في البحث ولا يجد شيئاً

ومن الاحتياط عندهم ان لا يتزوج الشخص قبل ان يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفي لمعاشه ومعاش اولاده . لانهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلتهم ولا يرضون ان يكونوا سبباً في شقاء ازواجهم واولادهم . فانما الجاهل هو الذي يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تعرضه عليه تلك الجامعة . ولا يعرف لاهله حقاً عليه

فنحن مسوقون في هذا الطريق بقوة لا يستطيع احد مقاومتها . ويظهر لي ان الزواج عندنا قد بدأ في التناقص فاني اعرف كثيراً من الذكور والأناث تجاوزوا السن الذي يحصل فيه الزواج عادةً ولزمتهم العزوبة مختارين او مضطرين . ولكني لا ادري هل ذلك عام

او خاص ببعض المواضع . وانما يمكنني أحقق ان متوسط السن الذي يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه في الماضي . فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين في الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ . وكثيراً ما كان يحصل الزواج قبله

وليس يفيد شيئاً ان يصبح ارباب الاقلام عندنا ناقمين على ما وصلت اليه حالنا اليوم وما ستصل اليه على ممر الايام وان يستشهدوا بما وقعت فيه اوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء باشغال الرجال . ذلك لا يفيد لانه لا يمكن ان يترتب على هذه الشكوى اثر ما في مجرى الحوادث في العالم . ولو كانت الشكوى تكفي لتغيير الحال لكان الامر سهلاً

والحقيقة ان اهم عامل له أثر في حال الامة هي حالتها الاقتصادية . ومن الاسف ان هذه الحال الاقتصادية ليس في امكان احد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء

نعم يوجد في كل امة متمدنة عدد من النساء الجأتهن الضرورة الى السعي والكد والاشتغال باعمال الرجال — اي مسترجلات — اذا شئت . ومن النساء اللاتي زهد فيهن الرجال فلم يرغب احد في زواجهن والارامل اللاتي توفي زوجهن والمطلقات اللاتي تركهن ازواجهن . هؤلاء النسوة لم يقترفن ذنباً على الهيئة الاجتماعية فما من واحدة منهن الا وكانت تمنى ان تجد رفيقاً صالحاً يحبها وتحبه ويساعدها وتساعده. ما من واحدة منهن الا وفي قلبها اثر الحزن لانها لم تلد ولداً تشتغل بتربيته . ما من واحدة منهن الا وتبكي في وحدتها سوء حظها وتأسف على ضياع الاماني التي قضت حياتها في انتظارها

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضي بان كثيراً من النساء يعشن في الوحدة والانفراد ويسعين ويعملن لكسب قوتهن وقوت اولادهن وبعض اقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب ؟

يقول المعترضون انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة اعمال الرجال والاختلاط بهم كما انهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازماً لكسب عيشها لأن الضرورات تبيح المحظورات . وقد اتفق جميعهم على هذا الرأي حتى حضرة العالم العلاّمة (هكذا هو لقب نفسهُ على ظهر كتابهِ) الذي أنتدب عن فقهاء الازهر للرد على تحرير المرأة . فكلهم يرون ان منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة اعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذي يؤهلها الى هذه الاعمال هو خاصّ بغير الفقيرات من النساء اللاتي تلجأهنَّ الضرورة الى السعي لتحصيل ارزاقهنَّ

ويتبين من هذا انهم متفقون معنا في حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا في غيرها . فهم يرون ان الاباحة يلزم ان تكون خاصة لهذه الحالة فقط وبهؤلاء النسوة ونحن نرى انها يلزم ان تكون عامة شاملة لجميع النساء والاحوال ولو شاؤا ان يفهموا ما يقولون وان يقفوا على ما

يفضي اليه رأيهم هذا لوافقونا في رأينا وحكموا حكمنا .
لانهم يقولون ان المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الاعمال ما يتناولهُ الرجال اذا مست الحاجة الى ذلك .
ولا يخفى ان كل نفس حيـة معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات . والعمل الذي تدفع اليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفي في القيام به على الوجه اللازم ان تتوجه المرأة اليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه ان تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل الى المرغوب . وهذا الاستعداد لا يكون الاَّ بالتربية والعلم والتمرن والممارسة واختبار الناس.
فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تستطع للخلاص منها سبيلاً وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك

وياعجباً كيف نتوقع الخيبة للرجل منا اذا كان ناقص التربية قليل المعرفة عديم الاختبار ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه في هذه النقائص ؟

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة كلها حوادث جارية وتقع في كل آن . ولما كان الاطلاع على الغيب امراً غير ميسور للانسان وجب ان تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل ان تقع فيها

لهذا نرى ان من اهم ما يجب على الآباء ان يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقي من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول الى حظ من السعادة في هذه الحياة

ثم نرى انه يجب على كل اب ان يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن وان يعتني بتربيتها كما يعتني بتربية اولاده الذكور . فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها . وان لم تتزوج او تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الاسباب الكثيرة الوقوع امكنها ان تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها

وسواء نظرنا الى الفوائد المادية التي ينالها صاحب

العلم من علمه او نظرنا الى اللذة المنوية التي يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب

بين يديَّ الآن كتاب ألفهُ احد الكتاب الفرنساويين وهو پول دروزيه وسماه الحياة الاميريكية قال فيه عند الكلام على تربية البنات ما يأتي :

« رأيت في اميريكا الصبيان والبنات يذهبون الى »
« مدرسة واحدة ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم »
« بجانب بعض ويسمعون دروساً واحدة ويرتاضون »
« معاً. فاذا أتموا دروسهم استمرَّ هذا الاختلاط حيث »
« ترى البنات في المعامل والمصانع يشتغلنَ ويستخدمنَ »
« في اللوكندات الكبيرة لمسك الدفاتر ويربينَ الاطفال »
« في المدارس الابتدائية ويطلبنَ العلم في مدارس الطب »
« وترى منهنَّ قسيسات يخطبنَ في الطرق واعضاء في »
« الجمعيات الخيرية ورئيسات في المجالس البلدية وما »
« اشبه ذلك. اذا اردت ان تعرف ما هو سبب هذه »
« العادات الغريبة وما هو المقصود من تربية النساء »

« على هذه الطريقة وما هي الواجبات التي يتأهبن الى »
« اداءها بهذه التربية فعليك ان تتأمل في هذه المسألة »
« لكي تقف على سرها . اذا فكرت فيها تعلم انه يوجد »
« تياران متماكسان يقابلها حالتان للمرأة مختلفتان »

« وبيان ذلك ان البنت ان بقيت عزبة تضطر »
« الى ان تجاهد في سبيل الحياة كالرجل الذي يناضلها »
« فاحسن تربية توافقها حينئذ هي تربية كتربية الرجال »
« اما اذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهي »
« تشتغل بادارة منزلها وتربية اولادها . ولكن من ذا »
« الذي يعلم مستقبل البنت وهي في السنة العاشرة من »
« عمرها ؟ وما الذي يعمله الآباء امام هذا المستقبل »
« المجهول ؟ رأى الاميريكانيون ان من الفطنة ان »
« يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجن وان يربوهن كالذكور »
« من جهة التعليم والاستقلال في السير . فالأب الاميريكي »
« يربي بنته على ان تعتمد على نفسها لانه يجهل مستقبلها »
« فان صادفت زوجاً يريد ان يضع يده في يدها ويقطع »

« معها طريق الحياة كانت هذه التربية احسن ما يأهلها »
« للقيام بواجباتها العائلية . وان لم يوجد احـد يرغب »
« الاقتران بها فقد خاص الاب من اللائمة حيث انه »
« تبصر في المستقبل وعمل كل ما يمكن ان يعمل ليعدها »
« للغلبة على ما تلاقيه امامها من الصعاب ومرارة الحياة »

ويوجد حرفتان اود ان تتوجه نحوها تربية البنات عندنا : الاولى صناعة تربيـة الاطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هي احسن ما يمكن ان تتخذها امرأة تريد ان تكسب عيشها لأنهـا صنعة محترمة شريفة والمرأة اشد استعداداً لها من الرجل وادرى منه بطرق استمالتهم واكتساب محبتهم . وبلادنا اشد البلاد حاجة الى نساء يعرفن هذه الصناعة فانه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها في تربية الاولاد . والعائلات المصرية في احتياج الى عدد وافر من مربيات الاطفال حتى تستغني بهن عن المربيات الاجانب . كذلك لا يوجد في مصر مدارس للبنات يتولى ادارتها والتعليم فيها مصريات . وهذا نقص

كبير في بلادنا حيث انا جميعاً مضطرون الآن الى تربية بناتنا في المدارس الاجنبية .

والحرفة الثانية هي صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التي يكابدها عند ما تكون احدى النساء من اقاربه مريضة ويلح عليها ان تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصاً اذا كان المرض من الامراض الخاصة بالنساء . فاذا وجد عدد من النساء يعرفنَ صناعة الطب فلا شك ان صناعتهنَّ تروج رواجاً عظيماً بما يجدنه من الحاجة اليهنَّ في البيوت المصرية . وهنا نقول ايضاً ان فن الطب هو من الفنون التي تلائم استعداد النساء الطبيعي . وما يشاهد الآن في المستشفيات العمومية وفي العائلات من الخدمات الجليلة التي تقوم بها النساء هي اعظم برهان على ان المرأة بما جبلت عليهِ من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل ما يصلح لهُ الرجال من معالجة الامراض ان لم تكن اشد صلاحية لذلك منه

كذلك يمكن للمرأة ان تشتغل بجميع الاعمال

التي قوامها الترتيب والتنظيم ولا تحتاج الى قوة العضلات والاعصاب كالتجارة . فكم من بيوت تجارية ارتفعت بايدي النساء بعد ان كانت سقطت من ايدي الرجال . وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الادبية

ان المرأة المصرية اذا احتاجت اليوم الى كسب معاشها بنفسها لا تجد عملاً تتناول منه ما تقتات به الاّ بعض الاعمال الشاقة السافلة كالخدمة في بعض البيوت او الجولان في الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة . فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كأنه في الحقيقة تخصيص لهنّ بمثل هذه الاعمال الدنيئة التي لا ينال بها الاّ القليل التافه وحرمان لهنّ من الاعمال الشريفة التي تعود على اربابها بالمكاسب الوافرة

فهذه المنزلة المنحطة هي التي نريد استبدالها بارفع منها

يجب ان تربى المرأة على ان تكون لنفسها اولاً — لا لأن تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها

يجب ان تربى المرآة على ان تدخل في المجتمع الانساني وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ما شاء

يجب ان تربى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقاءها في نفسها لا في غيرها

بماذا نقابل رجلاً ينصحنا بقوله ربوا ابناءكم ليكونوا ازواجاً فقط ولا تعدوهم الا للازواج ؟ لا ريب اننا نقابله بالسخرية والاحتقار . لاننا نعلم ان الرجل لا بد له اولاً ان يكون انساناً مستعداً لأن يلاقي من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الانسان وان ينال من السعادة ما يليق بالانسان ان يناله فمتى تعلم وصار قادراً على كسب عيشه وكان متجملاً بحسن الاخلاق كان بالطبع زوجاً صالحاً . فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا اعدوا بناتكم لأن يكونوا فراشاً فقط ولا تعدوهن لغير ذلك من مقاصد الحياة وغايتها ؟

نتج من كل ما تقدم ان للمرأة حقاً في ان تشتغل

بالاعمال التي تراها لازمة للقيام بمعاشها وان هذا الحق يستدعي الاعتراف لها بحق آخر وهو ان توجه تربيتها الى الطرق التي تؤهلها الى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها

وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال باعمال الرجال وانما معناه انه يجب ان تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه

الواجب على المرأة لعائلتها

الى هنا كان كلامنا في التربية والاعمال التي لا بد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها ونريد الآن ان نتكلم على الاعمال والتربية التي تلزم للمرأة لتكون نافعة في عائلتها

جميع الناس متفقون على ان قوام العائلة ونظامها في يد المرأة ولكن ليس كل الناس سواء في فهم هذه القضية . فالجمهور الاعظم من الناس يفهمون ان معنى ذلك هو ان تقوم المرأة بخدمة زوجها واولادها ان كانت العائلة فقيرة او تدير اعمال الخدمة الذين يؤدون هذه الاعمال باوامر تصدرها اليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية

الى هذا الحد يقف فكرهم

هكذا بخسنا المرأة حقها في جميع الاحوال فبعد ان

حرمناها حريتها وافقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال الى ان ضيقنا دائرة اعمالها حتى في العائلة . وهذا اقوى دليل على ان كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض فالمرأة المهذبة الحرة هي التي يمكن ان يكون لها نفوذاً عظيماً في عائلتها والمرأة الجاهلة المستعبدة لا يمكن ان يكون لها من النفوذ في عائلتها اكثر مما يكون لرئيسة الخدم في البيت.

ظن المسلمون ان تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع في تربيتها يفضي الى اهمالها في القيام بما يجب عليها في الشؤون العائلية فوضعوا بينها وبين العالم الخارجي حجاباً تاماً حتى لا يشغلها شيء عن معاشرة زوجها وادارة منزلها وتربية اولادها ولكن انظر الى النتيجة تجد انها خلاف ما قصدوه حيث ان المرأة المصرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها ولا يمكنها ان تشتغل بادارة بيتها ولا تصلح لأن تربي اولادها

ذلك لأن جميع اعمال الانسان مهما اختلفت

وتنوعت هي صادرة عن اصل واحد وهو علمه واحساسه فان كان هذا الاصل راقياً كان اثره في كل شيء كبيراً نافعاً حميداً وان كان منحطاً كان اثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود

فالوظيفة الحقيرة التي تأديها المرأة المصرية عندنا اليوم في العائلة هي مطابقة لمنزلتها من ذلك الاصل المتقدم ذكره . ولكن عجز نساؤنا الآن عن القيام بالاعمال التي ينبغي ان تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن الى الحد الذي يرجى لهن

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهور عندنا واهم هذه الواجبات هي تربية الاولاد

اذا اردت ان تعرف مقدار جهل الامهات عندنا بابسط مبادئ التربية انظر الى احصائيات وفيات الاطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات في مدينة مثل لوندره تجد ان عدد الموتى من اطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من اطفال مدينة لوندره . وقد اطلعت على

احصائية مصلحة عموم الصحة التي نشرت في هذا العام فوجدت ان عدد المتوفين بين الاطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو في مدينة القاهرة ١٤٥ في الألف ويقابل ذلك في مدينة لوندره ٦٨ في الالف

فاذا كانت صحـة اولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلق بالطريقة التي يتبعها النساء في تربيتهم افلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأي ان نكل اولئك الاولاد الى ما يقترحه الجهال ونتركهم الى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء

ان الامهات الجاهلات يقتلن في كل سنة من الاطفال ما يربو على عدد القتلى في اعظم الحروب وكثير منهنَّ يجلبنَ على اولادهنَّ امراضاً وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملاً ثقيلاً عليهم طول عمرهم . وليس لهذا البلاء سبب في الاغلب سوى جهل الامهات بقوانين الصحة .

لو كانت ام الطفل تعرف ان كل ما يتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له اثر على جسمه لامكنها

ان تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية . ولو علمت كل ام ان اغلب الامراض التي تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سبب وانها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت في وقايته من كل ما من شأنه ان يضر ببدنه ولكن كيف تصل الى معرفة ذلك مع جهلها الذي يخيل لها ان المسببات تقع بلا اسباب او تحصل باسباب خارقة للعادة ؟

لا ينبغي هنا ان اشرح بالتفصيل كل ما يليق ان يعرفه القراء في هذا الموضوع وانما نقول بالاجمال أن التربية الجسمية للولد وحدها تستدعي معارف كثيرة اغلبها يتعلق بقوانين الصحة وان معرفة هذه القوانين تحتاج الى مقدار عظيم من معارف اخرى لا بد منه ليتيسر فهمها

فعلى الام ان تعرف افضل الطرق لتغذية الاطفال لان الانتظام في نمو الجسم يرتبط دائماً بانتظام التغذية . وجودة الانسجة وخصوصاً النسيج المخي تتعلق بجودة

التغذية . حتى قال بعض علماء الطب ان الامم التي تفضل غيرها في التغذية تفوق سواها في القوة وتغلب على غيرها من الامم

وعلى الام ان تعرف كيف تقي جسم ولدها من اعراض الحر والبرد وما هو الماء الذي ينبغي استعماله في نظافة جسمه من حار او فاتر او بارد . وعليها ان تعرف ان للهواء والشمس اثراً حميداً في الصحة فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال في الاشياء الاخرى كالنوم واللعب وما اشبه ذلك

ثم يجب عليها من جهة اخرى ان تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والادبية والا كانت اول عامل في فساد اخلاق ولدها

انظر الى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن انسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك انها تمنعه من اللعب كي لا يشوش عليها وهي لا تدري انها بمنعها له عن اللعب تقف في سبيل نموه . واذا

ارادت ان تأدبه هددته بما لا تستطيع او بما لا تريد ان تنفذه او خوفته بموهومات تثير في ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته . واذا ارادت ان تكافأه وعدته بوعود لا تفي بها . فتكون له بذلك قدوة في الكذب وتحدث في نفسه ضعف الثقة بالقول . وهي في اغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد . كأنها تريد ان تثبت له باقوى الدلائل انها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها . وربما كان السبب الذي اثار غضبها لا يستحق من ذلك كله شيئاً . فاذا رأت منه انفعالاً مما صدر منها لم تلبث ان تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ما صدر منها . والولد المسكين لا يدري كيف استحق غضبها اولاً ثم رضاها ثانياً

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالامهات بل نجد كثيراً من الآباء عندنا لجهلهم بطبيعة النفس الانسانية يستعملون في تربية اولادهم طرقاً لا تقل في الشناعة

والسخافة مما يستعمله النساء . ومن اقبح ما يصنعه كثير من الآباء مع ابنائهم ان يشتم ويسب الوالد ولده بالفاظ لا يدري الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها فاذا احسن الاجابة ضحك ابوه مسروراً واستبشر بنجابة ولده . وكذلك ترى الواحد منهم يأمر ولده امراً لا داعي له فيخالفه الطفل فينقضّ عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه في اي مكان يصادفه من جسمه . ولم يكن ذلك منه الا لانه يرى في عدم طاعة ولده اخلالاً بسلطته وامتهاناً لعظمته

ولو كان هذا الاب يعقل ما يفعل وعلم ان كل ما يعوَّد عليهِ الطفل في نشئته يحدث في نفسه أثراً يكون مبدأ لملكة راسخة فيها لما عوده على ما لا يحسن ان يراهُ منه في كبره . ولو علم ان المقصود من التربية ليس ان يتعود الطفل على ان يطيع كل امر يصدر اليهِ وانما الغرض منها ان يتعود على ان يحكم نفسه لاجتنب الامر والتهديد والضرب . فان هذه الوسائل لا تهيأ الطفل الى ان يحكم

نفسه وانما يتمرن الطفل على ان يحكم نفسه اذا اجتهد ابواه في اقناعه وتنبيه عقله الى عواقب افعاله حتى يتولد في نفسه اعتقاد ثابت بان ما يصيبه من خير او شر فهو من كسبه

افضل طريق للتربية يؤدي الى هذه الغاية (ان يحكم الشخص نفسه) هي ان يترك الطفل وميله يعمل العمل حسب ما يسوقه اليه خاطره ولا يتداخل المربي الا ببيان ما ينتج عن هذه الاعمال بصورة نصيحة وارشاد. فاذا لج الصبي في مخالفة النصيحة تركه حتى يقع في عاقبة عمله لكن مع المراقبة الدقيقة كي لا يكون ضرر العمل شديداً وانما يسوغ الردع والمنع في الاحوال النادرة التي يعرض الصبي نفسه فيها للاخطار

بهذه الطريقة يستعد الطفل الى ان يكون رجلاً يعتمد على نفسه في الوقت الذي لا يجد بجانبه احداً يدافع عنه ويحافظ عليه

يمكني ان اقرر بوجه الاجمال حقيقة اود ان يطلع

عليها كل أب وأم وهي ان جميع العيوب التي تشاهد عند الاطفال مثل الكذب والخوف والكسل والحمق هي ناشئة من جهل ابويه بقواعد التربية . وان من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الادبية . وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية

اذا كانت وقاية الطفل من الامراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج الى معلومات كثيرة كما ذكرنا فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرس الصفات الحميدة في نفسه يحتاج الى معارف ادق ومعلومات اوفر

١ يظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم ان لا شيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى علم اوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلأنها تحتاج الى جميع العلوم التي توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسماني والروحاني . واما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما

يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك اني اذهب الى ان كل أم يجب عليها ان تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن اقول ان جميع الامهات يجب عليهن ان يعرفن كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهن باصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية اولادها

يرى القراء اني اهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية . وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الام . فالولد ذكراً كان او انثى من وقت ولادته الى سن المراهقة لا يعرف قدوة له سوى والدته ولا يباشر غيرها ولا يرد على حواسه الا الصور التي تعرضه لها . فنفسه صحيفة بيضاء وامه تنقشها كما تشاء . ويتم نقش الصحيفة وتكون كتاباً مسطوراً عند ما يبلغ الطفل سن الرابع عشرة كما قال الفونس دوريه وليس في امكان انناشيء بعد ذلك ان يضيف على ما رسم في نفسه او

ينقص منه الاّ شيئاً قليلاً لا يترتب عليه تغيير الكتاب

هذا هو السر في احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم امهاتهم . فهم يعلمون ان كل ما هم عليه من الصفات الحسنة والاخلاق الطيبة هو من فضل امهاتهم اللاتي اودعنَ فيهم بضعة من ارواحهنَّ وهي خير بضعة كانت عندهنَّ . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل الى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره . ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان . ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه . ان كان فيهم من يجد في نفسه احتراماً لدينه وتكريماً لشأن وطنه وشوقاً الى طلب الكمال في كل شيء فليس ذلك لانهُ قرأ في الكتب او تعلم في المدرسة ان هذه الصفات ممدوحة — ولو كان الادب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من أسهل الامور — وانما كان ذلك لان والدته ارادت ان يكون على هذه الصفات . كابدت ما لا يوصف من

المتاعب لطبعها في نفسه وتثبيتها في طبعه

فهي التي كانت تحرص على ان لا يقع تحت حواسه صورة قبيحة وهي التي كانت تقدم اليه صور الاشياء الجميلة على اشكالها المختلفة . وهي التي كانت تعوده على العادات النافعة شيئاً فشيئاً حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات في الارض

هذه الوظيفة التي تقوم بها الامهات في تلك البلاد هي اهم وانفع ما يعمله انسان حيّ على وجه الارض . اذ لا يوجد شيء اهم ولا انفع من تهذيب نفوس الاطفال واعدادهم لان يكونوا رجالاً صالحين

من هذا يتبين ان عمل المرأة في الهيئة الاجتماعية هو تكوين اخلاق الامة . تلك الاخلاق التي أثرها في الاجتماع من حيث ارتقاء الامم وانحطاطها يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات

لهذا لا يوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة في الوجود الاجتماعي وشأنها في العائلة . ولا بأس من ان

نورد هنا شيئاً من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء في رأيهم

قال سيملس « للمرأة في تهذيب النوع الانساني اكثر مما لاي استاذ فيه وعندي منزلة الرجل في النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منه منزلة القلب »

وقال شيلر « كلما وجد رجل وصل بعمله الى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة »

وقال روسو « يكون الرجال كما تريد النساء فاذا أردت ان تجعل الرجال من ذوي الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة »

وقال فنلون « ان الواجبات التي تطالب بها النساء هي اساس الحياة الانسانية فالمرأة تدير جميع شؤون العائلة وبهذا العمل يكون لها اعظم نصيب في اصلاح الاخلاق او افسادها . ليست الامة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل وانما هي مجموع جميع العائلات وما من احد يمكنه ان يهذب العائلة سوى المرأة »

وقال لامارتين « اذا قرأت المرأة كتاباً فكانما قرأه زوجها واولادها »

وامثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد في مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الاثر في اصلاح اخلاق الامم بلغ من الكثرة حداً بحيث لا تمكن الاحاطة به .

ومن الغريب ان الكثير من شباننا الذين لهم المام باللغات الاجنبية والذين لا بد ان يكونوا قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون اني بالغت في اعلاء شأن المرأة وفي تعظيم وظيفتها بل كان من امر بعضهم ان احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذي لا يليق بان ينظر فيه . وكأن العالم الازهري الذي رد على كتاب تحرير المرأة قد عبر عن افكارهم عند قوله :

« ما سمعنا في تاريخ من التواريخ ولا في سفر »
« من الاسفار ولا في خبر من الاخبار ان أمة من »
« الامم او دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع »

« شأنها بأناثها . وهذه الدول الاوروباوية قد ارتقت »
« في هذه الايام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف »
« والصنائع واختراع الامور العظيمة التي عم نفعها فاي »
« شيء من هذه العلوم والمعارف واي امر من مخترعات »
« الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ »

والذي يقرأ هذه السطور يحق له ان يظن ان هذا العالم الازهري وامثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الاسفار ولا خبر من الاخبار

فالنساء اللاتي خلد التاريخ ذكرهنَّ لشهرتهنَّ بالعلوم والمعارف او بالاعمال العظيمة لسنَ بذي العدد القليل ويوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهنَّ وليس في امكاننا ان نأتي هنا على ذكر اعمال بعض من اشتهر من النساء في التاريخ وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب نخصصه لذلك وانما يمكننا ان نؤكد هنا انه لا يوجد علم من العلوم ولا فنّ من الفنون الا وقد برهنت المرأة فيه على انها مستعدة الى ان تصل الى

اعلا مراتب الكمال الانساني

واني استلفت العالم الازهري خصوصاً الى سلف أمته الصالح ليعلم ان تاريخ دينه لم يخلو من ذكر النساء اللاتي كان لهنّ اجل الاثر فيه

على ان الامر لا يحتاج تحقيقه الى التاريخ فقد وجد في القرن الذي نحن فيه كثير من النساء اللاتي ارتفع شأنهنّ وذاع ذكرهنّ في جميع الممالك المتمدنة

هذه مارية متشل اكتشفت نجماً ذا ذنب سمي باسمها وعينت مديرة لرصدخانة في اميركا ومعلمة لعلم الفلك ولها مؤلفات كثيرة في هذا العلم

وكارولين هرشل اكتشفت سبعة نجوم فمنحها مجمع علمي لوندرا المدالية الذهبية

وتريز دوباثير لها مؤلفات عظيمة في الجغرافيا وفي علم طبقات الارض وكانت عضواً في المجمع العلمي بمدينة منيخ

وصوفي جرمين لها اختراعات جليلة في العلوم الطبيعية

وكل اهل العلم يعلمون ان المركيزة دو شاتليه هي التي نشرت مذهب نوتون في فرانسا وكلمنس رويه هي التي نشرت مذهب داروين ومادام استيل هي أول من عرف المانيا لاوروبا وكذلك مادام تارنوسكي هي التي نشرت مذهب لمبروزو في البلاد الروسية

اما عدد الفلاسفة والادباء من النساء اللاتي نشأن في هذا القرن والقرن الذي سبق لا يمكن حصرهُ في مثل هذا الكتاب ولكني لا ارى بدًّا من ذكر اثنتين من بينهنَّ لم يسبقهنَّ رجل في فن الكتابة وهما مادام لا فايت وجورج سند

على ان الارتباط الذي ادعيناه بين تقدم الامم وارتقاء حال النساء لم نقصد به ان المرأة تفيد الامة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية وانما نعني به خاصة ما لها من العمل في اصلاح اخلاق العائلة ثم الامة على الوجه الذي بيناه

وبعبارة أخرى نقول ان ظهور رجل عالم او حكيم

فاضل في امة يعد من الحوادث التي يشترك في احداثها سببان : الاول استعداده بالوراثة لما ظهر فيه والثاني تربيته التي ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه . بحيث لو فقد احد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم او الفاضل . من هذا يتبين ان شخصية الانسان الادبية تتكون من عاملين عامل طبيعي وعامل صناعي . وليس في استطاعتنا ان نؤثر في الاول ولنا على الثاني سلطة واسعة حيث انه يمكننا بالتربية الاولى ان نمي غريزة الطفل ان كانت غريزته صالحة ونكملها ونزيدها حسناً . ويمكننا ان نضعف من أثرها ان كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حداً تنتهي اليه ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعاً عظيماً اذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا الى طرق التربية الصحيحة

فهذه التربية الاولى -- وزمامها في يد المرأة — هي التي اكسبتها ذلك المقام الرفيع الذي لا يعلوه مقام في الهيئة الاجتماعية

وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الاطفال بل المشاهد بالعيان ان المرأة تأثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في اعماله واعدت له اسباب الراحة والاطمأنان ليتفرغ لاشغاله . وكم من امرأة شاركت زوجها او اخاها او والدها في متاعبه . وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوّت عزيمته في حالة اليأس والقنوط . وكم رجل طلب المجد ومعالي الامور طمعاً في ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب

وضع استوارت ميل في صدر كتابه المسمى الحرية الذي طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية :

« اني اهدي هذا الكتاب الى الروح التي الهمتني »

« احسن ما وضعته فيه من الافكار الى صديقتي وزوجتي »

« التي كان غرامها بالحق والعدل اعظم ناصر لي والتي »

« كان استحسانها من اكبر المكافئات التي ارجو نيلها »

« على عملي . كان لها في جميع ما كتبته الى الآن ولها »

« في هذا الكتاب حصة من العمل لا تنقص عن »
« حصتي فيه. واكبر اسفي ان هذا الكتاب طبع بالحالة »
« التي هو عليها الآن قبل ان تعيد النظر فيه . ولو كان »
« في استطاعة قلمي ان يعبر عن نصف ما دُفن معها »
« من الافكار العالية والوجدان السامي لأنتفع العالم به »
« اكثر مما ينتفع بجميع ما اكتبه صادراً عن فكري »
« ووجداني بدون مشورة عقلها الفريد »

وكانت زوجة باستور الشهير مشاركة له في جميع مباحثه العلمية وبنت لمبروزو تشتغل الى الآن مع والدها ومن هذا القبيل ان لمارك الشهير فقد بصره فلم يجد له معيناً على معيشته الا ابنته فكانت تلقي دروساً بالاجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمي وتكتب ما يمليه عليها حتى صار بمعونتها من اشهر علماء التاريخ الطبيعي

هذه الامثلة وغيرها مما يطول شرحه تدلنا على ان المرأة المهذبة يمكنها فضلاً عن تربية اولادها ان تعمل

كثيراً من الاعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . واي مصلحة للرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار في الاقامة والسفر في الصحة والمرض في السرّآء والضرّآء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجدُّ في منفعتها كما تجدُّ في منفعة زوجها واولادها ؟

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها امام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بفاضل الاعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته وتذيب همومه ؟

هذه الحياة التي لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من اعظم الينابيع للاعمال العظيمة . واقول ولا اتردد

في ما اقول اذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا الى حدٍ يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا واستمرّ الرجال على اهمال النساء وتركهنّ في هذه الحالة الساقطة التي يتألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون ولم يبادروا باعداد المرأة بالتربية الى ان تكون رفيقة مساوية للرجل وعشيرة عارفة بادارة بيتها وصديقة تفدي زوجها باعزّ ما لديها وأمّاً محيطة بما يجب عليها لاولادها عارفة بطرق تربيتهم فكل ما فعلناه الى الآن وكل ما نفعله في المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباءً منثوراً

هذا هو الحق الذي انتهينا اليه عند بحثنا عن اسباب تأخر الامم الشرقية عموماً والاسلامية خصوصاً

هذا الرأي الذي عرضناهُ على القراء اولاً نعرضهُ عليهم الآن مرّة ثانية . وكل ما نرجوه منهم هو ان « لا يضربوا به عرض الحائط » كما اشار عليهم كثير من اصحاب الافكار والكتاب الذين طعن اغلبهم في كتاب تحرير المرأة قبل ان يقرأهُ

لا خلاف في ان الامم الاسلامية في حالة ضعف شديد تستدعي المبادرة الى علاجها . فيتعين علينا ان نشخص هذا الداء بمعرفة اسبابه اولاً ثم نبحث عن دوائه ، كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هي اسباب الداء ؟

اسبابه تنحصر اما في الاقليم او في الدين او في العائلة

اما الاقليم فلا يصح ان يكون سبب الداء . لانه من المعلوم ان الأمة المصرية من اقدم الامم ويعترف لها المؤرخون بالسبق في ابتكار كثير من العلوم والصنائع التي انتقلت منها الى اليونان ثم الى الرومان ثم الى العرب ثم الى اوروبا . وظهر فيها اول دين كبير في العالم وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لا تزال آثارها مشهودة الى الآن وستبقى خالدة في ما لا يزال . وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة اجيال بل اتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الامم العظيمة وقهرتها واخضعتها لحكمها . ثم بعد فقد استقلالها حافظت على

وجودها وهيئتها رغماً عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التي توالت عليها . وهذا يدل على انها وهبت في طبيعتها حياة قوية وانها مستعدة للمقاومة في المزاحمة مع الامم الاخرى . فاذا كان الاقليم لم يعق الامة المصرية عن اتيانها باعظم الاعمال ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون فلماذا يصير مانعاً لها من الترقي في هذه الايام التي قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم ؟

على انه لم يثبت بادلة صحيحة يسندها العلم ان الحرارة تأثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً . وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقليم تفاوت في الامزجة والاخلاق بين الامم فمن المشاهد ان سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة وهذه الصفات النفيسة تعوضهم ما قد ينقصهم من الجلد والمثابرة في العمل

وفي الشرق اقاليم باردة وسكانها ليسوا اقل انحطاطاً في المدنية من سكان الاقاليم الحارة

واما نسبة تأخر المسلمين في المدنية الى الدين

الاسلامي فهو خطأ محض . من ذا الذي يقول ان الدين الاسلامي الذي يخاطب العقل ويحث على العمل والسعي يكون هو المانع من ترقي المسلمين وقد برهن المسلمون ان دينهم عامل من اقوى العوامل للترقي في المدنية ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخي ان يرتاب احد في هذه المسئلة . نعم ان الدين الاسلامي الصحيح قد تحوّل اليوم عن أصوله واستتر تحت حجب من البدع ووقف نموه وانقطع ارتقاءه من عدة قرون وظهر لهذا الانحطاط الديني أثر عظيم في احوال المسلمين ولكن هذا الانحطاط الذي ينسب اليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين في المدنية يحتاج نفسه الى سبب يُرد هو اليه فهو سبب ثانوي لا اولي

وعلى هذا فليس ما نراه في احوال المسلمين ناشئاً عن السببين المذكورين فان أحدهما لا تأثير له بالمرة والثاني يعد من الاسباب الثانوية . بقي عندنا السبب الثالث فهو الذي ينبغي ان تنسب اليه هذه الحال التي نشكو منها .

فانحطاط المسلم كانحطاط الهندي والصيني وجميع سكان الشرق ما عدا اليابان ناشئ من حالة العائلة في هذه الجمعيات

وذلك ان العائلة هي اول شيء يقع تحت حواس الانسان في اول نشأته وهي الشيء الثابت المستمرّ الذي يراه دائماً . فاذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال وبهذا التعلق يخطو الخطوة الاولى في سبيل ارتقائه حتى اذا صار رجلاً وجد من حاله الشخصي ما يساعده على هذا الارتقاء

فالارتقاء حينئذٍ له دوران الاول دور اعدادي يقطعه الانسان في مدة طفوليته وصباه وفيه ترتسم في نفس الطفل صفات الترتيب والتنظيم وينشأ فيه الميل الى الفعال الجميلة وتتوجه نفسه الى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة . والثاني دور عملي يقطعه الانسان من سن الرجولية الى آخر العمر

وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون الى الظهور في العمل

فان اهمل الاعداد في الدور الاول استحال صعود الشخص في درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم في المدارس ومهما كانت التعاليم الادبيـة او الدينية التي تلقى عليه فهو يعيش كالطائر الـذي قُصَّ جناحاهُ كلما همَّ ان يطير سقط . ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم الى حظهِ ورضي بهِ وانتهى الحال الى ان يفضله على كل شيء سواه

ذلك لان التعليم سواء كان دينياً أو علمياً لا يمكن ان يكون له اثر نافع الا اذا وجد من النفس عوناً على النجاح كما ان البذرة مهما كانت جيدة لا تنبت الا في الارض الصالحة لنموّها

يقضي اولادنا الآن اوقاتهم في تعلم القراءة والكتابة واللغات الاجنبية ومطالعة العلوم سنين ثم ينتقلون الى علوم اخرى اعلا وارفع من تلك فاذا انتهت مدة الدراسة

ودخلوا في ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم أن يكونوا بيننا رجالاً ذوي احساس شريف وعواطف كريمة واخلاق حسنة وهمم عالية رجالاً يشعرون ويعملون ورجونا منهم ان نجني ثمار هذا التعليم الذي بذل في سبيله النفيس من الوقت والمال . ولكن وا اسفاه نرى آمالنا فيهم خائبة . نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوباً يابسة وهمماً صغيرة وعزائم ضئيلة . اما العواطف فهي بالتقريب فيهم معدومة . فلا يروق لاعينهم منظر جميل كما لا ينفرهم مشهد قبيح ولا يعطفهم حنو ولا تبكيهم مرحمة ولا يحترمون كبيراً ولا يستصغرون صغيراً ولا تحركهم منفعة الى عمل مهما عظم نفعه

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم في أول السن . هذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل لا يظهره ولا يقويه ولا ينميه الا التربية البيتية . ولا عامل لها في البيت الا الأم . فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس في

نفسه الاخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة .
واشد من هذا كله اثراً في نفسه ظهورها في عينيه متحلية بهذه الصفات فيقلدها من غير فكر ثم يعتاد على ذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه لا يمكن أن تنسلخ عنها

ولا يكون لنفسه شيء من ذلك اذا قضى زمن صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع في روحه مثال من هذه الامثلة . فلو ادركها بعد ذلك بالتعليم كانت محفوظات في ذهنه لا ينفذ منها شيء الى باطن نفسه . فلا يحدث لهُ منها شعور صحيح يكون داعية للعمل وحاثاً عليه

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافي في وصف ما يكابده العاشق من مرارة العشق وآلامه وهم لا يعشقون . وخطباءنا يلقون على اسماع غيرهم احسن المقالات في حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ولا يأتي قائل منهم بشيء يبرهن بهِ على انهُ شاعر بما يقول وترى ان

اهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعوراً بالاحساس الديني الحقيقي • وترانا جميعاً منصرفون عن كل شيء• ونحن نطلب كل شيء• :

بينما كنت اكتب هذه السطور اطلعت في جريدة المؤيد على رسالة لحضرة الفاضل ابراهيم بك الهلباوي حررها وهو على ظهر المركب التي سافر فيها في هذا العام الى اوروبا• وقد اعجبني من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخي كاتبها الصدق في القول • والذي دعاني للكلام عليها هنا هو ان حضرة ابراهيم بك الهلباوي شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد في صدره عند ما مر على جزيرة كريد فقال :

« هذه اول مرة انكشفت فيها لعيني هذه الجزيرة »
« بعد انسلاخها من حكم الدولة واعطاء اوروبا اياها »
« هدية لثاني انجال ملك اليونان • وقد حاولت حال »
« المرور بها ان اتذكر بحسرة وجزع الحوادث التي »
« سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير من قتل »

« وسفك دماء مسلمي هذه الجزيرة وما نالهم من »
« الذل والمظالم ثم مصادرة من بقي منهم في اموالهم »
« وثمرات اتعابهم كمسلم حقيقي يألم بمصاب اخيه فلم تجد »
« نفسي في جسمي دماً يتأثر ولا بقلبي محلاً للأسف »
« أو الرحمة »

« ولما تساءلت مع وجداني عن سبب هذا الجمود »
« وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب قات »
« لعل ذلك لكثرة ما لحقنا منها حتى تدمم القلب »
« واوشك أن يقال عنه تكسرت النصال على النصال »
« وقد بدا لنفسي جواب آخر على عدم الاكتراث »
« بما اصاب مسلمي كريد لم يبعد عني اختلاج النفس »
« بالاسف على مصابهم فقط بل اوشك أن يخجلني »
« حيث مر بخاطري حسبان ذلك المصاب . ذلك اني »
« قبل المجيء الى الاسماعيلية كان آخر سفري على خط »
« السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ثم اتجه »
« القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهي المرة الاولى في »

« حياتي التي مررت بها على التل الكبير والقصاصين »
« والحسمة ونفيشة هذه المواقع التي اتخذت خطوطاً »
« للدفاع ضد الجيش الانكليزي في سنة ١٨٨٢ . والشأن »
« ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الاولى يحرك »
« لوعة الاسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها . »
« ومع ذلك لم اجد ألماً أو اضطراباً »

هذا ما كتبه احد رجال العصر بين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن . واذا اردنا أن نصدق في القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا اذا مررنا نحن ايضاً على هذه البقاع وشاهدناها فلا تحرك نفوسنا اكثر مما تحركت نفسه ولا تشعر باكثر مما شعر

ومن البديهي أن هذا الجمود كما سماه صاحب هذه المقالة ليس منشأه ان ابراهيم باشا الهلباوي رجل جاهل او لا يعرف أن محبة الوطن واجبة . وليس سبب هذا الجمود ما توهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة ما لحقنا من المصائب . لان توالي المصائب لا يذهب

بالشعور من النفس ولا يضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم

وانما السبب الحقيقي لفقد الشعور الى هذا الحد هو اهمال تربية العواطف عندنا في زمن الطفولية وتبع ذلك ان اعصابنا اصبحت لا تتأثر الاّ بالاحساسات المادية التي تقع عليها مباشرة وصارت غير قابلة للتأثر بالمعاني النفيسة

رأيت مدة وجودي في فرانسا طفلاً عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبي على فرقة من العساكر الفرنساوية وهي عائدة من حرب التونكين . فلما مر امامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيي العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه . فاحسست ان الوطن تجسم لهذا الطفل في العلم الذي مر امامه وأثار فيه جميع الاحساسات التي بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلاً كاملاً . اما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور الى انهم صاروا يعملون اعمال الاطفال فكان الكثير من النساء

يُقبّل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهنّ واغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم في الطريق

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها وعنها من الاحاديث امام الاطفال ينغرس الشعور الوطني في نفوسهم ويزهر ويثمر . وهكذا الحال في تربية الفضائل الاخرى

فانحطاط المصري انما هو ناشيء من حرمانه من هذه التربية الاولى . ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات ولا يهتم احد من اهلهِ الاّ باعطاءه التغذية والملبس . فهم يعتنون به كما يعتني اي انسان بحيوان يحبه . فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الاساس هو بناء على الرمل لا يلبث ان ينهار مهدوماً

وبالجملة ان التربية تنقسم الى قسمين تربية العقل وهي التي توجه مدارك الانسان الى اكتشاف حقائق العالم وتربية الروح وهي التي توجه ارادته الى الخير وتميل باحساسه الى الجميل . وكلتاهما لازمتان لسعادة الانسان

اما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس واما التربية الروحية فلا تكتسب الا في العائلة . ولا يمكن اكتسابها في العائلة الا اذا كانت الام هي اول من يديرها ولا يمكن ان تديرها الام الا اذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلي والادبي لهذا قلنا ان المصريين اذا ارادوا ان يرتقوا وجب عليهم ان يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية

ومما يوجب الاسف ان المصريين لم يفهموا الى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم في حين ان رجالا من مسلمي الهند قد صمدوا بفكرهم وتوصلوا بابحاثهم الى ادراك شأن المرأة في الهيئة الاجتماعية واحاطوا بما لوظيفتها من الاهمية . وقد قام رجلان من اعاظمهم احدهما الامير علي القاضي والثاني عناية حسين

« فنشر الاول مقالة جليلة موضوعها النساء في الاسلام ترجمت في مجلة المقتطف في عدديها الصادرين في شهر يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب ما يأتي :

ما من مقياس يقاس به ارتقاء الامم مثل منزلة »
« المرأة فيها فاذا اراد مسلمو الهند ان يرتقوا وجب »
« عليهم ان يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التي كانت فيها »
« في صدر الاسلام »

« وكفى من تاريخ روسيا الحديث دليل على »
« ارتباط تقدم الامم المادي والمعنوي بمقام المرأة فيها »
« فقد بقيت نساء الاشراف في روسيا متحجبات الى »
« بداءة القرن الثامن عشر يعشن في بيوت بل في »
« سجون لا يدخلها النور ولا الهواء أسدلت الاستار »
« على كواها واحكمت الاقفال على ابوابها ووضعت »
« مفاتيحها في جيوب الآباء والازواج . واذا اريد نقلهن »
« من مكان الى آخر نقلن في عربات متحجبات »
« متبرقعات كما تنقل النساء في بلاد الهند . فلما فكت »
« قيود النساء وجارين الرجال في العلم والتهذيب وصرن »
« من دعائم الهيئة الاجتماعية صارت بلاد الروس من »
« اعظم ممالك الارض »

« كانت شمس المعارف في المشرق فانتقلت الى »
« المغرب فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى في »
« اعلاء شأن نساءنا له عندنا شكر ولكن لا يغير الله »
« ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »
« ولا بد ان يسأل سائل هل كان نساء الخلفاء »
« وغيرهنَّ من النساء يبرزنَ ملتفات بالاكفان كالنساء »
« الشرقيات في مدن الشرق الآن . ويظهر لي انهنَّ »
« لم يكنَّ يلبسنَ غير النقاب يسترنَ بهِ وجوههنَّ كما »
« تستر نساء الاستانة الآن باليشمك فيخفي غضون »
« الشيخوخة ويظهر جمال الصبا اما البرقع الشامل »
« للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع الا في اواخر عهد »
« السلاجقة واما الاحتجاب بالبردة على ما هو شائع »
« الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان فلم يكن »
« معروفاً في تلك العصور والنساء من الطبقات العليا »
« كنَّ يظهرنَ امام الرجال غير متبرقعات »
« واستخدم العرب الخصيان في عهد معاوية آخذين »

« ذلك من الروم واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد »
« الأموي الثاني وأمر المتوكل — نيرون العرب — »
« بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات »
« العمومية . ولكن بقي النساء يختلطن بالرجال الى »
« اواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار »
« ويعقدن مجالس الانس ويمضين الى الحرب لابسات »
« الحديد ويساعدن اخوتهن وازواجهن في الدفاع »
« عن القلاع والمعاقل »

« ولما اضمحل شأن الخلفاء في اواسط المائة السابعة »
« ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون »
« في هل الاليق بالنساء أن يظهرن ايديهن او اقدامهن !

والقى الثاني خطبة في جمعية الآداب الاسلامية بمدراس في الهند ترجمت في جريدة المؤيد الصادر في ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتي :

« ولدينا نقطة اخرى عظيمة الاهمية لا ارى »
« مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها »

« اذ لا ترتقي امة ولا تسمو مملكة الا بواسطتها وهذه »
« النقطة هي تربية البنات . اذا لم تحققوا ايها السادة ان »
« النساء والرجال توأمان عاملان في الهيئة الاجتماعية »
« وانهم اما ان يقوموا معاً واما ان يسقطوا معاً فلا سبيل »
« الى الرقي ولا وسيلة الى التقدم والنجاح ولا نقدر ان »
« نقول ان اساس امتنا موطد الدعائم ثابت البنيان . »
« تذكروا ان الطفل هو والد الرجل وانه متى كانت »
« الامهات جاهلات لا يقدرنَ على بث انوار المبادئ »
« الادبية والتهذيبية في نفوس اولادهنَّ ولا يرقينَ »
« عقولهم ولا يقوينَّ ابدانهم بالوسائل الصحية فاننا »
نبقى الى الابد في آخر صف من صفوف الامم »

فانظر الى ما يكتبهُ رجال من اهل الفقه والعلم في الهند والى ما كتبه فقهائنا وكتابنا حيث قالوا ان المرأة لا شأن لها في ارتقاء الامم وانها لا يجب ان تتعلم الا ما يلزمها من فرائض دينها للعبادة ويسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة وقاموا جميعهم ينصحون الناس

بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير في طريق الكمال الذي اشرنا اليه بحجة انه تقليد للغربيين في عاداتهم ويوهمون ان الغربيين انفسهم متألمون من حال نسائهم !

وقد بينا بالتفصيل الاسباب الاجتماعية التي يلزم لاجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذي سقطت تحته ازماناً طويلة وبرهنا على انها هي صاحبة السلطة على الاخلاق والقابضة على زمام الآداب وانها هي التي تسوق الامم في طريق الخير والشر وانها لا يمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية الا اذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والادب

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب في شأن المرأة الغربية ومع علمنا بما هي عليه . ولا نرى مانعاً من السير في تلك الطريق التي سبقتنا فيها الامم الغربية . لاننا نشاهد ان الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يوماً فيوماً ونرى ان البلاد التي يتمتع فيها النساء بحريتهن

وبجميع حقوقهن هي التي تسير كالدليل امام الامم الاخرى وتهديها في سبيل الكمال في المدنية . ومن جهة اخرى نرى ان جميع الامم التي حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف وهي في ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة لا يظهر التفاوت بينها مع اختلاف الاقاليم وتباين الشعوب والاديان

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ولا يمكن لعاقل ان يجادل فيه

اما ما زعموهُ من ان الاوربيين يتألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهن فذلك موضوع آخر غير ما نحن فيه . ومسئلة النساء التي هي موضوع بحثنا في بلادنا غير مسئلتهن في ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين . فاننا في هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسميه وانالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينها من اداء وظائفها في البيت . وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربي مهما انحطت درجته في العقل والاحساس

وانما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ومن طلبهن مساواة الرجال في حقوقهم السياسية

وحينئذٍ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة او خلط بين موضوع وموضوع . اذ كل انسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله

هذه حرية الصحافة هنا وفي بعض بلاد اوروبا قد ساء استعمالها الى حد ان صار كل انسان يتألم منها ولكن لم ينكر عاقل في ان يدعي ان الواجب هو الحجر على الافكار لان هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذي يرام معالجته

فالاسباب التي يبني عليها كتابنا رأيهم في الحجر على حرية النساء هي عين الاسباب التي انتحلتها الحكومات الشرقية لحرمان ابنائها من حرية القول والكتابة والعمل . وهي التي اغرت متأخري المسلمين بقفل باب الاجتهاد في التوفيق بين احكام الدين وحاجات الامم على اختلاف

الامصار والاعصار مع عدم الخروج عن الاصول العامة التي قررها الكتاب والسنة الصحيحة . وهي التي زينت للآباء عندنا ان يستعملوا في تربية اولادهم وسائل القسوة والغلظة . وهي التي كانت تقضي على الحكام عندنا من عهد ليس ببعيد بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها اثمان اللحم والخضار والمآلي واغلب ما يباع ويشترى في الاسواق

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التي تظهر في بعض احوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم . وقد يكون من اسباب تلك الغفلة ان وجوه المنافع في احوال الناس وهي جهات حسنها تخفى عادة على من ينظر اليها نظراً سطحياً اما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم . لانها تتشكل باشكال الجرائم والفظائع التي تنفر منها النفوس . فاول ما تتجه اليه النفس النافرة هو ان تمحو هذا الاثر باية طريقة . واقرب الطرق واسهلها في بادئ الامر هو العنف والشدة

ولكن المتأمل اذا روّى في الامور يجد أن لسير الانسانية قوانين خاصة يجب مراعاة احكامها في نموّ الحياة واستكمال قواها سواء في الافراد او في الاجتماع وان كل مخالفة لهذه القوانين لها اثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفرد او الهيئة الاجتماعية

اذا تقرَّر هذا فسلب المرأة حريتها هو اكبر مخالفة لقوانين نموّها العقلي والادبي . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها في اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في منع بعض النساء من اتيان ما ينشأ عنه ذلك الضرر ولكن من المحقق انه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً وهو تعطيل النموّ في ملكات صنف النساء بتمامه

وبالجملة فاننا لانهاب ان نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهنَّ في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهنَّ بالتربية حتى لو كان من المحقق ان يمررنَ في جميع الادوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات . لاننا على

ثقة من ان جميع المطالب التي يطمح اليها نساء الغرب في هذه الايام ليست من المسائل التي يعضل حلها و يدوم القلق بسببها بل يقضي فيها المستقبل بحكم العقل والحق وربّ سائل يسأل الى مَ تنتهي هذه الادوار التي تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب ان ذلك سرّ مجهول ليس في طاقة احد من الناس ان يعلمه . وكما اننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتي سنة كذلك لا يمكننا ان نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة . وانما نحن على يقين من امر واحد وهو ان الانسانية سائرة في طريق الكمال . وليس علينا بعد ذلك الا ان نجدّ السير فيه ونأخذ نصيبنا منه

التربية والحجاب

لو لم يكن في الحجاب عيب الا انه منافٍ للحرية الانسانية وانه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره الرجل — لو لم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده في مقته وفي ان ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرّر ان تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن أن يستغنى عنها فما هي التربية التي تناسبها ؟ هل

يناسبها تربية كتربية الرجل او تخص بتربية اخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب او لا بد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة او يرجع فيها الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل في باب التربية والحجاب وقد دار البحث والجدال فيها في العام الماضي بين كثير من الكتاب والآن نريد ان نبدي رأينا فيها على غاية من الوضوح

ففي المسألة الاولى — لا نجد من الصواب ان تختص تربية المرأة عن تربية الرجل

اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات التي تشارك اقاربهن الرجال في اغلب الرياضات البدنية . ويلزم ان تعتاد على ذلك من اول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع والا ضعفت

صحتها وصارت عرضة للامراض . ذلك لان النواميس الطبيعية تقضي بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم وما يفتقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها . والامراض التي تصيب الانسان بسبب اهماله استعمال قواه الجسمية ليست باقل عدداً ولا باخف ضرراً من الامراض التي تصيب من ينفق قوته ولا يعوض بالتغذية ما فقد منها . ثم ان ما تقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة في مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته . ولا يحتمله من النساء الا قويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدني المتمتعات بالهواء النقي . أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات ولذلك فان اكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الاولى وكثيراً ما يهلكن فيها فقد بلغ عدد من يموت منهن في النفاس اكثر من ثلاثين في الالف

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والامراض كذلك يلزم العناية بصحتها حرصاً على صحة اولادها ووقايتهم من العلل . لان ما يعرض على مزاج الام وما يكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

واما من جهة التربية الادبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق وائتمنتها عليها . فهي التي تصنع النفوس وهي ساذجة لا شكل لها فتصوغها في اشكال الاخلاق وتنشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقاً الامة بعد ان كانت اخلاقاً للعائلة كما كانت اخلاقاً للعائلة بعد ان كانت اخلاقاً للأم . هذا يدلنا على ان المرأة الصالحة هي انفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي اضرّ عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس في كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا

تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلي من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل

بقي علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية . هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التي ترمي اليها هي ان يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات وفيها نفسه حتى اذا عرف ذلك على حقيقته امكنه ان يوجه اعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة المعرفة فيعيش سعيداً

والمرأة كالرجل على حد سواء في الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ولا فرق بينها وبينه في التشوق الى استطلاع عجائب الكون والوقوف على اسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها

ومهما عظم اشتغال المرأة متزوجة او خالية ذات اولاد أم لا فانها تجد من الوقت ما تثقف فيه عقلها وتهذب نفسها

ولو خصص نساءنا للمطالعة عشر الوقت الذي يقضينه اليوم في البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهنّ الامة المصرية ارتقاءً باهراً

ولا تحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضاً لتعلم اصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات واحوال الانسان كما انها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها

والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد . حتى اذا انتهت مدة تعليمها في المدارس استمرّ شوقها الى الحق فتتحرك دائماً اليه وتمتبر به

وأضيف على ذلك انه ينبغي على البنت ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بد هنا من استلفات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل في نفسها الى الفنون الجميلة. واني على يقين من ان اغلب القرآء لا يستحسنون ان تتعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة في الاشتغال بهذه الفنون ومنهم من يعدها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون في بلادنا الى حدٍ يأسف عليه كل من عرف ما لها من الفائدة في ترقية احوال الامم

فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم لان العلم يعرفنا الحقيقة وهذا الفن يحببها الينا لانه يبديها لنا على الشكل الاكمل الذي يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل الى الكمال . والكمال شيء يدركه عقلنا لكنه لا يقع تحت حواسنا فلا يمكننا ان نتصوره الا اذا صار مجسماً امامنا في شكل لطيف نحسّ به. ومتى رأيناه في هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته . وكلما كان صاحب

الفن ماهراً في فنه حاذقاً في صناعته كان صنعه اقرب للكمال وكانت النفس اكثر ميلاً اليه واشد اعجاباً به واعظم سروراً بالاحساس به

واتمن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها افصح لغة تعبر عما في ضمائرنا والذ ما يرد على مسامعنا . ومن احسن ما وصفت به قول افلاطون :

« ان الموسيقى تبعث الحياة في الجماد ويسمو بها »
« الفكر ويرتقي الخيال وتبث في النفس الفرح والسرور »
« وترفعها عن الدنايا وتميل بها الى الجمال والكمال . »
« فهي من عوامل الادب للانسان »

هذه هي التربية التي نود ان تكون للبنات وقد بيناها اجمالاً لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلاً . هذه هي التربية الكاملة التي تيسّر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتمدها لأن تكون انساناً يكسب عيشه بنفسه وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء وأماً صالحة لتربية اولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمرها فما الذي ينبغي ان تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب في بيتها وتمنع عن مخالطة الرجال أو تطلق لها الحرية في ذلك ؟ هذا هو موضوع البحث في المسئلة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط

رأى المنتقدون على تحرير المرأة اننا تطرفنا في مسئلة الحجاب واننا اشرنا برفعه تقليداً للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائه والمحافظة عليه وقالوا ان الذي حط بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلو تربت تربية حسنة امكنها وهي في في الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام

على اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل او كُتب في هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار

البحث فيه الا وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليه

ولا نرى سبباً للخلاف بيننا وبين مناظرينا الا الاختلاف في فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هي التعلم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير في المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانه متى نال هذه الورقة السيكة التي سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) عُدَّ بالغاً في العلم والادب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد ان التربية لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيده الصبي من ذلك في ايام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه

ذلك لان الصبي في السنة الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمره لا يعرف من العلم الا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها في جمل مختصرة . ومهما كانت هذه القضايا علمية او ادبية فلا قيمة لها الا بظهورها في العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحدد دائرة

تطبيقها والحد الذي يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التي تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها . هذه التطبيقات هي الواسطة الوحيدة في فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الا ألفاظ وخيالات

لهذا لا يخطر على بال رجل عاقل ان يسلم نفسهُ الى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولا يختار محامياً للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمناً كافياً

وكذلك الحال في الآداب والاخلاق . اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهره نفسه ولكن لا شيء اصعب في العمل من ان يأتي ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة .ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينهُ وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الادبية

وانما تتولد بالتمرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها

فزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ اعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدركات

قال سبنسر في هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لا فائدة من التربية التي تجعل الانسان مستودعاً »
« لافكار غيره لأن الكلمات التي توضع في الكتب »
« لا يمكن ان تنتج معاني الا على نسبة التجارب »
« المكتسبة »

وقال ادمون ديمولان عند كلامه على التربية الادبية نقلاً عن ترجمة صديقي احمد فتحي بك زغلول :

« ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى »

« ان الامم التي بلغت فيها همة الانسان منتهاها هي »
« ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق »
« وتبقى المحامد وبيانه ان المؤثر الادبي انما يجعل المرء »
« قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس »
« من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها »
« اشد فعلاً من الحياة المالية التي يتعلم فيها ان لا اعتماد »
« الا على نفسه . وليس من مربٍ يأخذ بمجامع القلوب »
« اكثر من تلك الحياة . فهي التي تقود المرء الى الحياة »
« الحقيقية . وهي المدرسة الطبيعية التي تريه كيف »
« يتحمل المتاعب والرزايا وهي الاسهل تناولاً والاكثر »
« شيوعاً وطلاباً . تلك ضرورات اشد فعلاً في النفوس »
« من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين »
« الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج »
« من الاخرى . ذلك لان الاعمال تدعو الى العمل »
« اكثر من الاقوال »

فالتجارب هي اساس العلم والادب الحقيقي

والحجاب مانع للمرآة من ورود هذا المنبع النفيس لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم الا من نوافذ الجدران او من بين استار العربة ولا تمشي الا وهي كما قال الامير علي القاضي « ماشية بكفن » لا يمكن ان تكون انساناً حياً شاعراً خبيراً باحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

ولا يكفي لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين في المدرسة ثم تنتقل منها الى بيت تحجب فيه بقية عمرها بل يلزم ان نستمر في الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ونشركها في حياتنا الطبيعية . يلزم ان نضع يدنا في يدها ونسير معها في الارض ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر . يلزم ان تقاسمنا افكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يعرض فيها من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملنا على رعاية

الحشمة والتأدب في القول

يقول معترض : « انا نراك تريد ان تحسن حال »
« المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربيـة فهلا »
« أعرت تمدننا القديم الذي كان من اصوله احتجاب »
« النساء نظرة وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى »
« مجدها القديم فتلتفت الى اصوله لفتة علمية ترى انه »
« هو المجد الصحيح الذي يجب ان نشد له رواحل »
« العزائم والذي سيتضح للعالم اجمع يوماً ما انه هو »
« نفس الكمال الذي ينشده الانسان ويلتمسه الوجدان »

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارىء سماعه لطلاوة لفظه وربما ينجذب اليه لانه يحرك الميل الغريزي الموجود في كل انسان الى التعلق باثار الآباء والاجداد . ولكن الاجدر بنا ان لا نجعل للفظ تأثيراً فينا الى حد يذهلنا عن الحق . وعلينا ان نأخذ اهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لايحتاج الى التحريض والترغيب لانه

حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها فهي مستغرقة فيها من ذاتها وانما الذي يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضارّ واعتناق مستقبل نافع

اذا امكننا ان نأخذ تلك الاهبة كان من اهمّ ما يجب علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي القديم ونرجع اليه . ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر في اسباب ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان

ظهر الدين الاسلامي في جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون في حال البداوة اسيء في ادنى الحالات الاجتماعية فاوجد بينهم رابطة ملية واخضعهم الى رئيس واحد ووضع لهم شرعاً نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة في معاملاتهم من قديم الزمان . ولما امرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الامم الاخرى واستولوا عليها ولم يكن

ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الامم في العلوم والصنائع ولكن كان بروح الوحدة التي بعثها الاسلام فيهم مع استعدادهم الفطري للقتال . فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الامم كثيراً من العلوم والصنائع والفنون فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم وسمحوا لاولئك المغلوبين ان يأتوا في ترقيتها بما شاؤا . وظهرت عند ذلك نهضة علمية كما هو الشأن في الامم عقب كل انقلاب يجري لغاية صالحة استمرّت مدة اربعة قرون تقريباً

على هذين الاساسين شيدت المدنية الاسلامية الاساس الديني الذي كوَّن من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . والاساس العلمي الذي ارتقت به عقول الامة الاسلامية وآدابها الى الحد الذي كان في استطاعتها ان تصل اليه في ذلك العهد

ولكن لما كان العلم في تلك الاوقات في اول نشأته

وكانت اصوله ضروباً من الظنون لا يؤيد اكثرها بشيء من التجارب كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين فتغلب الفقهاء على رجال العلم ووضعوهم تحت مراقبتهم وزجوا بانفسهم في المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث انهم لم يأتوا اليها من بابها ولم يجهدوا انفسهم في فهمها اخذوا يؤلون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا منها ادلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على ان يسيئوا الظن بها وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بان العلوم جميعها باطلة الا العلوم الدينية . بل غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها انها لا بد ان تقف عند حد لا يجوز لأحد ان يتجاوزه . فقرروا ان ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد ان يخالفه وكأنهم رأوا من قواعد الدين ان تسد ابواب فضل الله على اهله اجمعين

هذا النزاع الذي قام بين اهل الدين واهل العلم ولا اقول بين الدين والعلم لم يكن خاصاً بالامم الاسلامية بل وقع كذلك عند الامم الاوروبية . ولكن لما كانت هذه الامم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب وكان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينها لم تحتج اوروبا الى زمن طويل في اكتشاف الاصول الحقيقية لتلك العلوم . وقد نالت منها في مائتي سنة ما لم ينله غيرها في آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضاً ويرشد بعضها الى بعض . فمنها اكتشاف قوانين سير الكون وتحليل الضوء وسرعة سيره وكيفية تكوُّن الاصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها وعلمت ماهية الحرارة وكيفية تكوُّن الكرة الارضية وحقيقة شكلها وتكون طبقات الارض وتقادم الاعصار عليها وعلى سكانها وضروب التغييرات التي طرأت عليها والادوار التي تقلبت فيها من وقت ان كانت كتلة نارية الى ان ظهر فيها النوع الانساني بعد جميع الانواع الاخرى . ثم عرفت

قوانين الحياة ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم وخصائص قوى الادراك وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى . وصححت وكملت اصول الكيمياء والطبيعة

من هذه الاكتشافات اخذ الكتاب والفلاسفة ما دعت اليه الحاجة ليعلموا الانسان من اين اتى والى اين يذهب وما هو مستقبله ووضعوا اساس العلوم الادبية والاجتماعية والسياسية

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متيناً لا يمكن لعاقل ان يفكر في ان يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين في اوروبا بعد النزاع والجهاد وانتهى الحال بان صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة

فاذا كان التمدن الاسلامي بدأ وانتهى قبل ان يكشف الغطاء عن اصول العلوم كما بيناه فكيف يمكن ان نعتقد ان هذا التمدن كان « نموذج الكمال البشري » يهمنا ان لا نبخس اسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم

ولكن يهمنا مع ذلك ان لا نغش انفسنا بان نتخيل انهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس ورآءها غاية نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها. لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه لانه يحتوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ويجب عليه ان يعجب به لانه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية

اما من جهة العلوم فالامر ظاهر لما سبق بيانه

واما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند اهل تلك العصور ما يستحق ان يسمى نظاماً فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة او سلطان غير مقيد يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين فكان الحاكم وعماله يجرون في ادارتهم على

حسب ارادتهم فان كانوا صالحين رجعوا الى اصول العدالة بقدر الامكان وان كانوا غير ذلك خرجوا عن حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ولم يكن في النظام ما يردهم الى اصول الشريعة

ربما يقال ان هذا الخليفة كان يولى بعد ان يبايعه افراد الامة وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الامر . ونحن لا ننكر هذا ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب الآ بعض دقائق هي سلطة لفظية . اما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الامر . فهو الذي يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرّر الضرائب ويضع الاحكام ويدير مصالح الامة مستبداً برأيه ولا يرى من الواجب عليه ان يشرك احداً في امره

ومن الغريب ان المسلمين في جميع ازمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الامة الرومانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ

مصالح الامة وحريتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في ادارة شؤونها

واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الاعمال التي وجدوا انها تستحق العقاب ويحدد العقوبات عليها بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء . مع ان بيان الجرائم وعقابها هو من اوليات اصول العدالة

ولست محتاجاً ان اقول انهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان هذه العلوم حديثة العهد . واذا اراد مكابر ان يتحقق من ذلك فما عليه الان يتصفح مقدمة ابن خلدون وهو الكتاب الفرد الذي وُضع في الاصول الاجتماعية عند المسلمين يرى ان الاصول التي اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطاء ويندهش على الخصوص عند ما يرى ان هذا الكتاب الذي وُضع للبحث في المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة في العائلة التي هي اساس كل هيئة اجتماعية

فاذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى فما الذي يطلب منا ان نستعيره منها ؟

كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجد انها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفي في عقد زواجه بان يكون امام شاهدين ويطلق زوجته بلا سبب او باوهى الاسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمرّ الى الآن على ما هو مشهور ولم يفكر احد من الحكام او الفقهاء في وضع نظام يمنع ضرر انحلال روابط العائلة . واقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل ان يقرّروا مثلاً ان ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لا بد ان تكون امام مأمور شرعي حتى لا تبقى هذه الشؤون موضعاً للريب ومحلاً للشبهة ومثاراً للنزاع والشقاق

اين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الاوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية . بل اين هي من القوانين اليونانية والرومانية

التي لم تغفل في جميع ادوارها عن اهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية ؟ فاي شيء من هذا يمكن ان يكون صالحاً لتحسين حالنا اليوم ؟

بقي علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي من جهة الآداب . يعتقد اهل عصرنا ان المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع انواع « الكمالات الاخلاقية الصحيحة » وهو اعتقاد غير صحيح او على الاقل مبالغ فيه

اما من جهة اصول الأدب فالمعلوم ان المسلمين لم يأتوا للعالم باصول جديدة . فقد سبق المسلمين امم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم وقد كانت تلك الامم تعرف تلك الاصول وضمنتها كتبها ونزلت على بعضها في وحي سماوي

واما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الاصول الادبية فالتاريخ يشهد على ان كل عصر لا يخلو من الطيب والرديء والحسن والقبيح وقد وصلت الينا اخبار العرب مدونة في الكتب التاريخية والادبية

فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم واطلعنا على شعرهم وامثالهم واغانيهم فما وجدنا زمناً من الازمان خالياً من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى آخر ايامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن التباغض والحقد وحب الذات حتى في الاوقات التي كانت فيها الدولة مشتغلة باهم الحروب مع الامم الاخرى رأينا احد اولاد علي رضي الله عنه تزوج باكثر من مائة امرأة حتى التجأ والده ان ينصح الناس بان لا يزوجوه بناتهم . رأينا من الرجال من كان يعترض النساء في الطريق ويختلس النظر اليهنَّ من خروق الحائط . رأينا من امرائهم واعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعي ما يقول في مجالس تحضرها الجواري وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى . رأينا من شعرائهم من يستجدي العطايا ويمد يده ملتمساً رزقه من فضلات الامراء والاغنياء ومنهم من يمدح نفسه ويثني عليها ويذهب

في ذلك الى حد ٍ ليس بعده الا الجنون او يتغزل في ولد او يهجو خصمه بعبارات الفحش والفاظ الوقاحة التي يستحى من تصورها فضلاً عن التفوه بها . وأينا من مؤرخيهم من يزور في التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الاحاديث ويضعها لغايته الذاتية

فاي زمن من الازمان السابقة كان منزهاً عن العيوب حتى يصح ان يقال انه « نموذج الكمال البشري » الكمال البشري لا يجب ان نبحث عنه في الماضي بل ان اراد الله ان يمن به على عباده فلا يكون الا في مستقبل بعيد جداً

من اغرب ما اعتاد عليه العقل الانساني ان يظن ان العصر الذي هو فيه احط منزلة في الكمال من العصر الذي سبقه ومنشأ ذلك ان الابناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم فالكمال عندهم ما وجدوا عليه آباءهم ويزيد ذلك تقريراً في نفوسهم ان الآباء يستهجنون دائماً ما صار اليه ابناؤهم مما لم يكن

معهوداً لهم وهم لا يستطيعون ان يغيروا انفسهم فيكون وهم الابناء وغرور الآباء كل منهما عوناً للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضي

ولو صح ما يزعمون لكان اكمل انسان هو اول من وُجد من نوعهِ ولاستمر النقص عصراً بعد عصر الى هذا اليوم ولكانت نهاية الانسان أن يصير حيواناً اعجم . مع انه من الثابت ان عصوراً مضت على النوع الانساني وهو في ادنى مراتب الانسانية ثم ارتقى بالتدريج الى ان وصل الى هذه الدرجة العليا التي يحق له ان يفتخر بها

متى تقرَّر ان المدنية الاسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليه لا بما كانت في الحقيقة عليه وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة فسيان عندنا بعد ذلك ان احتجاب المرأة كان من اصولها او لم يكن . وسواء صح ان النساء في ازمان خلافة بغداد او الاندلس كنَّ يحضرنَ مجالس الرجال او لم يصح فقد صح ان الحجاب هو عادة

لا يليق استعمالها في عصرنا

ونحن لا نستغرب ان المدنية الاسلامية اخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطأها في ذلك اكبر من خطأها في كثير من الامور الاخرى

وغني عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التي يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التي اختصت بها . ذلك لان عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الا اثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الامم التي سبقت

والذي اراه ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الاهواء التي يجب ان تنهض جميعاً لمحاربتها لانه ميل يجرنا الى التدني والتقهقر . ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الا شعورنا باننا ضعاف عاجزين عن

انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن ان تستقيم بها مصالحنا . فهو صورة من صور الاتكال على الغير كأن كلاً منا يناجي نفسه قائلاً لها : اتركي الفكر والعمل والعناء واستريحي فليس في الامكان ان تأتي بابدع مما كان

هذا هو الداء الذي يلزم ان نبادر الى علاجه . وليس له من دواء الا انا نربي اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها

اذا اتى هذا الحين ونرجو ان لا يكون بعيداً انجلت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا انه من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة وان احوال الانسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية او ادبية خاضعة لسلطة العلم

لهذا نرى ان الامم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق

تربيتها ولغتها وكتابتها ومبانيها وطرقها بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والاكل . اما من جهة العلوم والصنائع فلا يوجد اختلاف الا من حيث كونها تزيد او تنقص في أمة عن أمة أخرى

من هذا يتبين ان نتيجة التمدن هي سوق الانسانية في طريق واحدة وان التباين الذي يشاهد بين الامم المتوحشة او التي لم تصل الى درجة معلومة من التمدن منشأه ان أولئك الامم لم تهتدِ الى وضع حالتها الاجتماعية على اصول علمية

هذا هو الذي حملنا « نضرب الامثال بالاوروبيين » ونشير بتقليدهم وحملنا على ان « نستلفت الانظار الى المرأة الاوروبية »

هذه مسئلة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيراً في ان اقف على رأي علماء المسلمين فيها من المتقدمين أو المتأخرين فما وجدت شيئاً . وقد نبهني احد اصحابي الى كتاب ألفه في هذا الموضوع حضرة

الشيخ حمزه فتح الله المفتش بنظارة المعارف وقد قرأته من اوله الى آخره فوجدته يحتوي على كل شيء ولكنه لم يشتمل على شيء مما وضع الكتاب لاجله . ومن الغريب ان الذين لم يرق في نظارهم اعجابنا بالاوروبيين اضطروا جميعهم بما فيهم الشيخ الازهري أن يستشهدوا في الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الاوروبيين نساء ورجالاً

فان كان منهم من يقول اني قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون قصير الباع في علومهم فانا لا اجادله في هذا وانما يسرني ويملأ قلبي بهجة ان ارى كتاباً اسلامياً قديماً او جديداً يحتوي على حقوق المرأة وما يجب عليها من حيث هي امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة . فان جاءني من يزعم قلة اطلاعي وقصر باعي بكتاب مثل هذا اتقاته حمداً وشكراً

سيقول ارباب الافكار عندنا انا نسلم بان المدنية الاوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التي توصلت

الى جمعها وانمائها واستخدامها ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة الاخلاق والآداب التي تلازمها في كل مكان وصلت اليه

فهم يعترفون للغربيين بانهم ارقى منا في العلوم والفنون والصنائع . ويعترفون بأن معارفهم اوصلتهم الى توجيه اعمالهم في طريق تحصيل منافعهم باحسن الوسائل الموصلة الى السعادة في هذه الدنيا ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض وخصوصاً كيفية معاملة رجالهم لنسائهم او سمعوا بها تغير حكمهم عليهم تغيراً كلياً واعرضوا عن فهم ما هم فيه وصرحوا بأنهم احط منا في الآداب . هذا الاعتقاد يشبه ان يكون عاماً فينا كما يلاحظه من يقرأ الجرائد ومن يلتفت الى الاحاديث التي تدور بين الناس . وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه

ذلك اننا نذعن بتقدم الغربيين علينا في العلوم والصنائع لاننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع اطرافنا

فكلما التفتنا الى جهة من جهاتنا وجدنا اثراً منها مشهوداً نراها في البيت في مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع ادوات المنزل واثاثه . نراها في المدرسة مدة التعليم ثم في النظامات التي تدور عليها جميع اصول وفروع ادارتنا وحكومتنا . نراها في الطرق على شكل عمارات فاخرة وحوانيت كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربائية . وبالجملة نرى في كل آن وفي كل مكان برهاناً مادياً لا يمكن معه الا التسليم باننا متأخرون عن الغربيين كثيراً في المعارف العلمية والصناعية

وكأنما نريد ان نمحو العار الذي يلحقنا من هذا الاعتراف ونأخذ بثأرنا فلا نجد وسيلة لذلك الا ان ندعي اننا ارقى منهم في الآداب وانهم ان سبقونا في الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم في الروحانيات وسرائرها

وانما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لان التقدم في الماديات مما يقع تحت الحس فلا يمكن انكاره اما

التقدم في الامور المعنوية فهو مما لا يدرك الا بالعقل فلا يقف عليه كل انسان ويجد المكابر في غيبته عن الحس مجالاً للانكار . وقد يساعد المكابر في مكابرته ما يراهُ أو يسمع به في البلاد الغربية من كثرة الملاهي ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيء العادات التي يتبرأ منها الغربيون انفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون في محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على ان مساعيهم تعجز عن الوصول الى ما يتمنون . فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب واتخذنا منها حجة لتأييد دعوانا

ومما آخذناه على الغربيين في آدابهم تكشف نساءهم واختلاطهنَّ بالرجال وتمتعهنَّ بالحرية التامة واحترام الرجال لهنَّ . وكثير منا يعد هذه العادات اسباباً لفشو الفساد فيهم ويعتقدون ان جميع نساءهم لا يعرفنَ العفة وكل الرجال مجردون عن الغيرة

ولما كانت غاية التمدن هي تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر

الفضيلة بين الناس كان لنا الحق في احتقار المدنية الاوروبية ان صح ما اعتقدناه فيها

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟

اما كون الآداب في الغرب احط منها في الشرق فهي مسئلة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ويمكننا ان نجمل الكلام عليها في قليل من العبارات :

ان العداوة القديمة التي استمرت اجيالاً بين اهل الشرق والغرب بسبب اختلاف الدين كانت ولا تزال الى الآن سبباً في ان جهل بعضهم احوال بعض واساء كل منهم الظن بالآخر وأثرت في عقولهم حتى جعلتها تتصور الاشياء على غير حقيقتها . اذ لا شيء يبعد الانسان عن الحقيقة اكثر من ان يكون عند النظر اليها تحت سلطان شهوة من الشهوات . لانه ان كان مخلصاً في بحثه محباً للوقوف على الحقيقة وهو ما يندر وجوده فلا بد ان شهوته تشوش عليه في حكمه . وأدنى آثارها ان تزين له ما يوافقها وتستميله اليه . وان كان من الذين لا منزلة

للحق من نفوسهم وهم السواد الاعظم ضربوا دون الحق استاراً من الاكاذيب والاوهام والاضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لا يبقى لشعاع من اشعة الحق منفذاً الى القلوب

وزد على ذلك ان التربية العلمية لم توجد في العالم الغربي الا من زمن قريب وهي لا تزال الى الآن مفقودة في الشرق . والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه ان يبني احكامه على مقدمات صحيحة . لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله . فهو لا يستحسن الشيء لانه مطابق للحق وانما يعتقد الشيء مطابقاً للحق لانه يستحسنه . بخلاف المتعود على الابحاث العلمية فان عقله لا ينخدع باحساسه . فكلما اراد ان يشتغل بمسئلة طبيعية أو تاريخية مثلاً جمع الحوادث التي تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التي يحكم بصحتها بناء على ما حصل من المقدمات غير صادر في ذلك الا عن حب الحقيقة . فاذا عرض له ان يشتغل بالنظر في حال

جاره او عدوه استعمل الطريقة التي ألفها وسلم بما تؤدي اليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه

ولقد وصل الغربيون الى درجة رفيعة من التربية واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن احوال الشرقيين والمسلمين وكتبوا في عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتباً نفيسة اودعوها آراءهم ونتائج بحثهم وامتدحوا ما رأوه مستحقاً للمدح وقدحوا في ما رأوه محلاً للقدح غير ناظرين في ذلك الا الى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم اخطأوه . أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ . ولهذا كان حكم كتابنا في هذه الاشياء في قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والألف والعادة . ومن وجد لشعاع الحق لمعاناً في بصيرته وجد من خوف اللائمة عقلة في لسانه تمنعه من اظهاره او حمله الرياء على اطالة القول في تأييد ما لا يعتقده فاذا وُجد بينهم مخلص في القصد

طالب للحق وجهر به كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة . واشدهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة توهماً منه ان الاعتراف بفضل الاجنبي مما يزيد طمع الاجانب فينا وان اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس في قلوبنا

ولا عذر لهم في حكمهم هذا الآ انهم قد جروا فيه على سنتهم في سائر احكامهم . والآ فهم مخطئون لان السبب في طمع الاجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا وانما هو نفس ذلك الانحطاط الذي عرفهُ الاجانب منا قبل ان نحس بهِ من انفسنا . فهم قد اكتشفوا ما كانت عليهِ بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ووقفوا على اخلاق المصريين وتفصيل احوالهم في معيشتهم ايام الفراعنة وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئاً كثيراً لم يصل الينا الا منهم وقليل منا من يعرفهُ . فلا عجب ان يكونوا اسبق منا الى معرفة حالتنا الحاضرة نقصها وكمالها

ثم لا خوف ان يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا

لأن اليأس انما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة الينا . خصوصاً ان الامم لا تقف في حياتها عند حد بل هي موضوع للتقلبات والتغيرات . وتتوارد عليها احوال القوة والضعف والشدة والرخاء . فلا تدوم على حال . واذا عرضت عليها الشدة يوماً لا تلبث ان تخرج منها بجدها واجتهادها . وبديهي ان التوجه الى الاصلاح والكمال لا يكون الا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الامة بتأخرها عن الامم الاخرى وتقصيرها عن الوصول الى ما وصل اليه غيرها من غايات الكمال لا تنبعث الى التقدم ولا تتحرك لادراك غاية من هذه الغايات . ولذلك كان تنبيه الامة الى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الامم اول فرض يجب القيام به . كما ان شعور الامة بهذا النقص يعد اول خطوة في سبيل ترقيتها

لهذا لا نتردد في ان نصرح بان القول باننا ارقى من الغربيين في الآداب هو من قبيل ما تنشده الامهات

من الغناء لتنويم الاطفال

وغاية ما في الامر ان تقدم الاوروبيين علينا من هذه الجهة لا يقام الدليل عليه باثار مادية كتقدمهم في العلوم والصنائع وانما يعرفهُ من خالطهم واختبرهم في ظاهر شؤونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الادبية

ينقسم الاوروبيون كما تنقسم سائر الامم الى ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . فاما الطبقة الدنيا فاكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم وهم في اخلاقهم الشخصية اشد فساداً من عامتنا في اخلاقها

واما الطبقة العليا فتصيب حظاً عظيماً من التربية العقلية ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة . وتستولي عليها الشهوات . فهم يتفننون في اللذائذ تفنن اهل الجد في الاختراعات والصنائع

وسبب ذلك ان التمدن الذي يعيشون فيه يسهل

لهم ارضاء شهواتهم ويجدون من الوسائل لذلك ما لا يوجد عندنا فابدعوا في اختراع طرق التلذذ واعطوها الاشكال التي تجذب النفوس اليها . فالكهرباء مثلاً التي تضيء المدن وتنقل الاخبار وينتفع منها الزارع والتاجر والصانع والمسافر والمريض تقوم لارباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذي يناسبهم . وكذلك ترى لهم جرائد وكتباً وميادين تمثيل تختص بهم كما ان لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة

هذا الفساد مما تحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لانها لا تستطيع محوه . فان هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية فهي مضطرة لان تقبل ما يتبع هذه هذه الحرية من الضرر لانها تعلم ان منافعها اكثر من مضارها

فوجود الفساد في الغرب انما هو لاحق طبيعي من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها في الطور الادبي الحالي الذي توجد فيه تلك البلاد الآن

ولا يشك احد في انه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية في طبقات الامة عاليها ودانيها تتهذب النفوس شيئاً فشيئاً وتقرب من الكمال الذي هو ضالتها

غير انه لا يفوت القارئ ان هذا الفساد الذي ذكرناه في الامم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التي هي الركن الاقوى لبناء الامم وما يتبع تلك الفضائل من بذل الانفس والاموال في سبيل تعزيز الوطن او الدفاع عنه فادنى رجل في الغرب كأعلى رجل فيه اذا دعى داعٍ الى هجوم او قيام لدفاع او الى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لاجابة الداعي ويخاطر بنفسه ويبذل ما لهُ الى ان يتم للامة ما تريد فاين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة في الامم الغربية من حالة الامة الشرقية ؟

واما الطبقة الوسطى فلا ريب انها ارقى من التي تقابلها عندنا نحن في الحقيقة لا نعرف من احوال

الغربيين الا بعض ما ظهر منهـا والكثير منا لا تزيد معرفته بها على ما عرف منها في الشوارع والقهاوي وما قرأه في بعض القصص والحكايات وليس من الحق ولا من العدل ان نظن ان هذه الظواهر هي صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الادب

من اراد ان يكون حكمهُ فيهم صحيحاً فعليـه ان يلمّ بجميع مظاهر حيـاة تلك الامم ويقف على جميع الاحساسات والمواطف التي تحرك نفوسهم . وهذا امر يحتـاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم واخلاقهم فاذا تمت للبـاحث هذه الشروط امكنه ان يعرف لمَ يهب رجل الماني حياته ويترك زوجته واولاده مساعدةً لامة البوير . ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسئلة او كشف غامضة او فهم علة . وكيف ان سياسياً واسع الثروة عالي المقام يفني زمنه في تدبير الوسائل لاعلاء شأن امته وربما حرم نفسه راحة النوم في ذلك السبيل . وما هو المحرك

للسائح الذي يقضي الشهور والسنين بعيداً عن اهله وبلده ليكتشف منابع النيل مثلاً . وما هو الاحساس الذي يرضي القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع ما يتكبده من انواع العذاب وما يحيط به من الاخطار . وما هذا الوجدان الذي يسوق الغني الى ان يبذل آلافاً من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيرية او لعمل يعود نفعه على امته او على الانسانية

اذا علم السر في هذه الصفات ومصادر هذه الاعمال الجليلة ثم علم ما بين اعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة ونظر الى ما في معاملاتهم من الصدق في القول والغيرة على الحق ونمو احساس الشرف والميل الى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك انه ينتهي من هذا العلم الى نتيجة صحيحة وهي ان هؤلاء القوم على جانب عظيم من الادب والفضيلة . لان هذه الاعمال والاحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس كما تدل على نمو الاحساس بحاجة كل من افراد الامة

الى الآخر . والترقي الادبي انما هو هذا التضامن بعينه

وليس هذا بغريب فان التقدم في العلوم يؤدي الى التقدم في الآداب والاخلاق . لا ريب ان الارتقاء العقلي يصحبه الارتقـاء الادبي دائماً فان العلم هو المادة التي يتغذى منها الادب . لا اقول انه لا يوجد الادب الا حيث يوجد العلم وانما اقول ان ادب الجاهل لا يمكن ان يكون ثابتاً في نفسه مثل ثبات الادب في نفس العالم العلم يخاطب العقل والحقـائق العلمية لا تطالب ان يسلم بها من غير مناقشة بل تحتـاج الى بحث وتعب وشغل والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط النفس الذي هو اهم اركان الادب . فاذا هم شخص اشربت نفسه العلم ان يعمل امراً مخالفاً للآداب نزع منه نازع الى النظر في ذلك الامر وآثاره ومزاياه ومضـاره ثم رجع الى نفسه ليعلم هل يصح لها او لا يصح ويندر حينئذٍ ان يقدم عليه . اما الجاهل فان كان فاضـلاً لم تكن الفضيلة فيه الا عادة مجردة وهو مستعد للاذعان

الى ما يتأثر به حسناً او قبيحاً ومائل الى قبول ما يرى اغلب الناس عليه بدون بحث فاذا انقطعت العادة مرةً وذاق لذة الرذيلة انفات قياد نفسه من يده واستحال عليه ان يرجع الى ما كان عليه من قبل

رأينا ان العلم يقوي حكم العقل ويهذب النفس واضيف على ذلك انه يعظم الاحساس الديني . وليس في ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع لان الدين والادب يرجعان في الحقيقة الى شيء واحد

واجمل ما قيل في هذا المعنى ما اتى به الفيلسوف سپنسر في كتابه الذي كتبه في التربية اقتطف منه هنا بعض ما يليق بالمقام قال :

« ليس العلم منافياً للاحساس الديني كما يزعم كثير »
« من الناس . بل ترك العلم هو المنافي للدين . ولنضرب »
« لذلك مثلاً فنفرض ان عالماً من كبار المؤلفين يصنف »
« الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون »
« ألسنتهم بمدحه ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه الا »

« غلفها ولم يقرأوا شيئاً منها ولم يجهدوا انفسهم يوماً في »
« فهم ما احتوت عليه . فماذا تكون قيمة هذا المدح »
« في نظرنا ؟ وما الذي نعتقده في صدق هؤلاء المادحين »
« ان جاز لنا ان نقيس عظائم الاشياء بصغارها نقول »
« ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة . »
« وادهى ما يأتون من تلك المعاملة انهم لا يكتفون »
« بان يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق »
« تلك الاشياء التي ينادون بانها من ابدع البدائع »
« واغرب الغرائب بل يخوون باللائمة على من يشتغل »
« بفهم حقائقها والوقوف على ما اودع فيها من الاسرار »
« ولو فقهوا لعلموا ان اهمال العلم هو المضعف للاحساس »
« الديني بل الماحق له . اما خدمة العلم فهي عبادة »
« يؤديها القلب لأن خدمة العلم هي اعتراف ضمني بان »
« للمخلوقات قيمة عالية وان الذي اوجدها له شأن »
« اعلى ومقام اسمى . خدمة العلم هي احترام للكون »
« وصانعه يؤديه طالب العلم لا بمجرد الفم واللسان »

« ولكن ببذل وقته وفكره وعمله »

نستنتج مما سبق ان تقدم الغربيين في العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيهم في الآداب وان تأخر المعارف عندنا كان سبباً في انحطاط آدابنا

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجري فيها بين الاب وابنه والاخ واخيه والزوج وزوجته مما لا يحتاج بيـ نه الى تفصيل وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيهـا من الحسد والتباغض والخيانة والمنازعات والجرائم البهيمية التي يحار العقل فيها وهذه حوادث الوطن وما يرى في روابط اهله من الانحـلال وتفرقهم في الرأي في احقر الشؤون وحرصهم على المال ان لا ينفقوه في سبيل اي منفعة من المنافع العامة وضنهم بشيء من اوقاتهم للفكر في اي مصلحة من مصالح بلادهم كل هذا برهان على انحطاط اخلاقنا . وما يكون عندنا من محاسن الاخلاق كالكرم المعهود في كثير من بلاد الارياف يرجع في الحقيقة الى عيب من العيوب كالتنافس في حب الشهرة

ولهذا ترى الكثير من اعيان البلاد المشهورين باكرام الضيف والمبالغة في الاحتفال به يسيرون في سائر شؤونهم على خلاف مقتضى الكرم فيظلمون الفقير ويطمعون في في اموال الضعفاء من اقاربهم وخصوصاً النساء منهم ويضيقون على عائلتهم في المعيشة ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة

وحال الامة التركية لا يختلف في ذلك عن حالنا .

نعم في بعض بلاد الريف هنالك رقي في الآداب والاخلاق وامتياز لها على الاخلاق والآداب المصرية . ولكن لا سبب لذلك الا ان التركي يعيش في قريته بغاية السذاجة وعلى ضرب من سعة العيش فلا يجد ما يحمله على ارتكاب ما يخالف الآداب الحسنة . وهو بعيد عن كثير من الرذائل لانه يجهلها ولا يتصور وجودها . فاذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته ولا يجاريه احد في مسابقة اهلها الى مراتع اللذات ومسارح الشهوات وفاق امثاله في جميع العيوب الاخرى

وبالجملة نقول ان التمدن الاوروبي ليس خيراً محضاً فان الخير المحض ليس موجوداً في عالمنا هذا لانه عالم النقص . وانما هو الخير الذي امكن للانسان ان يصل اليه الآن . فقد اتم به شيئاً مما كان ينقصه وارتقى به درجة من الكمال

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة في جانب ما ينتظر للنفس الانسانية من الكمال فانه ينبغي لنا ان نقنع بها وعلى المستقبل ان يصل بأهله الى ما هو اعلى منها

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من ان الترقي يحصل في بعض شؤون الامة ولا يؤثر في سائرها . والصواب ان الترقي لا يكون ترقياً صحيحاً الا اذا وجد منه روح تظهر في جميع شؤون الامة جزئيها وكليها حتى اذا شاء باحث ان يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقي تظهر في المسكن والمطعم والملبس والمباني والطرق والجمعيات والافراح والمآتم واساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهي كما تظهر في الصنائع والتجارة

والزراعة والعلوم والفنون. وعلى الجملة يجد اثراً للترقي في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية

ذلك لان الحالة العقلية والحالة الادبية متلازمتان تلازماً تاماً بل هما في الحقيقة حالة واحدة وانما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التي ينظر منها اليها فان كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جديدة ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل في نظام سلوكنا ولو كان العلم قاصراً على المعرفة فقط وليس له اثر في العمل لفقد معظم اهميته ان لم نقل كلها

واما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهنّ مع الرجال وتمتعهنّ بالحرية واحترام الرجال لهنّ فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم

نعم يعد الكثير منا هذه العادات عيوباً ولكن اذا سئلت لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب

ان تكون نبيهة متعلمة ؟ لماذا يسمح لها ان تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؟ فجواب الواحد منا لا يكون الا ان هذه هي عادتهم السيئة ولكن هذا الجواب لا يفيد شيئاً لانه يستدعي سؤالاً آخر وهو لماذا كانت هذه العادة ؟ وهنا لا يتيسر له الجواب

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات امة متوحشة لسهل علينا ان نقول ان هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث وتلك الامة تعمل تحت سلطانها بدون ان تفكر فيها وهي تجهل اصلها وارتباطها باحوالها كما تجهل الاثر الذي ينشأ عنها في شؤونها

ولكن مما لا يسلمه العقل ان اهل اوربا وامريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم باسبابها ونتائجها ويصعب على العقل ان يظن ان علماءهم الذين يجهدون انفسهم كل يوم في اكتشاف اسرار الطبيعة وان هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا

انواعها ووصفوها بادق اوصافها وربوها واستولدوها غفلوا عن هذه المادة واهملوها

والحقيقة انهم درسوها درساً تاماً كغيرها من المسائل الاخرى وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ولا اعلم ان واحداً منهم قام ينادي قومه يوماً ويحثهم على تعبيرها . بل الكل متفقون على ان حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق وان عدم الحجاب هو السر في تقدم الغرب . وانما الخلاف يوجد بينهم في تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه

هذا الاجماع امر جدير بأن يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون ان الملكية الخاصة هي سرقة وان الاموال يجب ان تكون ملكاً شائعاً بين جميع افراد الامة . وظهر فيهم من يقول بالغاء نظام الزواج حتى تكون الملاقات بين الرجل والمرأة حرّة لا تخضع لنظام ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادي بهدم كل نظام وشرع ولا تعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق

الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم ان يطلب حجاب النساء . بل نرى الامر بالعكس فان المتطرفين من ارباب المذاهب يطلبون التوسع في حرية المرأة والزيادة في حقوقها الى ان تصير مساوية للرجل . فهم على شططهم متفقون في ذلك مع ارباب المشارب المعتدلة

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه؟ ألأن الاوربيين لايحبون التغيير في عاداتهم؟ كلا . فان التغيير عندهم هو قانون تقدمهم . ومن القى نظرة عامة في تاريخهم من قرن واحد يجد انهم غيروا كل شيء عندهم : غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم وان كل ما وصلت اليه هذه الامور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت الى آخر

كذلك لا يصح ان يكون من اسباب هذا الاتفاق ما يقال من ان الاوروبيين لايقدرون شرف

النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم . هذا القول الذي سمعته من كثير من الناس لا يمكن ان يصدر الا من قليل الخبرة ناقص المعرفة لم يقف على شيء من احوال سكان تلك البلاد فهو لا يدري منها اكثر مما يدريه من احوالنا سائح غربي يدور في الازبكية وما جاورها ويكتب من عوائدنا ما يراه من الطائفين حول تلك الاماكن المشهورة

اذن فما هو السبب ؟

السبب هو ان مسئلة حقوق المرأة وحريتها ليست في الحقيقة مجرد عادة . نرى الغربي يرفع قبعته اذا اراد التحية والشرقي يحرك يده ويضعها على رأسه . فهذه عادة من العادات يمكن ان يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ولكن اهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الذي وضعت لاجله ولا يمكن ان يترتب عليها نتيجة في الحياة الشخصية او العامة . أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم وتعيش مسجونة في البيت او متمتعة بحريتها وتخالط الرجال او

لا تخالطهم وما هي حقوقها في الزواج والطلاق وماذا يكون شأنها في العائلة وفي الامة فهذه اولاً مسئلة اجتماعية فهي بذلك مسئلة علمية ولا غرابة بعد ذلك في حصول الاتفاق فيها

لهذا يلزمنا بدل ان نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها وهي انهم ضلوا عن الحق في ما يختص بشأن النساء عندهم — يلزمنا بدل ذلك ان نقف على افكارهم في هذه المسئلة ونبحث في آرائهم وفي اسباب النهضة العظيمة التي قام بها الرجال والنساء في هذا القرن وندرس جميع نتائجها الحالية . وبعد ذلك يمكن ان نكوّن لانفسنا رأياً صحيحاً مؤسساً على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيداً بالتجارب والوقائع

———▪———

خاتمة

حالة الافكار الآن في مصر بالنسبة للنساء

ابتدأ المصريون في هذه السنين الاخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية وبدت عليهم علامات التألم منها واحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت اليهم اخبار الغربيين واختلطوا بهم وعاشروا الكثير منهم وعرفوا مبلغ تقدمهم فلما رأوا انهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التي وجدوا انفسهم محرومين منها والتي لا قيمة للحياة بدونها انبعث فيهم الشوق الى مجاراتهم والرغبة في الحصول على تلك النعم . وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الافكار التي اعتقدوا انها تهدي الامة الى طريق النجاح . هذا يدعو الى العمل والنشاط وذاك الى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ اسباب الشقاق وآخر الى حب الوطن

والتفاني في خدمته وغيره الى التمسك باحكام الدين وهلمَّ جرًّا

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد وهو ان هذه الكلمات وما شاكلها لا يمكن ان يكون لهـا في حياة الامة أثر يذكر الا اذا وصلت الى النساء وادركت النساء معانيها وتعلقت نفوسهنَّ بحبها وتوجهت ميولهنَّ اليها حتى يتمكنهنَّ بعد ذلك ان يصغنَ اولادهنَّ باحسن الصور التي تمثل كمال الانسان في اذهانهنَّ

ذلك لان كل حال اجتماعية لا يمكن تغييرها الا اذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب ولانه لا يكفي في الاصلاح مهما كان موضوعه مجرد حاجة اليه ولا امر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ولا كتب تؤلف في بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فان هذه الامور كلها لا اثر لها الا في ارشاد الامة وتنبيهها الى سوء حالها ولكنها ليست من الوسائل التي تغير الامم وتحولها من

حال الى حال . لان كل تغيير في الامم انما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات واخلاق وعادات لا تتولد في النفوس ولا تتمكن منها الا بالتربية اي بواسطة المرأة

فاذا اراد المصريون ان يصلحوا احوالهم فعليهم ان يبتدأوا في الاصلاح من اوله . يجب عليهم ان يعتقدوا بان لا رجاء في ان يكونوا امة حية ذات شأن بين الامم الراقية ومقام في عالم التمدن الانساني قبل ان تكون بيوتهم وعائلاتهم وسطاً صالحاً لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التي يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء في ان البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركنَ الرجال في افكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع اعمالهم

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان وحكم الفقهاء بانها خرق في الاسلام وعدها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغربيين بل انتهى

بعضهم الى القول بانها جناية على الوطن والدين . واوهموا في ما كتبوا ان تحرير المرأة الشرقية امنيـة من اماني الامم المسيحية تريد بها هدم الدين الاسلامي ومن يعضدها من المسلمين فليس منهـم الى غير ذلك من الاوهام التي يصغى اليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم ادراكهم منافعهم الحقيقية

ونحن لا نريد ان نرد عليهم الا بكلمة واحدة : وهي ان الاوروبيين اذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم الا ان يتركونا لانفسنا فانهم لا يجدون وسيلة اوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة

هذا هو الحق الذي لا ريب فيه . ومهما اجتهد قوم في اخفائه وغفل آخرون عنه فلا بد ان يتجلي للكل عاجلاً او آجلاً . شأن الحقيقة في جميع الازمان

وكل ناظر في احوال هيئتنـا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها ما يدل على ان النساء عندنا قطعنَ دور الاستعباد ولم يبقَ بينهنَّ وبين الحرية الا حجاب رقيق . اذ يرى

اولاً — شعوراً جديداً عند المصريين بالحاجة الى تربية بناتهم بعد ان كانوا لا يعلمونهن شيئاً

ثانياً — تخفيف الحجاب وذهابه شيئاً فشيئاً الى التلاشي

ثالثاً — تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة

رابعاً — اهتمام الحكومة وبعض ابناء البلاد وفي مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية باصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذي وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد فيه اموراً كثيره تأتي باصلاح كبير في العائلات المصرية واخص بالذكر منها ما اتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال

« هذا واني ارفع صوتي بالشكوى من كثرة ما
« يجمع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة فان »
« الكثير منهم عنده اربع من الزوجات او ثلاث او »
« اثنان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ولا يزال »

« معهن في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية »
« ثم انه لا يطلقهن ولا واحدة منهن ولا يزال الفساد »
« يتغلغل فيهن وفي اولادهن ولا يمكن له ولا لهن »
« ان يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والامة غير »
« خاف على احد »

وقد حدث في هذا العام ان كثيراً من النساء اللواتي حكم على ازواجهن بالاشغال الشاقة مؤبداً او بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكين الى نظارة الحقانية من حالتهن التعيسة حيث لا سبيل لهن من الانفصال من ازواجهن ولا يوجد لهن عائل يقوم بنفقاتهن ومعاش اولادهن فاضطرت نظارة الحقانية الى استفتاء حضرة مفتي الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التي يمكن اتخاذها لازالة اسباب الشكوى فبحث حضرته في هذه المسئلة وفي مسائل اخرى تشابهها واستخرج من فقه المالكية احدى عشرة مادة وقدمها الى نظارة الحقانية واليك بيانها ننشرها افادة للقراء :

(المادة الاولى) اذا امتنع الزوج عن الانفاق على زوجته فان كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة في ماله فان لم يكن له مال ظاهر واصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضي في الحال وان ادعى العجز فان لم يثبته طلق عليه حالاً وان اثبت الاعسار امهله مدة لا تزيد على شهر فان لم ينفق طلق عليه بعد ذلك

(المادة الثانية) ان كان الزوج مريضاً او مسجوناً وامتنع عن الانفاق على زوجته امهله القاضي مدة يرجى فيها الشفاء او الخلاص من السجن فان طالت مدة المرض او السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضي

(المادة الثالثة) اذا كان الزوج غائباً غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضي له اجلاً فان لم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها او لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضي بعد مضي الاجل فان كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت انه لا مال له تنفق منه

الزوجة طلق عليه القاضي

(المادة الرابعة) اذا كان للزوج الغائب مال أو دين في ذمة احد أو وديعة في يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين ولها ان تقيم البينة على من ينكر الدين او الوديعة ويقضى بطلبها بلا كفيل وذلك بعد ان تحلف انها مستحقة للنفقة على الغائب وانه لم يترك لها مالاً ولم يقم عنه وكيلاً في الانفاق عليها

(المادة الخامسة) تطليق القاضي لعدم الانفاق يقع رجعياً وللزوج ان يراجع زوجته اذا اثبت ايساره واستعد للانفاق في اثناء المدة فان لم يثبت ايساره او لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة

(المادة السادسة) من فقد في بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها ان ترفع الامر الى نظارة الحقانية مع بيان الجهة التي تعرف أو تظن انه سار اليها او يمكن ان يوجد فيها وعلى ناظر الحقانية عند ذلك ان يبحث

عنه في مظنات وجوده بطرف النشر للحكام ورجال البوليس وبعد العجز عن خبره يضرب لها اجل اربع سنين فاذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة اربعة اشهر وعشراً بدون حاجة الى قضاء ويحل لها بعد ذلك ان تتزوج بغيره

(المادة السابعة) اذا جاء المفقود أو تبين انه حيّ وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثاني بها غير عالم بحياته كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقاً أو بعد التمتع في حال ما لو كان الزوج الثاني عالماً بحياة المفقود فان ظهر ان المفقود مات في العدة او بعدها قبل العقد على الزوج الثاني او بعده ورثته ما لم يكن تمتع بها الثاني غير عالم بحياة الاول فان مات بعد تمتعه وهو غير عالم بحياة الزوج الاول لم ترث

(المادة الثامنة) من فقد في معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض وثبت انه حضر القتال جاز لزوجته ان ترفع الامر الى ناظر الحقانية وبعد البحث عنه وعدم

العثور عليه تعتد الزوجة ولها ان تتزوج بعد المدة ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره فان لم يثبت الا انه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما في المادتين السابقتين

(المادة التاسعة) لزوجة المفقود في حرب بين المسلمين وغيرهم ان ترفع الامر الى ناظر الحقانية وبعد البحث عنه يضرب لها اجل سنة فاذا انقضت اعتدت وحل لها الزواج بعد العدة ويورث ماله بعد انقضاء السنة

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود اذا كان في ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخشَ على نفسها الفتنة والا رفعت الامر الى القاضي ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها

(المادة العاشرة) اذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى رفع الامر الى قاضي المركز. وعليه عند ذلك ان يعين حكمين عدلين احدهما من اقارب الزوج والثاني من اقارب الزوجة والافضل ان

يكونا جارين فان تعذر العدول من الاقارب فانه يعينهما من الاجانب وأن يبعث بهما الى الزوجين فان اصلحاهما فبها والا حكما بالطلاق ورفعا الامر اليه وعليه ان يقضي بما حكما به ويقع التطليق في هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها

(المادة الاحد عشرة) للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج اذا كان يصلها منه ضرر والضرر هو مالا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعي والضرب والسب بدون سبب شرعي وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الازهر حيث ارسل الى حضرة المفتي الجواب الآتي :

« حضرة الاستاذ صاحب الفضيلة مفتي افندي »
« الديار المصرية أيده الله »

« باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجاري »
« نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على احد »

« عشر مادة مستخلصة من مذهب الامام مالك رضي »
« الله عنه المطلوب ابدأ رأينا فيه قد رأينا ما رأيتموه »
« ووقعنا عليه بالموافقة وشكرنا همتكم العلية على اعتناء »
« فضيلتكم بهذا الخطب الجليل وطيه المشروع المذكور »
« افندم » الفقير سليم البشري

٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ المالكي خادم العلم
والفقراء بالازهر

هاتان المسئلتان مسئلة تعدد الزوجات ومسئلة تخويل المرأة حق الطلاق هما من اهم المسائل التي استلفتنا اليها الانظار في كتاب تحرير المرأة ويسرنا أن عالماً عظيماً وفقيهاً حكيماً مثل حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رأى انهما جديرتان بهمته فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما

جميع هذه الملامات وغيرها مما يلاحظ في البيوت كل يوم تنبأنا بأن حالة المرأة المصرية آخذة في التحسن والترقي .

غير ان هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية بل حدثت

فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعي القاضي بان كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذي يعيش فيه. والدليل على ان لا دخل لارادتنا في هذه الحركة انا عند ما قلنا بوجوب المحافظة عليها وامدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول في نفوسهم وبدت بوادره في بيوتهم

ولا عجب في ذلك فان شأننا ان نتبع اهواءنا في جميع اعمالنا

وقد اظلنا الوقت الذي يجب فيه ان نعرف ماذا نريد ؟

ان كان مقصدنا من الحياة ان يعيش كل منا بضع سنين يقضيها في اي حال كانت واستوى لدينا العز والذل والغنى والفقر والحرية والرق والعلم والجهل والفضيلة والرذيلة فارى ان ما منح الى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لاداعي له . ولا اجد مانعاً من ان يتمتع الرجل بعدة نساء ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها في

اليوم التالي ويسجن زوجاته وبناته واخواته وامه وجدته اذا شاء

يوجد في افريقيا وآسيا امم عديدة يعيش النساء فيها مدفونات في البيوت بحيث لا يرينَ انساناً ولا يراهنَّ أحد . ويوجد بين هذه الامم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة الى حد انه متى توفي زوجها وجب عليها ان تعدم نفسها لكي لا تتمتع بالحياة بعده فما علينا الا ان نوجه انظارنا الى هؤلاء الامم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم في الجهل والاحتجاب لعلنا نجد عندهم ما يقوى حجتنا في تشديد الحجاب والحجر على المرأة

اما اذا كان المقصد هو ما نقرأه ونسمعه كل يوم من ان المصريين يريدون ان يكونوا امة حية راقية متمدنة فلنا ان نقول لهم :

يوجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التي تشتكون منها وتصعد بكم الى اعلى مراتب التمدن كما تشتهون وفوق ما تشتهون ألا وهي تحرير نسائكم من قيود

الجهل والحجاب . هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها وليس لنا فضل في اختراعها فقد استعملتها امم من قبلنا وجربتها وانتفعت منهـا . انظروا الى الامم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة. تجدوا ان تربية المرأة الامريكية واخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية واخلاق وآداب المرأة الفرنساوية وان هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية وان المرأة التليانية لا تشبه في شيء من ذلك المرأة السويدية ولا الالمانية . ولكن جميع هؤلاء النساء على اختلاف الاقليم والجنس واللغة والدين بينهنَّ اتحدنَ واجتمعنَ في امر واحد وهو انهنَّ يملكنَ حريتهنَّ ويتمتعنَ باستقلالهنَّ

هذه الحرية هي التي اخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم. فلما اضيف عليها التعليم وجهت ارادتها الى ان تشترك مع الرجال في تقدم الجمعية التي تنتسب اليها . وتم هذا الاشتراك باتيانهـا اعمالاً مفيدة تختلف بلا ريب عن اعمال الرجال ولكن لا تنقص عنهـا في

الاهمية . فالتاجر الذي يقضي نهاره في حانوت ليبيع بضاعته والكاتب الذي يمضي بضع ساعات في ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير افادة الى مصلحة اخرى والمهندس الذي يبني قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد والطبيب الذي يقطع عضواً ليحيي باقي اعضاء الجسم والقاضي الذي يفصل في المنازعات التي تقوم بين الناس جميع هؤلاء وغيرهم لا يوجد منهم واحد يحق له ان يدعي ان عمله يفيد الهيئة الاجتماعية اكثر من عمل امرأة تهدي الى الجمعية رجلاً وتربيه على ان يكون نافعاً لنفسه ولاهله ولامته

نحن لا نقول لكم كما يقول غيرنا اتحدوا وكونوا عوناً بعضكم لبعض او طهّروا انفسكم من العيوب التي تعهدونها في اخلاقكم او اخدموا اهلكم ووطنكم أو ما يماثل ذلك من الكلام الذي يذهب في الهواء . نحن نعلم ان تغيير النفوس لا ينفع فيه نصيحة مرشد ولا امر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولي . وانما يتم كما

ذكرناه باعداد نفوس الناشئين الى الحال المطلوب احداثها

ذلك هو السير الطبيعي البعيـد الامد المحفوف بالمصاعب . ولكن اسهل المصاعب هي التي تنتهي بالفوز والنجاح واقرب الطرق هي التي توصل الى المقصد

« انتهى »

كلمات

لقاسم بك امين



(طبع بمطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٠٨)



اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علوّ المنصب ولا شيئاً من الاشياء التي يجري وراءها الناس عادة وانما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم · (المؤلف)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

***

لا يغرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعرا

***

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

***

رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها

***

اذا استشارك عدوّك فاخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

***

في مصر كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً

فاذا درس شيئاً من العلم صار عالماً مفضالاً فاذا امتاز ببعض الحذق او اظهاره عدّ من النوابغ

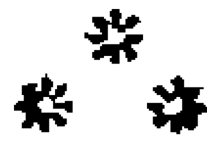
***

ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف . شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً اليه الى حد أنه يستحيل عليه ان يعيش بدونه

***

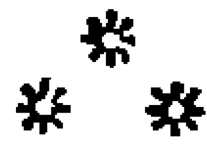
تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أن يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسئلة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في

المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي كان ويكون بعدُ الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين



لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته . اذا هجم هـذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل الى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة . ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته فلا يقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبه . بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها . ويفرق بينها وبين أميالها . ويذهب همومها وأحزانها ولا يطمئن الا اذا قطعت العلاقات مع غيره وأصبحت كلها له كأنها ولدت معـه في يوم واحد وتفنى معه في ساعة واحدة لا تعرف ماضيها ولا تبالي بمستقبلها . فاذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامهـا رضيت بعجزها وشكرته على أسرها . واغتبطت برقها . ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحاً وسعادة لم ترَ مثلها

العاشق عنده ما يكفيه سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب . ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح . تتابه الحوادث ولا تترك به أثرا لانه لا يعبأ بها سارة أو ضارة ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لانه يشعر بأن في جسمه روحين وفي صدره قلبين



ان كان في الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق

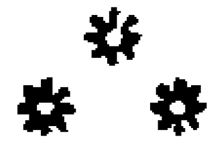


كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما . وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما

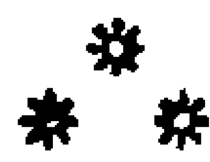


ليس ما يكتب على ابواب الامكنة دائماً صحيحاً . فقد

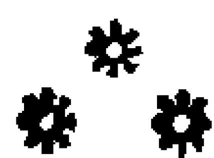
يكون بين سكان البيمارستان من هو اعقل من هذا الذي تراه سائرًا في الطريق متمتعاً بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل ابوابها على نساء فيهن من هي أوفر حشمة وادباً واكثر بعدًا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتي تحني الرؤوس امامهن .



يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوباً واذا كان غير محبوب فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة السكر من تنبه في الاعصاب وسرعة في دورة الدم وانفعالات شديدة في النفس وبالاجمال من زيادة محسوسة في مبلغ الحياة كلاعب القمار يتمتع بارضاء شهوته في الربح وفي الخسارة

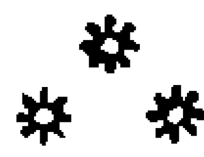


من اختباري لارباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي أن الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد في القلب — حمية الفاظ متى انتشرت عادت هباء لاتترك اثرًا بعدها .



في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء اكثر من عنايته بابداء فكره

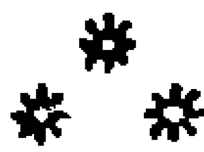
ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر افكاره كما هي . ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأي أمر كان — هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شي يعادله ولا يبالي بذم الناس بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منبهاً لاعصابه منشطاً لقواه مغرياً له على الاستمرار والثبات .



كلما أردت أن اتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل



بعد سن الاربعين يبتدئ العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتي . وان الذوات الجميلة التي نحبها ونقدسها كالخير والحق والعدل لايمكن أن توجد في الخارج الا مختلطة بنقيضاتها



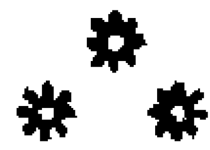
لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الادبية هي العفو عن الخطيئة — العفو عن اكبر خطيئة العفو عن كل خطيئة —

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هي درجة مسئوليته ؟ مسئلة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها. لكن حلها يكاد يكون محالاً اذ لايستطيع احد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها الادبي والمادي . والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لايصل الى تقديره عقلنا وكل تاريخ الانسان في الماضي يدل على أنه ان لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له في شره واطماعه وشهواته . خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم . خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً موقتاً .

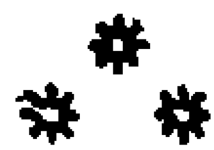
فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لامحل للاستغراب منه . هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان . هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة

وذاقا ثمرتها التي يتخيل لي أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما - من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما وانتقلت منهما الى ذريتهما جيلاً بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً الى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها الا بمقاساة أصعب المجهودات . حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقانه في المستقبل

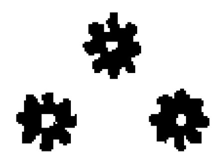
واخيراً فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح المذنب فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هي عولجت



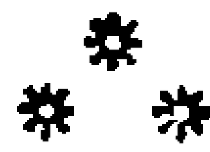
أمر لا تدري متى يغشاك لا يمنعك مانع من ان تستعد له قبل ان يفجأك



لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم



لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

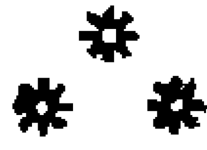


يظهر أن باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما أقفل في التشريع فقد صار من المقرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء !

لكي يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب ان نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم . وهذا يناقضه قيام الدليل على ان جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقي العام وتابعة في أطوارها لسير الانسانية

فهي اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لاتزال تنتج وتبدع كما فعلت في الماضي . ولا أدري لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانًا في لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب

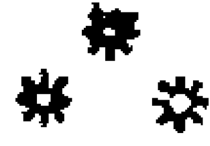
نحن خلفاء العرب في لغتهم فكل ماتخترعه ملكاتنا في اللغة يعد عربياً بالطبع



لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل مايقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية .

لى رأي في الإعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لاتتحرك باي عامل من العوامل . بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية أيضا يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هيه .

في اللغات الاخرى يقرأ الانسان ليفهم . أما في اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ فاذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) يمكنه أن يقرأها عَلَمٌ أو عِلْمٌ أو عَلِمَ أو عُلِمَ أو عَلَّمَ أو عَلِمَ . ولا يستطيع أن يختار واحدة هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة فهي التي تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون



كان المؤلفون في القرون الوسطى هم ابن سينا وابن رشد وابن مسكويه واضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الادب والعلم والفلسفة لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ثم مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تنقدم خطوة الى الامام واللغات الاوروبية أخذت تتحول وترتقي كلما تقدم اهلها في الآداب والعلوم حتى اصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة — صارت انفس جوهرة في تاج التمدن الحديث.

رغماً عن هذا قد اجمع قومنا على ان لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الاول ويزعمون انها سيدة اللغات كما

اجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا

***

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن افكارهم في ما يكتبون وإنما عقولهم هي مخازن تحفظ مايدخل فيها بالقراءة والسماع ومستودعات لافكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التي ليست لهم ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئاً من انفسهم. كل علمهم محصور في تكرار افكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الاطفال القرآن فاذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا !! آه فلان ما احلاه ! علان ليس في العالم مثله !

***

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة أي لكسب المال. اما حب الحقيقة والاستغراق في تحصيلها والشوق الى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس وبالاجمال التعلم للتعلم فلا فائدة فيه. والفائدة كل الفائدة في هذا الذي لا فائدة فيه

***

اذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين احداها والاخرى

واذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الاول ولا تجد في الجريدة التي تقرأها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة او تعبيرًا جديداً أو اسلوباً مبتدعاً . لا تجد النابغة الذي يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه

***

يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة احسنها طريقة واحدة : هي التي يجدها الكاتب المجيد

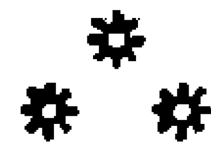
***

عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود . وعلمه القليل لا يصل الى ادراك المجهول الذي لا نهاية له.لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار كالاعمى يتخبط يميناً وشمالاً لا فرق في ذلك بين الغبيّ الجاهل والذكي العالم

***

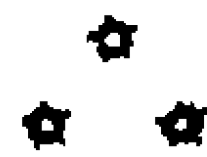
المقلد في ايمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في

عروة الملابس . والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم وابغض منهما من يخادع بدينه فيقول ان كان الله غير موجود ماخسرت اكثر من غيري وان كان موجوداً ربحت مع الرابحين لذلك أومن به. هذا هو المحتال الذي لا يصان احد حتى الاله من نصبه



الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان في جميع ادوار حياته فتارة تخضع للاولى وتارة تغلب عليها الثانية ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة كما لا يوجد رجل مهما احاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لان يأتي يوماً بافضل الاعمال

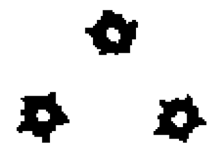
وحقيقة الامر ان اخلاق الانسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة وليس لها حد نقف عنده انما هي في تحليل وتركيب. في تكوّن مستمر يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده الى التماسك



الانسان أسير الشهوات ما دام حياً وانما تختلف شهواته باختلاف سنه فشهوة اللعب عند الطفل وشهوة الحب عند الشاب

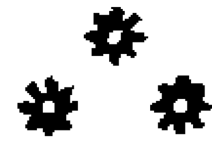
وشهوة الطمع عند رجل الاربعين وشهوة السلطة عند شيخ الستين جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا . متى وقع فيها أحدنا يجب عليه أن لا يترك نفسه الى تصرفها ولا يستصعب الخلاص منها ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته . عليه أن يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها . عليه أن يحول فكره عن الامس الذي كان فيه قبيحاً وينظر الى غده الذي يكون فيه جميلا

لا يطلب الكمال من المرء وانما يطلب منه أن يكون في كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى

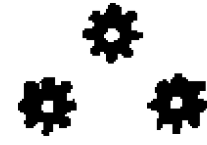


في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش الا عند الرجل الذي حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً كذلك الحال في جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذي عرض نفسه الى استهواء الشهوات وخدائع اللذات فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التي هيَ الفضيلة الحقيقية خلافاً للرجل

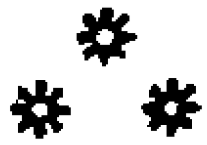
الذي احتجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها الا قليلا واذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها



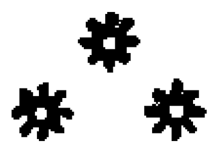
بعد سن الاربعين كل زلة خطرة



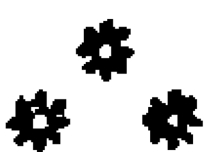
عين الطماع حينما تبصر شيئاً تشتهيه لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقي. هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار



يوجد اناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود —

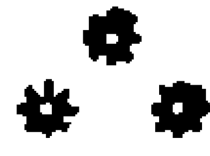


لاتكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه

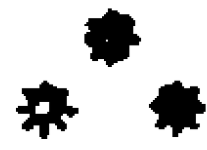


زارني أشهر اديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية وكان في يدي كتاب فرنسوي يشتمل على حكم ومواعظ موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها « اني أخشى ما اتمنى » فقال كيف ذلك ؟ لا بد أن يكون في الطبع خطأ : قلت لا . قال فسر لي حينئذ كيف يخشى الانسان الشي الذي يتمناه فاجبته كل انسان يخشى ما يكره وليس كل انسان يخشى ما يتمنى وانما هذه صفة تختص بها ذوو النفوس الممتازة وتكون سبباً لشقائهم : يرى الواحد منهم وردة جميلة في البستان فيتمنى أن يقطفها ولكن يبعده عنها ماحولها من الشوك ، يشتهي تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التي ربما تصادف اسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها على الارض وهو يشتهيها . يلاقي المرأة التي كان يراها في مخيلته مثال الجمال فيود أن يلقي نفسه تحت اقدامها و يعطيها قلبه وحياته ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها — يتمنى صديقاً ويخشى ان يجده خائناً يتمنى . . . . يتمنى كل شيء ويخشى أن لا يجد فيه كل ما تخيله وهكذا يقضي حياته بين الامل والخوف من تحققه

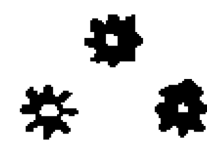
وتنتهي به الحال الى آن يرى آن السلامة في ترك الاماني



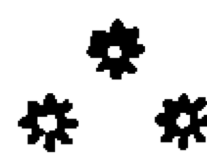
كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منها اظهار الحقيقة ولكنك لا تجد الا شخصاً يريد ان يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغى الى شئ مما تقوله لانه ليس مشتغلاً الا بما يقوله



وجدت السآمة غالباً في الاجتماعات وما شعرت بها في الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدني فيهم فافر منهم وأرجع ملتجئاً الى نفسي فاجد فيها الراحة والسكون



من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي ؟ أم الذي يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسرّه ؟ لاشك أن الاول هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب



من الناس من اذا اراد ان يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه فاذا رأى شهوداً وضع يده في جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء في يد صاحبه بعد ان يراها الحاضرون ولكيلا يبقي عندهم شكاً في مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة. فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ثم كلما اجتمع في نهاره بواحد من معارفه اوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل اراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى الى شكواه ويشاركه في ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوي عزيمته فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف ان يجرح احساساً شريفاً . يحتال في انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله فاذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع في ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف ان للنفس حياء

يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غض النظر عنه
فعل الخير حسن وأحسن منه ستره

***

أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية في الاشياء والناس

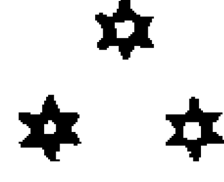
***

في الامة الضعيفة المستعبدة حرف النفي (لا) قليل الاستعمال ..

***

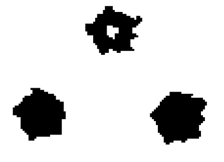
من مروري في المدارس والمكاتب أحفظ تذكارًا ثابتاً لا يزول ابداً — وهو الخوف من الضرب — في الكتاب ضرب بالعصي على الارجل او الكتف أو الرأس أو أي مكان آخر من الجسم وفي المدارس بالتيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام — كنت أذهب الى محل التعليم مصحوباً باضطراب في العقل وخفقان في القلب وارتعاش في الجسم وبعكس ذلك أرى الآن الاطفال يذهبون الى المدارس راضين مسرورين —

نتيجة منع الضرب فيها ودخول الالعاب الرياضية



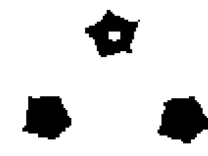
الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر أحد ولو كان من ألد خصومه في الرأي أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

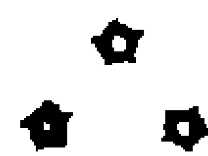


يظهر لي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي فاكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة أولئك هم

السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الاول مخاطرين بانفسهم يتنافسون فيما بينهم في مصادمة كل صعوبة. من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي اليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً



لعل أكبر الاسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال فاهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور



دخلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال في العالم فبعد أن تجولنا في غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلاً انا اكتفيت بما رأيت وها انا منتظركم هنا وقال الثاني اتبعكما لاني أحب المشي وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي وسار معنا شاخصاً

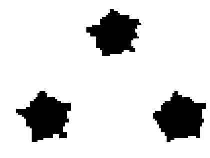
امامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلي وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح (هذا الطف ما في هـذه الدار) وصلنا الى تمثال إلهة الجمـال الفريدة في العالم اجمع فسألت دليلنا ماذا تساوي هذه الصورة اذا عرضت للبيع فقال انها تساوي ثروة أغنى رجـل في العالم تساوي كل ما يملـكه الانسان تساوي ما يقدره لما حائزها ويطلبه ثمناً لها اذ لا حد لقيمتها



معما كان الرأي في حكم الاتراك لمصر فلا ريب عندي أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيرًا . وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن في الملبس والمأكل وكثيرًا من العادات الحسنة والصفات الادبية

واذا كان التعليم قرب مابين الرجال من المسافة فهي لاتزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى انك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر

ابتعادهم عن الثانية — واليوم وجد المصريون والاتراك امامهم انسانية ارقى اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً فاخذوا يقلدون الاوربيين في جميع شؤون حياتهم ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له أثر حميد في انقاذ امتنا من الحال التي هي فيه الآن



اذا رأيت الرأي العام يرمي احد رجال الحكومة بالخيانة ساخطاً عليه شديد الرغبة في سقوطه فاعلم انه غالباً رجل طاهر وعامل نافع

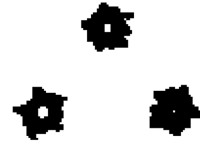
واذا رأيت الرأي العام معادياً لكاتب واعد له خصوماً يتسابقون الى نقض افكاره وهدم مذهبه وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا في مطاعنهم الى السب والقذف فتحقق انه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق

ماهو الرأي العام ؟

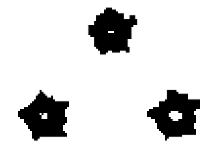
أليس هو في كثير من الاحوال هذا الجمهور الابله عدو التغيير — خادم الباطل ومعين الظلم

لو انتظر المصلحون دائماً رضاء الرأي العام لما تغير العالم عما

كان عليه من زمن آدم وحواء



صنف الطعام الذي اعجبك او قطعة الغناء التي اطربتك او ليلة الانس التي راقتك مع محبوبتك او غروب الشمس البديع الذي خفق لاجله قلبك اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع ان تجدد السرور الذي شعرت به لأول مرة فلا تحاول ان تنال ذلك في اعادته

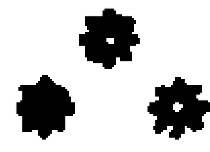


قبيل الغروب وقف بنا وابور النيل الذي كان يحملنا بجانب غيط مزروع وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعباناً غليظاً قصيراً ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان)

أما الآخر فتقدم اليه حاملاً فأسه وضرب بها عدة ضربات حتى قضى عليه ثم تركه في مكانه وأخذ سلاحه وعاد الى عمله ولم يتكلم في اثناء ذلك بكلمة وحينئذ تحرك زميله ومشي محترماً على أطراف قدميه شاخصاً الى الحيوان واقترب منه بطيئاً بطيئاً ولما وصل اليه لمسه بطرف الفأس التي كانت في

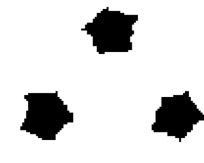
يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق انه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه بالفأس طعنة قوية

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به الى الجسر وكان في هذه الساعة عامراً بالمارة فاستوقف الاطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلاً (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية يأتي الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الاطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعاً وهو في مقدمتهم حاملاً فريسته — أليس هو الحال دائماً في جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفع من رجال العمل عن حب الظهور وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها !

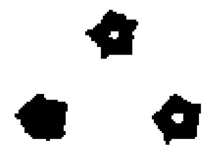


يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهل فعل السحر فيستولي على عقله فاذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة هذا مدوّن في الكتب واذا نقل عن جريدة قال هذا مذكور في الجرنال

فاذا اعترضت عليه بان الخبر لا يحتمل الصدق وان الخطأ جائز على صاحب الكتاب او الجرنال اجابك نعم ولكن لابد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لان صناعته تقضي عليه بذلك



توجد كلمات الصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة فحيث تكون احداها تكون الاخرى حتى ملت طول العشرة كالعالم العلامة والحسيب النسيب والصديق الحميم والسيدة المصونة . فاما طلاق يرد اليها حرية الاقتران بكلمات اخرى واما على الاقل حيلولة موقتة تستريح في اثنائها من هذه الشركة القهرية

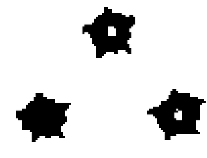


من اعظم ما يصاب به المرء ان يحرم من الذوق السليم .

الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطري الذي ينمو ويتهذب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه الى ان يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب مالا يناسبه

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا الذين هم على يقين من ان الذوق لم يخرج من مصر

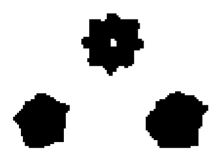
يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة او المبكية والعاقل يكتفي بمايراه حوله ويسمعه يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين



كان خمسة من أرباب المعاشات خمسة شيوخ مروا على فروع الادارة المصرية القديمة وتقلبوا في مناصبها العالية من مديرية الى مجاس الاحكام الى ديوان الاوقاف الى السكك الحديدية اختاروا بيت أحدهم أكبرهم رتبة وصاروا يجتمعون فيه من الصبح الى الظهر ومن العصر الى بعد الغروب جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل ولكنه واسع الارجاء تطاول أشجاره السماء هواؤه معطر بروائح الزهور لا يصل اليه شيءٌ من ضوضاء الطريق ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ماذا كانوا يقولون ويفعلون ؟ كانوا يقضون الايام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع مكتفين به لسد فراغ حياتهم وفي بعض الاحيان يلعبون النرد فيتقدم منهم اثنان الى ميدان المبارزة ويلتف حولهما الباقون للفرجة واذ ذاك ترتفع أصواتهم

— شيش يك — بنج جهار — خانه — اضرب — و يتناقشون بحدة هذا يضحك لانه غالب والآخر يغضب لانه مغلوب فاذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمالهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور ويخرجون من أعماق حافظتهم الامينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الامن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة عن حدة الشهوات والتأثر سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحياناً على وجوههم. وهناك موضوع كان يتردد في غالب الاحيان في حديثهم هو تقدير من كل واحد منهم متى طرقوه جرهم الى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط في الارقام والوقائع وعوج في الرأي واباء للحق ومغالطات ظاهرة

كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ومهما بلغ جهدهم في الفحص والاخذوالرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة وظل كل منهم حافظاً مركزه متمسكا بزعمه . وفي يوم حضروا كعادتهم الى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى الى بيت أحدهم واستمروا هم الاربعة على حالهم المعهودة ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو اليهم انفرادها وتدعوهم الى الانضمام اليها فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر وماتوا واحداً بعد الآخر في مدة قصيرة وبقى خامسهم الى الآن منفرداً كئيبا لايتكلم ولا يخرج من بيته لايدري ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذي يخلصه منها



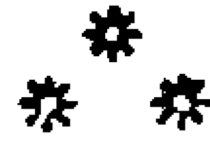
أتعرف حسين بك ؟ — لا — ؟ رجل خفيف ولطيف لاتغيب البشاشة عن وجهه ولم يره احد قط غير متبسم اذا قال لك نهارك سعيد ضحك واذا أخبرته ان الهواء

طيب ضحك واذا سمع ان زيداً مات ضحك زينة المجالس وانيس النوادي يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح حواله يستخدم كل شيء لتسلية نفسه واصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعاً لتنكيت وفي احسن الرجال محلاً للسخرية . لو ضحيت حياتك في اشرف الاعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة الاستهزاء بها وجعلها اضحوكة للناس

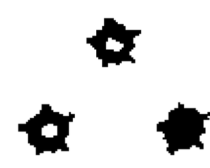
بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر الى مواضع العيوب في الانسان وجهات الضعف في الحوادث فيتبسم بسكون ولطف واذا علا صوته للضحك فليس لان الضحك غايته بل يعده وسيلة للفت النظر الى شيء يحزنه وامر يبكيه

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة لاستعداده الطبيعي . لا يحتقر احساساً شريفاً ولا يصغر عملاً كبيراً وانما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بها اخف ما يمكن من الضرر في هذا الاسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين في اوروبا وعدُّوا من اعظم رجال الادب والفلسفة

أخبرني موظف في الازهر لايخفى عليه شيء من اسرار الطلبة انه كلما اراد واحد ممن فسدت اخلاقه منهم ان يسير وراء شهوته ذهب الى احد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر قدره خمسة قروش او مايقرب من ذلك فاذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقداً انه برىء من كل ذنب

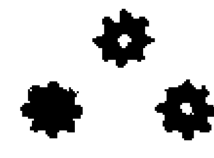


سئل ح . بك — مارأيك في كتاب تحرير المرأة ؟ فاجاب رديء !!.. هل قرأته ؟ — لا — اما يجب ان تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟— ماقرأت ولااقرأ كتاباً يخالف رأيي



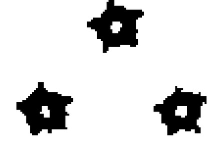
اخلاق جديدة عند الشبان : علمت ان بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون انفسهم لخطبتهن وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن فيرصدون فيها ماتملكه من الاطيان والاماكن وقيمة ماتساويه ومقدار ريعها وسن والدها والامراض التي يكون مصاباً بها

وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته الخ معلومات لا يفكر في جمعها اشد المرابين احتياطاً اذا اقرض مبلغاً جسيماً بدون تأمين

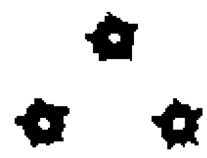


رأيت يوما في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم يظهر من هيئتها انها من عائلة كبيرة طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين في وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاماً . الجزء الاسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل والقسم الأعلى غير مستور وانما الملاءة مشبوكة في رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين . على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضاً من الوجه تحجب فاها وذقنها حجاباً لطيفاً شفافاً كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجاً كما تفعل الراقصة على المرسح وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان

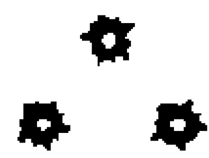
واستسلام و بالاجمال كان مجموعها تحريضاً مهيجاً لحواسهم



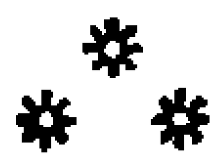
كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم » كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها . كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزاً محبوباً .



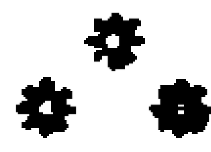
لا فرق بين من يفشي سراً أؤتمن عليه و بين من يختلس مالاً أودع عنده



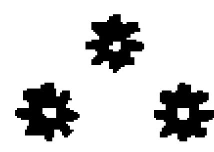
المصريون الذين يفهمون ان للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع الموقت هم تابعون لقانون الحب والامانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم قانون أعلى من مبادئ حب الذات الذي وضعها بعض فقهائهم .



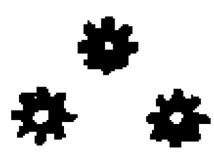
ما دام الطلاق متروكاً الى رأي الزوج يستحيل أن يثبت في نفوس الرجال والنساء ان أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة الى آخر الحياة



الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يوماً أو شهراً أو سنة أو عدة سنين حيازة تنتهي بمجرد ارادة الرجل ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته الى الباب ويقول لها أخرجي



السآمة علامة النفس الشريفة

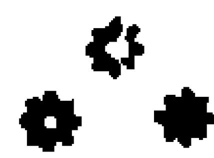


يولد الانسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً . الولد الصغير لا يعرف الاّ نفسه ولا يرى الاّ نفسه ولا يحب الاّ نفسه ولا يألم الا من نفسه وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل الى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها بحسن ظاهره ويستر باطنه. أعظم ما تنتجه التربية الجيدة

اذا استمرت بلا انقطاع هو آن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

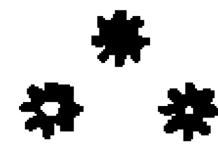
* * *

من ذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الاحساس الوطني ؟ عاش اباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة وخدموا أمتهم وفتحوا البلاد وحاربوا الامم ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة أما الآن فأ ياقرأت وفي أي مكان وجدت لاأسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفاني في خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشتغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقا حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً .

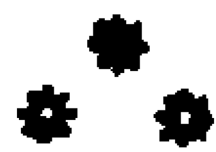


أردنا أن نحصي تقلبات أحد معارفنا في آرائه العمومية

فوجدنا انه كان عرابياً فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق اشركائه وأصحابه وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم الى اعدائه وصار اكثرهم سفاهة في الطعن عليه وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدوباره كان يتودد الى أحد أصحاب الجرائد ويمده بافكاره واخباره ثم قطع كل علاقة به وتحول الى أشد خصومه وأخيراً اشترك في تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب اليه بالدعاء والصلاة



اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب ولا شيء من الاشياء التى يجري وراءها الناس عادة وانما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم .



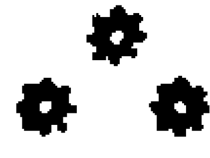
الكاتب الحقيقي يجتنب استعمال المترادفات فلا يأتي باسمين مختلفين لمعنى واحد في مكان واحد لان ذلك يكون حشواً في الكلام مستهجنا ودليلا على فقر في الفكر والخيال ولكن اذا كان المقال يستدعي ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن وقد يكون مطلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التي بينها . كذلك الكاتب المجيد لايضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال ان يميزه بصفة مطابقة للواقع على ان الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعوّلون في الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ماخفي من اعصابه وسبر غور احشائه والتسمع على نفسه لادراك مايدب فيها من النزعات والخواطر والاميال والحركات ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارىء أو السامع صورة كاملة وشعوراً تاماً وأثراً باقياً

ما رأيت جنازة مسلم الا أخجلني منظرها . هذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولها الاطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الارض . وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت — وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً وليس فيهم الا الاعمى والاعرج والاعور ويمشون بسرعة غير منتظمة لابسين ثياباً قذرة صائحين بأصوات مزعجة . كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة — وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين وتارة الى جهة الشمال وأحياناً يطير في السماء ان كان من الاولياء المقربين !

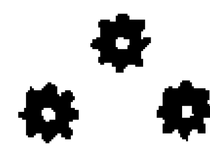
وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن وعفرن بالتراب رؤوسهن يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة — ما هذا كله ؟ أجمع مجانين أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال

في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك ولا

ينقصها الا أمر واحد وضعت لاجله هو اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون



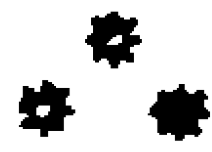
لما كنت في الاستانة توفي في الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقاً لبيتنا فلم نسمع عويلاً ولم نشعر بحركة غير اعتيادية وفي الضحى خرج النعش ونقل الميت الى القرافة مشيعاً بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة على النبي بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رؤوسهم فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت الى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم



دعينا للعشاء عند م . باشا وكنا ستة أو سبعة من الاصحاب مسرورين باجتماعنا مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف وبينما نحن متجهون الى قاعة الطعام اذ دخل علينا زائر من المشايخ فاضطر صاحب المنزل الى أن يدعوه الى الاكل معنا فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان وكان أول الجالسين .

جلس على الكرسي القرفصاء فانفح قفطانه وظهرت سراويله ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برماً محكماً فانكشف الساعد الى المرفق فتمثل لي جالساً في مكان من الميضاء يستعد للوضوء . اشتغل بالاكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه على ملابسه وكان يلقي العظام على مفرش المائدة فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها نضلات الاكل فيقذفها من فيه بقوة يميناً وشمالاً

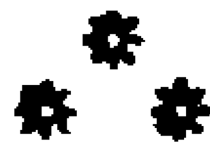
وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا — آه يا عيني — وقام واضعاً يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت في عينه فتأملنا فلم نجد فيها أثراً فضحك وقال انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر



كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال وفكروا في

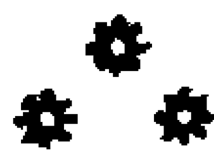
وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء مؤملين ان يجدوا الاصلاح الكبير

مثلهم كمثل ساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير اثاث البيت ورتبه على غير الشكل الاول — تعب ضائع



بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن انه يمكنها أن تأتي بنفسها كل ما تراني أعمله فاذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الارض لأقبلها تقول لي أنا أيضاً أرفعك وتمسكني بيديها من أفخاذي وتجهد نفسها حتى يختقن وجهها لتحملني كما حملتها

واذا رأت أن رجلاً عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل — كذلك الرجل الجاهل يخيل له أنه كفء لاصعب الاعمال ومستحق لأعظم المناصب ومساوٍ لأرقى الرجال . يظن انه منح استعداداً فطرياً يجعله قديراً على كل شيء . يظن انه يطيق كل ما يريد



كنت في ليلة فرح وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رأيت من نوعها. أنفق فيها الذهب بلا حساب — وعند الساعة العاشرة دخل العروس وصدحت الموسيقى اعلاناً بذلك فقلت لصديق كان جالساً بجانبي : هذا اعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين كان من حسن الذوق أن يبقى مستوراً . وما أحسن ما اعتاده الغربيون فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد ويغيبان عدة أسابيع فوافقني صديقي على ذلك ثم قال : أتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئاً رأيته بعيني قلت نعم فقال

كان سني لا يتجاوز تسع سنين ولا تزال صورة الواقعة التي سأقصها الآن محفوظة في ذاكرتي كما لو كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئاً فشيئاً لحفلة كبيرة نصبوا من أجلها سرادقاً واسعاً ووضعوا فيه الكراسي المذهبة وعلقوا البيارق والنجف وكل يوم يمر يزيد في رونق الزينة وترتيبها فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع وصدحت

نغمات الموسيقى وتقاطرت وفود الرجال والنساء الى البيت يدخلون فيه أفواجاً فيجلس الرجال في الصيوان وتختفي النساء في بيت الحريم الذي كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه . ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلاً من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعاً فرحين بهذه المناظر البراقة والأنوار الزاهية والاضواء المنتشرة نجلس ونقوم ونجري ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الاصوات وضياء الأنوار

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة دخل الى البيت ودخل وراءه بعض الاولاد وكنت من بينهم فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الاول مملوءة بالنساء وهنّ يتزاحمن للوصول الى الصف الاول ليشاهدن العروس داخلاً . وكان أحد أقاربه ماشياً أمامه فصار يدفعهنّ بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل الى غرفة عروسه فأدخل فيها وأقفل الباب عليه وحينئذ وقف النسوة أمام الباب كأنهنّ يترقبن حادثاً كبيراً وهذا لم يمنعهنّ من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير

منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ومن حين الى حين تنادي احداهنّ (هس يا ستات) وتستمر هي في الكلام اكثر من غيرها . ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدري . ثم سمعت صياحاً متكرراً أنى من داخل الغرفة فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء وما زال يتضاعف حتى أدى بهن الى الدق على الباب وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عاري الرأس بارق العينين محتقن الوجه وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاماً شديداً مصحوباً باشارات الغضب ومن وقت لآخر كان يقول ماذا أصنع . . لا أقدر . . وبعد مداولة صغيرة رجع ودخل وراءه المرأتان وتبعه الجيش الذي كان واقفاً وراء الباب مدفوعاً كالسيل وقدجريت معهم حتى صرت قريباً من السرير فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت وقبضت احداهما على ذراعيها والاخرى على فخذيها فزاد صياح البنت وبكاؤها وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء رأيتها بعد ذلك ملوّثة بالدم فخرجت هارباً من هذا المنظر الشنيع لا أشك أنهم ذبحوها



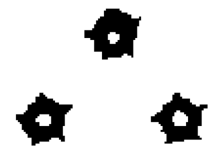
في عهد الاستبداد في الوقت الذي كانت فيه كلمة من محمد علي أو اسماعيل تكفي لاعدام من يغضب عليه أو ارساله الى البحر الابيض في تلك الايام السوداء التي كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ولم يكن لأحد مهما كان مقامه في الوجود ضمانة تحميه في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم — من ينظر نظراً سطحياً يظن أننا بلغنا من استقلال الرأي مبلغاً لا ينافسنا فيه أحد حيث لا يجد من الامة أدنى أثر للخوف من الحكومة بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاماً وانه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم اللهم الا اذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة

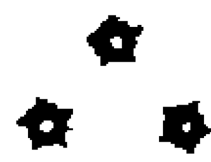
ولكنه اذا حقق النظر لا يلبث ان يرى ان حرية الانتقاد

لم تستعمل الى الآن في أعمال الحكومة الا لان هـذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم

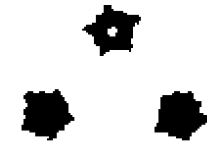
أما المسائل الاخرى الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالاحوال الشخصية والعادات والاخلاق فلم يتجه فكر الباحثين الى انتقادها فهل لم ير أحد منهم فيها عيباً ينتقد ؟ كلا وانما هم يرون العيوب ولا يجرأون على اظهارها



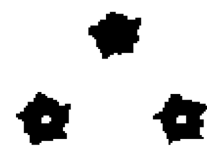
قال أحد أعيان الاقاليم في هذه الايام التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده أحد من الامراء والذوات وكبار الموظفين والاغنياء المقيمين في العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزأ من مغارمها يجب على عمد القرى وأعيانها ان ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم يسمونها جمعيـة منكوبي المشروعات الخيرية



كلما قدرت على ان أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدواً جديداً



أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل



أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليه لذتها و ينغص عليه شهوتها

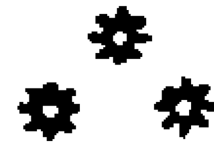


ليس في مصر عالم محيط بجميع العلم الانساني وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص في العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون — والحقيقة المجردة عن الاوهام والاغراض ان كل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الاجنبي وعلى رغم أهلها



زارني أحد أصحابي وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم في هذه السنة دروسه وطلب مني ان أتوسط له ليحصل على وظيفة فمددت يدي الى هـذا الشاب مسروراً فوضع فيها يدا فاترة وسحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن ان يجلس على « الكنبا » التي أردت ان أخص قريبه بها وقبل ان يجلس شمر بنطلونه بعـد ان تحقق من انتظام ثناياه ثم قعد ووضع رجلاً على الاخرى . سألته عن الوظيفة التي يرغبها فعلمت انه يريد ان يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهاً في الشهر فافهمته انه يطلب المحال وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب فلم يقتنع وأخذ يقيم الادلة على ان الحكومة اذا شاءت يمكنها ان تعينه بطريقة استثنائية فقلت له ولكن ما هي المسوغات التي تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب ان تتمتع به فقال كفاءتي فقطعت عليه الكلام وكررت له ان طلبه غير مقبول فحول وجهه عني وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت الي وقال « ممنون نهارك سعيد » وخرج وتبعه قريبه بعد ان اعتذر لي بكلمتين فلما خرجا سرح فكري فيما سمعت

ورأيت وتأملت في حال هـذا الشاب ووردت على خاطري أحوال أخرى وقعت من أمثاله معي ومع غيري أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شباننا تجعلهم صنفاً خاصاً لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضي التي عاشرت كثيراً من أفرادها ولا الشبيبة التي عرفتها في البلاد الغربية واختلطت بها زمنا — هذه الواقعة حركت في نفسي حياتي الماضية ومثلت في ذاكرتي صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشاب في هـذه الايام وانما الفرق هو ان الشيء القليل الذي يتعلمه الشاب في هذا الزمن يتورم في مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل انه يحمل كنوز السماوات والارض

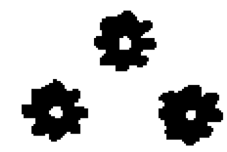


العقل والجنون شيئان متضادان ولكن حدودهما متجاورة مختلطة. وفي الحقيقة لا يعرف أحد أين ينتهي العقل وأنى يبتدئ الجنون . ان كان التوازن بين قوى النفس هو علاقة العقل فالنبوغ في المدارك والخيال يكون غالباً نتيجة اختلال في هذا التوازن

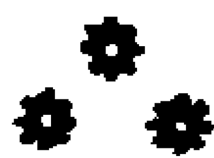
يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال بشذوذ في الاخلاق أو ثوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية أو افراط معيب في تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ في الحواس عن القوانين الطبيعية أو باي أمر آخر يكون عنده مخالفاً أو زائداً عما تشاهد عند متوسطي الحال في الذكاء والاحساس

ربما كان الابداع في الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الاعصاب والجهد في توليد المعاني من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذي يجعل النابغة انساناً غريباً زائداً من جهة وناقصاً من جهة أخرى

بهذا قضت القدرة البصيرة اذ وضعت ميزانيتها على أتم قواعد الاقتصاد فاذا جاوزت الحد المقرر في منح قوة عوضته بالتضييق والتقتير في قوة أخرى

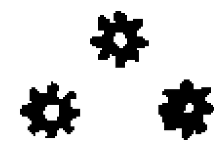


معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر



العقل والادراك والنفس ألفاظ لا تدل على أشياء حقيقية بل وضعت لملكات كان يتوهم وجودها بالذات في زمن كان العلم فيه قاصراً يستمد مادته من الخيال ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعاني الى الفهم

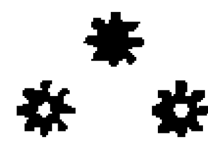
والحقيقة ان البحث العلمي لم يجد في الحياة الفسيولوجية الا خلايا متنوعة قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا أخرى



اذا قدم البخت انساناً من غير معنى انساناً لا ينفع ولا يضر . لا يفكر ولا يعمل يدور مع الحوادث دائماً ولا يديرها يوماً انساناً لا طعم ولا لون له تحمله الناس ورضوا عنه وانما يتحمسون بالبغض والعداوة اذا صادف البخت انساناً مستحقاً .

لم ذلك ؟ لأن الاول منهم وقريبهم يعرف اسانهم وطرق معاملاتهم فيحصل لهم أنس بوجوده واطمئنان على آمالهم ومطامعهم أما الثاني فهو أجنبي عنهم لا يجمعه بهم شبه في الخلق ولا في الفعل فيحصل لهم وحشة بوجوده ويشعرون بأنه حائل بينهم وبين أغراضهم

أجمل الفعال تتغير وتفقد قيمتها اذا وقعت على شكل غير مستحسن . يكره الرجل الفاضل ولا تثمر أفكاره مهما بلغت من العلم والحكمة اذا خاطب الناس مظهراً الاعجاب بنفسه والثقة في عصمته من الخطأ . ويبغض الصديق المخلص اذا خالف الذوق السليم وحسن التربية في حديثه ومعاملته مع من يحبهم . ويضيع عمل المحسن اذا اقتصر على بذل ماله ولم ينفق معه شيئاً من قلبه فان الناس لا يسألون كم أعطى وانما يسألون كيف أعطى . وفي الحقيقة ان طريقة العطاء هيَ في الغالب أحسن مما يعطى



١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي :

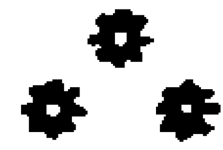
رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية في الايدي وفي الاصوات . كان الحزن على جميع الوجوه. حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات

متقطعة وهيئة بائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما كانت أوراح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة

ولكن هـذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل انسان

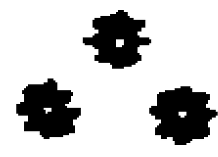
أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر

هذا الاحساس الجديد . هذا المولود الحديث الذي خرج من احشاء الامة من دمها وأعصابها هو الامل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة . هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل

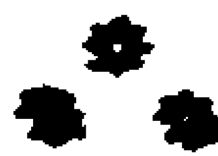


أكثر النـاس لا يفهمون من الحب الا انه تمتع يشبه أكلة لذيذة اذا حضرت أكلوها هنيئاً واذا غابت استعاضوها بغيرها. والحقيقة انه احساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج

العليل الى الشمس والغريق الى الهواء. نار تلهب القلب لا يطفيها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا . ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الاخص في الاكل وفي النوم وفي الشغل . ويجعله غير صالح لشيء سوى انه يقضي أوقاته شاخصاً الى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها واشاراتها وكلماتها . نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل انه ماش في طريق مغروس بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق قريب السماء . في هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من أكبر ملوك الارض فاذا انقضت عاد الى ما كان فيه من العذاب والالم



كل مذهب جديد يكره من أجل الحقيقة التي يحتوي عليها . ومع ذلك فانه لا يعيش الا بهذه الحقيقة



كلما أراد الانسان ان يعبر عن احساس حقيقي رأى بعد

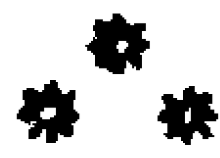
طول الجهد وكثرة الكلام انه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ووجد ان أحسن مافي نفسه بقي فيها مختفياً

لتصوير احساس كامل وتمثيل أثره في صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ألفاظ غير العتيقة البالية. يلزم اختراع ألفاظ جديدة



أول الحب هزل في الغالب وآخره جد

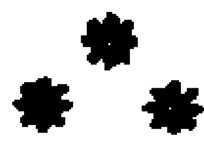
فاذا كانت علاقات الحبيبين ترمي الى اختلاط الارواح وتعانق النفوس واختيار الرفيق الوحيد كانت هذه الغاية الشريفة دليلاً على رقي الاخلاق وعلو الشعور ومنبعاً مستمراً ينفجر منه الخير لهما ويفيض على الناس. لم ذلك ؟ لان العشق هو الاخلاص وبذل النفس للغير وذلك هو كل ما تبتغيه التربية الادبية



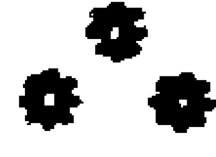
قلما توجد حقيقة لا يختلط بها بعض الخطأ . وقلما يوجد خطأ لا يختلط به بعض الحقيقة . لذلك يجمل بنا أن نسمع كل قول

— ٥٩ —

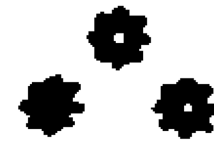
أكبر سرور السرور الوحيد الذي يخفف عن الانسان حمل الحياة ويرغبه في بقلها وينسيه الزمن والساعة ويجعله يتمنى ان يحكم عليهما بالوقوف هو ان يوجد في بيت صديق عزيز ويجلس على كرسي يستريح فيه محاطاً باشياء اعتاد ان يراها بنظره ويلمسها بيده وفي هذا الجو الذي يشرح صدره ويسكن أعصابه يقضي زمناً من الليل في احراق سجائر وهو ينظر الى الدخان الذي يتصاعد منها الى السقف يتحدث مع أشخاص يحبهم فيخاطبهم ويسمعهم بلا تكلف ولا تحضير ولا حساب يفتح قلبه ويفرج عن احساساته المحبوسة ويترك زمام عقله فيسير على هواه يمشي ويرمح وينط فرحاً بحريته في اختلاط الافكار وائتلاف القلوب يجد على هذا الشكل لذة مسكرة لا شبيه لها



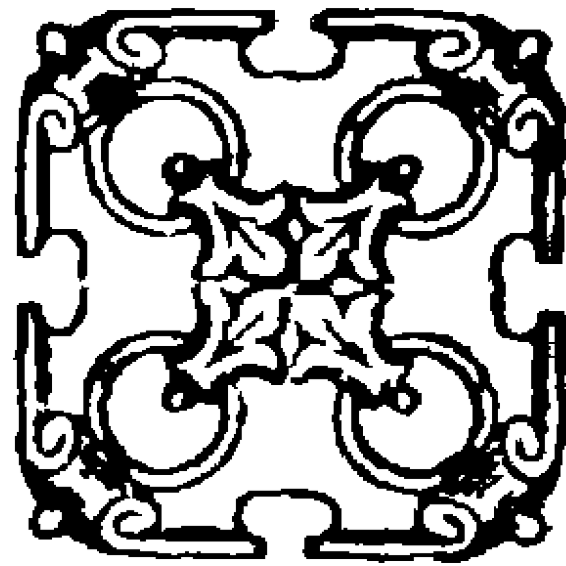
أسهل الطرق للتقدم وأكثرها استعمالاً هو أن يترقب المترشح عربة تجر رجلاً يشغل مركزاً عظيماً ويرمح وراءها ويتعلق في عجلتيها الخلفيتين ولا يتركها مهما سب أو ضرب بالكرباج حتى يصل الى المحل المقصود



تجري أمور الدنيا كأن القدرة الالهية لا تلاحظها أو كأنها تحابي الجبناء وتبارك في أعمالهم وأعمارهم وأموالهم وذريتهم



النفس الضعيفة تنحني للقوي وتنكمش أمام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة وبعكسها النفس القوية تجد في اظهار جرأتها على هؤلاء وأمثالهم منفذاً يخرج منه ما يزيد عندها من القوّة عن حاجة حياتها



الفهرس

الصفحة

المصريون

(الرد على دوق داركور)

أسباب ونتائج

أخلاق ومواعظ

تحرير المرأة

المرأة الجديدة

كلمات

قاسم أمين





مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة